مختارات من النثر العربي

د. وداد القاضي



د. وداد القاضي

مختارات من النثر العربي

الغلاف: حلمي التوني

مختارات من النثر العربي

«إن الدوافع التي حدتني إلى صنع هذه المجموعة من المختارات كثيرة متعددة، ولكنها ـ على تعددها ـ تنبع في الأساس من منبع واحد هو حرصي على إبقاء الوشيجة الطبيعية قائمة بين الشاب العربي والأدب العربي ـ قديمه وحديثه ـ إذ تكاد الجفوة أن تقوم بينهما، محدثةً هوّة تتسع على مر الأيام، ويعمل في توسيعها نزوع نحو «التغريب» في ثقافتنا العامة وفي مناهجنا الدراسية. ويرافق هذا التغريب ترويج مضلل يقوم به نفر من الأدباء والمفكّرين أخذوا منذ نصف قرن أو يزيد ـ بعد أن تلقّوا ثقافتهم في البلاد الأجنبية ـ يرفعون من شأن الآداب الاجنبية ويحطّون من شأن الأدب العربي والثقافة العربية، مدّعين أنهما مقصّران في الفكر وفي العبارة وفي الأسلوب.

وليس الردّ البالغ على هؤلاء المغرّرين بانتحاء الجدل النظري، وإنما هو بتقديم أمثال هذه المختارات التي تُظهر ما في التراث العربي من مستويات أدبية فنية فكرية ثقافية عالية، يمكن أن تقارن ـ دون تردّد ـ بأرقى الآداب العالمية الأخرى»

وداد القاضي

الثمن ٤٠ ل.ل

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي . بيروت . ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

د. وداد القاضي

مختارات من النثر العربي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الاولى

١٤٠١ هـ = ١٩٨٠ م

تقديم

إن الدوافع التي حدتني الى صنع هذه المجموعة من المختارات كثيرة متعددة، ولكنها - على تعددها - تنبع في الأساس من منبع واحد هو حرصي على إبقاء الوشيجة الطبيعية قائمة بين الشاب العربي والأدب العربي - قديمه وحديثه -، إذ تكاد الجفوة أن تقوم بينهما، محدثة هوة تتسع على مر الأيام، ويعمل في توسيعها نزوع نحو «التغريب» في ثقافتنا العامة وفي مناهجنا الدراسية. ويرافق هذا التغريب ترويج مضلل يقوم به نَفَر من الأدباء والمفكّرين أخذوا منذ نصف قرن أو يزيد - بعد أن تلقوا ثقافتهم في البلاد الأجنبية - يرفعون من شأن الآداب الأجنبية ويحطون من شأن الأدب العربي والثقافة العربية، مدعين أنهما مقصران في الفكر وفي العبارة وفي الأسلوب.

وليس الردّ البالغ على هؤلاء المغرّرين - عن حسن نية أو سوء نية - بانتحاء الجدل النظري، وإنما هو بتقديم امثال هذه المختارات التي تظهر ما في التراث العربي من مستويات أدبية فنية فكرية ثقافية عالية، يمكن أن تقارن - دون تردد - بأرقى الآداب العالمية الاخرى: وأنا على مثل اليقين بأن الشاب العربي إذا قرأ هذه المختارات، وأحسن قراءتها، وأجاد تمثُّلها، وتأمل في مشارف الفكر التي تحاول أن تبلغها، زالت غشاوة التغرّب عن عينيه، وحلّت محلها «أُلْفة» لهذا الأدب، وتقدير له، وتطلّع الى المزيد منه.

ولقد وجّهني ذلك الدافع الأساسي في جمع هذه المختارت نحو

تعقب كثير من المختارات التي وضعت من قبل – في هذا الميدان – ودراسة مستواها ومجالاتها وموضوعاتها ومدى ما تستطيع أن تحققه في خدمة التراث العربي، فوجدتها – على تفاوت بينها، وعلى تقديري لجهود من قاموا بها – لا تفي بالغرض الذي أرمي اليه، إذ تفتقر في معظمها الى رؤية أوفلسفة واضحة في الاختيار، وبعضها يقتصر على فنون أدبية معيّنة دون غيرها، وبعضها الآخر يجمع قطعاً متفاوتة بين الطول المسرف والقصر المسرف، وقد يعنى بعض منها بالأدب الخالص من غير اهتمام بالمحتوى الفكري والإثارة الفكرية الناجمة عن ذلك المحتوى، والاتجاه نحو ربط الأشباه والنظائر ورؤية المفارقات في سياق فكري كبير، كما أن بعضها لا يتجاوز الادب الحديث أو لا يتجاوز الأدب القديم، وهما – فيما أرى – سياق متكامل متدرّج ليس في حلقاته انقطاع.

لهذا حرصت في أثناء الاختيار على تطلب القطع التي تجمع بين الارتفاع بالفكر الى المستوى الانساني، وبين القدرة التعبيرية عن شتى ضروب النشاط الأدبي، وبين الإشراق في الأسلوب، مع أكبر قدر من السلامة في اللغة والنحو، ومن المتانة في التركيب، ومن الدقة في التعبير، ومن البساطة الفنية التي لا تنحطُّ إلى الإسفاف ولا ترتفع إلى مستوى التعقيد وتطلّب الغريب أو البهرجة اللفظية؛ وفي هذه الشرائط جميعاً يتساوى الأدب القديم والأدب الحديث.

وعلى هذا الأساس من الرؤية الشمولية للأدب العربي جاءت هذه القطع منتقاة من ميادين مختلفة، فيها التاريخ والجغرافية والعلم الطبيعي والأسطورة والفلسفة والأخلاق، لأنني وجدت أن ما أتطلبه لتحقيق الغرض الأسمى من هذه المختارات لا يوجد وحسب فيما يمكن أن يسمى «الأدب الخالص» – قديمه وحديثه – وإنما هو متوافر في شتى ميادين الثقافة العربية، وفي الفترات التاريخية المتباينة، ولدى كتّاب ينتمون الى مختلف الأقطار العربية. ولهذا تجاوزت المختارات في

هذه المجموعة نطاق الأدب والفكر في مصر ولبنان – كما فعلت معظم كتب الاختيار السابقة، لتضمّ إليها «الجيّد» بل «الرائع» من جميع أقطار العالم العربي في القديم والحديث.

وقد حاولت أن أنتقي قطعاً متوسطة في الطول، كي يتمكن القارىء من أن يجد فيها مجالاً كافياً للاثارة الفكرية والاستمتاع الفني من دون أن يصل به الأمر الى حد الارهاق أو الملل. واقتصرت في الاختيار على النثر دون الشعر لأنهما في النهاية عالمان مختلفان – على أوجه اللقاء بينهما – وكلٌ منهما يتطلب استعداداً مختلفاً لدى الدارس، ووسائل نقدية متباينة لدى الناقد. ومن أجل ذلك اقللت في هذه المختارات من القطع النثرية ذات المحتوى الشعري، فتلك منزلة بين المنزلتين، تضيع فيها صبغة الانتماء، كما تتعذر المعايير الموضوعية لدراستها ونقدها.

ولمّا كان همّي الأكبر موجّهاً الى انتظام القطع المختارة في إطار رؤية فكرية واضحة – بعد استيفائها الخصائص التي ترشحها للاختيار – وجدتني اختار لها بنية خاصة قائمة على ثلاثة موضوعات كبيرة، تشكّل في مجموعها الضروب الكبرى الأساسية لمجالات التعبير الانساني وهي: **التجربة الفردية والتجربة الجماعية وآفاق المعرفة.** وتحت الموضوع الكبير الأول يندرج عدد من الموضوعات التي تدخل في نطاق تجربة الفرد، مثل موضوع السيرة الذاتية، وموضوع علاقة الآباء بالأبناء، وموضوع موقف الأفراد من الحب، وموقف الأفراد من الموت، ولكل من هذه الموضوعات نماذج كثيرة في أدبنا قديمه وحديثه. وتحت الموضوع الكبير الثاني يندرج عدد آخر من الموضوعات التي تتحدث عن هذه الجماعة البشرية أوتلك وتجاربها الانسانية الاجتماعية المختلفة، وتحته يدخل أيضاً: البعد التاريخي أو المنظور التاريخي، ثم ما تَصَوّره المفكرون أو الأدباء العرب أو تطلّعوا إليه من نماذج الكمال. أما الموضوع الكبير الثالث – وهو آفاق المعرفة – فقد

اخترت فيه مجموعة من القطع التي تعبّر عن آفاق الطبيعة، والعقل، والروح، والفن، والتعلم، وقد عالجها الكتّاب العرب عبر العصور في أشكال فنية متنوعة.

ثم وجدت أن هذه المختارات - إذا وضعت بين يدي الطالب على وجه الخصوص، فلا بد من أن تشفع بمناقشات وتمرينات، تكشف عما في القطعة الواحدة من «أبعاد» وتربط القطع بعضها بالبعض الآخر، وتثير القارىء الى التفكير في القضايا الفكرية المطروحة وتحليلها؛ ومن هذه التمرينات ما يعتمد المقارنة بين موقفين فكريين - أو أكثر - عَرَضَها غير واحد من الكتّاب. ولا ريب في أن المقارنة مجال مفيد لتوجيه القارىء الى مزيد من التعمق والتأمل، ولعله في بعض الأحيان أن يحدد له طريقاً أو يتخذ موقفاً خاصاً بين مختلف المواقف إزاء القضية المطروحة.

وليس في المناقشات والتمرينات أسئلة في اللغة والصرف والنحو. ولكن هذا لا يعني قطّ إغفال هذه العلوم التي لا بدّ منها لفهم النصّ بدقة، وإنما يعني أمراً واحداً وحسب وهو أنني أرى هذه العلوم مفيدة بقدر ما هي متصلة بالنص، إذ هي - في نظري - علوم تطبيقية في المقام الأول، وخاصة منها النحو، ولا أتصور أبداً أن تدرس هذه القطع من دون أن يتعرض فيها الطلاب لهذه العلوم جميعاً، بل على الأستاذ نفسه في كل قطعة تطرح مسائل لغوية وصرفية ونحوية أن يوجه نظر الطلاب اليها، ويحاورهم فيها، ويعينهم على فهمها، وهذا مجال متسع جداً لا يمكن أن يحيط به أي عدد من الأسئلة مهما يكثر عدده.

وتبلغ القطع المختارة في هذه المجموعة خمساً وسبعين قطعة، في كل قطعة منها - على تفاوت بينها - مجال واسع لنواحي التحليل الفكري والتمرين اللغوي والنقد الفني. وهذا يعني أن هذه المختارات إن وُضعت للتدريس، فليس في الإمكان أن تُسْتَوْفَى جميعاً في سنة

دراسية واحدة، فضلاً عن أن تُستوفى في فصل دراسي واحد. ولهذا يستطيع الاساتذة الذين يقومون بتدريس هذه المختارات أن يقتصروا إذا شاءوا على دراسة موضوع واحد من الموضوعات الكبيرة الثلاثة (التجربة الفردية - التجربة الجماعية - آفاق المعرفة)، في أثناء فصل واحد، أو قد يتوجهون لدراسة باب واحد من هذه الموضوعات الكبرى، أو قد يذهبون الى اختيار قطعة أو قطعتين من كل باب داخل هذه الموضوعات جميعاً، وكل طريقة من هذه الطرق لها مميزاتها، وجميعها يوفر مجالات متعددة للخروج بأسئلة عامة واخرى مقارنة. فمن يتوفر على دراسة النماذج المختارة من السيرة الذاتية - مثلاً - لا بد أن يتوقف بعد الانتهاء منها جميعاً للتساؤل عن العناصر المشتركة بين هذه النماذج في «فن» السيرة الذاتية، ثم للتساؤل عن العناصر المميزة لكل كاتب في هذا الفن. ومن ركز على دراسة الوضع الانساني والاجتماعي - ضمن موضوع التجربة الجماعية - فلا بد له من أن يجد قضايا كثيرة مشتركة يطرحها الكتّاب المختلفون ويقفون منها مواقف مختلفة، مثل: الريف والمدينة - القانون والعدالة - المجتمع والدولة - العلم والخرافة - الصراع بين الحضارات... الخ. ومن ذهب الى التركيز على البعد التاريخي لا بد أن يخرج بأسئلة كثيرة عن أثر انتماءات المؤرخ فيما يكتبه، وأثر العصر في المؤرخ، والفرق في قيمة التأريخ حين يبنى على قواعد فلسفية وحين لا يكون كذلك؛ وشبيه بهذا حال من ركّز على القطع المختارة ضمن أفق الفن، ولعل هناك من يود أن يقارن بين القضايا التي تطرحها القطع هنالك وتلك التي تطرحها القطع في افق العقل، أو في أفق الروح - الى غير ذلك مما يسمح به تعدد القطع في هذه المختارات.

وبعد: فإن هذه المختارات تمثل عملاً اجتهادياً متواضعاً، يدين بالفضل الى كثير من الملاحظات القيمة التي تفضّل زملائي في دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى بالجامعة الأميركية في بيروت

بتقديمها إلي أثناء وضع هذه المختارات موضع التجربة في تدريس طلاب السنة الجامعية الثانية بالجامعة المذكورة لمدة سنتين متواليتين (١٩٧٨ - ١٩٨٠). وأود أن أخصّ بالشكر منهم أستاذيَّ الكريمين الدكتور محمد يوسف نجم والدكتور إحسان عباس. أما الاول فإنه نبهني الى بعض مواطن الضعف في المختارات في صورتها الأولى، ولفت نظري الى قطع جيدة من الأدب الحديث لم أكن قد اطلعت عليها؛ وأما الثاني فإن تشجيعه المستمر لي، وإحاطته هذا العمل بعناية متواصلة هو الذي حفزني الى إخراجه مطبوعاً، لتتجاوز فائدته - فيما أرجوه له - نطاق الجامعة الى نطاق عربي واسع. كذلك أودّ أن أشكر ثلاثة من طلابي، يعملون الآن لنيل الماجستير في الادب العربي في الجامعة الأميركية، وهم الآنسة وداد سليم الحصّ والسيدة نجاح عطية حوا والاستاذ ماهر زهير جرار، إذ إنهم عملوا معي - بإخلاص فذ ودأب لا يعرف الكلل - في استدراك اللمسات الأخيرة لهذه المختارات قبل إرسالها للطبع، ثم اشتركوا معي في تصحيح تجاربها المطبوعة.

وإنني سأظل - على أية حال - أعدّ هذه المجموعة اجتهاداً أتحمّل وحدي تبعة ما فيه من خطأ أووهم، ولست أعدّها اختياراً قاطعاً لا قبل به للتبديل والتحسين والإضافة والحذف، بل أجدني مدينة بالشكر لكل من يبعث إليَّ بالملاحظات والمقترحات التي تكفل لهذا العمل مزيداً من الدقة والشمول؛ والله الموفق دائماً وأبداً.

الجامعة الأميركية في بيروت
في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٨٠

وداد القاضي

مقدّمة

من توفيق الحكيم إلى اندريه*

عزيزي «أندريه»...

إني الآن غارق في الأدب العربي... أريد أن أدرس قضيته من أساسها... أريد أن أعيد النظر في أمر اللغة العربية - لغتي - وأكشف أسرارها وأضع إصبعي على مواطن ضعفها وقوتها... هذا الوقت هو خير وقت أستطيع فيه أن أرى وأميّز وأحسن الحكم؛ فلي عينان قد طافتا - منذ أمد ليس بالبعيد - بمختلف الآداب العالمية، ولقد نجحت فكرتي حقا... إني أقرأ نصوص هذا الأدب في عصوره المتعاقبة بعين جديدة، عين عامرة بالصور، حافلة بالمقارنات، وبنفس رحيمة عادلة صابرة، تلتمس العلل والأسباب، وتطيل التريث والبحث، قبل أن تصدر الأحكام!...

قبل كل شيء أحب أن أقول لك إن أولئك الذين علمونا اللغة العربية، في المدارس الابتدائية والثانوية، كانوا يجهلون لا معنى اللغة العربية وحدها، بل معنى اللغة على الإطلاق... إنك لن تجد مستنيراً في مصر لا يقول لك إن اللغة العربية - للأسف - قاصرة عن التعبير في شتى ضروب العلوم والفلسفة والتفكير العالي، بل منهم

(*) من كتاب زهرة العمر (المطبعة النموذجية، القاهرة) ص ١٧٤ - ١٨٤.

من يقول إنها ليست لغة تفكير، إنما هي لغة بهرج[1] وتنميق. لماذا؟... السبب بسيط: هو أن النماذج التي وضعت في أيدينا - ونحن صغار - للبلاغة في اللغة العربية، كانت كتبا غثّة[2] المعنى متكلفة المبنى، لو كتب بها شخص اليوم لأثار سخرية الناس!... نعم... إنهم يعلموننا في المدرسة لغة إذا استعملناها في الحياة ضحك منّا الناس!

كان «جويو» يقول: إن الرشاقة في فنّ الرقص هي أداء الحركة الجثمانية العسيرة دون تكلّف يشعرك بما بذل فيها من مجهود... تلك أولى خصائص الأسلوب السليم في كل فن... حتى الحاوي الماهر هو ذلك الذي يخفي عن الأعين مهارته، ويحدث الأعاجيب في جو من البساطة والبراءة... لعلّ الكاتب الوحيد الذي ضربوه للطلاب مثلاً فصدقوا هو «ابن المقفع»[3] في ترجمته «كليلة ودمنة». هذا كاتب تصنّع في أسلوبه هو الآخر، ولكن بخفة ومهارة، وطلاه وجمّله ولكن بذوق وكياسة، فلم يبدُ عليه سماجة التكلّف ولا ثقل الصناعة!...

إن «ابن المقفع» يجهد في أسلوبه ليخفي أثر الجهد... إنه تلك الراقصة الرائعة التي تخفي حركاتها العسيرة فلا تبدو لنا منها إلا تموجات رشيقة يسيرة... هذا الكاتب هو على كل حال مثل طيّب للصناعة في الكتابة... على أنّك إذا أردت أن تعرف حقا جلال اللغة العربية في بساطتها وسيرها قُدُماً نحو الغرض: فاقرأها عند الفلاسفة والمؤرخين العرب... أولئك عندهم حقيقة ما يقولون؛ فهم لا يضيعون أوقاتهم وأوقاتنا في العبث اللفظي والطلاء السطحي، إنما

(١) البهرج: الرديء من الدراهم وغيرها؛ والكاتب هنا يعني أنها لغة رونق زائف.
(٢) الغث: الرديء من كل شيء، أو الهزيل (وضده: السمين).
(٣) عبد الله بن المقفع (-١٤٢/٧٥٩)من أصل فارسي مجوسي، عرف بالترجمة عن الفارسية، وله أيضا من الكتب: الأدب الكبير.

هم يحدثوننا في شؤون فكرية واجتماعية وأخلاقية ودينية في لغة سهلة مستقيمة، لا لعب فيها ولا لهو ولا ادعاء...

إني لأدهش كيف أن مؤلفين مثل «ابن خلدون» و«الطبري» و«ابن رشد» و«الغزالي»[1] لم يُعرَضوا علينا قط في دراساتنا للأدب العربي بالمدارس؟!... كيف نعرف لغة دون أن نطالع فلاسفتها ومؤرخيها؟... أنستطيع معرفة الفكر اللاتيني دون أن نقرأ «سنيكا»[2] و«مارك أوريل»[3] و«تيتوس ليفيوس»[4] و«كورنليوس تاسيت»[5]؟!... لو انه عرضت علينا صفحة واحدة مع شرحها، لكل فيلسوف بارز، ومؤرخ مشهور من فلاسفة العرب ومؤرخيهم، لتغيّر رأي أكثر المستنيرين عندنا في اللغة العربية، وقدرتها على التعبير عن أدق الأفكار وأعلاها وأعمقها وأنبلها... أوَ ليس بهذه اللغة نقل «ابن رشد» و«ابن سينا» أعمق آراء فلاسفة الإغريق إلى أوروبا المتعطشة للمعرفة؟!... أنتم معشر الفرنسيين فعلتم ذلك في تدريس الأدب الفرنسي!

ما من كتاب مدرسي - صغر أو كبر - لا يذكر فيه نماذج من أسلوب «مونتاني» الفلسفي، وأسلوب «روسو» الاجتماعي و«بوسويه» الديني و«فولتير»[6] التاريخي؛ بل حتى أسلوب «موليير»[6] الفكاهي

(١) انظر التعليقات في آخر الكتاب للتعريف بابن خلدون والغزالي وابن رشد، أما الطبري فهو أبو جعفر محمد بن جرير-(٣١٠/٩٢٣) المؤرخ صاحب كتاب «أخبار الرسل والملوك» والمفسّر الذي ألف «جامع البيان في تفسير القرآن».
(٢) سنيكا (Seneca) - ٦٥ ب. م.: فيلسوف رواقي روماني، كان مؤدبا لنيرون وهو الذي حكم بقتله.
(٣) مارك أوريل (Marcus Aurelius)١٢١ - ١٨٠ ب. م.: امبراطور روماني كان رواقيًا وله كتاب «التأملات».
(٤) تيتوس ليفيوس (Titus Livius): مؤرخ روماني توفي سنة ١٧ ب. م.
(٥) كورنيليوس تاسيت (Cornelius Tacitus): مؤرخ روماني توفي حوالي سنة ١٢٠ ب. م.
(٦) مونتاني (Montaigne): أديب فرنسي من كتاب المقالة (- ١٥٩٢)؛ وروسو (Rousseau) جان جاك (- ١٧٧٨): فيلسوف ذو مؤلفات عديدة؛ وبوسويه (Bossuet) (- ١٧٠٤): =

أحيانا إلى حدّ التهريج!... ذلك أن المدارس الفرنسية أدركت أن تدريس اللغة يجب أن يشمل كل نواحي التعبير بها... أما قَصْرُ تعليمها على نماذج البلاغة اللفظية الجوفاء، فهو امتهان لكرامة اللغة وانتقاص من قدرتها على الأداء!...

في العربية كاتب متعدد النواحي، له باع طويل في الجدّ والهزْل، هو «الجاحظ»[1]... هذا أيضا لم نقرأ له سطراً في المدارس... كل كاتب عربي بسيط الأسلوب نافع لنا في الحياة يُقصونه عنا إقصاء بحجة أنه غير بليغ، ويأتون الينا بالكاتب الذي لا ينفع في حياتنا إلا نموذجا لإثارة السخرية. حتى الشعر وهو مفخرة اللغة العربية، الشعر الذي كان يجب أن ترى فيه نفوسنا المتفتحة أول لون من ألوان الفن... ماذا انتخبوا لنا منه؟.... قصائد المواعظ والحكم!...

هنالك حقا نوع من الموعظة والحكمة يعرف الشاعر الحق كيف يلبسها ثوبا من الصور الحسية والذهنية، ترفعها إلى مرتبة الفن العالي... كما فعل «أبو العلاء» و«المتنبي»[2] و«النابغة الذبياني»[3] في بعض قصائدهم، ولكن الفرز والتمييز والتخيُّر في هذا الباب يحتاج إلى حاسة فنية لا يملكها القائمون بهذا العمل...

حتى الشعر الموسيقي والشعر التصويري الذي عرضوا علينا

= أسقف كاتب خطيب؛ وفولتير (Voltaire) (– ١٧٧٨): فيلسوف مؤرخ روائي واحد كتاب المقالة؛ وموليير (Moliere) (– ١٦٧٣): كاتب مسرحي وممثّل.

(١) انظر التعليقات للتعريف به.

(٢) انظر التعليقات للتعريف بأبي العلاء المعرّي؛ والمتنبي أبو الطيب أحمد بن الحسين -(٩٦٥/٣٥٤): أشهر شاعر عرفته العربية.

(٣) النابغة الذبياني: شاعر جاهلي عرف بتردده على الحِيرَة عاصمةِ المناذرة وبُصْرَى عاصمة الغساسنة، وشهِرَ بقصائده الاعتذاريات.

بعض نماذجه – في أعمال «البحتري» و«ابن الرومي»[1] على الأخص – لم يكن من خير آثارهما...

ليس كل شعر فنّا عاليا، لأنه يعظ أو يصوّر أو يترنّم، فالشعر الحق هو شيء أبعد كثيرا من مجرد إصابة الأهداف الظاهرة، أو تحقيق الأغراض المباشرة، بل ربّما انحطّ الشعر في عرف الفن العالي، لأنه اقتصر على صياغة حكمة أو تصوير منظر أو إحداث جرْس... إنما الشعر الحق قد يتوسّل بهذه الأشياء لبلوغ مآرب أسمى: هو الارتفاع بالناس إلى سحب لا تُبْلَغ، والرحيل بهم إلى عوالمَ لا تُنظر... هو أن يُريَهُم من خلال كلماته البسيطة ووسائله البادية أشياء لم تكن بادية ولا طافية، في محيط ضمائرهم الواعية، هو بالاختصار ذلك السحر الذي يوسع ذاتية الناس، فيرون أبعد مما ترى عيونهم، ويسمعون أكثر ممّا تسمع آذانهم، ويَعُون أعمق مما تعي عقولهم... هذا هو الشعر... وهذا هو المقصود من كلمة «الشعر» في إطلاقها على كافة الفنون... ما من فنّ عظيم بغير شعر، أي بغير تلك المادة السحرية التي تجعل الناس يدركون بالأثر الفنيّ، ما لا يدركون بحواسِّهم ومَلَكَاتِهم...

لقد أثقلت عليك يا «أندريه» بهذا الحديث في موضوع لا يَعنيك كثيرا، ولكن من غيرك أبثّه كل خواطري...؟ تحمّل!...

مناقشات وتمرينات

١ – ما التهمة التي توجّه للغة العربية وكيف يدافع الحكيم عنها؟ (هل هناك تهم أخرى لم يتعرّض الكاتب لها؟)

---

(١) البحتري، الوليد بن عبيد الطائي -(٨٩٨/٢٨٤) وابن الرومي، علي بن العبّاس ابن جريج (٨٩٦/٢٨٣): كلاهما من أبرز الشعراء المُحْدَثين.

٢ - كيف يمكن تطبيق رأي «جويو» في الرقص على الأدب؟

٣ - ما هو الشعر وما هي غايته حسب رأي الكاتب؟ (أثر آراء أخرى في الموضوع).

٤ - اتخذ الكاتب شكل «الرسالة» الموجهة إلى شخص أجنبي ليعرض بعض آرائه: ما الفائدة التي عادت على الموضوع من اللجوء إلى هذا الشكل؟ (إبراز أمور أولية ضرورية - اللجوء الى المقارنة - الاستشهاد بأشياء يألفها المخاطب... إلخ).

٥ - ما قيمة المقارنات في مثل هذا الموضوع؟

٦ - هل تغيّرت مقررات اللغة العربية في المدارس بحيث تستجيب إلى رأي الكاتب؟ (طبّق هذا على ما تعرفه من مقررات درستها).

I

التجربة الفردية

-١-

السيرة الذاتية

— ١ —

سيرة الشيخ الرئيس*

كان والدي من أهل بلخ(١) وانتقل منها إلى بخارى(٢) في أيّام الأمير نوح بن منصور(٣)، واشتغل بالتصرّف وتولّى العمل في أثناء أيّامه بقرية من ضياع بخارى يقال لها خَرْمَيْثَن، وهي من أمّهات القرى بتلك الناحية، وبقربها قرية يقال لها أَفْشَنَة، فتزوّج أبي منها بوالدتي وقطن بها وتبنّك(٤). ووُلِدْتُ أنا فيها ثم وُلِدَ أخي ثم انتقلنا إلى بخارى؛ وأُحْضِرَ لي معلّم القرآن ومعلّم الأدب وكمّلت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يُقضى مني العجب.

وكان أبي ممّن أجاب داعي المصريين ويعدّ من الإسماعيليّة(٥). وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم وكذلك أخي؛ وكانوا ربّما تذاكروا ذلك بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي وابتدأوا يدعونني إليه. وكانوا يُجْرُون على

(*) من عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (القاهرة، ١٨٨٢) ٢: ٢-٤.

(١) بلخ: إحدى مدن خراسان.

(٢) بخارى: إحدى المدن الكبرى في منطقة ما وراء النهر.

(٣) نوح بن منصور (٣٦٥-٣٨٧/٩٧٦-٩٩٧) أحد أمراء الدولة السامانية.

(٤) تبنّك بالمكان: أقام به وتأهل.

(٥) الإسماعيلية فرقة باطنية، وقد نجحت في إنشاء الدولة الفاطمية بأفريقية ثم بمصر، وكانت دعوة «المصريين» أي الفاطميين قد وجدت لها مجالا في الدولة السامانية في خراسان وما وراء النهر إلى أن توقّفت حوالي ٣٣٠/٩٤٢.

ألسنتهم أيضا ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند.[١] ثمّ كان أبي يوجّهني إلى رجل يبيع البقل قيّم بحساب الهند فكنت أتعلّم منه.

ثم وصل الى بخارى أبو عبد الله الناتلي[٢] وكان يدّعي التفلسف فأنزله أبي دارنا واشتغل بتعليمي. وكنت قبل قدومه أشتغل بالفقه والتردّد فيه إلى إسماعيل الزاهد، وكنت من أفْرَهِ السائلين وقد ألِفْتُ طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به. ثم ابتدأت بقراءة كتاب إيساغوجي[٣] على الناتليّ فلما ذكر لي حدّ الجنس أنّه المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب «ما هو»؟ فأخذته في تحقيق هذا الحدّ بما لم يسمع بمثله، وتعجّب مني كلّ العجب وكان أيُّ مسألة قالها تصوّرتها خيرا منه، وحذّر والدي من شغلي بغير العلم، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه، وأمّا دقائقه فلم يكن عنده منها خبر. ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق. فأمّا كتاب أوقليدس[٤] فإني قرأت عليه من أوّله خمسة أشكال أو ستّة ثمّ تولّيت بنفسي حلّ بقية الكتاب بأجمعه. ثم انتقلت إلى المجسطي[٥] ولما فرغت من مقدّماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لي الناتليّ «تولّ قراءتها وحلّها بنفسك ثمّ اعرضها عليّ لأبيّن لك صوابه من خطئه». وما كان الرجل يقوم بالكتاب فحللته، فكم من شكل ما عرفه إلّا حين عرضته عليه وفهّمته إيّاه. ثمّ فارقني الناتليّ متوجّهاً إلى كركانج[٦].

(١) يعني الحساب الذي تستعمل فيه الأرقام الهندية (١، ٢، ٣...).
(٢) الناتلي: الحكيم أبو عبد الله حسين بن إبراهيم، والناتلي نسبة إلى قرية ناتل بطبرستان.
(٣) إيساغوجي (Isagoge): كتاب المدخل إلى المنطق من تأليف فرفوريوس الصوري.
(٤) أوقليدس (Euclid): وكتابه هو أصول الهندسة.
(٥) المجسطي (Almagest): كتاب بطلميوس في الفلك.
(٦) كركانج: عاصمة إقليم خوارزم.

واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من الفصوص[١] والشروح من الطبيعيّات والإلهيّات وصارت أبواب العلم تنفتح علي. ثمّ رغبت في علم الطبّ وقرأت الكتب المصنّفة فيه. وعلم الطب ليس هو من العلوم الصعبة فلذلك برزت فيه في أقلّ مدّة حتّى بدأ فضلاء الاطبّاء يقرؤون عليّ علمَ الطب. وتعهدت المرضى فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف. وأنا مع ذلك مشغول بالفقه وأناظر فيه وأنا يومئذ من أبناء ستّ عشرة سنة.

ثمّ توفّرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة. ولم أنم في هذه المدّة ليلةً واحدةً بطولها ولا اشتغلت بالنهار بغيره. وجمعت بين يديّ ظهورا[٢]، فكلّ حجّة كنت أنظر فيها أثبت ما فيها من مقدّمات قياسيّة وترتيبها وما عساها تنتج، وأراعي شروط مقدّماتها حتى تتحقّق لي تلك المسألة. والذي كنت أتحير فيه من المسائل ولا أظفر فيه بالحدّ الأوسط في القياس أتردّد بسبب ذلك إلى الجامع وأصلّي وأبتهل إلى مبدع الكلّ حتى يفتح لي المنغلق منه ويسهّل المتعسّر، وأرجع بالليل إلى داري وأحضر السراج بين يديّ وأشتغل بالقراءة والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب لكيما تعود إليّ قوّتي، ثمّ أرجع إلى القراءة. ومهما أخذني نوم كنت أرى تلك المسائل بأعيانها في منامي، واتّضح لي كثير من المسائل في النوم. ولم أزل كذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني. وكلّ ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد إلى اليوم فيه شيئاً، حتى أحكمت العلم المنطقي والرياضيّ وانتهيت إلى العلم

(١) الفصوص جمع فص، وهو كنه الشيء وحقيقته، والمقصود هنا متون الكتب الأصلية من غير أن تلحقها شروح.
(٢) الظهور: مجموعة من الورق (أو البطاقات).

الإلهيّ. وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة[1] فلم أفهم ما فيه والتبس عليَّ غرض واضعه حتّى أعدت قراءته أربعين مرّة وصار لي محفوظاً، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: «هذا كتاب لا سبيل الى فهمه.» فحضرت يوماً وقت العصر في الورّاقين[2] فتقدّم دلّال بيده مجلّد ينادي عليه، فعرضه عليَّ فرددته ردَّ متبرّم معتقد أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: «اشتره فصاحبه محتاجٌ إلى ثمنه وهو رخيص. وأبيعكه بثلاثة دراهم». فاشتريته فإذا هو كتاب أبي نصر الفارابي[3] في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة. ورجعت إلى داري وأسرعت قراءتَه فانفتح عليَّ في الوقت أغراضُ ذلك الكتاب لأنّه كان قد صار لي محفوظا على ظهر القلب. وفرحت بذلك وتصدّقت في اليوم الثاني بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى.

مناقشات وتمرينات

١ - هذه ترجمة ذاتية، ولكن يبدو أنها صياغة شفوية أملاها ابن سينا على تلميذه أبي عبيد الجوزجاني؛ هل تلمس آثار هذه الصياغة في هذه القطعة؟

٢ - تركز اهتمام ابن سينا في ترجمته على «**التحصيل العلمي**» وهذا ليس ضروريا في كل ترجمة ذاتية. هل يمكنك أن تلحظ مراحل متدرّجة في هذا التحصيل؟

٣ - هل حاول ابن سينا «الطالب» أن يخفف من وقع عجبه بذاته وملكاته الطبيعية؟ كيف؟

(١) يعني كتاب (Metaphysics) لأرسطو وقد ترجمه حنين بن إسحاق.
(٢) الورّاقون هنا يعني سوق الورّاقين وهم باعة الكتب وناسخوها.
(٣) انظر التعريف به في التعليقات.

٤ - تمرّس بهذه المصطلحات: الحدّ - الجنس - الطبيعيات - الإلهيات - المقدمات القياسية - «تنتج»، وبيّن دلالاتها.

٥ - لو قارنت بين هذا «التحصيل» الذاتي - في معظمه - وبين التدرج المنظم في تحصيل الطلاب الجامعيين في أيامنا فما هي الفروق التي ترسمها بينهما في روح التحصيل وفي طبيعته ونوعيته؟

-٢-
أبو حيّان التوحيديّ يحرق كتبه*

وافاني كتابك الذي وصفت فيه ما نال قلبَك والتهب في صدرك من الخبر الذي نَمى إليك[١] فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنّار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تقرأ قوله جلّ وعزّ: ﴿كلُّ شيء هالك إلاّ وجهَه، له الحكم وإليه تُرْجَعُون﴾. وكأنّك لم تأبه لقوله تعالى: ﴿كلُّ من عليها فانٍ﴾. وكأنّك لم تعلم أنّه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريفَ الجوهر كريمَ العنصر، ما دام مُقَلّباً بيد الليل والنهار، معروضاً على أحداث الدّهر وتعاور[٢] الأيّام.

ثمّ إني أقول: إن كان - أيّدك الله - قد نَقَبَ خُفُّك ما سمعتَ، فقد أدمى أَظَلّي[٣] ما فعلتُ، فَلْيَهُنْ عليك ذلك، فما انبريت له ولا اجترأتُ عليه حتى استخرت الله عزَّ وجلَّ فيه أيّاماً وليالي، وحتى أوحى إليَّ في المنام بما بعث راقدَ العزم، وأجدَّ فاترَ النيّة، وأحيا ميّتَ

(*) من رسالة كتبها إلى صديق له (معجم الأدباء لياقوت ١٥: ١٦ - ٢٦) وتاريخ الرسالة سنة ٤٠٠هـ.
(١) نمى إليك: بلغك.
(٢) تعاورته: تداولته وتناوبته.
(٣) الخف للجمل كالحافر لذوات الحافر، وكذلك الأظلّ، وهو باطن الخف، ونقب: تَخَرَّق، والكلام على المجاز.

الرأي، وحثَّ على تنفيذ ما وقع في الرُّوع[١] وتريَّع[٢] في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحُجَّة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثقَ بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في تثبيته لي:

إنَّ العلم - حاطك الله - يراد للعمل، كما أنَّ العمل يراد للنّجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كَلّاً[٣] على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كَلّاً وأورث ذُلّاً، وصار في رَقَبة صاحبه غُلّاً[٤]، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار؛ ثم اعلم - علّمك الله الخير - أنَّ هذه الكتب حَوَتْ من أصناف العلم سرَّه وعلانيتَه، فأمّا ما كان سرّاً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً، وأمّا ما كان علانية فلم أُصب من يحرص عليه طالباً، على أنّي جمعت أكثرها للنّاس ولطلب المَثَالَة[٥] منهم ولعقد الرّياسة بينهم ولمدّ الجاه عندهم، فَحُرِمْتُ ذلك كلّه - ولا شكَّ في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي[٦]، وربطه بأمري - وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجّةً عليَّ لا لي.

وممّا شحذ العزم على ذلك ورفع الحِجابَ عنه، أنّي فقدت ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً مُثيباً[٧]، فَشَقَّ عليَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنِّسون عرضي إذا نظروا فيها، ويَشْمَتُون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون[٨] نقصي

---

(١) الرُّوع: القلب.
(٢) تريَّع: جرى أو جاء وذهب.
(٣) الكَلّ: الثقل.
(٤) الغُلّ: القيد.
(٥) المَثَالَة: حسن الحال.
(٦) ناطه بناصيتي، ناط: ربط، والناصية مقدَّم شعر الرأس، والتعبير مجازي أي قدَّره لي، أو خصَّني به.
(٧) المثيب: اسم الفاعل من أثاب بمعنى جازى وكافأ.
(٨) التراثي: تفاعل من الرؤية، أي ينظرون أو يري بعضهم بعضا.

وعيبي من أجلها، فإن قلت: وَلِمَ تَسِمُهُم[1] بسوء الظَّنّ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أنَّ عِيَاني منهم في الحياة هو الذي يحقّق ظني بهم بعد الممات. وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة[2] فما صحَّ لي من أحدهم ودادٌ ولا ظهر لي من إنسان منهم حِفاظ؟ ولقد اضطُررتُ بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخُضَر في الصَّحراء، وإلى التكفُّف[3] الفاضح عند الخاصَّة والعامَّة، وَإلى بيع الدِّين والمروءة، وإلى تعاطي الرِّياء بالسُّمعة والنِّفاق، وإلى ما لا يَحْسُنُ بالحرّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزَّمان بادية لعينيك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلتُهُ بِخافٍ عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدَّة تتبُّعك وتفرُّغك.

وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته، بما قدَّمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته، إمَّا هرباً من التَّطويل، وإما خوفاً من القال والقيل. وبعد فقد أصبحت هامةَ اليوم أو غدٍ[4] فإني في عَشْر التِّسعين، وهل لي بعد الكَبْرَةِ والعجز أملٌ في حياة لذيذة أو رَجاء لحال جديدة!

على أنَّك لو علمتَ في أيّ حال غلبعليَّ ما فعلته، وعند أيّ مرض وعلى أيّة عسرة وفاقة لعرفت من عذري أضعاف ما أبديتُه، واحتججتَ لي بأكثر ممَّا نشرتُه وطويتُه، وإذا أنعمتَ النَّظر تيقَّنتَ أنَّ لله جلَّ وعزَّ في خلقه أحكاماً لا يُغالَب فيها، لأنه لا يبلغ كُنْهُها[5]

(١) وسمه بكذا أي جعل له سمة وهي العلامة، وهي في الأصل كيَّة يميز بها البعير.
(٢) إما أن الرقم يحدِّد أناساً بأعيانهم أقام فيهم أبو حيان تلك المدة، وإما أنه خطأ.
(٣) التكفُّف: الاستجداء أو طلب ما يكف الجوع.
(٤) هو هامةُ اليوم أو غدٍ: يموت اليوم أو غداً.
(٥) كُنْهُ الشيء: حقيقته.

ولا ينال غيبها، ولا يعرف قابها[1] ولا يقرع بابها، وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخَلقُ والأمرُ، وبيده الكسر والجبر، وعلينا الصَّمت والصَّبر، إلى أن يوارِيَنا اللَّحد والقبر، والسَّلام.

مناقشات وتمرينات

١ - التقط أبو حيَّان في هذه الرسالة لحظة من لحظات: الغربة - الإخفاق - الفقر (كل ذلك في مرحلة من مراحل الشيخوخة). وضح كل جانب من هذه الجوانب، وما اتَّصل به من اعتذار أو تسويغ لحرقه كتبه.

٢ - يرسم أبو حيَّان جوًّا خاصاً من علاقة الانسان بالانسان - الإنسان بالله؛ ما هي طبيعة هاتين العلاقتين، وكيف تقوم المفارقة بينهما؟

٣ - هل كان أبو حيَّان مقنعاً لك في حججه وتسويغاته التي أوردها؟ وهل تظنُّه هو نفسه كان مقتنعاً بها؟

٤ - هل كل مؤلف يؤلف كتبه لمثل الأغراض التي حدَّدها أبو حيَّان؟ ناقش ذلك.

٥ - ما رأيك في ما ذكره أبو حيَّان عن علاقة العلم بالعمل؟

٦ - من الواضح أنَّ لأبي حيَّان أسلوباً متميِّزاً، لا يلتقي في كثير مع الأسلوب الشفوي الذي لمسته عند ابن سينا، ما هي أهمّ الملامح التي تميِّز هذا الأسلوب؟

(١) القَابُ: المقدار.

-٣-

أزمة الغزالي *

ولم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السنّ على الخمسين، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم على كلّ مشكلة، واتقحّم كلّ ورطة، وأتفحّص عن عقيدة كلّ فرقة، وأستكشف اسرار مذهب كلّ طائفة، لأميّز بين محقّ ومبطل، ومتسنّن ومبتدع، لا أغادر باطنيًا إلاّ وأحب أن أطّلع على باطنيّته، ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريّته، ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطّلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سرّ صوفيته، ولا متعبداً إلا وأترصّد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطّلاً[1] إلا وأتجسس وراءه للتنبُّه لأسباب جرأته في تعطيله وزَندقته.

وقد كان التعطش إلى دَرْك حقائق الأمور دأبي وديدني[2] من أول أمري وريعان عمري، غريزةً وفطرةً من الله وضعتا في جِبِلّتي[3]، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد[4]، وانكسرت

(*) من كتاب المنقذ من الضلال (تحقيق الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد، دمشق، ١٩٥٦) ص ٥٧ - ٦٣.

(١) المعطِّل: الذي يقول بتعطيل الحدود فهو مخالف للشريعة.

(٢) الدَيْدَن: العادة.

(٣) الجبِلّة: الطبيعة.

(٤) انحلّت عني رابطة التقليد: تخلصت من تقليدي لمذهب أو شخص.

عليّ العقائد الموروثة، على قرب عهد سنّ الصِّبا، إذ رأيتُ صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلاّ على التنصُّر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلاّ على التهوُّد، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلاّ على الإسلام. وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم حيث قال: «كلُّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه». فتحرّك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذِين، والتمييز بين هذه التقليدات. فقلت في نفسي: أولاً إنما مطلوبي العلمُ بحقائق الأمور، فلا بدّ من طلب حقيقة العلم ما هي. فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلومِ انكشافاً لا يبقى معه ريبٌ، ولا يقارنه إمكانُ الغلط والوهم، ولا يتّسع القلب لتقرير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدّى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكًّا وإنكاراً؛ فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشكّ بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأمّا الشكّ فيما علمته، فلا.

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقّنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكلُّ علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني.

ثم فتّشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً[1] من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسّيات والضروريات. فقلت: الآن بعد حصول اليأس، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليّات، وهي الحسيّات والضروريات. فلا بدّ من إحكامها أولاً لأتيقن أنّ ثقتي

(١) أصل معنى العاطل الذي لا حلية له، والمعنى هنا أنه غير مزود بذلك العلم.

بالمحسوسات، وأماني من الغلط في الضروريَّات، من جنس أماني الذي كان من قبلُ في التقليديات، ومن جنس أمانِ أكثر الخلق في النظريَّات. فأقبلت بجدّ بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكِّك نفسي فيها؛ فانتهى بي طولُ التشكُّك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً، وأخذت تتّسع للشك فيها وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظلِّ فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدريج ذرَّة ذرَّة حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدلُّ على أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحسّ بأحكامه، ويكذِّبه حاكم العقل ويخوِّنه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته. فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً فلعلَّه لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً مُحالاً. فقالت المحسوسات: بِمَ تأمنُ أن تكون ثقتك بالعقليَّات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنتَ واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذَّبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمرّ على تصديقي، فلعلَّ وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلَّى كذَّب العقلَ في حكمه، كما تجلَّى حاكمُ العقل فكذَّبَ الحسّ في حكمه، وَعَدَمُ تجلي ذلك الإدراك، لا يدلّ على استحالته. فتوقفتِ النفسُ في جواب ذلك قليلاً، وأيّدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أموراً، وتتخيّل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنَّه لم يكن لجميع متخيَّلاتك ومعتقداتك أصل وطائلٌ؟ فَبِمَ تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحسّ أو عقل هو حق

بالإضافة إلى حالتك، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها!

فلمَّا خطرت لي هذه الخواطر، وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسَّر إذ لم يكن دفعه إلاّ بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلاَّ من تركيب العلوم الأولية. فإذ لم تكن مُسَلَّمَةً لم يمكن ترتيب الدليل. فأعضل[1] هذا الداء، ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحَّة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف.

مناقشات وتمرينات

١ - كم نوعاً من الطوائف ذكر الغزالي وهو يحاول استقصاء الحقائق؟ (باطني - ظاهري - فلسفي... إلخ) وما الذي يميز كل طائفة؟

٢ - ما حدّ العلم اليقيني؟

٣ - صفْ تدرُّج الغزالي في الشك في التقليديَّات - الحسِّيَّات - الضروريَّات، (الأوَّليَّات - العقليَّات)، وبيّن لِمَ يؤدِّي الشك إلى السفسطة.

٤ - هل حلَّ الغزالي مشكلته على نحو فكري؟ ولماذا؟

٥ - هناك فروق أساسية بين الأزمة التي عاناها التوحيدي وهذه الأزمة التي عاناها الغزالي: كيف تصنف كلاً من الأزمتين وتحدِّد أبعادها؟

(١) أعضل: أصبح عُضالاً أي لا يتيسَّر شفاؤه.

- ٤ -

ابن خلدون يلقى
الأمير تَمُرْ سلطان المغل والطَّطر *

لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر مَلَكَ بلادَ الروم[١]، وخرَّب سيواس[٢]، ورجع إلى الشَّام، جمع السلطان[٣] عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة[٤]، فاستدعاني دواداره[٥] يِشْبَك، وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان، فتجافيت عن ذلك، ثمَّ أظهر العزم عليَّ بلين القول وجزيل الإنعام فأصخت، وسافرت معهم منتصفَ شهر المولد الكريم من سنة ثلاث[٦]، فوصلنا إلى غزَّة فأرحنا بها أياماً نترقَّب الأخبار، ثمَّ وصلنا إلى الشام مسابقين الطَّطر إلى أن نزلنا شَقْحَبَ[٧]، وأسرينا فصبَّحنا دمشق، والأمير تمر في عساكره قد

(*) من كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، ١٩٥١) ص ٣٦٦ - ٣٧٤.

(١) بلاد الروم في هذا السياق تعني آسيا الصغرى (الأناضول).

(٢) سيواس: مدينة في الأناضول.

(٣) هو السلطان فرج بن الملك الظاهر (٨٠١ -٨٠٨/ ١٣٩٩ - ١٤٠٦).

(٤) يعني وظيفة القضاء، وكان ابن خلدون قبل ذلك قاضي المالكية.

(٥) الدوادار كلمة مركَّبة من «دواة» و «دار» أي ممسك الدواة وهو الذي يحمل دواة السلطان ويبلغ عنه الرسائل ويرفع إليه الشكاوى ويوصل البريد.

(٦) يعني سنة ٨٠٣هـ = ١٤٠٠م، وشهر المولد هو ربيع الأول.

(٧) شقحب: بلدة قريبة من دمشق إلى الجنوب.

رحل من بعلبك قاصداً دمشق، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قبة يلبغا، ويئس الأمير تمر من مهاجمة البلد، فأقام بمرقب على قبة يلبغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر، تجاول العسكران في هذه الأيام مرات ثلاثاً أو أربعاً، فكانت حربهم سجالاً[١]، ثم نمي الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها، فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشية من انتقاض الناس وراءهم واختلال الدولة بذلك، فأسروا ليلة الجمعة من شهر (. . .)[٢] وركبوا جبل الصالحية، ثم انحطوا في شعابه، وساروا على حافة البحر إلى غزة، وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السلطان سار على الطريق الأعظم إلى مصر، فساروا عصباً وجماعات على شقحب إلى أن وصلوا إلى مصر، وأصبح أهل دمشق متحيرين قد عميت عليهم الأنباء.

وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بهم بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تمر على بيوتهم وحرمهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة فأبى عليهم ذلك ونكره، فلم يوافقوه، وخرج القاضي برهان الدين بن مفلح الحنبلي ومعه شيخ الفقراء بزاوية (. . .)[٣] فأجابهم إلى التأمين، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة، فخرجوا إليه متدلِّين من السور بما صحبهم من التقدمة[٤]، فأحسن لقاءهم، وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردَّهم على أحسن الآمال، واتَّفقوا معه على فتح المدينة من الغد، وتَصَرُّفِ الناس في المعاملات، ودخول أميرٍ ينزل بمحلِّ الإمارةِ منها، ويملك أمرَهم بعزِّ ولايته.

---

(١) الحرب سجال: كرَّة لهؤلاء وكرة لهؤلاء.

(٢) بياض في الأصل، ولعله شهر جمادى الآخرة.

(٣) بياض في الأصل.

(٤) التقدمة: الهدية.

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرت مع عساكر مصر أو أقمتُ بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه، فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول[١]، وبلغني الخبرُ من جوف الليل، فخشيت البادرة على نفسي، وبكَّرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلّي من السّور، لِمَا حدث عندي من توهمات ذلك الخبر، فأبوا عليَّ أوّلاً، ثمَّ أصاخوا[٢] لي ودلُّوني من السور، فوجدت بطانته عند الباب، ونائبَه الذي عيَّنه للولاية على دمشق، واسمه شاه ملك... فحيّيتهم وحيُّوني وفدَّيت وفدُّوني[٣]، وقدَّم لي شاه ملك مركوبا[٤]، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه، فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمةَ جلوسِه، ثم زيد في التعريف باسمي أني القاضي المالكي المغربي، فاستدعاني، ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئاً على مرفقه، وصِحاف[٥] الطعام تمرّ بين يديه، يُشير بها إلى عُصَب المُغل جلوساً أمام خيمته، حَلَقاً حَلَقاً. فلما دخلت عليه فاتحت بالسَّلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه ومدَّ يده إليَّ فقبَّلتُها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبدَ الجبَّار بنَ النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألني من أين جئت من المغرب؟

(١) الاستنامة إلى القول: الاستنامة: الركون، والقول لعله يعني هنا وعد تمر بعدم استباحة المدينة إذا فتحت.
(٢) أصاخوا: أنصتوا واستمعوا.
(٣) فديتهم وفدوني: من متمِّمات التحية، كأن تقول: أفديك بنفسي، أو بأبي وأمي... إلخ.
(٤) المركوب: الدابة للركوب.
(٥) صحاف: جمع صحفة وهي وعاء الطعام (كالصحن).

وَلِـمَا جئت؟ فقلت: جئت من بلادي لقضاء الفَرْض[١]، ركبتُ إليها البحر، ووافيت مرسَى الإسكندرية يوم الفطر سنة أربع (وثمانين)[٢] من هذه المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظَّاهر على تخت الملك لتلك العَشَرَةِ الأيام بعددها[٣]. فقال لي: وما فعل معك؟ قلت: كلَّ خير، برَّ مقدمي وأرغد قِرَايَ وزوَّدني للحجّ، ولمَّا رجعت وفّر جرايتي[٤]، وأقمت في ظلّه ونعمته، رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليتُه إيَّاك القضاء؟ فقلت: مات قاضي المالكية قبل موته بشهر، وكان يظنُّ بي المقام المحمودَ في القيام بالوظيفة، وتحرِّيَ المَعْدلة والحق، والإعراض عن الجاه، فولاني مكانه، ومات لشهر بعدها، فلم يرضَ أهل الدولة بمكاني، فأدالوني منها بغيري[٥] جزاهم الله. فقال لي: فأين ولدك؟ فقلت: بالمغرب الجَوَّانِيّ... فقال: وما معنى الجوَّاني في وصف المغرب؟ فقلت: هو في عرف خطابهم معناه الدَّاخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كلَّه على ساحل البحر الشَّامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا بَرقة وأفريقية؛ والمغرب الأوسط: تلمسان وبلاد زناتة؛ والأقصى: فاس ومراكش، وهو معنى الجوَّاني. فقال لي: وأين مكان طنجةَ من ذلك المغرب؟ فقلت: في الزَّاوية التي بين البحر المحيط، والخليج المسمَّى بالزُّقَاق[٦]، وهو خليج البحر الشَّامي. فقال: وسبتة؟ فقلت: على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق، ومنها التَّعْدِيَةُ إلى الأندلس، لقرب مسافته، لأنها هناك نحو

(١) أي أداء فريضة الحج.
(٢) يعني وسبعمائة (٧٨٤).
(٣) أي أن مراسيم الفرح بتنصيب السلطان الملك الظاهر استمرت منذ أول يوم في شوّال (عيد الفطر) وبقيت عشرة أيام.
(٤) الجرَايَةُ: المُرَتَّب.
(٥) أدال منه بغيره: نصب مكانه شخصاً آخر.
(٦) هو ما يسمى اليوم مضيق جبل طارق.

العشرين ميلاً. فقال: وفاس؟ فقلت: ليست على البحر، وهي في وسط التلول، وكرسيُّ ملوك المغرب من بني مَرين. فقال: وسِجِلْمَاسَة؟ قلت: في الحدّ ما بين الأرياف والرِّمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعني هذا، وأحبُّ أن تكتب لي بلاد المغرب كلَّها، أقاصيَها وأدانيَها، وجبالَه وأنهارَه وقراه وأمصارَه، حتَّى كأنِّي أشاهده، فقلت: يحصل ذلك بسعادتك؛ وكتبت له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك، وأوعبت الغرض[1] فيه في مختصر وجيز يكون قدر اثنتي عشرة من الكراريس المنصَّفة القطع؛ ثم أشار إلى خدمه بإحضار طعام من بيته يسمُّونه «الرِّشتة»، ويحكمونه على أبلغ ما يمكن، فأحضِرَتِ الأواني منه، وأشار بعرضها عليَّ، فَمَثَلْتُ قائماً وتناولتها، وشربت واستطبت، ووقع ذلك منه أحسن المواقع.

مناقشات وتمرينات

١ - لماذا حرص السلطان فرج على أن يكون ابن خلدون في صحبته، وهو ليس محارباً؟

٢ - ماذا يعني سؤال تمر (تيمورلنك) عن ابن خلدون بالذات؟

٣ - قال ابن حجر في ترجمته لابن خلدون (رفع الأصر ٢ : ٣٤٤) «أمّا إذا ولي (يعني القضاء) فلا يعاشر»، هل يتفق هذا مع قول ابن خلدون «فلم يرض أهل الدولة بمكاني فأدالوني منها بغيري»؟

٤ - تصور هذه القطعة (أ) انقسام النظام أمام الخطر الخارجي (ب) وهلع الناس حين يصبحون بلا دولة تدافع عنهم. وضّح هاتين الناحيتين.

٥ - يُظهر ابن خلدون نحو السلاطين إما عرفاناً بالجميل وإما مجاملة تدخل في نطاق اللياقة: اذكر أمثلة على ذلك.

(١) أوعب الغرض: حشده واستقصاه؛ وقوله مختصر وجيز قد يتعارض مع ذلك، ولكن الأمور نسبية.

٦ - هل هناك حدّ فاصل بين التاريخ والترجمة الذاتية في هذه القطعة؟ (هل يمكن تصوير المواقف الحرجة: أخبار الفتنة في مصر. تدلي العلماء من السور. شجار الناس في المسجد... بأسلوب يتجاوز التقرير؟ لمَ لَمْ يختر ابن خلدون أسلوباً أكثر إثارة؟)

- ٥ -

طه حسين يراجع عهد طفولته *

إنّك يا ابنتي لَسَاذَجَةٌ سليمة طيّبة النّفس. أنت في التاسعة من عمرك، في هذه السنّ التي يعجب فيها الأطفال بآبائهم وأمّهاتهم، ويتّخذونهم مُثُلاً عليًا في الحياة: يتأثرونهم في القول والعمل، ويحاولون أن يكونوا مثلهم في كل شيء، ويفاخرون بهم إذا تحدّثوا إلى أقرانهم أثناء اللعب، ويخيّل إليهم أنهم كانوا أثناء طفولتهم كما هم الآن مُثلاً عليًا يصلحون أن يكونوا قدوةً حسنة وأُسْوَةً صالحة.

أليس الأمر كما أقول؟ ألست ترين أن أباك خيرُ الرجال وأكرمُهم؟ ألست ترين أنه قد كان كذلك خيرَ الأطفال وأنبلَهم؟ ألست مقتنعة أنّه كان يعيش كما تعيشين أو خيراً مما تعيشين؟ ألست تحبّين أن تعيشي الآن كما كان يعيش أبوك حين كان في الثامنة من عمره؟ ومع ذلك فإنّ أباك يبذل من الجهد ما يملك وما لا يملك، ويتكلّف من المشقّة ما يُطيق وما لا يُطيق، ليجنّبَك حياته حين كان صبيًا.

لقد عرفته يا ابنتي في هذا الطور من أطوار حياته. ولو أني حدّثتك بما كان عليه حينئذٍ لكذّبتُ كثيراً من ظنّك، ولَخَيّبْتُ كثيراً من أملك، ولفتحت إلى قلبك السّاذَج ونفسك الحلوة باباً من أبواب

(*) من كتاب الأيام (القاهرة، ١٩٤٨) ١: ١٤٥ - ١٥١.

الحزن، حرامٌ أن يُفْتَحَ إليهما وأنت في هذا الطور اللذيذ من الحياة. ولكني لن أحدّثك بشيء مما كان عليه أبوك في ذلك الطور الآن. لن أحدّثك بشيء من هذا حتى تتقدّم بكِ السِّنّ قليلاً، فتستطيعين أن تقرئي وتفهمي وتحكمي، ويومئذ تستطيعين أن تعرفي أنّ أباك أحبّك حقّاً، وجدّ في إسعادك حقّاً، ووفّق بعضَ التوفيق لأن يجنّبك طفولته وصباه.

نعم يا ابنتي! لقد عرفت أباك في هذا الطور من حياته. وإنّي لأعرف أنّ في قلبك رقّةً وليناً. وإني لأخشى لو حدّثتك بما عرفتُ من أمر أبيك حينئذٍ أن يملِكَكِ الإشفاقُ وتأخذَكِ الرأفةُ فتُجهشي بالبكاء.

لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حِجْر أبيك وهو يَقُصّ عليك قصّة «أوديب ملكاً» وقد خرج من قصره بعدَ أن فقأ عينيه لا يدري كيف يسير، وأقبلت ابنته «أنتيجون» فقادته وأرشدته. رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجة من أوّلها، ثم أخذ لونك يتغير قليلاً قليلاً وأخذت جبهتك السمحة تَرْبَدُّ شيئاً فشيئاً، وما هي إلاّ أن أجهشت بالبكاء وانكببت على أبيك لثماً وتقبيلاً، وأقبلت أمّك فانتزعتك من بين ذراعيه، وما زالت بك حتى هدأ روعك. وفهمت أمّك وفهم أبوك وفهمت أنا أيضاً أنّك إنما بكيت لأنّك رأيت أوديب الملك كأبيك مكفوفاً لا يبصر ولا يستطيع أن يهتديَ وحده، فبكيت لأبيك كما بكيت «لأوديب».

نعم! وإني لأعرف أنّ فيك عبثَ الأطفال وميلهم إلى اللهو والضّحك وشيئاً من قسوتهم. وإني لأخشى يا ابنتي إن حدّثتك بما كان عليه أبوك في بعض أطوار صباه أن تضحكي منه قاسيةً لاهيةً، وما أحبّ أن يضحك طفل من أبيه، وما أحبّ أن يلهوَ به أو يقسوَ عليه.

ومع ذلك فقد عرفت أباك في طور من أطوار حياته أستطيع أن

أحدّثك به دون أن أثير في نفسك حزناً، ودون أن أغريك بالضحك أو اللهو؛ عرفته في الثالثةَ عَشْرَةَ من عمره حين أرسِلَ إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر، إنْ كان في ذلك الوقت لصبي جدّ وعمل. كان نحيفاً شاحبَ اللّون مُهْمَلَ الزّيِ أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى، تقتحمه العين[1] اقتحاماً في عباءته القذرة وطاقيّته التي استحال بياضها إلى سواد قاتم، وفي هذا القميص الذي يَبِينُ من تحت عباءته وقد اتّخذ ألواناً مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام، وفي نعليه الباليتين المرقعتين. تقتحمه العين في هذا كلّه، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثّة وبصر مكفوف، واضحَ الجبين مبتسمَ الثغر مسرعاً مع قائده إلى الأزهر، لا تختلف خُطاه ولا يتردّد في مشيته، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى[2] عادةً وجوهَ المكفوفين. تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه في شيء من الرّفق، حين تراه في حَلْقة الدرس مُصغياً كلّه إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً، مبتسمًا مع ذلك لا متألماً ولا متبرِّماً[3] ولا مُظهراً ميلاً إلى لهو، على حين يلهو الصّبيان من حوله أو يشرئبّون[4] إلى اللّهو.

عرفته يا ابنتي في هذا الطور. وكم أحبّ لو تعرفينه كما عرفتهُ، إذن تقدرين ما بينك وبينه من فرق. ولكنْ أنّى لك هذا وأنت في التاسعة من عمرك ترين الحياة كلّها نعيمًا وصفواً!

عرفته يُنفِقُ اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلاّ لوناً واحداً، يأخذ منه حظّه في الصباح، ويأخذ منه حظّه في المساء، لا شاكياً ولا متبرِّماً ولا متجلّداً، ولا مفكّراً في أنّ حالَه خليقةٌ

---

(1) تقتحمه العين: تتجاوزه لأنه لا يستوقف النظر.
(2) تغشى: تغطي.
(3) متبرّم: ضجر.
(4) يشرئب: يمدّ عنقه ليرى أي يتطلّع.

بالشكوى. ولو أخذتِ يا ابنتي من هذا اللون حظّاً قليلاً في يوم واحد لأشفقت أمّك ولقدّمت إليك قدحاً من الماء المعدني، ولانتظرت أن تدعوَ الطبيب.

لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلاّ على خبز الأزهر. وويل للأزهريين من خبز الأزهر! إن كانوا ليجدون فيه ضروباً من القشّ وألواناً من الحصى وفنوناً من الحشَرات.

وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يَغْمِسُ هذا الخبز إلاّ في العسل الأسود، وأنت لا تعرفين العسل الأسود، وخير لك ألاّ تعرفيه.

كذلك كان يعيش أبوك جادّاً مبتسمًا للحياة والدرس، محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان. حتى إذا انقضت السنة وعاد إلى أبويه، وأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل؟ وكيف يعيش؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب كما تعود أن ينظِمَ لك القصص، فيحدّثهما بحياة كلّها رَغَدٌ ونعيم. وما كان يدفعه إلى هذا الكَذِب حبُّ الكذب، إنّما كان يَرفُقُ بهذين الشيخين ويكره أن يُنبِئَهما بما هو فيه من حرمان. وكان يرفق بأخيه الأزهري، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللّبن. كذلك كانت حياة أبيك في الثالثة عشرة من عمره.

مناقشات وتمرينات

١ - سرد طه حسين سيرته في «الأيام» بصيغة الغائب: لماذا اختار هذه الصيغة؟ ولماذا تحوّل عنها في هذا الفصل الختامي إلى مخاطبة ابنته؟

٢ - ما قصة أوديب؟ وما علاقة طه حسين بها؟ (كيف تجسدت في الأدب العالمي؟)

٣ – وفهمت أمّك وفهم أبوك وفهمت أنا أيضاً؛ لماذا أضاف الكاتب هنا عبارة: وفهمت أنا أيضاً؟ (راجع السؤال الأول).

٤ – يريد طه حسين أن يقصّ على ابنته ما لا يثير حزناً ولا يثير ضحكاً: أي شيء يمكن أن يثير ما قصّه؟

٥ – لو أُطلق على نظرة طه حسين إلى الحياة في سنّ الثالثة عشرة «النظرة الرواقية» فما هي السمات التي تميّز من يتمتّع بهذه النظرة؟

٦ – كان بإمكان الكاتب أن يرسم مفارقة بين طبيعة حياته وطبيعة حياة ابنته بالتفصيل في ما أتيحَ لابنته من يسر في العيش، فَلِمَ لَمْ يحاول ذلك؟

٧ – يتّكىء طه حسين في هذا الفصل على «أخلاقية» دقيقة، كما يعتمد في الأسلوب على المراوحة بين السرد والذرى العاطفية. هل يتساند المضمون والشكل في هذا الموقف؟

– ٦ –

أحمد أمين يتعلّم الانجليزية*

وفّقت إلى سيّدة إنجليزية كان لها أثر كبير في عقلي ونفسي: مس بور (Power). سيّدة في نحو الخامسة والخمسين من عمرها، ضخمة الجسم مستديرة الوجه، يوحي مظهرها بالقوة والسيطرة، بسيطة في ملبسها وزينتها، مثقّفة ثقافة واسعة، تجيد الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ذات رأيٍ تعتدُّ به جريدةُ التيمس فترحب بمقالاتها. عَرَفَتِ الدنيا من الكتب ومن الواقع؛ أقامت في فرنسا سنين وفي ألمانيا سنين وفي أمريكا سنين، فكملت تجاربها واتسع أفقها؛ حضرت إلى مصر ووافقها جوّها فأقامت فيها ولكن ليس لها من المال ما يكفيها للإقامة طويلاً، فهي تستأجر بيتاً خالياً في ميدان الأزهار وتفرش حجراته، وتؤجرها للراغبين فتكسب من ذلك نحو ثلاثين جنيهاً في الشهر تكون أساس عيشتها؛ ثم هي رسّامة فنّانة، تأخذ أدواتها إلى سفح الهرم فترسم الصور الزيتية لمنظر الأهرام والفيضان وما يحيط بهما من منظر جميل أو نحوِ ذلك من مناظرَ طبيعيةٍ جميلةٍ ترسمها بالزيت وتتأنّق فيها، وتقضي في رسمها الأيّام والأشهر وتبيعها بثمن كبير؛ ثم هي تدرّس الرسم والتصوير لبنات رئيس وزارة، ثمّ هي تقبل أن تدرّس لي درساً في اللغة الإنجليزية بجنيهين كلّ شهر، ولا تعاملني معاملة مدرّسة لتلميذ، بل معاملةَ أمّ قوية لابن فيه عيوب من تربية عتيقة.

(*) من كتاب حياتي (القاهرة، ١٩٥٠) ص ١٤٣ – ٤٧

ابتدأت أدرس معها الجزء الثالث من سلسلة كتب بيرليتز، أقرأ فيه وتُفسِّر لي ما غمض وتصلح لي ما أخطأت، ثم أضع الكتاب وأحدّثها وتحدّثني في أي موضوعٍ آخرَ يعرض لنا. ولا أدري لماذا لا يعجبها مني أن أضع العِمامةَ بجانبي إذا اشتدّ الحرّ، بل تُلزمني دائمًا بوضعها فوق رأسي، ونستمرّ على ذلك نحو الساعتين أتكلّم قليلاً وتتكلّم كثيراً، وتنفق أكثر ما تأخذه مني في أشكال مختلفة لنفعي، فهي تدعو بعض أصحابها من الإنجليز رجالاً ونساء إلى الشاي، وتدعوني معهم لأتحدّث إليهم ويتحدّثوا إليَّ، فأسمع لهجاتهم ويتعوّد سمعي نطقَهم، وأُصغي إلى آرائهم وأفكارهم وأقف على تقاليدهم، ومرّة ترسلني إلى سيّدة إنجليزية صديقةٍ لها أكبرَ منها سنّاً قد عدا عليها المرض فألزمها سريرَها لأتحدّث إليها. تقصد بذلك أن هذه المريضة تجد فيّ تسلية لعزلتها وفَرَجاً من كُربتها، وأنا أجد فيها ثرثارة لا تنقطع عن الكلام، فأستمع إلى قولها الإنجليزي الكثير رغم أنفي.

وتوثقت الصلة بيننا فكأنني كنت من أسرتها، وهي لا تُعْنَى بي من ناحية اللغة الإنجليزية وآدابها فحسب، بل هي تُشرف على سلوكي وأخلاقي. لاحظت فيَّ عيبين كبيرين فعملت على إصلاحهما، ووضعت لي مبدأين تكررهما عليَّ في كلّ مناسبة.

رأتني شاباً في السابعة والعشرين أتحرّك حركة الشيوخ، وأمشي في جلال ووقار، وأتزمت في حياتي، فلا موسيقى ولا تمثيلَ ولا شيئاً حتى من اللهو البريء، وأصرف حياتي بين دروس أحضرها، ودروس أُلقيها، ولغة أتعلّمها. ورأتني مكتئبَ النفس منقبضَ الصدر ينطوي قلبي على حزن عميق، ورأتني لا أبتهج بالحياة ولا يتفتح صدري للسرور، فوضعت لي مبدأً هو: «تَذَكَّرْ أنك شاب» تقوله لي في كلّ مناسبة وتذكرني به من حين إلى حين.

والثاني أنها رأت لي عيناً مغمضة لا تلتفت إلى جمال زهرة ولا جمال صورة ولا جمال طبيعة ولا جمال انسجام وترتيب، فوضعت لي المبدأ الآخر: «يجب أن يكون لك عين فنية». فكنت إذا دخلت عليها في حجرتها وبدأت آخذ الدرس وأتكلّم في موضوعه صاحت في: «ألم تر في الحجرة أزهاراً جميلة تَلفتُ نظرك وتُثير إعجابَك فتتحدّث عنها؟» وكانت مغرمة بالأزهار تُعنىَ بشرائها وتنسيقها كلّ حين، وتفرقها في أركان الحجرة وفي وسطها، ويؤلمها أشدَّ الألم أن أدخل على هذه الأزهار فلا أحيِّيها ولا أبدي إعجابي بها وإعجابي بفنها في تصفيفها.

ويوماً آخر أدخل الحجرة فأتذكّر الدرس الذي أخذته في غَزَلِ الزهور فأحيّي وردَها وبنفسجها وياسمينها وكلّ ما أحضرت من أزهار، فتلتفت إلي وتقول: « أليست لك عين فنّية؟» أعجب من هذا الاستنكار، وقد حيّيتُ الأزهار، فتقول: ألم تلحظ شيئاً؟ فأُجيل عيني في الحجرة فلا أرى شيئاً جديداً غير الزهر الجديد، فتقول: ألم تلحظ الحجرة وقد غُير وضع أثاثها؟ لقد كان الكرسيُّ هنا فصار هاهنا، وكانت الأريكة هنا فصارت هاهنا، وتقول: قد سئمتُ الوضعَ القديم وتعبت عيني من رؤيته، فغيّرت وضعه لتستريح عيني، وهكذا. . .

لازمتها أربعَ سنوات، استفدت فيها كثيراً من عقلها وفنها، ولكني لا أظن أنّني استفدت كثيراً من تكرارها على سمعي أن أتذكر دائمًا أني شابٌ.

مناقشات وتمرينات

١ - قد تحمل الترجمة الذاتية عنوان «ثقافة فلان» أو «تربية فلان» مثل: «تربية سلامة موسى» أو (The Education of). وهنا يعرض الكاتب جانباً من هذه «التربية». هل تعتقد أن طريقة مس بور كانت أكثر نجاحاً لو لم يكن أسلوبها في «التربية» عامداً مكشوفاً؟

٢ - هل تعتقد حقّاً أن دور مس بور هو «دور الأم»؟ ولماذا؟

٣ - متى يمكن لصاحب الترجمة الذاتية أن يجعل الاعتراف بالخطأ ميزة في ترجمته؟ ومتى تعتقد أنه يمكن أن يتجنّب الاعتراف؟ (أجب معتمداً على موقف أحمد أمين في هذه القطعة).

٤ - طريقة أحمد أمين في الكتابة سهلة (ولكنها ليست إخبارية ككتابة ابن خلدون مثلاً فيما تقدّم). ما الذي يمنحها تفرّداً: البناء المتدرج؟ أم الفكر؟ أم التحليل للشخصية؟ أم الاعتراف الذاتي؟

-٧-

نعيمة في مدرسة الناصرة*

ليته كان لي، وأنا أكتب الآن عن ذلك الصبيّ القادم من سفح صنين، أن أنتزع من حافظة السنين صورته ساعةَ انفتحت له ثم انغلقت خلفه لأوّل مرّة بوّابةُ «المسكوبية» في الناصرة. ليته كان لي أن أراه يدرج[1] في فِناء تلك المدرسة، وفي يده حقيبته الصغيرة البالية، ثم أن أصوّر جميع الانفعالات والأحاسيس والهواجس والأفكار التي كانت تزدحم على رقعة وجهه السمراء، وفي مقلتيه الحالمتين.

لقد كان يمشي بخطوات ثابتة محاولاً أن يُخفي ما به من وحشة ودهشة عن العيون الكثيرة التي أخذت تَحْدِجُهُ[2] من كلّ صوب. ولكنه ما كان يدري إلى أين يتجه لو لم يتداركه الحاجب الذي فتح له الباب، إذ اقترب منه فأخذ حقيبته ووضعها جانباً، ثم اقتاده إلى مكتب الرئيس في الدَّور الثاني من البناية.

- «أنت ميخائيل يوسف من بسكنتا؟»

- «نعم».

- «وهل لديك دراهم؟»

(*) من كتاب سبعون لميخائيل نعيمة (بيروت، ١٩٧٧) ١: ١١٧ - ١٢٤.
(١) يدرج: يمشي، والدرجان يكون أحياناً للصبي أو الشيخ لأنه مشي ضعيف.
(٢) حدجه: نظر إليه بحدّة.

- «نعم».

- «هاتها لأحفظها لك في خزانة المدرسة، ولك أن تسحب منها قدرَ ما تشاء ساعةَ تشاء».

ناولته ما تبقى في جيبي من الريال المجيدي[1] وخشيت أن يستخف بي أو أن يشفق عليَّ نظراً لضآلة المبلغ. فقد كنت أمقت الشفقة من أيِّما جانب أتتني، وأمقت أن يقيسني الناس بما أملك، أو بما يملك والدي، وبحَسَبِهِ ونسبه والأبواب التي يحصل منها على رزقه ورزق عياله. ولكن الرئيس دوّن الأمانةَ في دفتره بمثل البرودة التي دوّن بها أماناتٍ تفوقها قيمةً بكثير. لقد كان يعرف أن طلاب مدرسته يأتون من شتى الطبقات في شتى البقاع من فلسطين وسوريا ولبنان، بعضُهم من المدن وبعضُهم من القرى: هذا ابن كاهن أو تاجر، وذاك ابن حائك أو خيّاط، وذلك ابن مزارع أو مرابع[2]. فلا عجبَ أن تكون «خرجيّة» الواحد بضعَ ليرات من الذهب، وخرجيّة الآخر بضعةَ «بشالك»[3].

لقد فاتني وأنا في حَضْرَةِ الرئيس أن أصحّح اسمي. فقد دعاني باسمي واسم والدي فقط، ولم يذكر اسم عائلتي - نعيمة. ولكن أيُّ بأسٍ إذا ضاع اسم عائلتي؟ المهم أن لا أضيع أنا. ولن أضيع ما دمت آبى أن أكون نكرة. إنّني سأبرّر وجودي في هذه المدرسة، وسأبيّض وجه المعلّم الذي اختارني وحدي من أبناء بسكنتا للدرس فيها. وكان هو الآخر من خِرِّيجيها.

لم ينفتح قلبي للرئيس ولا هو انغلق دونه. فقد كان في صلعته الكبيرة، وقد غضنتها السنون، وفي لحيته الكثيفة، وقد وَخَطَها

(١) نوع من العملة منسوب إلى السلطان العثماني عبد المجيد.

(٢) المرابع: الذي يفلح أرض غيره على أن يأخذ ربع غلتها.

(٣) البشلك: عملة عثمانية أيضاً، ضئيلة القيمة. و«الخرجية» هو ما يعطاه الولد من المال دورياً لمصروفه الخاص.

الشيبُ، ما يوحي المهابةَ والاحترام. إلّا أن عينيه لم يكن فيهما ذلك البريقُ من العطف والحنان الذي يبعث في نفس الجالس إليه شيئاً من الإيناس والاطمئنان. لقد كان رَبْعَ[1] القامةِ، معتدلَها - لا هو بالسمين ولا بالهزيل. إذا مشى فبخطوات وئيدة موزونة، ومن غير أن يلتفت يَمْنَةً أو يَسْرَةً. وإذا تكلّم فبصوت خافت ليس فيه شيء من الموسيقى، وبعبارات لا تتقطع ولا تتعثر ولكنها خِلوٌ من حلاوة السبك. إلّا إذا كان من داعٍ للتوبيخ والتقريع، فقد كان لسانه إذ ذاك آلَمَ من وقع السوط، وعباراتُه غايةً في البلاغة. ولم تكن تُعْوِزُه المناسباتُ للتوبيخ والتقريع.

ذاتَ يوم من أيّام الصوم الكبير الذي يسبق عيد الفصح خطر لي ولثلاثة من رفاقي أن نرسل الخادم إلى السوق ليبتاع لنا علبتين من السردين. لقد سئمنا المجدّرة والزيتون وحساء العدس والصعتر مع الزيت. وباتت مِعَدُنا تشتهي طعاماً فيه شيء من الدسم وإن لم يكن غير سردين. وكان محظوراً علينا أن نغادر المدرسة إلّا في نزهة جماعيّة، وبرفقة أحد المعلّمين، وإلّا للذهاب إلى الكنيسة أيّام الآحاد والأعياد. لقد كانت حياتنا أشبه بحياة الرهبان في الدير. وعندما جاءنا الخادم بمشتهانا وببعض الخبز من المطبخ انزوينا في إحدى الغرف وأغلقنا الباب وفتحنا السردين ورحنا نلتهمه وكأنّه أطيب ما في الكون من طعام، وكأنّنا في وليمة أعدّها لنا الساروفيم والشاروبيم[2]. ونحن كذلك، وإذا بالباب يفتح بغتة وبالرئيس يدنو منّا وقد امتقع لونه وارتجفت لحيته. فتسكّرت أشداقنا، وانسدّت حلاقيمنا، وتحجرت اللقمة في أفواهنا. وللحال انقضّت علينا الصاعقة، لا تُشفق ولا ترحم. وما كان من الرئيس إلّا أن جمع التلاميذ كلّهم عند المساء

(١) الرجل الربع والمربوع: ليس بالطويل ولا بالقصير، وتقول رجل رَبْعَة أيضاً.

(٢) فئتان من الملائكة (Seraphim, Cherubim) ولعل الفئة الأولى هي التي تسمّى في العربية «الروحانيين» والثانية «الكروبيين».

في البهو الكبير ووقف فيهم خطيباً أو مُقرِّعاً: إنهّم يكفرون بالنعمة التي هم فيها، إنهم لا يكتفون بما تقدّمه لهم المدرسة وهو فوق ما يستحقون بكثير، وفوق ما تعوّدوه في بيوتهم. إنهم يستخفّون بالدين وما رتّبه الدين من قوانين لتنقيتهم من الخطايا ولخلاص نفوسهم. إنهم ينسون فضل الذين فتحوا لهم هذه المدرسة من تبرّعات آلاف المؤمنين في روسيا. إنهم خنازير وكفى.... وكان من حسن حظّي وحظّ رفاقي أنّه لم يذكر أسماءنا.

اسكندر جبرائيل كزما الدمشقي المنبت والمولد، أو «المعلم اسكندر» كما كنّا نعرفه ويعرفه زملاؤه من المعلّمين - ذلك هو الرجل الذي أُنيطت به[1] إدارةُ دار المعلّمين الروسية في الناصرة منذ تأسيسها في أواخر القرن الماضي وحتى دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وإغلاقِها جميعَ المؤسساتِ الروسيةِ في الشرق. ولقد أحسن الإدارة فازدهرت المدرسة بقيادته وخرّجت أفواجاً من المعلّمين المتدرّبين أحسن التدريب. حتى إنَّ الانكليز، بعد احتلالهم لفلسطين، لم يجدوا مناصاً من الاستعانة بأولئك المعلمين وخبرتهم في إدارة معارف فلسطين ومدارسها. واسكندر كزما، وإن لم يعرف وجهه الابتسامة إلاّ نادراً، كان في الواقع يطوي ضلوعه على قلب كبير أبويّ. لقد كان من الرعيل الأول بين أبناء العرب الذين قُدّر لهم أن يدرسوا في بلاد القياصرة. وكان، علاوة على مهامِّ الرئاسة، يقوم بتدريس الدّينيّات في صفوف المدرسة الثلاثة.

عندما انتهت مقابلتي القصيرة مع الرئيس أمر الخادم بأن يمضي بي إلى وكيل الخَرْج ثمّ إلى غرف النوم في الدور الثالث ليدلّني على سريري. ووكيل الخرج أحالني على امرأة ودَّعَتْ من عمرها أكثر من نصف قرن. وهذه اختارت لي من بين كومةٍ كبيرة من الثياب أَنْسَبَها

(١) انيطت به: علّقت به اي وُكِلَتْ إليه.

لقامتي وجسمي. وهي كناية عن طربوش وقمباز وسترة رمادية من الجوخ بالإضافة إلى الحذاء والثياب التحتانيّة. فلا الطربوش ولا القمباز كان جديداً ولا السترة. لقد قضت حكمة الرئيس أن يعامل جميع التلاميذ كما لو كانوا أفراد أسرة واحدة. فيلبس الفوج الجديد منهم مخلّفات الفوج الذي سبقه، ولا يجري تجديد أيّ قطعة إلاّ من بعد أن تُخفق كلّ حيلة في رقعها أو رتقها. وحسبُ المعلّم اسكندرَ حكمةً أنّه أصرّ على أن يلبس الطلاّب الزّيَّ العربيَّ المألوفَ في بلادهم بدلاً من الزّي الفرنجي الذي ارتأته في البداية الجمعية الإمبراطورية عند تأسيسها المدرسةَ. وكانت حجته أن الأكثرية الساحقة من الطلاب لم تتعوّدِ الزيَّ الفرنجي ولا هي تملك المال للمضي في لبسه. وكان على حقّ.

* * *

ذلك الضباب الذي اكتنفني عندما وصلت الناصرةَ أخذ يتبدّد ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم. ففي خلال أسبوع بتّ أعرف عن المدرسة أشياء كثيرة كنت أجهلها. عرفت أن منهاجها يمتدّ لستّ سنوات مقسمة على ثلاثة صفوف - لكل صف سنتان. وعرفت أن عدد الطلاّب فيها يكاد لا يتجاوز الأربعين - نصفهم في الصف الأوّل الذي هو صفّي. وعرفت أنهم خليط من مدن فلسطين وسوريا ولبنان وقراها - من القدس وبيت جالا والناصرة والرامة وكفر ياسيف وعكا وصور ودمشق وحمص وطرابلس والكورة وراشيا والكفير وغيرها وغيرها. ولم يطل بي المُقامُ حتى حفظت أسماء جميع المعلمين الذين كان بعضهم من الروس وبعضهم من العرب، وأسماء جميع الطلاب. وعرفت أشياء عن كلّ منهم: من أين جاء، وما هي سمعته في المدرسة من حيث السلوك والتحصيل، وأيُّ المعلّمين أحبُّهم إلى التلاميذ، وأيُّهم أبغضهم.

لقد كنت أعرف أن ذلك سيحصل بالتدريج وأن شعوري

بالغربة لن يطول مداه. والذي كنت أخشاه هو أن أجدني متأخراً عن رفاقي في فرع أو أكثَر من الفروع.

وقد صحّ حَدْسي ووقعت في ما كنت أخشى الوقوع فيه عندما دخلت لأوّل مرّة فصل اللغة الروسية، فوجدت أن المعلّم رجل روسي لا يفقه كلمة واحدة من العربية، وسمعت بعض رفاقي يخاطبونه بالروسية فيفهم ما يقولون ويفهمون ما يقول، في حين أن بضاعتي من الروسيّة ما كانت تتعدى المئة من المفردات في أبعد تقدير، وأن لساني كان يتعثر كثيراً حتى في قراءتها. لقد كنت «كالأطرش في الزفة». فيا ويلي، ويالَتَعْس حظّي! إن تكن تلك حالي مع اللغة الروسيّة فماذا عساها تكون مع الحساب والجغرافيا وتاريخ روسيا وغيرها من الموادّ التي تدرس بالروسيّة؟ حقّاً إنها لكارثة....

خرجت من الصفّ شاكراً ربيّ لأنّ المعلّم لم يتوجه إليّ بسؤال. ولكنني شعرت بغمامة كثيفة رهيبة سوداء تلفّني وتضغط عليّ حتى لتكاد تزهق الروح مني. ولم يُجْدِني في التخلّص منها أن أخاطب نفسي مشجعاً:

«قوّ قلبك يا ميخائيل. لا تجبن. كنتَ الأوّلَ في بسكنتا، ولن تكون الأخير في الناصرة، أنت في بداية الشوط. ولا بأس إذا تخطاك غيرُك. المهمّ أن تثبت حتى نهاية الشوط. وستثبت. ولن تكون إلاّ في الطليعة. ذلك ما يتوخّاه طموحُك. وذلك ما يتوقّعه منك والداك. وذلك ما ليس يرضى لك بأقلّ منه الشخروبُ وصنين».

لا. لم يُجْدِني شيء من ذلك في تبديد تلك الغمامةِ الرهيبة. وأجداني ابنُ المقفّع وابن مالك وابن عقيل - رَحمَات الله على الثلاثة. فقد اتفق أن تلا درسَ اللغة الروسية درسٌ في اللغة العربية. وكان المدرس رجلاً في العقد الرابع من عمره، مديدَ القامة، ممتلىء الجسم،

طويل الشاربين، مشرق البَشَرة، رصين الحركات، واسمه جبران فوتيه، من بيروت. وكنّا قد سمعنا أنّه حُجّة في اللغة، وأن له مؤلفاً في بحور الخليل أسماه «البسط الشافي في علمي العَروض والقوافي». وهو الكتاب الذي اعتمدناه بعد سنتين في فكّ طلاسم العَروض، وحسبنا من بعده أنّنا بتنا نملك المفتاح إلى الشعر وقلبه الفسيح.

ما إن استقرّ معلّمنا على دكّته العالية حتى دفع إلينا بنُسخة غير مشكولة من «كليلة ودمنة» وراح يطلب إلى كلّ منّا أن يقرأ فيها مقاطع هنا أو هناك وأن يقرأها مع الحركات. وكان يبغي من ذلك أن يعرف أين نحن من صرف لغة الضاد ونحوها. وفي الحال سُرِّيَ عني إذ تبيّنت الهفَواتِ الكثيرةَ التي كان يرتكبها العدد الأكبر من رفاقي. وعندما جاء دوري قرأت ما وقع من نصيبي بصوت مطمئن وبدون خطأ. فكانت تلك القراءة بدايةَ عَلاقة طيّبة بيني وبين صاحب «البسط الشافي». وكانت النسمةَ المباركة التي مزّقت ثمّ بدّدت الغيمة الرهيبة من عيني وقلبي - ولو إلى حين.

وأنا إذ أشهد بفضل ابن المقفّع في تبديد غمّتي أشهد بفضلٍ مثله لابن مالك وابن عقيل. ذلك أن منهاج العربيّة للسنوات الستّ كان يبتدىء بتدريس ألفيّة ابن مالك، كما شرحها ابن عَقيل، وينتهي بتاريخ الأدب العربي من وضع أحد المستشرقين الروس. والغريب أن تستهويني ألفيّة ابن مالك على ما في استظهار متنها من إرهاق للذاكرة وما في تفهم شرحها من مشقّة للفكر. ولعلّ ذلك عائد إلى محبّتي الفطريّة للّغات إجمالاً، وللعربيّة بالأخص، وإلى رغبتي الشديدة في فكّ طلاسمها الصرفيّة والنحويّة. وها أنا، وقد مرّ على أوّل عهدي بتلك الألفية أكثرُ من نصف قرن، أردّد بلذّة استهلالَ صاحبها:

«قال محمدٌ هو ابن مالكِ   أحمد ربي الله خير مالكِ
مصلّياً على الرسوّل المصطفى   وآله المستكملين الشرفا

وأستعين اللهَ في ألفيّه   قواعد النحو بها محويّه»

لله درُّك يا ابن مالك! ومَنْ ذا لا يصلي معك ويسلّم، ولا يستعين اللهَ في عمل لم يجئ بمثله الأوائلُ أو الأواخر؟ إنه لعمل لا يُقدم عليه إلاّ مجنون أو عبقري. وأنت عبقري يا ابن مالك. لذلك استعنتَ الله فأعانك على استيعاب جميع قواعد النحو في ألف بيت - لا تزيد بيتاً ولا تنقص بيتاً. فكانت المعجزة. وجاء هذا الصبي من سفح صنين يشهد بها وبفضلها عليه وعلى الأجيال من قبله على مدى مئات السنين. ويشقّ عليه يا ابن مالك أن يخالط الأجيال الجديدة فلا يرى فيها لمعجزتك أيَّ أثر. إنها لأجيال تكفر بالمعجزات، وتكفر حتى بالكثير من قواعد النحو التي أفنيتَ زهرة عمرك في حصرها ضمن أرجوزة من ألف بيت. إنها لأجيال لا قِبَلَ لها بالطلاسم والمعقّدات. إنها تبغي السرعة والتبسيط في كلّ شيء. إي. لقد تغيّرت الأزمنة. وتغيّرت الأشياء. وتغير حتى نبضُ الحياة يا ابن مالك. فلم يبقَ لمثلك في هذه الدنيا مُقَام - إلاّ في قلب هذا القلم الذي يسلّم عليك ساعةَ وُلِدْتَ وساعة متّ وساعة قلت:

«كلامنا لفظ مفيد كاستقمْ   إسمٌ وفعل ثم حرفُ الكلم»!

مناقشات وتمرينات

١ - هذه البداية بالتمنّيات هل تعني وجود مسافة واسعة بين ما تستطيع الذاكرةُ استرجاعَه وبين الصورة الحقيقية الواقعية؟ وإذا لم تقصر الذاكرة فما هي الحكمة من افتتاح الفصل بالتمنّيات؟

٢ - لنعيمة «أخلاقية صارمة» في هذه القطعة: ضع حدودَها وسماتها وبيّن هل فيها قيم تغيّرت.

٣ - صوّرَ نعيمة المفارقة بين لهفة الشاب المترقب ورئيس المدرسة

الركين الثابت: كيف يخدم هذا التقابل السياق الفنيّ في القطعة؟

٤ - تبدو شخصية الأستاذ اسكندر كزما من الخارج كأنها قطعة من الرخام ولكنها في الوقت نفسه تنطوي على قلب إنساني وقيم لا هوادة فيها. كيف تصنف مثلَ هذه الشخصية؟ وهل بينها وبين مس بَوَر مشابه؟

٥ - أصالة ميخائيل نعيمة في محبّته للغته العربية أمر لا يتطرّق إليه شك، كيف أعلنتْ عن ذاتها في هذه القطعة؟ قارن بين نظرته إلى اللغة العربية ونظرة توفيق الحكيم.

٦ - صوّر النقلة من الشعور بالغربة والحنين إلى الشعور بالاندماج في البيئة الجديدة لدى نعيمة حين التحق بمدرسة الناصرة.

- ٨ -

من ذكريات الطفولة
لعبد المجيد بنجلون*

رجعنا إلى منشستر، واستقبلتنا أمّي وأختي عند عتبة باب المنزل ومعهما آل باترنوس وآخرون، ولاحظتُ الانشراح على وجه أمّي ووجه أختي لعودتنا. وما كدت أطمئنّ الى أنّ الجميع أخذ مكانه من غرفة الاستقبال وانصرف الى الحديث مع أبي وأمي حتى تملكتني رغبةٌ لم أستطع مقاومتها، فانسللت رويداً رويداً من الغرفة وانطلقت أبحث عن درّاجتي الصغيرة.

وجدتها قائمة إلى جانب الحائط وقد مالت عجلتها الأولى نحوه وعلاها الغبار، وهي في وضعية حزينة كأنها تشكو إلى أسفل الحائط ما أصابها من غَبْنٍ[1] في هذه الأيام الأخيرة، فأقبلت عليها أنفض عنها الغبار وأنا أكاد أعانقها من شدّة الحنين إليها، كما فعلت يوم قُدِّمتْ لي هديةً في عيد الميلاد، فخيّل إليَّ أنّ الحزن يزايلها قليلا قليلا، ولم تمرَّ سوى لحظاتٍ حتى كنت قد ركبتها وانطلقت عليها كالسهم في الشارع.

تملّكني خلال ذلك شعور غريب - وقد تملّكني منذ دخلت

(*) من كتاب «في الطفولة» (الدار البيضاء، المغرب) ١: ١١٣ - ١٢١.

(١) الغبن: النسيان وهذا يعني الاهمال.

المنزل - ذلك أنني كنت أتأمل الشارع فإذا كلّ شيء فيه على سابق عهده: النوافذ والأبواب والأرصفة وأعمدة النور وكلّ شيء في مكانه القديم كما كان. ولكن بالرغم من أنّ الجزئيات كانت تامة فإنّ مظهرها قد تغير. وهذا ما لا أزال ألاحظه كلّما غبت عن مكان ورجعت إليه - ولعلّ الناس جميعاً يشعرون بذلك - ولا بدّ من مرور وقت كافٍ لأجل أن يعود هذا المظهر العام إلى سالف عهده، فهل للأمكنة كما للانسان نفوس أم أن العيون لا تدرك الأشياء على حقيقتها إلاّ بعد أن يتكرّر النظر إليها؟ سؤال لا مجال للبحث عن الردّ عليه هنا.

وبينما كنتُ أستغرب لهذا سمعت صفيراً حاداً فالتفتُّ فإذا بالصديق ريجي واقف عند باب منزله يلوّح لي بيديه ويدعوني، فخفّفت من السرعة ثمّ عرّجت عليه.

قال وأنا أترجّل إلى جانبه: متى رجعت؟ لقد غبت عنّا مدّة طويلة. وبعد أن تبادلنا بعض العبارات فهم أنّ الرحلة كانت مهمّة فأقبل عليَّ يقول: لنجتمع غداً في الصباح في الشارع الخلفي حيث نستطيع أن نتحدّث عن رحلتك وما رأيت فيها، فوافقت، وافترقنا.

كنّا جالسين حول مائدة الإفطار حينما انطلق الصفير في الشارع الخلفيّ، فاحمرّ وجهي لأنّ تنادينا بالصفير كان لا يعجب آباءنا وأمّهاتِنا، فقد كانوا يعلمون أنّ في هذا التنادي ما يدعو إلى الظنّ بأننا نفعل ذلك للقيام بعمل لا يحبّونه. ونظرت إلى أبي ثمّ إلى أمّي فخُيِّل إليَّ أنهما لم يسمعا، ثم نظرتُ إلى أختي فأبصرتُ بريقَ الإدراك في عينيها، وقد كنت قلت لها من قبل إننا سوف نجتمع في الشارع الخلفي لأحكي للأصدقاء الصغار ما رأيت، وبدأت أتحرّك لأنزل من الكرسي، ولكن بينا كنت أفعل انطلق الصفير مرّة أخرى، ونظر إليَّ أبي وقد شكّ في العلاقة بين الصوت وحركاتي، فقفزت - تلافيا للحرج - إلى الأرض وانطلقت أعدو.

فتحت الباب وخرجت فوجدت جماعة كبيرة من الأطفال تطوّع ريجي باستدعائهم بالصفير لأجل أن يستمعوا إلى القصة التي سوف أرويها عن هذه البلاد البعيدة التي كنت فيها. جلست على عتبة الباب العالية وجلس الأطفال حولي يصيحون ويتساءلون وينظرون إليّ نظرات لا تخلو من الإعجاب والتقدير.

قال ريجي: ما اسم هذه البلاد التي كنتَ فيها؟ قلتُ: «مراكش».

قال: هيّا، لا داعيَ لإضاعة الوقت،حدِّثنا عن مراكش.

قلت: بلاد جميلة شمسها ساطعة ومناظرها بهيجة، ولكنها حافلة بالغرائب.

وما كدت ألفظ هذه العبارة حتى برقت العيون ومالت الأعناق بالرؤوس الصغيرة وتطلّع إليّ الأطفال.

هيّاحدِّثنا عن الغرائب، حدّثنا عن الغرائب!

فكّرت قليلا وأنا أحاول عبثاً أن أجد مفتتحا للحديث، وأخيراً أنقذني أحدهم حينما سألني: هل يذهب الأطفال إلى المدرسة في هذه البلاد التي تقول إن اسمها مراكش؟

– آه المدرسة، نعم يذهبون إلى المدرسة، ولكن هل تعرفون ما هي المدرسة؟ غرفة مظلمة مفروشة الأرض بما يشبه التبن، يجلس عليها الأطفال وأمامهم المدرّس في مكان عال بارز يحمل عصاً طويلة في يده، وهو يحثّ التلاميذ. هل تعرفون علامَ يحثّهم؟ على إحداث الضجيج، على رفع الصوت والصياح، وويل للتلميذ الذي يتوانى في إحداث الضجيج!

– هل يتعلّمون إحداث الضجيج؟!

– لست أدري، لا بدّ أنّه الضجيج، فإنّ كبارهم يبرهنون دائمًا على أنهم تلقّوا في صباهم دروساً قيّمة وبليغة الأثر في هذا العلم. دعنا من هذا، ولنفرض أن أحد التلاميذ ارتكب ما يستحق عليه العقاب، هل تظنّون أن المدرّس يطلب إليه أن يمدّ يده ليضربه؟ كلّا. بل يوجد في كلّ مدرسة عادة تلميذ قويّ لا يكاد ينظر إليه المدرّس نظرةً ذاتَ مغزىً حتى يخفّ الضجيج فجأة، وينقضّ ذلك التلميذ القويّ على المذنب في لمح البصر، وبحركة واحدة رشيقة يطرحه أرضاً ويرفع باطن رجليه إلى المدرّس، وهنا ينفخ هذا الأخير في يديه وهو يختار من بين العصيّ التي يضعها إلى جانبه أمتنهَا عوداً وأحدَّها وقعاً، ثم يأخذها وهو يشمّر عن ساعده الأيمن، ثمّ يضرب بها الهواء في خبرة – كما يفعل الحوذي [1]– وذلك لكي يتأكد من جودتها. وهنا تبدأ عملية الضرب، الضرب الشديد المتواصل فيتعالى صوت المسكين بالصراخ...

وهنا قال طفل صغير لم يستطع أن يكتم شعوره: آه آه هذا مروّع! وقال آخر متسائلاً: أليست هذه بلاداً غريبة؟

فاستأنفت: تلك هي الكلمة: بلاد غريبة، كل شيء فيها غريب، أطفالها، نساؤها، رجالها، أكلها، بيوتها، كل شيء. هل تعرفون قصة الأكل هناك؟ إن الناس يأكلون وينامون في غرفة واحدة، ويجلسون وينامون على مخدات كبيرة، في وقت النوم تنقلب إلى غرفة النوم. ففي وقت الافطار والغداء والعشاء، يقبل الخدم بمائدة قصيرة الأرجل يضعونها على الأرض ثم يضعون حولها المخدات ثم تقبل خادم صغيرة وهي تحمل آنية صفراء في يد وفي يدها الأخرى إبريق تطوف بهما على الجلوس تغسل اليدين – نحن نسعى إلى الحنفيات، أما هم فتسعى الحنفيات إليهم – ثم يجلس الناس حول المائدة على

(١) الحوذي: سائق العربة.

المخدات ولا يوضع عليها إلا طبق واحد كبير وحوله الخبز، ثم ينكب الجميع على ذلك الطبق الواحد بأيديهم يلتهمون ما فيه.

قال أحد الأطفال: عرفت تلك البلاد الآن، عرفتها، لقد رأيتها في السينما، إنها بلاد الزنوج.

قلت: تعني البلاد التي يسكنها السود؟! كلا. فأهل هذه البلاد وإن كانوا غرباء في كل شيء إلا أن بشرتهم بيضاء، وهم في أشكالهم مثلنا تماماً، إنهم يزاولون جميعَ الأعمال التي نزاولها ولكن بطريقة غريبة.

وهنا احتدم نزاع علميّ بين الأطفال، فقد راحوا يختلفون حول موقع هذه البلاد، وكانوا يستقون معلوماتهم من السينما، فترددت على ألسنتهم شعوب هي الغجر، الهنود الحمر، الأسكيمو، الزنوج، كلّ واحد يروي ما رآه في السينما ويزعم أنّه يعرف البلاد التي أتحدّث عنها. فوقفت أنظر إليهم وأنا أنتظر أن يصلوا في نزاعهم إلى قرار، واستطعت أن ألتفت وأرى إلى جانبي أختي تتطلّع إليّ في صمت، وقد علَت وجهَها تلك المسحةُ الغريبة التي كنت أكرهها. ولعلّي ضقت ذرعاً بنزاع الأطفال، فقد تعلّقتْ نظراتُهم بي وهم يخشون أن أنصرف دون أن أتمّمَ لهم حديثي عن الغرائب التي رأيتها. حينئذ جلست مرّة أخرى.

قال طفل: هيّا حدّثنا عن الحرب، كيف يتقاتلون؟ قلت: هذه بلاد ليس فيها حربٌ ولا قتال، ولا أظنّ أنّ أهلها يغامرون، فإنهم مسالمون ينزعون إلى نعومة الحياة وَرَغَدِهَا، وهذا يكفي في الدلالة على أنهم ليسوا من الغجر. ولا الأسكيمو ولا الهنود الحمر ولا الزنوج... إنّهم لا يعرفون القتال، ولكنّهم يعرفون الأفراحَ، ويعرفون الأكل الجيّد، ويولعون بالأشياء البرّاقة...

وهنا انطلق صوت ممطوط يصيح: ريجي! ريجي! إنها والدته تناديه، فهبّ واقفاً وهو يقول: يجب أن أذهب، إنّ أمّي تناديني، لقد

نسيتُ أن أنفّذ ما طلبتْهُ مني، ولكن لا تستمر، أريد أن أسمع البقية... هل نجتمع هنا بعد الظهر؟ قولوا إنّكم موافقون لأجل أن أنصرف.

كان يلقي كلماته في سرعة وهو يبتعد عنّا، ولذلك لم يَسَعْنا إلاّ أن نوافقه، فقد كان حرصه شديداً، وكان هذا الاجتماع، فوق ذلك، قد عُقِدَ بناءً على دعوته هو دون بقيّة الأطفال.

مناقشات وتمرينات

١ - ما هي «أشياء» الطفولة في هذه القطعة؟

٢ - يلاحظ أنّ الطفل ابن جلون يقفز عن موضوعات مشوّقة (الشمس الساطعة في المغرب بالمقارنة إلى الجوّ المكفهرّ في منشستر، التعلّم بإحداث الضجيج ويقول: دعنا من هذا ولنفرض... الخ) لماذا تراه يفعل ذلك؟

٣ - هل تعتقد أن التعليق على تغيّر الأشياء رغم احتفاظها بكلّ جزئيّاتها أمر يستطيع الطفل أن يلحظه؟

٤ - ما هي المظاهر المغربية التي لفتت انتباه الطفل ابن جلون؟ هل ثمّة تشابه بين هذه المظاهر وبين مثيلاتها في المشرق العربي إلى عهد غير بعيد؟ وهل في تلك المظاهر المغربية خصوصية تستحق من الطفل اهتماماً دقيقاً دون سواها؟

-٩-
عودة المغترب إلى بلده
لمالك بن نبي*

إنّ العادة في قرانا الصغيرة، تقضي بأن يكون أطفال الحيّ هم الذين يعلنون للأسرة نبأ وصول المسافر، فما إن وصلت إلى ميدان الرسول (في تِبِسَّة)[1]، حتى ترك الصبيان ألعابهم وانطلقوا يتسابقون إلى بيتي وهم يصرخون:

- سي [2] الصدّيق جاء! سي الصدّيق جاء!...

وما إن وصلت إلى عتبة دارنا، بين مهرجان الأطفال المحتفلين بقدومي، ومن يهنئني من قدماء الجيران مثل حشيشي مختار، حتى كانت والدتي في انتظاري في أعلى السلّم متّكئة على عكّازها والبشرى تشرق على وجهها، فمدّت لي على عادتها يدها الحبيبة فقبّلتها، وقبّلتها هذه المرّة لأنها أيضا يد الحاجّة التي تعلّقت بحلقات الكعبة، وبشبّاك رسول الله بالمدينة.

إنّ سعادة هذه اللحظة لا تقدّر بثمن... بينما راحت أختاي

(*) من كتاب «مذكرات شاهد القرن - الطالب» (دار الفكر، طرابلس، لبنان) ص ١٢٤ - ١٣٠.

(١) تبسّة: مدينة جزائرية تقع في شرق الجزائر.

(٢) سي: اختصار للفظة «سيد» أو «سيدي».

تقبّلانني، وأنا أتفرّس في وجه الوالدة، فأجده أجمل ما رأيته قطّ، وعليه غشاوة[1] من العطف والرقّة لم أعرفها من قبل بهذه الدرجة.

لم يكن والدي في انتظاري، لأنّ وصولي هذه الساعةَ لم يكن متوقّعاً، فوصل بعد حين، أخبره بعض أطفال الحيّ، ولم يكن من عادته الابتسام أمام صبيان، فهو من الآباء الجزائريين الذين يجمّدون على العموم اندفاعات أطفالهم، ولكن كان وجهه يُشرق ابتساماً كلّ مرّة أعود من الخارج، ربّما لأنّ يوم وصولي كان دائمًا عيداً للأسرة.

فتحدّثنا طيلة العشاء عن حالتي الصحيّة وعن دراستي، بينما كنت متعطّشا لانطباعات والدتي عن الحجّ، أنتظر الساعة التي تعوّدتها للحديث معها، فكانت أسعد ساعة هي تلك التي أمضيها قبل عودة أبي من فسحته الليلية، في الحديث مع والدتي، فخرج والدي تلك الليلة كعادته، وأذنت لي والدتي كعادتها بالخروج، بل أمرتني أن أخرج لأتسلى مع الأقران.

ولم يأتِ عمدة المدينة وحاكمها بباقة زهور لاستقبالي، ولكنّني وجدت تبسّة كأنها تجمّلت لاستقبالي تلك الليلةَ، وجدت فعلاً أصدقائي في انتظاري بميدان الرسول وقد انضمّ إليهم الجار حشيشي مختار الذي يسكن بيتاً كان قد تركه والداه خراباً وهو البيت الوحيد الذي نجا في هذا الحيّ من يد الملاّك الفرنسي الكبير بتبسّة..

نشأ مختار دون أن يتلقّى أيّ نوع من الدراسة في مكتب أو مدرسة، نشأ على الطبيعة وعلى عادات الشارع، مثل أطفال تبسّة في تلك الفترة.

فمن توجيه الشارع له، أنّه بدأ يساهم في غزوات أقرانه للبساتين حول السور، حتى بستانِ والده، ثمّ تصاعد نجمه فانضمّ إلى

(١) غشاوة: مثلثة الغين (يعني يجوز فيها الفتح والضم والكسر).

عصابات أطفال تغزو في السوق بعض الدكاكين السهلة المنال. وعندما كان أصحابها يرون تجمّعاً كهذا كانوا يعرفون أنّ بضاعتهم المعروضة على الأرض، من بطيخ وشمّام، سينالها النهب. ولم تكن تبسّة تعرض مثل هذه الجرائم على محكمة جُنحِ الأطفال، وإنّما كانت تصفّيها حسب العرف.

ثمّ وجّه الشارع مختاراً إلى ممارسة اختلاسٍ ماهر من نوع القمار يكون ضحاياه غالباً من شبّان العشائر الذين يفدون على المدينة يومَ السوق، حيث ينتظرهم مختارٌ وأمثاله ليغرّروا بهم بلعب «الورقة الحمراء رابحة» فيمكرون بهم مكراً ماهراً.

ثمّ أصبح مختار يعكف في المقاهي الأوروبية على القمار، فبدت عليه علامات اليسر وتأنّق لباسُه، حتى أصبح أهالي المدينة يتضايقون منه بسبب معايشته الأوروبيين أكثرَ من ممارسة القمار.

انتهى به توجيه الشارع إلى هذا الحدّ. . . ومات والداه.

ولكن آن أوان الإصلاح في الجزائر، وفي تبسّة على وجه الخصوص، فتولّت الطبيعة والفطرة التوجيهَ الجديد، وإذا بالتبسّيّين يشدهون ذاتَ يوم، إذ يرون مختاراً يتقدّم للجنة الاكتتاب لبناء المدرسة بمبلغ عَشْرة آلاف فرنك وهو مبلغ معتبر في ذلك العهد، ومما يزيد الأمر أهميّة أنّ أهالي المدينة لم يروه بعد ذلك اليوم يمارس قماراً ولا يتناول خمراً.

هكذا أصبح مختار مناضلاً في حركة الإصلاح. . . حتى السكّير «بنيني» تراجع عن الإدمان في تلك الفترة، ولم يبقَ ذلك الكائنَ التعيس الذي تفور من فمه ومرقعاته رائحة الخمر، والذي يسوقه الشرطي أنطونيني إلى السجن كلَّ مساء، لم يبقَ هو الآخر على حالته. . .

كنت متعطشاً، تلك الليلةَ، لحركة الإصلاح في هذا الجوّ المنقّى . . . حتى أعلم كلّ ما أستطيع عما يدور هنالك. فتحدّثنا عن اشياء كثيرة تخصّ تلك المرحلةَ التي أصبح فيها الشعب يتّخذ من كلِّ حجر وسيلة لبناء مدارسه ومساجده وأنديته، ومن كلّ حطب عِصِيّاً في وجه الاستعمار - لم تفقد مدينة تبسّة تلك الحساسية السياسية التي اكتسبتها منذ بداية القرن. . . كانت سماؤها تشعّ فوق رؤوسنا، ونحن في هذا الحديث، جمالاً مشرقاً، ونجومها تصبّ في قلبي ابتهاجاً لا أستطيع التعبير عنه.

وكانت والدتي تنتظرني لتقصّ عليَّ قصّة حجّها، ولم يكن والدي قد رجع بعد من فسحته، عندما رجعت إلى البيت:

- قصّي عليَّ يا أمّي ما رأيت وما سمعت وكلَّ انطباعاتك. . . .

بادرت والدتي حالما جلست على طرف سريرها تقول:

- ماذا أقصّ عليك يا ابني! . . .

كانت هذه العبارة على لسان والدتي تعني ازدحام ما تريد قولَه، فأصغيت:

- إيهِ! . . . دنيا أخرى. . .

واسترسلت، وكنت أخشى أن تسكت عندما ترى دمعي، رغم أن الغرفة كانت نصف مظلمة، كعادتنا في ليالي الصيف خشيةً من الحشرات، بحيث لم نترك موقداً إلاّ «ضوّاية» في الفناء.

ولكن كان الحديث مؤثراً بحيث تهزّني منه أحياناً هزّات لا أستطيع كبتها، فأتظاهر بالعطش وأذهب للبلكون حيث توجد برّادات الماء، فأطلق العنان للدمع، ولا شكّ أن والدتي كانت، دون أن تُظهر ذلك، تتبّع تلك الحالاتِ النفسيةَ على وجهي.

مناقشــات وتمرينــات

١ - في هذه القطعة ترتسم العاطفة الدينية العميقة لدى مالك بن نبي؛ وضّح ذلك.

٢ - هل يفصل بن نبي بين الأم (المتديّنة) والجزائر، بين حركة الاصلاح و«توبة» حشيشي مختار وأمثالِه؟

٣ - لماذا ترى في شخصية مختار «محوراً» لمراحلَ ثلاثة في حياة الجزائر؟ (القرية الطيّبة - ذلّ الاستعمار - الانتفاضة...).

-٢-
الآباء والأبنــاء

-١٠-

من مروان الى ابنه عبد الله
من إنشاء عبد الحميد الكاتب*

اعلم أنّ الظَفَرَ ظَفَران: أحدُهما - وهو أعمُّ منفعةً، وأبلغ في حسن الذّكر قَالَةً، وأحْوَطُه سلامةً، وأتمّه عافيـة، وأعوده عـاقبة، وأحسنه في الأمور مورداً، وأعلاه في الفضل شرفاً، وأصحّه في الرؤية حزْماً، وأسلمه عند العامّة مصدراً - ما نيل بسلامة الجنود، وحسن الحيلة، ولـطف المكيـدة، وَيُمْن النقيبة[١]، واستنـزال طـاعـة ذوي الصّدوف[٢]، بغير إخطار[٣] الجيوش في وقدة جمرة الحرب، ومنازلة الفرسان في معترك الموت، وإن ساعدك الظّفر، ونالك مزيد السّعادة في الشّرف، ففي مخاطرة التلف مكروه المصائبِ، وعِضاضُ السّيوف، وألم الجراح، وقِصاص الحروب وسِجالها بمغاورة أبطالها. على أنك لا تدري لأي الفريقين يكون الظفر في البديهة[٤]، ومَن المغلوب في الدولة؟[٥] ولعلّك أن تكون المطلوبَ بالتّمحيص[٦]. فحاول إصابة

(*) من رسالة لعبد الحميد الكاتب في رسائل البلغاء (تحقيق محمد كرد علي، القاهرة، ١٩٤٦) ص ١٨٩ - ١٩٤.

(١) يُمْنُ النقيبة: حسنُ الطالع ونَجْح المطالب.

(٢) الصدوف: المجانبة والابتعاد.

(٣) إخطار الجيوش: تعريضها للخطر.

(٤) في البديهة: في أوائل الحرب.

(٥) في الدولة: اي حين تحسم الأمور فيظهر الغالب من المغلوب.

(٦) التمحيص: الاختبار والبلاء.

أبلغهما في سلامة جندك ورعيّتك، وأشهرهما صيتاً في بُدُوّ تدبيرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليّك وعدوّك، وأعونهما على صلاح رعيّتك وأهل ملّتك، وأقواهما شكيمة في حَزْمك، وأبعدهما من وَصْم عزمك، وأعلقهما بزمام النّجاة في آخرتك، وأجزلهما ثواباً عند ربك.

وابدأ بالإعذار إلى عدوّك(١) والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة، وأمر الجماعة، وعُرى الألفة، آخذاً بالحُجّة عليهم، متقدّماً بالإنذار لهم، باسطاً أمانَك لمن لجأ إليك منهم، داعياً لهم إليه بألْيَنِ لفظك، وألطف حيلتك، متعطّفاً عليهم برأفتك، مترفّقاً بهم في دعائك، مشفقاً عليهم من غَلَبة الغَوَاية لهم، وإحاطة الهلَكة بهم، مُنْفذاً رسلك إليهم بعد الإنذار، تَعِدُهم إعطاء كلّ رغبة يَهَشّ إليها طمعهم في موافقة الحقّ، وبسطَ كلّ أمان(٢) سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم، موطّناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بوعدك، والصّبر على ما أعطيتهم من وثائق عهدك، قابلاً توبة نازعهم عن الضّلالة(٣)، ومراجعة مسيئهم الى الطاعة...

ثمّ أذْكِ عيونَك(٤) على عدوك، متطلّعاً لعلم أحوالهم التي يتقلّبون فيها، ومنازلهم التي هم بها، ومطامعهم التي قد مدّوا بها أعناقهم نحوها، وأيّ الأمور أدعى لهم إلى الصّلح، وأقودها لرضاهم إلى العافية، (وأسهلها لاستنزال طاعتهم)، ومن أيّ الوجوه مأتاهم: أمِنْ قِبَلِ الشّدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة، والإرهاب والإبعاد أو الترغيب والإطماع؟ متثبّتا في أمرك، متخيّراً في رويّتك، متمكّناً من رأيك، مستشيراً لذوي النّصيحة، الذين قد حنّكتهم السنّ، وحطّتهم

(١) اعذر الى العدو: قدّم اليه من أسباب المسالة ما يزيل عذره.
(٢) بسط الأمان: قدّمه وعرضه.
(٣) نزع عن الضلالة: رجع عنها.
(٤) أذكى العيون: سلّط الجواسيس.

التّجربة(١)، ونجّذتهم الحروب(٢)، متشزّناً(٣) في حربك، آخذاً بالحزم في سوء الظّنّ، معدًّا للحذر، محترساً من الغِرّة(٤)، كأنّك - في مسيرك كلّه ونزولك أجمع - مُواقِفٌ(٥) لعدوّك رأيَ عين، تنظر حملاتهم، وتتخوف غاراتهم، مُعِدًّا مكيدتك، وَأَجِدَّ تشميرك(٦)، وأرْهَبْ عتادك، معظّمًا أمرَ عدوّك لأكثَر مما بلغك، حَذَراً يكاد يُفرط؛ لِتُعِدَّ له من الاحتراس عظيمًا، ومن المكيدة قويًّا؛ من غير أن يَفْثأك(٧) ذلك عن إحكام أمورك، وتدبير رأيك، وإصدار رَويّتك، والتأهّب لما يحزبك(٨)؛ مصغِّرا له بعد استشعار الحذر، واستبطان الحزم، وإعمال الرويّة، وإعداد الأهبة...

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوّك، وإيّاك ومعاقبةَ أحد منهم على خبر إن أتاك به اتهمته فيه، وسُؤْت ظنّا عليه به، وأتاك غيرُه بخلافه، أوأن تكذّبه فيه وتردّه عليه. ولعلّه أن يكون قد محضك النّصيحة، وصَدَقَك الخبر، وكَذَبَك الأول، أوخرج جاسوسك الأوّل متقدّماً قبل وصول هذا من عند عدوّك، وقد أبرموا لك أمراً(٩)، وحاولوا لك مكيدة، وأرادوا منك غِرَّة، فازدلفوا(١٠) إليك في الأهبة، ثمّ انتقض بهم رأيهم، واختلف عنه جماعتهم، فأرادوا رأياً، وأحدثوا مكيدة، وأظهروا قوّة، وضربوا موعداً، وأمّوا مسلكاً،

(١) حطتهم التجربة: صقلتهم.
(٢) نجذتهم الحروب: أي جعلتهم منجذين؛ والمنجذ الذي جرّب الأمور وعرفها وأحكمها.
(٣) المتشزّن: المتأهب.
(٤) الغرّة: المفاجأة.
(٥) مواقف: اي واقف إزاءه في حرب وعلى أهبة.
(٦) التشمير: الاستعداد.
(٧) يفثأك: يُفتّر همتك.
(٨) حزبه: أصابه.
(٩) ابرم الأمر: أحكمه وعزم عليه.
(١٠) ازدلفوا: اقتربوا.

لمددٍ أتاهم، أو قوّةٍ حدثت لهم، أو بصيرة في ضلالة شغلتهم، فالأحوالُ متنقّلة بهم في الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن الْبَسْهم جميعاً على الانتصاح(١)، وأرجح لهم المطامع(٢)، فإنّك لن تستعبدهم بمثلها. وَعِدْهم جزالةَ المَثاوب(٣) في غير ما استنامة منك إلى ترقيقهم أمرَ عدوّك، والاغترار بما يأتونكَ به...

واعلم أنّ جواسيسك وعيونك ربّما صدقوك، وربما غشّوك، وربما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشّوا عدوّك، وغشّوك ونصحوا عدوّك، وكثيراً ما يَصْدُقونك ويَصْدُقونه؛ فلا تبدُرَنَّ منك فَرْطَةُ عقوبة(٤) إلى أحد منهم، ولا تَعْجَلْ بسوء الظنّ إلى من اتهمته على ذلك، واستنزل نصائحهم بالمَيَاحة والمنالة(٥)، وابسط من آمالهم فيك، من غير أن تُرِيَ أحداً منهم أنك أخذت من قوله أَخْذَ العامِلِ به والمتّبع له، أو عملت على رأيه عمل الصّادر عنه، أو رددته عليه ردّ المكذِّب به، والمتّهِمِ له، المستخفّ بما أتاك منه، فتُفسدَ بذلك نصيحته، وتستدعي غشّه، وتجترّ عداوته. واحذر أن يُعرَفَ جواسيسك في عسكرك، أو يُشَارَ إليهم بالأصابع. وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرّك، ويكون هو الموجّهَ لهم، والمُدخِلَ عليك من أردت مشافهَته منهم.

واعلم أن لعدوّك في عسكرك عيوناً راصدة، وجواسيسَ كامنة، وأنّ رأيه في مكيدتك مثل ما تكايده به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويُعِدُّ كإعدادك له فيما تزاوله منه، ويحاولك كمحاولتك إياه فيما تقارعه عنه، فاحذر أن يُشْهَرَ رجل من جواسيسك في عسكرك فَيَبْلُغَ ذلك عدوَّك، ويعرفَ موضعه، فيُعِدَّ له المراصد، ويحتالَ له

(١) الْبَسْهم على الانتصاح: يعني خذ جواسيسك على أنهم ناصحون مخلصون.
(٢) أرجح لهم المطامع: اجعل مكافأتهم راجحة.
(٣) المثاوب: جمع مثوبة وهي المكافأة والجزاء.
(٤) فرطة عقوبة: عقوبة متسرّعة أو مجاوزة للحدّ بحيث تُعقِبُ الندم.
(٥) المَيَاحة: المنفعة؛ المنالة: العطاء.

بالمكايد، فإن ظفر به وأظهر عقوبته كسر ذلك ثقاتِ عيونك، وخذلهم عن تطلّب الأخبار من معادنها، واستقصائها من عيونها، واستعذاب اجتنائها من ينابيعها، حتى يصيروا الى أخذها مما عَرَضَ من غير الثقة ولا المعاينة، لَقْطاً لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المرجفة(١).

واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً، فإنّك لا تأمن تواطؤهم عليك، وممالأتهم عدوَّك، واجتماعهم على غشّك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم(٢) على خيانتك، وأن يورّط بعضهم بعضاً عند عدوّك. فأحكم أمرَهم، فإنهم رأس مكيدتك، وقِوامُ(٣) تدبيرك، وعليهم مدارُ حربك، وهو أول ظفرك. فاعمل على حَسَب ذلك، وحيث رجاؤك به، تَنلْ أملك من عدوّك، وقوتك على قتاله، واحتيالك لإصابة غِرَّاته، وانتهاز فُرَصِه، إن شاء الله.

فإذا أحكمتَ ذلك، وتقدمت في إتقانه، واستظهرت بالله وعونه، فولّ شرطتك وأمرَ عسكرك أوثقَ قوادك عندك، وآمنهم نصيحةً، وأنفذهم بصيرة في طاعتك، وأقواهم شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة(٤)، وأصدقهم عفافاً، وأجزأهم غناء(٥)، وأكفاهم أمانة، وأصحّهم ضميراً، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحمدَهم عند الجماعة خُلُقاً، وأعطفهم على جماعتهم رأفة، وأحسنهم لهم ظفراً، وأشدّهم في دين الله وحقّه صلابة. ثمّ فوّض إليه مقوّياً له، وابسط من أمله مُظْهِراً عنه الرضا، حامداً منه الابتلاء. وليكن عالماً بمراكز الجنود، بصيراً بتقدم المنازل، مجرَّباً، ذا رأي وتجربة وحزم في المكيدة، له نباهةٌ في الذّكر، وصيت في الولاية، معروفُ البيتِ، مشهورُ

(١) المرجفة: المختلقة، وأرجفوا: خاضوا في الأخبار السيئة.
(٢) الإصفاق: الاتفاق والإجماع.
(٣) القوام: العماد.
(٤) الصريمة: العزيمة.
(٥) أجزأهم غناء: أشدّهم كفاية ونفعاً.

الحَسَب. وتقدّم إليه في ضبط معسكرك، وإذكاء أحراسه في آناء ليله ونهاره، ثم حذّره أن يكون له إذن لجنوده في الانتشار والاضطراب والتقدّم لطلائعك، فتصاب لهم غِرّة يجترىء بها عدوك عليك، ويسرع إقداماً إليك، ويكسر من أفئدة جنودك، ويُوهن من قوّتهم؛ فإن إصابة عدوّك الرجلَ الواحد من جندك وعبيدك مُطمعٌ لهم فيك، مُقوٍّ لهم على شحذ أتباعهم عليك وتصغيرُهم أمرك، وتوهينهم تدبيرَك.

مناقشات وتمرينات

١ - هذا هو الجانب الحربي من وصيّة مروان بن محمد لابنه عبد الله من إنشاء عبد الحميد الكاتب، وهو يقوم على خطوات متدرجة:

(أ) محاولة تجنّب الحرب إذا كان ذلك ممكناً

(ب) الإعذار إلى العدو وبسط الأمان

(ج) بث العيون لمعرفة حقيقة حال العدو وهل هم أقرب الى الحرب أو إلى الصلح

(د) سياسة العيون (وهذه ذات حالات مختلفة)

(هـ) صفات القائد الذي يتولى أمر العسكر.

٢ - ما هي الوسائل التي يقترحها عبد الحميد في معاملة العيون؟

٣ - يعاني عبد الحميد تعباً في البناء الفكري لرسالته وفي صياغتها: وضّح ذلك بأمثلة.

٤ - يكثر عبد الحميد من **الجمل المتعاطفة** ومن استعمال صيغ **التمييز والحال** (بيّن نماذجَ متنوعة في القطعة من هاتين الصيغتين). ما الفائدة التي يجنيها المضمون من هذه الاستعمالات؟

٥ - لخص القطعة الى مايساوي ثلثها: (هل تجدها بعد التلخيص فقدت أموراً أساسية؟)

-١١-

من أحمد بن طولون الى ابنه العبّاس
من إنشاء ابن عبد كان *

أمّا بعد، فإنّ مَثَلَكَ مثلُ البقرة تثير المُدْيَةَ بقرنيها[١]، والنملةِ يكون حتفها في جناحيها[٢]، وستعلم - هبلتكَ الهوابل[٣]! أيها الاحمق الجاهل؛ الذي ثنى على الغيّ عطفه، واغترّ بضَجَاج المواكب خَلْفَه - أيَّ مَوردَةٍ هَلَكَة بإذن الله توردت، إذ على الله جلّ وعزّ تمرّدت وشردت، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك في كتابه مثلاً: ﴿قريةً كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رَغَداً من كلّ مكان فكفرت بأنْعُم الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوايصنعون﴾ (النحل: ١١٢).

وإنّا كنّا نقرّبك إلينا، وننسبك الى بيوتنا، طمعاً في إنابتك، وتأميلاً لفَيْئتك[٤]؛ فلما طال في الغي انهماكك، وفي غمرة الجهل ارتباكك، ولم نَر الموعظة تُلين كبدك، ولا التـذكيرَ يُقيم أوَدَكَ[٥]، لم تكن لهذه النّسبة أهلاً، ولا لإضافتك الينا موضعاً ومحلاّ، بل لا نُكْنَى بأبي العباس إلّا تكرُّهاً وطمعاً بأن يهب الله منك خلفاً نقلده اسمك

(*) صبح الأعشى للقلقشندي (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩) ٧: ٦ - ٩.
(١) فيه إشارة الى المثل: كالباحث عن حتفه بظلفه.
(٢) يقال إذا نبت للنملة جناحان فمعنى ذلك أن هلاكها قد اقترب.
(٣) هبلتك: ثكلتك وفقدتك.
(٤) الانابة: الرجوع وكذلك الفَيْئة.
(٥) يقيم أودك: يعدل اعوجاجك.

ونُكْنَى به دونك، ونَعُدُّك كنت نسياً مَنْسِياً، ولم تكُ شيئاً مقضيًّا. فانظر - ولا نظر بكَ - إلى عار نِسْبَتِه تقلّدت، وسَخَطٍ من قِبَلِنا تعرّضت.

واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلّك، والمكـروه إن شاء الله قد أحاط بك، والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسّيل في الليل، تؤذنك بحرب وبويل؛ فإنا نُقسم، ونرجو أن لا نجور ونظلم، أن لا نثني عنك عِنَاناً، ولا نُؤثرَ على شانك شاناً؛ ولا تتوقّلُ[١] ذروةَ جبل، ولا تَلجُ بطن واد، إلاّ جئناك بحول الله وقوته فيهما، وطلبناك حيثُ أمَمْت منهما، منفقين فيك كلَّ مال خطير، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل؛ حتى تستمِرَّ[٢] من طعم العيش ما استحليتَ، وتستدفع من البلايا ما استدعيتَ[٣]؛ حين لا دافع بحول الله عنك، ولا مُزَحْزِحَ لنا عن ساحتك؛ وتعرف من قدر الرخاء ما جهلتَ، وتودّ انك هُبلتَ، ولم تكن بـالمعصية عَجلتَ، ولا رأيَ من أَضَلَّك من غـواتك قبلت؛ فحينئذ يتفرّى لك الليل عن صبحه[٤] ويسفر لك الحقّ عن محضه[٥]؛ فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما، وتسمع بأذنين لا وَقَرَ[٦] فيهما؛ وتعلم أنك كنت متمسكاً بحبائل غُرُور، متمادياً في مقابح أمور: من عُقوق لا ينام طالبه، وبغيٍ لا ينجو هاربه، وغدر لا ينتعشُ صريعه، وكُفران لا يُودَى[٧] قتيله؛ وتقفَ على سوء رويّتك، وعظم جريرتك[٨]، في تركك قَبولَ الأمان إذ هو لك مبذول، وأنت عليه محمول، وإذ السيف

(١) توقّل: صعد.
(٢) استمرّ الطعم: وجده مرّاً، ضدّ استحلى.
(٣) استدعى البليّة: جلبها على نفسه.
(٤) تفرّى: انشق وتمزّق، والمعنى مجازي: أي تظهر لك الحقيقة.
(٥) المحض: الخالص الذي لا شوب فيه.
(٦) الوَقَر: ثقل في السمع.
(٧) يُودَى: تدفع دِيَته.
(٨) الجريرة: الذنب.

عنك مغمود، وباب التوبة اليك مفتوح، وتتلهّف والتلهُّفُ غيرُ نافعك إلا أن تكون أجبت اليه مسرعاً، وانقذت اليه منتصِحاً...

وليت شعري على من تُهوِّلُ بالجنود، وتُمَخْرِقُ بذكر الجيوش؟ ومن هؤلاء المسخّرون لك، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونَك؟ دون رزقٍ ترزقهم إيّاه، ولا عطاء تُدِرُّه عليهم؛ فقد علمت - إن كان لك تمييزٌ، أو عندك تحصيل - كيف كانت حالك في الواقعة التي كانت بناحية أَطْرابُلُس، وكيف خذلك أولياؤك والمرتزقة معك حتى هُزمتَ، فكيف تغترّ بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك، ولا رزقَ يجري لهم على يدك؟ فإن كان يدعوهم إلى نُصرتك هيبتُك والمداراةُ لـك والخوفُ من سلطانـك، فإنهم لَيجذبُهم أضعاف ذلـك منّـا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك، وإنهم لأحرى بخذلك، والميل إلينا دونَك. ولو كانوا جميعاً معـك ومقيمين على نصرتك، لرجونا أن يمكِّن الله منك ومنهم، ويجعلَ دائرة السَّوْءِ عليك وعليهم، ويُجْرِيَنا من عادته في النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضـل علينا بـأمثالـه ويتطوّل بـأشباهـه. فما دعـاني الى الإرجاء[١] لك، والتسهيلِ من خناقك[٢]، والإطالةِ من عِنَانِك[٣]، طُولَ هذه المدّةِ إلاّ أمران: أغلبُهما كان عليَّ احتقارُ أمرك واستصغاره، لقلّة الاحتفـال والاكتراث بـه؛ وأني اقتصرت من عقـوبتك عـلى ما اجتلبْتَهُ بنفسك من الإباق[٤] الى أقاصي بلاد المغرب شريداً عن منزلك وبلدك، فريداً من أهلك وولدك - والآخرُ أني علمت أنّ الوحشة دعتك الى الانحياز إلى حيثُ انحزتَ فأردتُ التسكينَ من

(١) الإرجاء: الإنظار والمطاولة.
(٢) الخناق: الحبل، وسهّل منه: راخى من إحكامه حول العنق، اي طاوله ومنحه فرصة.
(٣) العنان: الرسن، والمعنى على المجاز.
(٤) الإباق: الهرب، وهو عادة ينصرف الى العبيد.

نِفَارك، والطمأنينةَ من جأشك[1]؛ وعلمتُ على أنّك تَحُنُّ إلينا حنين الولد، وتتوق الى قربنا تَوَقَانَ ذي الرَّحِم والنسب؛ فإنّ في رفقنا بك ما يعطفك إلينا، وفي تأتّينا[2] لك ما يردّك علينا، ولم يسمع منّا سامع في خَلاَءٍ ولا ملاءٍ انتقاصاً بك، ولا غضّاً منك، ولا قَدْحاً[3] فيك؛ رِقّةً عليك، واستتماماً لليد[4] عندك، وتأميلاً لأن تكون الراجع من تِلقاء نفسك، والمُوَفَّقَ بذلك لرشدك وحظّك؛ فأمّا الآن - مع اضطرارك إيّايَ الى ما اضطررتني إليه من الانزعاج نحوك، وحبسك رُسُلي النافذين بعهد كثير إلى ما قِبَلِكَ، واستعمالِك المواربة والخداعَ فيما يجري عليه تدبيرك - فما أنت بموضع للصّيانة، ولا أهل للإبقاء والمحافظة، بل اللعنة عليك حالّة، والذّمّة منك بريّة، والله طالبُك ومؤاخذُك بما استعملت من العُقُوق والقطيعة، والإضاعة لرحِم الأبوة - فعليك من وَلَدٍ عاقٍ شاقٍ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين، والملائكةِ والناس أجمعين.

مناقشات وتمرينات

١ - إذا كانت هذه الرسالة قد كتبت عند بلوغ نقطة «اللارجوع» في العلاقة بين ابن طولون وولده، فما هي الغاية من كتابتها؟

٢ - كيف علل ابن طولون لجوءه الى المطاولة والتساهل قبل «الضرب»؟

٣ - رغم اعتماد اسلوب ابن عبد كان على السجع فإنه يبدو اقل بطؤاً من أسلوب عبد الحميد الكاتب: ما أسباب ذلك في نظرك؟ (هل للتعارض بين العاطفة والفكر دخل في ذلك الى جانب أسباب أخرى)؟

(١) الجاش: النفس أو القلب.

(٢) التأتي: الرفق وحسن المعاملة.

(٣) الغض: الازدراء والتهوين؛ القدح: الذم.

(٤) اليد: الفضل.

٤ - لماذا يلجأ كاتب الرسالة الى حمل كل شيء على المحمل الديني؟

-١٢-

الى سَريّ
من خليل السكاكيني *

أما رسالتك الاخيرة ذاتُ الاحدى عَشْرةَ صفحةً التي كتبتها بعد رجوعك من جامعة ميشيغان حيث حضرت سلسلة حَفَلات موسيقية جميلة جدّاً، فهي رسالة جميلة مهمةٌ تستحق حفلة تكريم. أحيي همتّك العالية وماتبذل من جهود الجبابرة في سبيل علمك وثقافتك، وأشكر الله الف مرة أنك لا ترمي من وراء ذلك إلا الى اغراض عالية نبيلة.

أعرف كثيرين يحرصون على تعليم اولادهم العلوم العالية حرصاً شديداً، يتوسلون اليه بكلّ وسيلة، لا يبالون أن يقبّلوا الأذيال، أن يستجْدوا الإعانات استجداء، الى غير ذلك مما تتقبّأ له النفس. وترى أولادهم هؤلاء يبذلون جهوداً عالية في اكتساب العلم، وقد يمتازون في المدارس بالاجتهاد والذكاء والانقياد والطواعية، وقد يدركون درجة عالية في العلم. وإذا رحت تسأل عن المطالب التي يرومون من وراء ذلك كلّه وجدت أنهم إنما يطلبون الغنى، يتمنى الأب أن يعود ابنه من المدرسة فيشتغلَ إمّا بالطب أو الهندسة أو الصيدلة أو القانون فتنهال عليه الارباح انهيالاً. وإذا كان غرضه المال فهو على استعداد أن يبذل ماء وجهه، أن يسيء الاستعمال، أن يغشّ، أن يسرق، أن يتحمّل

(*) من كتابه «كذا أنا يا دنيا» (نشرته ابنته هالة في المطبعة التجارية، القدس، ١٩٥٥) ص: ٢٧٢-٢٧٣ و٢٨٤-٢٨٥.

الإهانات، أن يقبّل الأذيال. اعرف كثيرين من والدين وأبناء من هذا النوع، فيلوحون لي - وقد تعلّموا - أنهم لا يزالون جهلاء، ويلوحون لي - وقد نالوا في غفلة من الدهر الغنى - انهم فقراء حفاة عراة شحّاذون، ويلوحون لي - وقد نالوا في غفلة من الدهر وظائف لم يكونوا يحلمون بها - انهم لا يزالون من الخدم أو حملة السلال. إذا كانت هذه مطالبكم في الحياة فلو تعلّمتم علوم الأولين والآخرين فلا يُجديكم كلُّ ذلك نفعاً ولا يرفع قيمتكم في نظر الناس!

أرى ذلك يا سَريُّ فأذهبُ الى الطرف الآخر. يسألونني: «ماذا يتعلّم سريّ؟» فأقول: «لا يتعلّم شيئاً ولكنّه يعيش كما يشاء ويشاء له الهوى.» يسألونني: «ماذا يعمل إذا رجع؟» فأقول: «قد لا يعمل شيئاً.» يقولون: «ما اختصاصه؟» فأقول: «يلعب التنس ويسبح ويصارع ويأخذ دروساً عالية في الموسيقى.» يقولون: «لماذا لا ترسله الى بلاد الانكليز فإن شهادة يحملها من بلاد الانكليز أدْعَى لرواجه في هذه البلاد.» فأقول: «وهل تظنّون أنه يتعلّم ليروجَ عند الانكليز؟» يقولون: «إلى أيِّ شيء يميل؟» فأقول: «الى الأدب العالمي.» فيقولون: «وما قيمة الأدب؟» فأقول: «نحن نحب ذلك.»

أشكر الله ألف مرة يا سريّ أنك تتعلّم لتفهم الانسان والمجتمع فهمًا أوسع وأصَحَّ مما اعتاد الناس أن يفهموا. لا أستطيع الآن أن أعلّقَ على كل ما جاء في رسالتك الطويلة الجميلة، وكلّ تعليقاتك تشِفُّ عن بصيرة نيّرة وأدب عال وأسلوب لبق رشيق، فلو أردت أن أعلّق على ما علّقت عليه لما عدوت كلماتك، فأنت أنا وأنا أنت، وحَسْبُنا ذلك فخراً ورزقنا على الله.

عش ما بدا لك يا سريّ حراً طليقاً وارفع رأسك عالياً وانعم ولَذَّ ولا تبالِ.

أبوك

بهذا اليوم يكون قد مَرّ على البلاد شهر كامل وهي مضربة، بل وهي في حالة حربية، ومع كل ما اتخذته الحكومة من الاحتياطات لا تزال حوادث القتل والضرب في الليل والنهار، في كلّ حيّ من أحياء المدينة الواحدة، وفي كل أنحاء البلاد من أقصاها إلى أقصاها، تتوالى على غير انقطاع. ننام على أزيز الرصاص، وننهض في الصباح على أزيز الرصاص، ولكن الحكومة لا تزال ممعنة في دلالها. طلبت الأمة وَقْفَ الهجرة وقفاً تاماً وإذا بالحكومة تمنح اليهود اربعة آلاف وخمس مئة شهادةٍ لمهاجرين جدد. طلبت الأمة منع بيع الأراضي واذا بالحكومة تقطع لليهود مئة وخمسين ألف دونم من الأراضي الأميرية. أُضربَ بحّارة يافا عن العمل وإذا بالحكومة تحوّل البواخر الى تل أبيب، فانبرى لها بحارة يافا ووقعت معركة بحرية سماها ظريف من الكتاب الظرفاء «معركة جوتلند». تفعل الحكومة ذلك على اعتقاد منها انه يَفُتّ في عَضُد العرب ويُدخل اليأس على نفوسهم فيتراجعون، ولكنها وجدت أنّها لا تشتدّ إلا كان العرب أجرأ عليها، فالقنابل تلقى، والرصاص يُطْلَق، والمزروعات تحرق، والبيارات اليهودية بيافا تُخَرَّب، والجسور تُنْسف، وأسلاك التلفون تقطع، وأعمدة الكهرباء تقلع، والطرق تمنع، وكلَّ يوم يظهر من بطولة العرب ما لم يكن يخطر لها في بال.

لا شكّ أن الحكومة الانكليزية قد أفلست وسقطت قيمتها الى درجة الصفر. من يُقيم وزناً لحكومة يرتكب وزير مستعمراتها التي لا تغيب عنها الشمس تلك الفضائحَ التي ورد اليومَ نبأ أنّه اضطُرَّ بسببها الى الاستعفاء؟! من يُقيم وزناً لحكومة يسخّرها اليهود كما تُسَخَّر الآلة الصمّاء؟! ما أحراكِ أيّتها الحكومة أن تخجلي، بل ما أحراكِ أن تتمنّي أن تنشقَّ الأرض وتبتلعك.

لي كلّ يوم مع الانكليز في إدارتنا مواقف هائلة، واقرب الأيام

اليومُ، فقد قلت لهم: «لو كنت انكليزياً لَتبرأتُ من الأمّة الانكليزية».

لا أستطيع أن أرسل اليك كتابي هذا في هذه الليلة لأنهم منعوا التجول في الساعة السادسة والنصف مساء، ولكن سأضعه في صندوق البريد في الصباح إن شاء الله.

مناقشات وتمرينات

١ – على أي شيء يدلّ الحوار بين الكاتب والناس حول التعليم؟ الى أي اتجاه تشير الأمور في هذه الناحية بعد ما يقارب ربع قرن؟

٢ – ما هي الأسباب التي حركت ثورة ١٩٣٦ حسب رأي الكاتب؟

٣ – يبدي السكاكيني في رسالتيه لونين من الشجاعة: ما هما؟

٤ – لماذا لا يستطيع هذا اللون من الرسائل ان يتجاوز الحدث أو الرأي العام؟

-١٣-

اسمع يا رضا

للدكتور أنيس فريحة *

تسألني عن لون السيّارة التي كانت تُقلّني إلى مدرسة القرية، وتسألني إذا كانت مثلَ سيّارة هدى وميّة: شفروليه كبيرةً زرقاء، أو مثلَ سيارة مدرستك: دودج قويةً حمراءَ. تَسْلَمُ لأبيك يا رضا! أبوك لم يسمع لفظة سيارة في حداثته. هذه لفظة جديدة مولَّدة[1]. أبوك لم يرَ سيّارة في حياته قبل أن غادر القرية. كنّا سعيدين أن نذهب مشياً إلى المدرسة بحذاء لا ينفذ الشوك في نعله الرقيق المهترىء صيفاً، ولا ينفذ إليه الماء البارد شتاء. كانت أحذيتنا من سختيان دبيغ زحلة ومشغرة عندما كانت زحلة ومشغرة تدبغان بالكلس وورق السمّاق وزبل الدجاج والكلاب. فإذا مسّ الماء جلدَ زحلةَ أو مشغرة[2] ابتلّ الحذاء. فكان نهار الثلج وكان يوم الزمهرير يومَ عطلةٍ بسبب الحذاء. لا، يا رضا، لم نذهب بسيارة الى مدرسة. كنّا سعيدين أن نذهب مشياً بحذاء لا يبتلّ في الشتاء ولا ينفذ منه الشوك في الصيف.

لا أذكر كم كان لي من العمر، إنّما أذكر أني كنت صغيراً. وأذكر أن الحادثة التي سأروي خبرها وقعت في أوائل الصيف.

(*) من كتاب «اسمع يا رضا» (بيروت، ١٩٥٦) ص ٤١-٤٦.

(١) اللفظة «سيارة» غير جديدة، ولكن إطلاقها على هذه الآلة هو الجديد.

(٢) يعني الجلد المدبوغ في زحلة او مشغرة.

أَفَقْنا ذات يوم وذهبنا نحن الصغارَ إلى ساحة القرية. وفي الساحة حركة غير عادية: الأزقّة تكنس، وعهدنا بها لا تكنس إلاّ في العيد الكبير، المكارون[1] هناك مع حميرهم وبغالهم، ولكن أحمالهم رَيحان وسرو وشربين ودفلة وشجيرات صنوبر، الأولاد بأيديهم باقات الورد، النجّار يُقيم قوساً، والمختار يُصدر أوامره، اللحّام ذبح خروفا، والدكّنجي[2] أحضر حمل خوخ من قبّ الياس. القرية في انهماك، القرية في اضطراب بريء.

وسمعت لَغَطاً لم أتفهّمه جيّداً، لأنّ لغة الحديث كانت غريبة: قنصل آتٍ إلى القرية، وسيتغدّى عند بو حمود... قادم بعربيّة نار...! وقادم معه ذواتُ البلاد[3]، ومن جملتهم فارس أفندي الكاتب أو الحاجب في سراية جُدَيِّدةِ المتن شتاء وفي سراية بعبدا صيفاً... زينة... ملاقاة... عراضة! أتعرف ما معنى عراضة؟ إطلاق النار ابتهاجاً وفرحاً.

لم يَرُقْ لي الحديثُ لأنّي لم أفهمه. قنصل؟ ما هو القنصل؟ زينة، ملاقاة، وليمة، عراضة، كلّها أمور غامضة، ولكن أشدَّها غموضاً وأكثرَها إثارةً «عربيةُ نار!» يا الله، ما هي عربية النار؟ مرّة واحدة في حياتي رأيت عربة تجرّها الجياد: كان ذلك عندما أتى القريةَ مختارُ حمانا، أو مديرُ الناحية، لا أذكر. جاء راكبا في عربة تجرّها الجياد. كان ذلك حادثاً عجباً عندنا نحن صغارَ القرية. كان منظراً عجباً. وأذكر أننا قضينا الساعاتِ حول العربة التي تجرّها الجياد. كنّا نقول عسى أن تطول زيارة المختار لكي نتملى من مشاهدة العربة التي تجرّها الجياد.

(١) المُكَاري: الذي يؤجّر دابّته للركوب.

(٢) استعمال عامي مع كاسعة تركية: دكان - جي أي صاحب الدكان.

(٣) ذوات البلاد: أعيانها.

لم تكن قريتنا على طريق العالم فلم تمرَّ في قريتنا العربات. ولكن «عربيّة نار!» كان هذا أكبرَ من أن يدركه عقلي، وأرفعَ من أن يصل إليه خيالي. وعربيّة النّار تصل غداً!

وفي الغَدِ بكّرنا نحن الأولادَ وتنادينا إلى ملاقاة عربية النّار في مكان قصيّ[1] جدّاً: في عين المِهنَيْدة الواقعة عند طرف خراج الضيعة[2]! قمنا سَحَراً وأخذ كلّ منّا زوّادة: عروس[3] تين مطبوخ، عروس دِبس عنب، عروس لبن، عروس ربّ البندورا مع زيت، عروس قورما (أعني أولاد الأغنياء)، وعروس حاف. وسرنا إلى عين المِهْنَيْدَة في رأس الضيعة. وعين المهنيدة بقعة من بقاع الله، رابيةٌ من روابي الله تُطلّ على العالم البعيد. أشجار الصنوبر هناك أشجار عتيقة زرعوها أيّامَ التنوخيين أو أيّام المعنيين[4]، لست أذكر. الأرض مغطاة بشجيرات السميسمة[5]، شجيرات دائمة الاخضرار لم يخلق الله أجمل منها زهراً وأذكى رائحة. هناك يجتمعون ليُعيّدوا عيدَ مار جريس! ومن قال لك إن أهل القرية ينقُصُهم الذوق؟ لعبنا في التراب، تسلّقنا الصنوبر، تمرّغنا في السميسمة، لعبنا الغُمَّيضة[6]، ونسِينا عربية النار.

وفجأة، قُرب الظهر سمعنا، يا رضا، صوتاً غريباً، هديراً قويّاً، قرقعة مخيفة لا عهدَ لآذاننا الصغيرةِ بها. اعتادت آذاننا سكونَ القرية، وأَلِفت أرواحُنا هدوءَها وصمتها، ولكن هذا الهديرَ، هذه القرقعة

---

(١) قصيّ: بعيد.

(٢) خراج الضيعة: لفظة شائعة في لبنان ومعناها الأرض التابعة ادارياً للضيعة (أي القرية).

(٣) العروس: اصطلاح لبناني يطلق على ما يوازي (الساندويتش).

(٤) التنوخيون والمعنيون: من الأسر التي حكمت جبل لبنان وبعض ساحله في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

(٥) (Heather) وهي شجيرات دائمة الخضرة تنمو في البراري وينمو بينها بعض الأزهار الوردية المائلة الى اللون البنفسجي.

(٦) الغميضة: لعبة من العوائد القديمة يلعبها الصبية.

أخافتنا. أجفلنا وذهلنا. أصابتنا الصاعقة عندما رأينا شبحاً غريباً يمرّ بالقرب من ملعبنا مرّاً سريعاً لم تتمكّن عيوننا معه أن تتميّز الشبح. حدث كلّ هذا في دقيقة من الزمن، ومرّ الشبح، وتلاشى الهدير، وخفتت القرقعة، فبقينا واقفين ننظر إلى لا شيء.

زال الذهول، وفارقتِ الحيرةُ عقولنا الصغيرة، فصرخ أحدنا، وكان قد استردّ وعيه قبلنا «عربية النار! عربية النار!» وعدونا وراء عربية النار، وعدونا حتى خرجت ألسنتنا الصغيرة من شدّة اللّهَث. وركضنا صوب القرية إلى الساحة، وإذا بالساحة تموج بالعالم: المشايخ المعمّمون، الزهّاد المتقشّفون، الرجال، النساء، العجائز، الصبايا، الشباب، الأولاد، كلّهم هناك. يا الله! من أين هذا الخلق العظيم؟ بعد أن كبرت علمت أن القرى المجاورة أتت وفوداً وفوداً لتشهد منظر عربية النار ولتنعم بنَظرة إلى قنصل!

لم نستطع نحن الصغارَ أن نقترب من عربية النّار. الازدحام شديد. وفي القرية لا ينتبهون للصغار فيرفعونهم عن الأرض، مثلاً، ويقولون لهم: انظروا. في القرية لا يأبهون للصغار كثيراً، فكنا نلعن الكبار في قلوبنا.

صعدنا إلى السطوح المجاورة، نريد أن نرى عربية النار عن كثب. نريد أن نضع أيدِيَنا على هذا المعدنِ الصقيل، نريد أن ننظر ماذا في داخلها. وقُبيلَ المغرب عندما شبع الكبار من الرؤية أفسحَ لنا المجالُ لنقترب من عربية النار.

وكان إلى جانبي شيخ وقور يلبس عباءةً سوداء ويعتمُّ بعمَّةٍ كبيرة. كان في الحقل ولم يأبه لحضور القنصل، ولم يهتمَّ بأخبار عربية النار. ولكنّه عندما عاد قبيل المغرب خفّ ليرى عربية النار. سمع الناس يتكلّمون عن حدث عظيم!

- من فضلك، قِبّ هالغطا شْوَي تنشوف مكان النار وهالأوايل الشيطانية[1]! قال الشيخ الوقور.

ورفع السائق الغطاء، وسمعت الشيخ يقول: «سبحان من خلق الصنّاع تصنع! يا ربّ تنجينا!».

مناقشات وتمرينات

١ - في هذه القطعة تستطيع أن تدرس جوانبَ من حياة القرية اللبنانية وعاداتها في فترة ما: حاول ذلك.

٢ - ينتقي الكاتب كثيراً من ألفاظه من اللهجة الدارجة (لا في الحوار وحده) أعطِ نماذجَ لتلك الألفاظ -(هل تستطيع أن تضع في مكانها ألفاظاً من اللغة الفصيحة؟)

٣ - كيف يمهّد الكاتب للمفاجأة الكبرى التي هي ظهور السيّارة؟ هل نجح في طرح المقدّمات التمهيدية؟

٤ - هل يريد الكاتب أن يؤكد التقدّمَ الحضاريَّ أو الانغراسَ في أحضان الماضي؟ (لِمَ يحاول ذلك وهو يعلم أن الانبتات لا بدّ قائم بين ابنه وبين حياة القرية؟)

(١) عبارة من العامية اللبنانية: ارفع هذا الغطاء قليلاً حتى نرى مكان النار وهذه الآلات الشيطانية.

-٣-

مواقف من الحب

-١٤-

باب من لا يحبّ إلّا مع المطاولة
لابن حزم الأندلسي *

من الناس من لا تصحّ محبته إلا بعد طول المخافتة وكثير المشاهدة وتمادي الأنس، وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحَيك[١] فيه مرّ الليالي ،فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً، وهذا مذهبي. وقد جاء في الأَثَر[٢] أن الله عزّ وجلّ قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم، وهو فخّار، فهاب وجزع: ادخل كرهاً واخرج كرهاً.

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة مَن إن أحسّ من نفسه بابتداء هوى أو توجّس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور استعمل الهجر وترك الإلمام[٣]، لئلّا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده. . . وهذا يدلّ على لصوق الحبّ بأكباد أهل هذه الصفة، وأنّه إذا تمكن منهم لم يَحُلْ[٤] أبدا. . .

وإني لأطيل العجب من كلّ من يدعي أنه يحبّ من نظرة

(*) من كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألاف» (تحقيق حسن كامل الصيرفي وإبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٠) ص ٢٤-٢٦.

(١) حاك فيه: أثّر.

(٢) الأثر: الخبر المرويّ (وقد يكون حديثا).

(٣) الإلمام: الزيارة.

(٤) لم يَحُلْ: لم يتغير. (وقد تقرأ: لم يُحَلّ، من الحلّ ضد الربط).

واحدة ولا أكاد أصدّقه ولا أجعل حبّه إلاّ ضرباً من الشهوة، وأمّا أن يكون في ظني متمكّنا من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما أقدّر ذلك، وما لصق بأحشائي حبّ قطّ إلاّ مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كلّ جِدّ وهَزْل، وكذلك أنا في السلوّ والتوقي، فما نسيت ودّاً لي قطّ، وإنّ حنيني إلى كلّ عهد تقدّم لي لَيُغصّني بالطعام ويُشْرِقُني بالماء، وقد استراح من لم تكن هذه صفته. وما مللت شيئاً قطّ بعد معرفتي به، ولا أسرعتُ إلى الأُنس بشيء قطّ أول لقائي له، وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنتُ، لا أقول الألاّفَ والإخوانَ وحدهم، لكن في كلّ ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك، وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق مذ ذقت طعمَ فراق الأحبّة، وإنّه لشجىً يعتادني وولوع همّ ما ينفكّ يطرقني[1] ولقد نغّص تذكُّري ما مضى كلّ عيش أستأنفه... والله المحمود على كلّ حال، لا إله إلاّ هو...

ولا يَظُنَّ ظانّ ويتوَهَّمْ متوهّم أن كلّ هذا مخالف لقولي (من قبل): إنّ الحبّ اتّصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي، بل هو مؤكِد له. فقد علمنا أنّ النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحُجُب، ولحقتها الأغراض، وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية، فسترت كثيراً من صفاتها وإن كانت لم تُحِلْهُ، لكن حالت دونه، فلا يُرجى الاتّصال على الحقيقة إلاّ بعد التهيّؤ من النفس والاستعداد له، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع التي خفيت مما يشابهها من طبائع المحبوب، فحينئذ يتّصل اتّصالاً صحيحاً بلا مانع.

وأمّا ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان

(١) يطرق: يزور.

الجسديّ، واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان، فهذا سرّ الشهوة ومعناها على الحقيقة، ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنّه يحبّ اثنين ويعشق شخصين متغايرين، فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا، وهي على المجاز تسمّى محبّة لا على التحقيق.

مناقشات وتمرينات

١ - لابن حزم نظرية في الحبّ: ما هي؟ وما الفرق بين الحبّ عنده وبين الشهوة؟

٢ - تحدّثَ ابن حزم عن عناصرَ بارزةٍ في شخصيته: وَضِّح هذه العناصر؛ هل يمكن تفسيرها (اجتماعياً أو سيكولوجياً؟)

٣ - استكمل دراستك لشخصية ابن حزم من كتابه «طوق الحمامة».

-١٥-

الأشـــواق

لمصطفى صادق الرافعي*

ها أنا ذا أجلس لكتاب الشوق، وفي يدي القلم، ومعانيك مني قريبة تكاد تحسّ وتلمس على تباعد ما بيننا، لأن كلّ ما فيك هو في قلبي.

وهذه عينك الظاهرة دائماً بمظهر استفهام عن شيء، لأنّ وراءها نفساً متعنّتة(١) تأبى أن ترضى، أو حائرة لا تكفيها معرفة، أو غامضةً تريد أن لا تُفَسَّر.

هذه عينك من وراء البعد تُلقي عليَّ نظراتِ استفهامها، فتدع كلّ ما حولي من الأشياء مسائلَ تطلب جوابها من حضورك ومرآك لا غير، وبذلك يهفو إليك القلب بأشواق لا تزال تتوافى، فلا تبرح تتجدّد، فهي لا تهدأ ولا تسكن، وكأن غيابك سَلَبَ الأشياءَ في نفسي حالةً عقلية كانت لها، كما سلبني أنا حالةً قلبية.

وآه من تباريح الحب! إنها لَوحوشٌ من الأحزان ثائرة، فكلُّ راجفةٍ من رواجف الصدر (٢) كأنها من حرِّ الشوقِ ضربةُ مِخْلبٍ على القلب!

(*) من كتاب «أوراق الورد» (الطبعة السابعة) ص ١٢٤ - ١٢٩.

(١) متعنّتة: متصلّبة عنيدة.

(٢) يعني خفقة من خَفَقَات القلب.

الشوق؟ ما الشوق إلّا صاعقة تنشئها كهرباءةُ الحبّ فترى سحاب الدم يمور ويضطرب ويصدم بعضه بعضاً من الغليان، فيرجف فيه حين الرعدُ القلبي يتردّد صوته: آه آه. . . !

والآن ألقت عينك الساحرة عليَّ نظرةَ استفهام أخرى بالصبابة ورقّةِ الشوق، فأحسست بروحي كالغصن المخضرّ أثقله الزهر، وقد طفقت أزهاره تتفتّح وتسلِّمُ النسيمَ ودائعَ الجنّة من نَفَحَاتها وتسليماتها عليك.

وأشعر بالقلم في يدي، وكأن له شأناً مع الكلمات التي أكتبها إليك، فهو يخطّها حرفاً حرفاً، ويقلبها كذلك حرفاً حرفاً. . . وأشعر بالقرطاس وكأنّه قد علم أن سيحملُ أشواقي وأسرار قلبي فلا يُعَدُّ صحيفةَ ورقٍ تموج بالألفاظ، بل صحيفةَ صدرٍ ملأها جوٌّ من التنهد.

وبنظرة استفهام أخرى من عينك أشعر بحقيقتك النسويّة من حولي حافَّةً بي، فمرتَجّة في صدري، فملقية على قلبي المسكين من كلّ خطرةِ شوقٍ لسعةَ ألم.

نعم إنّك يا حبيبتي ترسلين الأنوار في هذا القلب، غير أنها لم تكن أنواراً إلّا من أنها شُعَلٌ مضطرمة، والمحب الذي يضيئه عشقه ويُظهر للجمال وجودَه الغراميّ، إنّما يُنيره احتراقُه وفناء وجودِه الذاتي، كل قدر من النور بقدر مضاعف من الاحتراق.

وكذلك البطل العظيم في الحرب: تنهش من لحمه السيوف ويثقب في عظامه الرصاص، وما مزّقه الموت بهذه ولا بتلك، ولكن مزّقه مجده. . .

في بعدك لا أشعر بالزمن يفنى من الساعات والأيّام، بل مني ومن حياتي، فأنا في بعدك أذوب، أذوب فناءً، أي أذوب شوقاً، وأفنى صبراً وعمراً بين كل ساعة وساعة!

وفي الحياة يفنى الوقت ذاهباً فيما نحن بسبيله من واجباتها وممكناتها، وتعبنا بها وقتاً وراحتنا فيها وقتاً آخر، فكأنّه لا يَمَسُّنا نحن بل يَمَسُّ أعمالنا، فنحمله بذلك ونُطيقه على ذلك ولا نحسّ أنّنا نموت فيه يوماً بعد يوم، بل نشعر بالحياة تبدأ فينا ولا تزال تبدأ، أمّا في الحبّ، على امتناع الحبيب أو هجره أو فراقه، فحاضرنا هو الماضي ويومنا هو أمس ، إذ لا نريد فيها يكون إلا مراجعةَ ما كان فيقع الزمن على قلوبنا ويعتمل فيها ويأخذ منها ولا نشعر به إلاّ موتاً في صورةِ حياةٍ ممّنعة علينا، ومن ثمّ فلا يكون الشوق إلى الحبيب الممتنع أو الهاجر أو المفارق إلاّ لهفةً ثائرة كلهفة الشوق إلى الحياة من مريض وَقَذَهُ[1] المرضُ وَرُسَّ[2] على جسده السَقَمُ فمات أكثره وبقيت منه البقية الذاهبة نَفَساً في نَفَسٍ، ويشعر بالموت يبدأ فيه ولا يزال يبدأ. . .

آهِ ما هذه الأفكارُ الحزينة التي جاءت تبحث عن دموعي؟
وما هذا المعنى الناريُّ الذي يطير في دمي؟
وما هذا الرعدُ القلبيُّ الراجف يتردّد صوته: آه آه. . .؟

مناقشات وتمرينات

١ - كيف تتغيرّ نظرات الاستفهام من المحبوبة في نظر الرافعي؟

٢ - يحاول الرافعي أن يقارن بين المحبّ والبطل في الحرب، بين الزمن في الحياة والزمن في الحب، فهل لديه فكرة واضحة عن مثل هذه المقارنات؟

---

(١) وقذه: ضربه أو غلبه.
(٢) رُسّ: ثُبِّتَ حتى تمكن.

٣ - يحاول الرافعي أن يصبغ بعض صوره بلون عصري (ما الشوق إلاّ صاعقة. . . إلخ) هل يوفّق في صوره؟

٤ - لماذا يحسّ القارىء أن الكاتب يفكر في مشكلة يحاول حلّها بصور «ميتافيزقية» وأنه لا يتحدّث عن تجربة واقعية؟

-١٦-

أنت أيها الغريب

لمي زيادة *

لقد التقينا وسط جماعات المتّفقين فيما بينهم للضحك من سواهم حيناً والضحك بعضهم من بعض أحياناً.

أنا منهم وإيّاك غير أن شبهك يسوءني، لأني إنّما أقلّدهم لأريك وجهاً مني جديداً، وأنت: أتُجاريهم بمثل قصدي أم الهُزؤ والاستخفاف فيك طويّةٌ وسجيّة؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظَّرف، ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور[1]، أراني وإيّاك على تفاهم صامت مستديم يتخلّله تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثّر.

بنظرك النافذِ الهادىء تذوّقتُ غبطةَ من له عينٌ ترقبه وتهتمُّ به، فصرتُ ما ذكرتك إلّا ارتدَتْ نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم، متمنّيةً أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق.

لي بك ثقةٌ مُوثَّقة، وقلبي الفتيُّ يفيض دموعاً: سأفزع إلى رحمتك عند إخفاق الأماني، وأبثّك شكوى أحزاني، أنا التي تراني

(*) من كتاب «ظلمات وأشعة» (دار بيروت، ١٩٥٢) ص ٩٣ -٩٦.

(١) الحبور: السرور.

طروبةً طيّارة، وأحصي لك الأثقال التي قوّست كتفيَّ وحنت رأسي منذ فجر أيامي، أنا التي أسير محفوفةً بجناحين متوّجةً بأكاليل!

وسأدعوك أبي وأمي، متهيبةً فيك سطوةَ الكبير وتأثير الآمر، وسأدعوك قومي وعشيرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين، وسأدعوك أخي وصديقي، أنا التي لا أخَ لي ولا صديقَ، وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة، أنا التي تتخيَّل فيَّ قوَّةَ الأبطال ومناعةَ الصناديد!

وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري، وسأطلب منك الرأيَ والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباكِ السبل، وإذ أُسيء التصرّفَ وأرتكبُ ذنباً، سأسير إليك متواضعةً واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة، وقد أتعمّد الخطأ لأفوزَ بسخطك عليَّ فأتوبَ على يدك وأمتثلَ لأمرك!... وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنوية مقدّمة لك عن أعمالي حساباً لأحصل على التحبيذ منك أو الاستنكار فأسعَدَ في الحالين، سأوقفك على حقيقة ما ينسب إليَّ من آثام، فتكون لي وحدَك الحكَمَ المنصف.

وما يحسبه الناس لي فضلاً وحسناتٍ فسأبسطه أمامك فتنبّهني إلى الغلط فيه والسهوِ والنقصان.

ستقوّمني وتسامحني وتشجّعني وتحتقر المتحاملين والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشةً على لوح جَناني: كما أكذّبُ أنا وشايةَ منافسيك وبهتانَ حاسديك، ولا أصدّق سوى نظرتي فيك وهي أبرُّ شاهد. كل ذلك وأنت لا تعلم.

سأستعيد ذكرك متكلّماً في خلوتي، لأسمعَ منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك، حكايةَ البشر المجمّعة في فرد واحد، وسأتسمّع إلى جميع الأصوات عَلّي أعثر فيها على لهجة صوتك، وأشرح جميع الأفكار

وأمتدح الصائب من الأراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك، وسأتبيّن في جميع الوجوه صورَ التعبير والمعنى لأعلم كم هي شاحبة تافهة لأنها ليست صورة تعبيرك ومعناك، وسأبتسم في المرآة ابتسامتك في حضورك، وسأتحوّل عنك إلى نفسي لأفكر فيك، وفي غيابك سأتحوّل عن الآخرين إليك لأفكّر فيك!

سأتصوّرك عليلاً لأشفيَك، مصاباً لأعزّيك، مطروداً مرذولاً لأكونَ لك وطناً وأهلَ وطن، سجيناً لأُشهِدَك بأيِّ تهوّرٍ يجازف الإخلاصُ، ثم أُبصرك متوفّقًا فريداً لأفاخرَ بكَ وأركنَ إليك.

وأتخيّل ألفَ ألفِ مرّةٍ كيف أنت تطرب، وكيف تشتاق، وكيف تحزن، وكيف تتغلّب على عاديِّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل، وسأتخيّل ألف ألف مرّة إلى أيّ درجة تستطيع أنت أن تقسوَ، وإلى أيّ درجة تستطيع أنت أن ترفق، لأعرف إلى أيّ درجة تستطيع أنت أن تحبّ!

وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً، لأنك أوحيت إليَّ ما عجز دونه الآخرون.

أتعلم ذلك، أنت الذي لا تعلم؟ أتعلم ذلك، أنت الذي لا أريد أن تعلم...؟

مناقشات وتمرينات

١ - من التردّد والتلعثم في البداية تشير الرسالة نحو الانطلاق المتزايد كلّما أمعنت الكاتبة في رسالتها: لماذا كان ذلك كذلك؟

٢ - تدور الرسالة على مصراعين «حاجة المحبوبة إلى قلب» و«الحضور الكليّ» للمحبوب؛ وضّح هاتين الحالتين.

٣ - هل العظمة التي ينتحلها المحبوب هنا مطلقة أو نسبية؟ (هل يمثّل الحبّ هنا التسليم الكليّ والغفران المطلق؟)

٤ - لو شاء كاتب أن يردّ على هذه الرسالة بمثل روحها فماذا كان يقول؟

-١٧-

رسالة من جانين إلى . . .
للدكتور سهيل ادريس *

باريس ٢ تموز:

ما زلتُ حتى الآن في نشوة من رسالتكَ الحلوة. إنّ فيها نكهةً لذيذة، كيف أصفها؟ إنها كنكهة القهوة التركية التي كنتَ تسقيني إيّاها، والتي أَعجزُ كلّ العجز عن صنع مثلها، بما تركته لي من البنّ المجلوب من وطنك. حاولتُ مرّات كثيرة، فأخفقت. كنت أشرب أحياناً بنّاً كثيفاً يرسو على لساني فألفظه بكزازة، وأحياناً أخرى ماء مصبوغاً ليس فيه إلّا الحلاوة. أُقسم إنّك لأناني. كنت ترفض أن تقول لي كم ملعقة بنّ تضع، وكم ملعقة سكّر، وكم فنجان ماء! عرفت كلّ أسراري، وكنت ترفض أن تكشف لي هذا السرّ التافه!

عفوَكَ! بدأتُ بالتحدّث عن رسالتك فجذبتني نكهة قهوتك. أصحيح ما تقوله من أنّك بدأت تشعر بالضيق في وطنك، ولمّا يمض على وصولك إليه أكثرُ من أسبوع؟ لا . . . إنّ هذه لأوهام. أنا أعلمَ أنّك لست كهؤلاء الشبّان الضائعين الذين تقطّعت الأسباب بينهم وبين ذويهم ومجتمعهم. وقد أدركتُ من أحاديثك أن صلتك بأسرتك،

(*) من قصة «الحي اللاتيني» (الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤) ص ٢٣٤ -٢٣٦.

بأمّك وإخوتك وأقربائك، أشدّ من أن تُوهنها نزعات عارضة وأشواق جديدة. وأحسب أنّها أيام قليلة، ثم يعود أنسك بوطنك وذويك. لقد شعرت أنا نفسي بمثل هذه الغربة يوم تركتُ الألزاس، فظللتُ أسابيعَ قلقة، ثمّ استقرّ بي المُقام. ولا بدّ أن ما كنت تنتويه من مراجعة مصادر بحثك وانكبابك على كتبك، سيُنسيك هذا الذي تُحسّه من ضيق، لا سيّما إذا قصدت المصيف كما أخبرتني.

وأنا كذلك شديدة الانصراف إلى الصحافة، وكلّ أملي أن أستوعب المادة المطلوبة في فترة الصيف هذه وإنّ عندي بعد قليل موعداً مع «فرنسواز» في المكتبة التي تعمل فيها، لتطلعني على بعض الكتب الهامّة في تاريخ الصحافة. ولا أخفي عليك، بهذه المناسبة، أني اتّصلت من جديد بسكرتير معهد الصحافة، وأطلعته على «ريبورتاج» صغير عنّ لي أن أكتبه عن معرضٍ فنيّ أقيم هذا الأسبوع لآثار المصوّرين الكاريكاتوريين في باريس، فشجّعني على هذا اللون من الكتابة، ونصحني بأن أطالع كثيراً لتستقيم لغتي وتنجوَ من الخطأ. ومع سروري بتشجيعه، أصبت ببعض الخيبة من نصيحته!

سمعتُ أمس نبأً آلمني في «لوي لوغران». فقد أخبرني «عدنان» أن الشرطة قد قبضتَ على «ربيع» وأوسعته ضرباً، في المظاهرة التي قام بها طلّاب إفريقيا الشمالية احتجاجاً على سياسة العسف التي تخضع لها أوطانهم. وأضاف «عدنانُ» أن «أحمدَ» قد رأى الحادث بعينه من شرفة الفندق الذي يسكنه مع بعض رفاقه العراقيين، فاستولى عليه شعورُ نقمةٍ وغيظ بلغ من الشدّة بحيث دفعه إلى هبوط السلّم بسرعة مجنونة، كأنّما يودّ أن ينقذ صديقه التونسي. ولولا أن لحق به أحد رفاقه وأمسكه دون الخروج، لأُصيبَ هو أيضاً بهراوات الشرطة، بل ولسيقَ إلى السجن. لقد ظللنا جميعاً، عند تناول العشاء أمسِ، صامتين نكاد لا نتحدّث بشيء. ولم أشعر يا عزيزي بأيّ غريب يفصلني عن أصدقائك. إنّني مثلهم أخجل مِمّا تأتيه حكومتنا من

أعمـال لا تُقرّهـا المبادىء التي تعلّمنـاهـا من تـاريخنـا في الحـرّيـة والديموقراطية .

وساءني أن أعلم أيضاً أن مطعم «لوي لوغران» يُغلق أبوابه بعد ثلاثة أيّام بمناسبة العطلة الصيفية. وليس الذي يؤلمني في ذلك أنني سأشعر بضيق من البحث عن مطعم رخيص طوال هذا الصيف، بقدر شعوري بأن شمل الأصدقاء سينفرط، فلا يجتمعون بعدُ إلاّ بالمصادفة، ما دامت غرفهم متباعدة. ولعلّ «ربيع» العزيزَ هو أوّل حبّة انفرطت من هذا العِقد.

لقد سألني «فؤاد» عنك أكثر من مرّة، ولعلّه عاتب عليك أنّك لم تكتب إليه. وما أدري إذا كان عتبه قد زال حين أخبرتُه أنّك لا تكتب حتى إلي (كان ذلك قبل أن تصلني رسالتك الحبيبة) .

بوديّ يا عزيزي أن أطيل لك هذه الرسالة، لولا خشيتي من أن يفوتني الموعد الذي ضربته مع «فرانسواز»، فهي الآن تترقّب مجيئي إلى مكتبتها؛ فسامحني إن قطعتُ رسالتي هذه التي سأُودعُها البريدَ في هذه اللحظة.

مناقشـات وتمرينـات

١ - عندما تعلم أنّ الرسالة تقع ضمن قصّة طويلة، فلماذا يلجأ القاصّ إلى هذه الوسيلة في قصّته؟

٢ - ماذا أدّت الرسالة على مستوى العلاقة العاطفية - على المستوى القومي - على المستوى السياسي؟

٣ - ماذا تسمّي اتجاه الحديث عن الأمور الصغيرة (عمل القهوة - المطعم الرخيص... الخ)؟ وهل تراه اتّجاهاً ضرورياً في القصة؟

٤ - لماذا تجد - إذا قارنت هذه الرسالة بالرسالة التي قبلها- أن تلك غارقة في الرومنطيقية؟ هل هذا تفاوت بين مرحلتين أو بين نفسيتين؟

- ١٨ -

من ياسمينة إلى . . .
للطاهر وطار *

أكتب إليكَ أملاً في أن أضع حدًّا لكلّ شيء.. لكلّ ما بيني وبينك. طبعاً- وبعبارة صريحة، أكتب إليك، محاولة مني لنزولنا من الأرجوحة المضحكة التي يتأرجح فيها كلانا...

فلنبدأ الأمور من بدايتها، ولنتصارح أوّلاً وقبل كلّ شيء...

حين قذفت بك الأقدار ورمت بفراشك في تلك البناية التي تبحلق نافذتها في نوافذ منزلنا طيلة الأربع والعشرين ساعة، (وبين قوسين: لقد سكنت في النصف الأخير من الليل) ورغم محاولتك لتجنب إحداث الضجيج، فقد كنت مستيقظة وشاهدت منظر رحيلك أو حلولك، أو سَمِّه كما شئت... لا يهمّ.

كان يركبك الغرور، وكنت في أقصى حدود العجرفة، وإلاّ ما معنى أن يكتشف مثلك، أن النافذة المشرفة على نافذته، بل، وعلى سريره، تجري وراءها حركة غير طبيعية، وأن غادة جميلة «ياسمينة» الساحرة الطيِّبة، ما تفتأ تتمطّط في النافذة. وتتأمل مبتسمة مسكن جارها الجديد.. و.. تتصامم، تتعامى، تحني رأسك، ثم تستدير في رشاقة وتختفي...

(*) من مجموعته القصصية «الطعنات» (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٦٩) ص ٧٩ - ٩١.

أهو احترام الجيران؟ يا للسخرية.. أهو النفاق والتظاهر؟ حتى لو صحَّ هذا فإنّ النفاق والتظاهر نوعان من أنواع التحدّي والغرور.

آه، كم أودّ أن تعترف، وتصرِّح بالحقيقة، لأنّني إلى حدّ اليوم، وإن كنت لا أبغض الغرور، وأومن بأن هذا المارد يركبني، أقف منك موقف الدارسة المحلِّلة، لا موقف المعجَبة..

إيْ المعجَبة، فأنت، رغم السخط الذي تثيره في النفس، لا تخلو من مميِّزات، تغتصب الإعجاب بك اغتصاباً.. حيويتك الفيَّاضة، يقظتك الحادة، هدوؤك العميق، طريقة دخولك وخروجك، طريقة إصغائك للمذياع، ابتعادك عن لفت الأنظار، إلى درجة أنَّك تستنير بالشمعة دون الكهرباء، طريقة نومك (وبالمناسبة، أسألك، لماذا تستيقظ ليلة كاملة، وتنام يوماً كاملاً، والعكس، بل قد تنام أياماً وتستيقظ ليالي، ثم لماذا لا يحلو لك النوم، قبل أن تصفر بأعذب لحن سمعته في ليلتك، حتى إنَ سعاد أختي لقّبتك ببلبل الحي المغرِّد؟ أهي عادة، أم هو تكلُّف! أم تعبير عن شعورك بالوحدة؟)، (وبالمناسبة، لماذا كلّ هذه الوحدة التي تجثم على حياتك، لا زوّار ولا زيارات، لا أصدقاء ولا صديقات، ألا تشعر بالسأم والضجر؟ أم أنّك تضحي في سبيل احترام الجار.. أنا من جانبي، لا أصدّق سوى أنّك تخشى من أصدقائك على ابنة الجار.. عليَّ أنا.. أليس كذلك؟)

وطريقة لبسك أيضاً تثير الإعجاب، فلماذا أنت فوضوي بهذا الشكل، تتأنّق يوماً فتبدو وسيمًا جميلاً رائعاً، ثم لا تلبث أن تهمل نفسك، أياماً وأياماً، وكأنّما أنت في زهد متواصل أو إفلاس نهائي؟

وتلك اللحية الحمراء، التي تكبر أحياناً، وتنقص أخرى، دون أن تختفيَ نهائياً، دعني أسألك، لماذا تحافظ عليها؟ سعاد تقول إنك تصبغ شعرك، وأنا لم أصدِّقها... فهل تصبغ شعرك بالفعل؟ ولماذا؟

أفّ.. لماذا كل هذا الإسهاب في أشياء تافهةٍ لا معنى لها، اعذرني على كلّ حال، وأقول اعذرني، راجية أن تلاحظ ما يبدو في لهجتي من ليونة، كلّما استمررت في الكتابة... أفهمت... إنّ الكتابة كالدموع، تخفف الآلام، وتحلّ العقد، وتبعث الصفاء في النفس - هذه ملاحظة هامشية لا غير.

لا علينا. وَلْنطو صفحة الأيام الأولى، فقد انتصرتُ عليك. وتعلّقتَ بي، وهذا هوَ الجانب الثاني الذي يجب أن نُمعن فيه النظرَ، وأسارع إلى القول: تناقضك، تناقضك، تناقضك، أجبرني على مجاراتك.

لقد كنتَ لا تدري ما تفعل، كنت في صراع عنيف مع نفسك، وبعبارة صريحة مع غرورك، تُبدي من الهيام بي، ما يجعلك لا تفارق النافذة ساعات وساعات، حتى أشعر بقلبي يتضوَّع مكان قلبك، ثمّ لا تلبث - حالما أبتسم لك وأُحييك - أن تتغيَّب أو تختفي عدَّة أيّام، وكأنّما أنت تُشعرني بأنّك تحرّرت من العبودية إلى الأبد، فأنتظرك وأنتظرك، ودمي يلتهب، وأعصابي تثور وتهدأ، ألعنك والعنك، ثم أبحث لك عن المبرِّرات، وأتصوَّرك زوجاً قاسياً أنانياً، إلى أن تعود تفتح النافذة ثم تُغلقها لتُحدِثَ ضجة فأسمعك، تقف، ثم تنظر إلى جانبَي الطريق، وتمرِّر يدك على شعرك تحيي، وبكل وقاحة تسأل عما بي، ثم تطلب مني أن أصاحبك في نزهة.

أسامحك في قلبي، بدون عذر، وأتمنّى لو أثب من النافذة فأعانقك... ثمَّ أبكي وأبكي حتى أذوب، لكن لست أدري كيف يغلبني التحدِّي والعناد، فأغلق النافذة في وجهك بعنف، وأتركك تتبخّر تشوّقاً، أياماً ولياليَ.

يا لك من مسكين. ويا لي من مسكينة أيضاً.

حتى إنّنا يوم قُدِّرَ والتقينا، وجنباً لجنب قطعنا دروب المدينة الضيِّقة، وسط زحام الباعة والدلاّلين والسماسرة، كنت أسْتَرِقُ النظر إليك، فأجدك أجمل مِمَّا كنت أتصوَّرك من النافذة، أبيضَ، غليظَ الحاجبين، أسودَ العينين كبيرَهما، دقيق الذقن، ممتلئ الشفتين، متناسب الطول والقامة، لا تنقصك سوى بدلةٍ أنيقة، وحذاء أسودَ لمّاع أو بدلةٍ عسكرية تزيِّنها نجومٌ ونياشينُ، ومفاتيح عربة ضخمة تُقِلُّنا، ونَنطلق وننطلق. ويدك على كتفي، والريح تعبث بشعري الجميل، وصوت أم كلثوم يُفعمنا: «أنا واللي بحبه يا ليل» بينما كنتَ أنت تُجيل عينيك في الوجوه وتحاول بين حين وآخر، أن تتحاشى النظرات في مزيج من الخجل واللامبالاة، وتسبقني إلى اختيار الأنْهُج [1] الضيِّقة المظلمة... كأنّما أنت بطل من أبطال الأفلام الهاربين المتخفِّين.

وخرجنا إلى شاطىء البحر، خلف المدينة العصرية، وتحت نخلة هرمة، جلسنا على الرمل، ينقر كلانا أطراف المواضيع، فيتدفق الحديث عذباً منعشاً كالموسيقى، لم تسألني بالمرة عن حياتي الخاصّة، ولم أسألك أيضاً، ولم تتغزَّل بي أو تتحدَّث عن جمالي، إنّما تتأملني من قمَّة رأسي إلى قدمي، فأشعر بنشوة والتذاذ رغم السحابة السوداء، التي تخيِّم على عينيك، وتقطيبة جبينك المتواصلة، كما لو أنّك تحمل في ضميرك عبء إثم إله من الآلهة الإغريقيين.

تأمّلت أعماقي، فوجدت أنّني أحبّك إلى درجة العبادة، لكن رغم ذلك لم أكن أشعر بأيّة سعادة، كنت أقاوم الانكسار والمذلّة والإهانة، وأنا أشعر بحزن وكآبة وشقاء... وأجهدت نفسي لأخفي عنك ما كان يعتورني لحظتَها.

آه، غرورك، واعتدادك بنفسك، لقد اعتبرتَ أنّني صرت ملكاً

(١) الأنهج: جمع نهج أي الطريق أو الشارع.

شخصياً لك وانتهى الأمر، فرحتَ تتصرَّف ببساطة وانطلاق، كأنما مرَّ على زواجنا عشرُ سنوات، فمللتني ومللتك، وبدا لي أنَّك تحاول إيهامي بتحرّرك من جاذبيتي، تحرُّراً مطلقاً.

لقد أهنتني وجرحت كرامتي، لا بشيء، سوى ببساطتك تلك المنبثقةِ من اعتدادك بنفسك، وثقتك المطلقة، في أنّني لك، ولك وحدَك، وأنَّك الصقر الذي التفَّتْ مخالبُه حول الفريسة...

مرَّت أشهر ونحن في صراع... اتّخذتُ بعدها ذلك القرارَ الخطير، طردَك من حظيرة حياتي إلى أبد الآبدين.

- إلى هنا يجب أن تتوقف المسألة، لا تفكِّر فيَّ أبداً منذ اليوم.
- أيّتها المدلَّلة الحمقاء ما بك؟
- كرهتكَ وهذا كل ما في الأمر، ابتعد عني حالاً، وإلاَّ استنجدت بالشرطة.
- أيّتها المجنونة، هناك أشياء كثيرةٌ، أريد أن أحدِّثك عنها.
- دعها لنفسك.

وقصدتُ الشرطيّ، لكنَّك سرعان ما اختفيتَ، ويا له من ظفر، ويا لَروعة الانتصار، اتّخذتُ قراراً، ولم تستطع أن تمنعني عن تنفيذه، وهربت مختفياً وسط الحشود، في الأنهج الضيّقة، تلوم نفسك ولا شكّ، عن عجزك عن الاحتفاظ بهذه الدرَّة الفريدة.

(بين قوسين: لاحظت أنَّك ترهب الشرطة، وتتَّقي الالتقاء مع أفرادها، لماذا؟)...

وقرّرت أن أبتسم لك، في سخرية كلّما رأيتك؛ بيد أنّ بروزك منتصباً، تحت القوس، في النهج المؤدّي لحيِّنا، كالشيطان، وتلك الابتسامةَ التي غرَّرتني، فأشعرتني بالندم... كانا درساً قاسياً لي،

فاقتنعت بأنّ الدربَ التي اقتيد كلانا للسير فيها، ينبغي أن أنطلق فيها كما يحلو لك، لا كما يحلو لي.

وزاد ذلك في إعجابي بك، رغم موقفك من الدلال، لأنّ سعادَ أختي، وكلَّ صديقاتي، يقلن: انّ الرجال يحبُّون المرأة المدلّلة.

كان ممكناً أن تسير الأمور، على أحسن ما يرام، في هدوء وسلام، على الأقل عدّة أسابيع، لو لم تجرِ الرياح بما لا تشتهيه السفن.

غرورك، واعتدادك بنفسك، وما يُثيرانه فيَّ من تعنُّت وعناد، رغم تنازلاتي المتواصلة.

حينَ عادت أختي سعاد من عندك، بعد أن أخبرتك بأنّ هناك مَن تقدَّم يطلب يدي، وأنّني مستعدة للرفض، سألتُها:

- هاه، هزه الخبر ولا شكّ، صفي كل حركة من حركاته.
- كان في منتهى الحكمة، طرح الكتاب من يده، وتنهَّد بصوتٍ مرتفع، وتضخّمت تلك التقطيبة التي على جبينه. وأطرق يفكّر مليًّا، ثمّ قال بصوت هادىء رصين: ما كان يجوز أن يحدث هذا.
- ماذا ماذا؟

قاطعتُ سعاد، فواصَلَتْ:

- سألني: كم عمر ياسمينة؟

فأجبته مندهشة:

- ألم تسألها عن عمرها حتى الآن، على كل حال ثماني عشْرَةَ سنةً.
- وأنا عمري ستٌّ وعشرون سنة، أربع سنوات أخرى، شيء حسن، قولي لياسمينة، إنني أريد أن أحدِّثها في هذا الموضوع وفي غيره، سأنتظرها تحت النخلة الهرمة، بعد غد في السادسة والنصف، بعد خروجها من عملها.

جُنَّ جنوني، ولم تستطع سعاد أن تُهدِّئني، أو تُقنعني، بأنّ موقفك إنّما يدلّ على الرصانة والتعقّل، وبكيت حتى تورَّمت عيناي، وقرَّرت إعلان الحرب اللانهائية، وليكن ما يكون؛ فالمآسي الكبيرة، إنّماتحدث من المشاكل الصغيرة.

لم أفتح نافذتي، ولم آتِك في الموعد، واخترتُ.

اخترت أن أراك تتبخّر وراء النافذة شوقاً وندماً وحسرة، كإله إغريقي آثم.

وافقت على الشاب الذي تقدَّم يطلبُ يدي، وأعلنت لنفسي، أنَّ هذا هو النصر الكبير، لكن ما راعني بعد أسبوع، أي في اليوم الذي انبعثتْ فيه أوّلُ زغرودة من دارنا تعلن الفرحةَ، ما راعني...... إلاّ وأنت ترحل.

آه، كم أنا حمقاء، كم أنت معتدّ بنفسك، وما أتعس حظّنا.

لم أرك إلاّ بعد سنة، ابتسمتَ كأنَّ شيئاً لم يكن، لم يتغيّر أيُّ شيء فيك، سوى أنّ شعر رأسك ولحيتك اسودَّ بعد أن كان أحمر، وأنّ حركاتك ازدادت خفَّة وحيوية.

لست أدري كيف سلَّمتُ عليك... وكأنَّك أخ عاد من سفر طويل، واستسلمت لقدميَّ تتبعان الطريق الذي تختار، في الأنْهج المظلمة، ورنَّت في أذني أوَّل كلمة سمعتها منك في أوّل لقاء.

- يا ياسمينة، إنَّك الأنثى الأولى التي أثَّرت فيّ، وإنّي لَجِدُّ سعيد.
- لماذا طرحتَ عليَّ ذلك السؤال الجهنّميَّ:
- هل أنت سعيدة مع خطيبك؟

جرحتَ كرامتي، وأغريتني بتحدِّيك:

- سعيدة جداً، وأنا ذاهبة الآن إليه.

وابتعدت عنك دون وَدَاع، وأجهشت كالطفلة في الشارع. . .

وبالرغم من أنّني لا أعرف أيُّنا المذنبُ، فإنّي أدعوك للتمعن في رسالتي هذه. . . ولك أشواقي.

المخلصة أبداً: ياسمينة ش

ملحوظة:

يقيني أنّك ستقهقه من أعماق قلبك لهذه الخواطر الصبيانية التافهة قائلاً في سخرية لاذعة:

- هؤلاء السطحيات البرجوازيات، لا يفسِّرن الحياة إلاّ كما يحلو لعواطفهنَّ. . . الإعجاب، الغرور، التمرُّد، الشوق، الذوبان، إنّهن حالمات، خاملات، من بقايا هارون الرشيد وشهرزاد، وقرون الرومنطيقية الطويلة.

ثمَّ تبصق على رسالتي، وتدوسها بقدمك، وتقذف بها في وعاء القمامة وتهمس في ألم وأسى:

- ما نزال غرباء، إنّنا غرباء ما نزال.

لكن مهلاً. . .

رأيت رجال الشرطة وقد وثبوا من السيّارات وانتصبوا هنا وهناك شاهرين أسلحتهم، بينما تقدّم ثلاثة يرتدون الثياب المدنية نحو الباب، طرقوا لحظات، ثمّ دفعوا الباب بعنف، حطّموه ودلفوا، ليعودوا مبهوتين:

- المنزل غير مسكون!؟

لحظتها، وقف خطيبي عند رأسي، واضعاً يديه على كتفي، وتمتم في تبجُّح:

- افتضح أمر صاحبك، إنّه سياسي خطير، يعيش في الحياة السريّة، اليوم نهايتُه.

مادت بي الأرض، وتراقصت الجدران، تذكَّرت أشياء كانت تبدو لي غامضةً، وفهمت لماذا لا تلازم طريقة معيَّنة في اللِّباس، وتدخل من باب وتخرج من آخر، ولا تسير أبداً في الشوارع الكبيرة، وترهب الشرطة.

وكالمجنونة رحت أقهقه وأقهقه. . وتراقصت أمام عيني تلك السحابة السوداء التي تجثم على وجهك، وتلك التقطيبة المرتسمة باستمرار على جبينك.

يا لي من حمقاء بلهاء، لم يغادرِ الحيَّ انتقاماً مني. . . إنّما هروباً من الشرطة.

كنت ما أزال أقهقه وأهذي وأبكي وأتقاذف هنا وهناك، بينما خطيبي يتأملني مشدوهاً، في حين تنبعث الزغاريد من الغرفة المجاورة، ولست أدري كيف استعدت وعيي وتماسكت، وأسرعت إلى النافذة.

فتحتها على مصراعيها، ليتأمَّل خطيبي أيضاً المشهد، وسألته:

- من تعني؟

فأجاب مبهوتًا:

- المنجي، ساكن الدار، لقد رأيته بأمّ عيني، ورأيتك معه.

ولأوّل مرَّة عرفت أن اسمك المنجي، لا المختار كما كنت تدَّعي.

سأل الشرطةُ الأطفال عنك، فلم يجب أحد بأنّه سمع هذا الاسم في الحي أو رآك، ثم تصايحوا:

- تحيا الحريَّة، تحيا الحريَّة.

وخرجت جارتك العجوز الإسبانية، لتعلن أنَّ الدار مهجورة منذ أمد طويل؛ وأنّه فقط بين الحين والآخر وبدون انتظام، تنفتح نوافذها في آخر الليل، وتضاء شمعة، وأضافت وهي تعود أدراجها:

- يقيني أن أحد البوهيميين هو الذي يلجأ إليها، ليُنهيَ فيها ليلته . . .

مناقشات وتمرينات

١ - «أكتب إليك أملاً في أن أضع حدًّا لكل شيء». هل هذا صحيح؟ هل وضعت الرسالة حدًّا لكل شيء؟

٢ - تقول صاحبة الرسالة: «أف لماذا هذا الإسهاب في أشياء تافهة» هل تعتقد أنها تافهة حقاً في الميزان القصصي؟

٣ - ما الفائدة التي تجنيها القصة من عبارات بدأت بقول الكاتب: «وبين قوسين» «وبالمناسبة»؟

٤ - أعد تركيب شخصية البطل في القصة من عناصرها الكبرى، وبيِّن لماذا لم تستطع ياسمينة أن تفهم مثل هذا البطل؟

٥ - لماذا كانت إضافة الملحوظة مهمَّة بعد انتهاء الرسالة؟

٦ - هل تستطيع أن تحصر ضروب الصراع في القصة؟ لماذا تجعل هذه الضروب من القصة شيئاً بالغ التكثيف (رغم قيامها على ما يشبه الخبر المرويّ)؟

-١٩-

وقفة في ضوء القمر *

١٨ سبتمبر

لشدّ ما أكابد الليلة يا وليم! على أنني الآن أستطيع أن أتحمّل كلّ شيء. إنّني لن أراها بعد! وليتني أطير اليك، فأرتمي بين ذراعيك، لأشرح لك بانفعالاتي القاتلة، ومدامعي الهاطلة، ما هاجم قلبي وتشعّب خاطري من العواطف! أنا أتململ أرقاً وقلقاً، أستنشق الهواء فلا أجده، والتمس العزاء فلا أناله، ولا أنتظر غير الإصباح، فإنّ الخيول ستغدو عليَّ مطلعَ الشمس. وَالَهْفَ نفسي! إنها نائمة نوم الخليّ الهادىء لا تعلم أنها لن تراني عَوْضُ[1].

فارقتها الليلة مرغماً بعد ساعتين قضيناهما في الحديث ملكتُ فيها نفسي، وكظمتُ على جِرَّتي[2] حتى لا ينمّ ظاهري بما أقصد. وذلك أنّ «ألبير» وعدني أن يكون هو «وشرلوت» في الحديقة بعد العَشاء توّاً، فسبقتها إليها؛ ووقفت على مَشْرَفٍ تحت سرحتين من شجر القسطل أشيّع آية النهار ببصري وهي تغرب لآخر مرّة على مرآيَ خلف ذلك الوادي الضاحك، وهذا النهر الهادىء. ولكم وقفت أنا

(*) من «آلام فرتر» لجوته ترجمة أحمد حسن الزيّات (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٨٨ - ٩٢.

(١) عوض: أبداً.

(٢) كظم على جرَّته: غالب ما في نفسه وتصبّر.

وهي في هذا المكان جنباً الى جنب نطالع معاً هذا المنظر الجميل! أمّا الآن. . . . !

كنت أتمشى في ذلك الممشى العزيز عليّ قبل أن أعرف شرلوت فتحببني فيه أكثرَ الأحايين جاذبيةٌ خفيّة. فلما تعارفنا كان سرورنا باجتماع هوانا على تفضيله عظيمًا. والحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه أنّه أشدُّ ما رأت عيني جمالاً وسحراً. تجد لأول وهلة بين أشجار القسطل منظراً واسعاً ممتدًّا؛ وقد أذكر أني وصفت لك في رسائلي كلّ هذا: وصفت لك كيف يجد المرء نفسه إذا ما تقدّم محصوراً بين صفّين من أشجار الزان الباسقة، وكيف يَدْهَامُّ[١] الممشى قليلاً قليلاً بالخضرة النضرة كلّما خاض في أحشاء الأجمة المتصلة به، ثم ينتهي كلّ ذلك بسور صغير تشعر عنده بسحر العزلة وتأثير الوحدة.

لا أزال أشعر بذلك التأثّر الذي أحسسته حين دخلت هذا المكان أوّل مرة أستجير به من حَرِّ الظهيرة. فقد خيّل إليّ أنّ هذا المكان لي مألف ومعهد؛ وأحسست أنّي في هذا الموضع سأشرب إمّا شهد الحياة وإمّا صَابَ الموت!

مضى عليّ نصف ساعة وأنا أغذّي النفس بهذه الخواطر الحلوة المرّة: خواطر الاجتماع والافتراق، وقد ذهلتُ عن كلّ شيء، حتى سمعت وقعَ اقدامهما صاعدين الى المشرف، فدلفت إليهما مسرعاً، وتناولت يد شرلوت مرتجفاً وقبّلتها. ثم صعدنا جميعاً الى المشْرَفِ، وما علوناه حتى رأينا القمر بازغاً وراء الهضبة الشجراء، فمشينا نتساقط الحديث في موضوعات مختلفة حتى بلغنا الأجمةَ المظلمةَ، فولجتها شرلوت ثم جلست، وجلست أنا وألبير الى جانبها. ولكنّي كنت من

(١) يدهامّ: يصبح أدهم تدريجاً.

الاضطراب بحيث لا أستقر في مكان؛ فنهضت ووقفت إزاءها ثم مشيت طولاً وعرضاً ورجعت فأخذت مجلسي. تلك كانت حال اضطراب وهمّ لا يطمئنّ عليها الخاطر ولا تهدأ فيها النفس. . .

لفتتنا شرلوت الى جمال ضوء القمر وقد أنار أمامنا الممشى كلَّه إلى أقصى أشجار الزان، فإذا منظر رائق يملك الأبصار ويخلب الأفئدة، وقد زاده أثراً وروعةً أنّ ما حولنا كان في ظلمة حالكة. سكتنا هنيهة ثم بدأت شرلوت الحديث قائلة: ما مشيتُ ليلةً في ضوء القمر إلا تذكّرتُ من مات من أهلي، وتفكّرت في أمر الموت والحياة الأخرى. إنّا سنحيا ثانية، ولكن ليت شعري يا فرتر هل نتراءى ونتعارف؟ ما رأيك في هذا الأمر وماذا في حسّكَ منه؟ قالت ذلك بلهجة سامية مؤثّرة. فقلت لها وقد اغرورقتْ عيناي بالدمع: سنتراءى يا شرلوت! أجل سنتراءى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ثم لم أستطع أن أزيد على ما قلت حرفاً.

لِمَ سألتني يا وليم هذا السؤال على حين يملأ قلبي همُّ الفراق ولَوْعَةُ النوى؟ استمرت شرلوت تقول: «وهل يعلم أحبّاؤنا الذين فقدناهم من أمورنا شيئاً؟ هل يشعرون بسعادتنا إذا سعدنا! وهل يدرون أننا نذكرهم بلسان وامق[١] وقلب مَشُوق؟ آه! إنّ خيال أمّي لا يبرح طائفاً حولي كلّما جلست في تلك الليالي الهادئة وسط أطفالي وأطفالها، وقد ازدحموا من حولي كما كانوا يزدحمون من حولها، فأرفع إلى السماء طَرْفِي المُخْضَلّ[٢] بدموع الأسف، وأتمنّى لو تستطيع أمي أن تُلقيَ علينا نظرةً من وراء الحُجُب فترى كيف قمت بما وعدتُها ساعةَ احتضارها من أن أكون لأطفالها أمّاً؛ ثمّ أهتف بها قائلة: مغفرةً يا أمّي المحبوبة إذا لم أكن لهم مثل ما كنتِ. على أنّني قد بذلت لهم

(١) وامق: محبّ.
(٢) المخضل: المبتلّ.

ما أستطيع: فهم مكسوُّون مغذوُّون فضلاً عن أنّهم مدلّلون محبوبون. لو كنت تستطيعين أيّتها القديسة العزيزة أن تري في أيّ مجتمع نحن نعيش، إذن لشكرتِ الله وحمدتِه على أن استجاب دعاءك وتقبّلَ بكاءك، فبسط على أطفالك جناحَ رحمته، وأضفى عليهم ثوبَ نعمته وبركته».

قالت ذلك يا وليم! ومن يستطيع أن يُعيدَ إليك ما قالت؟ وهل في مقدور تلك الأحرف الباردة الجامدة أن تعبّر لك عن هذه الزهور السماوية لتلك النفس الملَكيَّة؟

تحرّك ألبير فقطع عليها الحديث بقوله: لقد هاج الادِّكَارُ أشجانَ نفسك يا شرلوت. أنا أعلم منزلةَ هذه الذكريات من قلبك، ونصيبَها من حبّك، إلاّ أني أتوسّل إليك... فقاطعته شرلوت قائلة: إنّك لم تنسَ يا ألبير هاتيك الليالي التي كنا نقضيها جالسين جميعاً حول المنضدة المستديرة، وأبي غائب عنّا في سفره، والأطفال قد أوَوا إلى مضاجعهم، وقد كنت تحمل معك في أكثر الليالي كتاباً مفيداً تقرأ لنا فيه، فيُلهيك عن القراءة حديث تلك المرأة المحبوبة الذي يمتزج بالقلوب ويسرِّي عن الخواطر. ألم يكن حديثها العذبُ أفضلَ من كلّ شيء؟ لقد كانت جميلة وديعة طربة نشيطة. ولا يعلم إلاّ الله تلك الدموع التي كنت أذرفها حين آوي إلى مخدعي جاثيةً إلى الله مبتهلة اليه أن يجعلني شبيهة بها!

مناقشات وتمرينات

١ - هذه قطعة مترجمة فما الذي يسوغ وضعها بين نماذج النثر العربي؟
٢ - لماذا مزج الكاتب بين مناظر الطبيعة والمشاعر الإنسانية؟
٣ - هل يمكن بعد دراسة شخصية شارلوت أن تحكم بأن فرتر مخفق، ولا بدّ، في محاولة استمالتها؟
٤ - ما هي الخواطر التي أثارها المنظر المقمر في نفس شارلوت؟

-٤-

مواقف من الموت

-٢١-

الخوف من الموت أسبابه وعلاجه

لمسكويه *

هذه جملة الكلام على الخوف المطلق، ولما كان أعظمَ ما يلحق الإنسان منه الخوفُ من الموت، وكان هذا الخوف عامًّا وهو مع عمومه أشدّ وأبلغ من جميع المخاوف، وجب أن نستوفي الكلام فيه، فنقول: إنّ الخوف من الموت ليس يعرض إلاّ لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة، أو لا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحلّ وبطل تركيبه فقد انحلّ ذاته وبطلت نفسه بطلان عَدَم ودثور، وأن العالم سيبقى بعده موجوداً وليس هو بموجود فيه، كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد، أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدّمته وأدّت إليه وكانت سبب حلوله، أو لأنه يعتقد عقوبةً تحلّ به بعد الموت. . . . وهذه كلُّها ظنون باطلة لا حقيقة لها.

أمّا مَن جهل الموتَ ولم يدرِ ما هو، فإنّا نبيّن له أنّ الموت ليس بشيء أكثر من ترك استعمال آلاته، وهي الأعضاء التي مجموعها يسمّى بدناً، كما يترك الصانع استعمال آلاته، وأن النفس جوهر غير جسماني وليست عرضاً، وأنها غير قابلة للفساد. . .

(*) من «كتاب تهذيب الأخلاق» (تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٦٦) ص ٢١٠ - ٢١٤.

فأمّا من يخاف الموت لأنّه لا يعلم الى أين تصير نفسه، أو لأنّه يظنّ أن بدنه اذا انحلّ وبطل تركيبه فقد انحلّ ذاته وبطلت نفسه، وجهل بقاء النفس وكيفيّة المعاد، فليس يخاف الموت على الحقيقة، وإنّما يجهل ما ينبغي أن يعلمه. فالجهل إذن هو المَخُوف، وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به، وتركوا لأجله لذّات الجسم وراحات البدن، واختاروا عليه النَّصَبَ والسهر، ورأوا أن الراحة التي يُستَراحُ بها من الجهل هي الراحة الحقيقية، وأن التعب الحقيقي هو تعب الجهل، لأنّه مرض مزمن للنفس، والبرء منه خلاص لها وراحة سرمدية ولذة أبدية. فلما تيقّن الحكماء ذلك واستبصروا فيه وهجموا على حقيقته ووصلوا إلى الرَّوْح والرّاحة به، هانت عليهم أمور الدنيا كلّها، واستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسّيّة والمطالب التي تؤدي إليها، إذ كانت قليلةَ الثبات والبقاء سريعةَ الزوال والفناء كثيرة الهموم إذا وُجدَت، عظيمة الغموم إذا فُقِدَتْ، فاقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة، وتسلّوا عن فضول العيش التي فيها ما ذكرتمن العيوب وما لم أذكره، ولأنها مع ذلك بلا نهاية، وذلك أن الإنسان إذا بلغ منها إلى غاية تاقت نفسه إلى غاية أخرى من غير وقوف على حدّ ولا انتهاء إلى أمد. وهذا هو الموت لا ما خاف منه، والحرص عليه هو الحرص على الزائل، والشغل به هو الشغل بالباطل. ولذلك جزم الحكماء بأن الموت موتان: موت إرادي، وموت طبيعي. وكذلك الحياة حياتان: حياة إرادية، وحياة طبيعية. عَنَوا بالموت الإرادي إماتةَ الشهوات وتركَ التعرّض لها، وعنوا بالموت الطبيعي مفارقةَ النفس البدنَ، وعنوا بالحياة الإرادية ما يسعى له الإنسان في حياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات، وبالحياة الطبيعية بقاءَ النفس السرمدي في الغبطة الأبدية بما يستفيده من العلوم الحقيقية ويبرأ به من الجهل. ولذلك وصّى أفلاطن طالب الحكمة بأن قال له: مُتْ بالإرادة تَحْيَ بالطبيعة.

على أنّ من خاف الموت الطبيعي للإنسان فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه، وذلك أن هذا الموت هو تمام حدّ الإنسان، لأنّه حي ناطق مائت، فالموت تمامه وكماله وبه يصير إلى أُفُقِه الاعلى. ومن علم أنّ كلّ شيء هو مركّب من حدّه، وحدّه مركّب من جنسه وفصوله، وأن جنس الإنسان هو الحي وفصلاه هو الناطق والمائت، علم أنّه سينحلّ إلى جنسه وفصوله لأنّ كلّ مركّب لا مَحَالَة سينحلّ إلى الشيء الذي منه تركّب. فَمَن أجهلُ ممّن يخافُ تمامَ ذاته، ومن أسوأ حالاً ممن يظن ان فناءه ونقصانه بتمامه؟

فأمّا من ظنّ أنّ للموت ألماً عظيمًا غير ألم الأمراض التي ربّما تقدّمته وأدّت إليه، فعلاجه أن يُبيّن له أنّ هذا ظنّ كاذب، لأنّ الألم إنّما يكون للحي، والحيُّ هو القابل أثرَ النفس، فأما الجسم الذي ليس فيه أثر النفس فإنه لا يألم ولا يُحِسّ. فإذن الموت الذي هو مفارقة النفس البدنَ لا ألَم له، لأنّ البدن إنما كان يألم ويُحسّ بالنفس وحصول أثرها فيه، فإذا صار جسمًا لا أثر فيه للنفس فلا حسَّ له ولا ألم. فقد تبين أن الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم لأنه فراق ما به كان يحسّ ويتألم.

فأما من خاف الموت لأجل العقاب الذي يُوعَدُ به بعدَه، فينبغي أن نبيّن له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب، والعقاب إنما يكون على شيء باقٍ بعدَ البدن الداثر. ومن اعترف بشيء باقٍ بعد البدن فهو لا محالةَ سيعترف بذنوب له وأفعال سيّئة يستحقّ عليها العقاب، وهو مع ذلك معترف بحاكم عَدْلٍ يعاقب على السّيئات لا على الحسنات، فهو إذن خائف من ذنوبه لا من الموت. ومن خاف عقوبةً على ذنب، فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه، وقد بيّنا فيما تقدّم أنّ الأفعال الرديئة التي تسمّى ذنوباً إنّما تصدر عن هيئات رديئة، والهيئات الرديئة هي للنفس وهي الرذائل التي أحصيناها وعرّفناك أضدادها من الفضائل، فإذن الخائف من الموت

على هذه الطريقة ومن هذه الجهة هو جاهل بما ينبغي أن يخاف منه، وخائف ممّا لا أثرَ له ولا خوفَ منه، وعلاج الجهل يكون بالعلم. فإذن الحكمة هي التي تخلّصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة التي هي نتائج الجَهَالات، والله الموفق لما فيه الخير.

مناقشات وتمرينات

١ - وضع مسكويه أسباباً للخوف من الموت وعلاجاً لها، فما هي هذه الاسباب؟ وكيف يُعالَج كلّ منها؟
٢ - ما معنى «الموت تمام حدّ الإنسان»؟
٣ - ما معنى قولِ أفلاطون: مُتْ بالإرادة تحيَ بالطبيعة؟
٤ - هل يريد مسكويه أن يقول إن الفيلسوف لا يخاف الموت؟ كيف يتم ذلك؟ وهل يعني هذا أن الخوف من الموت سيظل عامًّا ما دام في غير المستطاع تحويلُ الناس إلى فلاسفة؟

-٢١-

ماذا قال الفلاسفة في تأبين عضد الدولة * ؟

قال أبو حيّان التوحيديُّ في كتاب الزّلفة: لمّا صَحَّتْ وفاةُ عضد الدولة[١] كنّا عند أبي سليمانَ السِّجِسْتانيِّ، وكان القُومَسيُّ حاضراً والنُّوشَجانيُّ وأبو القاسم غلامُ زُحَلَ وابنُ المقداد والعَروضيُّ والأندلسيُّ والصَّيمَريُّ[٢] فتذاكروا الكلماتِ العشرة المشهورة[٣] التي قالها الحكماء العَشَرَةُ عند وفاة الإسكندر، فقال الأندلسي: لو قد تقوّض مجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يُؤْثَر عنكم ذلك.

فقال أبو سليمان: ما أحسنَ ما بعثتَ عليه. أمّا أنا فأقول: لقد

(*) من كتاب «ذيل تجارب الأمم» لأبي شجاع محمد بن الحسين الروذراوري (القاهرة، ١٩١٦) ص٧٥ -٧٧.

(١) عضد الدولة: من أبرز ملوك الدولة البويهية (توفّي سنة ٩٨٢/٣٧٢) واتّسعت دولته حتّى شملت فارس وخوزستان وبغداد وعُمان، وكان يشجّع العلم والعلماء، وقد قصده المتنبّي في شيراز ومدحه.

(٢) أبو سليمان السّجستاني محمد بن بهرام: أستاذ أبي حيان التوحيدي في الفلسفة؛ والقومسي أبو بكر الحسن بن كردة: كان كبير الطبقة في الفلسفة؛ والنوشجاني: من أصحاب أبي سليمان؛ وأبو القاسم غلام زحل عبيد الله بن الحسن: كان منجّما معروفاً؛ والحسن بن مقداد وأبو محمّد العروضي وأبو محمد الأندلسي عبد الله بن حمود والصيمري أبو زكريّا - كلّ هؤلاء ممّن يتردد ذكرهم في حَلقة أبي سليمان، إلاّ انّ الأندلسي منهم غلب عليه النحوُ لا الفلسفةُ.

(٣) هكذا جاء العدد هنا، ولكنّ الأقوال التي أوردتها المصادر تزيد على ذلك كثيراً.

وزن هذا الشخص الدنيا بغير مِثقالِها، وأعطاها فوق قيمتها، وحسبُك أنّه طلب الربح فيها فخسر روحه في الدنيا.

وقال الصيمري: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم بها فهذا انتباهه.

وقال النوشجاني: ما رأيت غافلاً في غفلته ولا عاقلاً في عقله مثلَه، لقد كان ينقض جانباً وهو يظنّ أنّه مُبرِم، وَيَغْرَمُ وهو يرى أنّه غانم. وقال العروضي: أمّا إنّه لو كان معتبراً في حياته لما صار عِبرة في مماته.

وقال الأندلسي: الصاعدُ في درجاتها إلى سَفَال، والنازل من درجاتها إلى مَعَال.

وقال القومسي: من جدّ للدنيا هزلت به، ومن هزل راغباً عنها جدّت له، انظر إلى هذا كيف انتهى أمره وإلى أيّ حظّ وقع شأنه، وإنّي لأظنّ أنّ الرجل الزاهد الذي مات في هذه الأيام ودفن بالشونيزية[1] أحفظُهما وأعزُّ ظهيراً من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة.

وقال غلام زحل: ما ترك هذا الشخص استظهاراً[2] بحسن نظره وقوّته، ولكن غلبه ما منه كان وبمعونته بان.

وقال ابن المقداد: إنّ ماء أطفأ هذه النارَ لَعظيمٌ، وإنّ ريحاً زعزعت هذا الركنَ لعصوف.

فقال أبو سليمان: ما عندي في هذا الحديث أحسنُ ممّا سمعت أبا إسماعيل الخطيبَ الهاشميَّ لما نعاه على المِنبر يومَ الجمعة يقول في خطبته: كيف غفلتَ عن كيد هذا الأمر حتّى نفذ

(١) الشونيزية: اسم مقبرة ببغداد.
(٢) الاستظهار: الاستعانة والاستقواء.

فيك، وهلّا اتخذت دونَه جُنَّةً[1] تقيك؟ ماذا صنعتَ بأموالك والعبيد، ورجالِك والجنود، وبحولك[2] العتيد، وبدهرك الشديد، هلّا صانعت من عاجلك على السرير[3]، وبذلت له من القنطار إلى القطمير[4]. من أين أُتيتَ وكنت شهماً حازماً، وكيف مَكَّنت من نفسك وكنتَ قويّا صارما، من الذي وَاطَأ على مكروهك[5]، وأناخ بكلكله على ملكك؟ لقد استضعفك مَنْ طمعَ فيك، ولقد جهلك من سلّم العزّ لك! كلّا، ولكن مَلَكَكَ من أخسرك بالتمليك، وسَلَبَكَ من قدر عليك بالتهليك، إنّ فيك لَعبرةً للمعتبرين، وإنّك لآيةٌ للمستبصرين.

مناقشات وتمرينات

١ - «لما **صحّت** وفاة عضد الدولة» ماذا يعني هذا التعبير بدقّة؟
٢ - ينسج هؤلاء الفلاسفة على مثال يوناني في رثاء الإسكندر؛ لِمَ اختاروا هذا النموذج؟ ولِمَ الإسكندر بالذات؟
٣ - أي اسم تختاره لمثل هذا النمط من المجالس؟
٤ - تدور أقوال الفلاسفة في تأبين عضد الدولة على ثلاثة معان رئيسة: حدّد هذه المعاني وأورد مثالاً على كلّ معنىً.
٥ - هل يختلف موقف الفلاسفة في هذه المناسبة عن مواقف غيرهم؟ (الشعراء مثلاً، الخطباء، ..الوعّاظ..). أعطِ الفروق التي يمكن أن يتميّز بها موقف الفيلسوف عن غيره.

(١) الجُنة: الدرع أو أداة الوقاية.
(٢) الحول: القوّة.
(٣) يريد بالسرير عرشه، والذي عاجله هو الموت.
(٤) القطمير: الشيء القليل، وأصله قشرة النواة.
(٥) واطأ على مكروهك: أي تآمر عليك ليُنزل بك مكروهاً.

-٢٢-

أبو العلاء يتفجّع لفقد أمّه *

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وله الحمد ممزوجاً به الدمع، مستكّاً[1] له من الوجد السمع. وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعترته[2] صلاةً يثقلُ بها لساني حزناً، وترجح في المحشر[3] قدراً ووزناً، ثم أذكر قَصَصي بعد ذلك:

ألا يا ليتني والمرءُ مَيْتُ   وما تُغني من الحَدَثان ليتُ

* * *

يا ليت عمراً وليتَ ضلَّةٌ سَفَهٌ   لم يغزُ فَهْماً[4] ولم يحللْ بواديها

* * *

لَوَانَّ صدور الأمر يبدون للفتى   كأعقابه لم تُلْفِهِ يتندّم

رحمكِ الله من ساكنةِ رَمْسٍ، أصبحت حياتك كأمس.

فإن ينقطع منك الرجاءُ فإنه   سيبقى عليك الحزنُ ما بقي الدهر

(*) من مجموعة «رسائل أبي العلاء المعرّي» (تحقيق مرغليوث، أكسفورد، ١٨٩٨) ص٢٨ - ٢٩.

(١) استكّ السمع: صُمَّ.

(٢) العترة: أهل البيت.

(٣) المحشر: يوم القيامة.

(٤) فَهْم: اسم قبيلة.

لا آمَلُ بعدها خيراً، ولا أزيد في المحن إلّا إيضاعا[1] وسيراً.

صلّى الإله عليكِ من مفقودة   إذ لا يلائمك المكانُ البلقعُ[2]

أنّى حللتِ وكنتِ جدّ فَرُوقةٍ[3]   بلداً يمرُّ به الشجاع فيفزع

* * *

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت   أسبابُ دنياك من أسبابِ دنيانا

* * *

يا سلوةَ الأيّام موعدُك الحشرُ. موعدٌ والله بعيدٌ. لا سلوةَ حتّى يؤوبَ عَنزيُّ القَرَظَة[4]، ويرجع النعمانُ الى الحِيرَة، ويُبعث نبيٌّ من مكّة...

على أنّي والله قد أعلمتها أنّي مرتحل[5]، وأنّ عزمي على ذلك جادٌّ مُزمع فأذِنَتْ فيه وأحسبها ظنّته مذْقةَ الشارب[6]. ووميضَ الخالب[7]. ولكلّ أجلٍ كتاب. وحزني لفقدها كنعيمِ أهل الجنّة كلّما نَفد جُدّد. وشرحه إملالُ سامعٍ وإفناء زمان.

(١) الإيضاع: السير السريع.

(٢) البلقع: الخالي.

(٣) فروقة: شديدة الفزع.

(٤) القارظ العنزيُّ: رجل من قبيلة عنزة خرج يجني القرظ (ثمر شجر يتّخذ لدبغ الجلود) فلم يعد؛ فهو يضرب مثلا لكلّ من لا يُرجى إيابه.

(٥) كان أبو العلاء قد أعلمَ امّه بأنّه سيزور بغداد فاذنت له، ثمّ توفّيت وهو غائب عن المعرّة.

(٦) مذقة الشارب: جرعة الشارب، ضربه مثلاً لقصر المدّة.

(٧) الخالب: البرق.

مناقشـــات وتمرينـــات

١ - هل يعني ترديد المعرّي للأبيات أنّ لسانه محتبس من شدّة الحزن عن أن يُنشِىءَ شيئاً من ذاته؟

٢ - ما صلة كلّ بيت بحالته النفسية أو بفقد الأمّ؟

٣ - لاحظ تنويع المعرّي في النِّسَب الزمانية:
السلوة - موعدها الحشر (أو حتى يؤوب القارظ و. . إلخ).
الرحلة - مذقة الشارب ووميض الخالب.
الحزن - كنعيم أهل الجنّة (أبدي).
شرح الحزن - إفناء زمان.
لماذا اعتمد هذا التنويع؟ وكيف عبّر عنه؟

- ٢٣ -

موت صلاح الدين *

لمّا كانت ليلةُ السبت وجد كسلاً عظيماً، فما نَصَفَ الليلُ حتّى غشيته حمّى صفراويّةٌ، كانت في باطنه أكثرَ منها في ظاهره. وأصبح في يوم السبت سادسَ عشرَ صفرَ سنة تسع وثمانين[1] متكسّلاً، عليه أثرُ الحمّى، ولم يُظهر ذلك للناس، لكن حضرتُ عندَه أنا والقاضي الفاضلُ[2]، ودخل ولده الملك الأفضل، وطال جلوسُنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك، فانصرف. ودخلتُ إلى الإيوان القِبلي، وقد مُدَّ الطعام وولده الملك الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفتُ ولم يكن لي قوّةٌ للجلوس، استيحاشاً. وبكى في ذلك اليوم جماعةٌ تفاؤلاً بجلوس ولده موضعَه، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذٍ، ونحن نلازم التردّد في طرفي النهار، وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مِراراً.

(*) من كتاب سيرة صلاح الدين «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين ابن شدّاد (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيّال، القاهرة، ١٩٦٤) ص٢٤٣ - ٢٤٧.

(١) يعني وخمسمائة (٥٨٩).

(٢) هو القاضي عبد الرحيم البيساني، كاتب صلاح الدين.

وكان مرضُه في رأسه - رحمة الله عليه - وكان من أمارات انتهاء العمر غيبةُ طبيبه الذي قد ألف مزاجَه سَفَراً وحَضَراً، ورأى الأطبّاء فصدَه ففصدوه في الرابع[1] فاشتدّ مرضه، وقلّتْ رطوباتُ بدنه، وكان يغلبه اليَبَسُ غَلَبَةً عظيمة، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف. ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأُحضر ماءٌ فاتر ليشرَبه عُقَيْبَ شرب مليِّن للطبع، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدّة حرّه، فغُيِّر وعُرض عليه ثانياً، فشكا من برده، ولم يغضب ولم يصخب - رحمة الله عليه - ولم يقل سوى هذه الكلمات: «سبحان الله، لا يمكِنُ أحدٌ تعديلَ الماء!». فخرجنا أنا والقاضي الفاضل يقول لي: «أبصرْ هذه الأخلاقَ التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أن هذا بعضُ الناسِ كان قد ضرب بالقدح رأسَ من أحضره». واشتدّ مرضه في السادسِ والسابع والثامن، ولم يزل متزايداً، وتغيّب ذهنُه - رحمة الله عليه - ولمّا كان التاسعُ حدثتْ به رعشةٌ، وامتنع عن تناول المشروب، واشتدّ الرَّجْـفُ[2] في البلد، وخاف الناس، ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشيَ الناسَ من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايتُه. ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كلّ ليلة إلى أن يمضيَ من اللّيل ثلثُه أو قريبٌ منه، ثمّ نحضر في باب الدار، فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلاّ تعرّفنا أحواله وانصرفنا. وكنّا نجد الناس يرتقبون خروجَنا إلى بيوتنا حتّى تُقرأ أحوالُه من صفحات وجوهنا...

ولمّا كانت ليلةُ الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه - رحمة الله

(١) يعني اليوم الرابع من أيّام المرض.

(٢) يعني الإرجاف، وهو نشر الشائعات.

عليه - اشتدّ مرضُه، وضَعُفَتْ قوّتُه، ووقع في أوائل الأمر[1] من أوّل الليل، وحال بيننا وبينَه النساءُ، واستُحْضِرْتُ أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابنُ الزكيّ[2]، ولم يكن عادتُه الحضورَ في ذلك الوقت، وعرض علينا الملكُ الأفضل أن نبيتَ عنده، فلم يرَ القاضي الفاضل ذلك رأياً، فإنّ الناس كانوا في كلّ ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لا ننزل فيقعَ الصوتُ في البلد، وربّما نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحَة في نزولنا، واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاّسة، وهو رجل صالح يبيت في القلعة، حتى إن احتُضِر -رحمة الله عليه- بالليل حضر عنده، وحال بينَه وبينَ النساء، وذكّره بالشهادة وذِكْرِ الله تعالى ففعل، ونزلنا وكلٌّ منّا يود فداءَه بنفسه، وبات في تلك الليلة -رحمة الله عليه- على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخُ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكّره بالله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع، لا يكاد يفيق إلا في الأحيان. وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لمّا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة﴾، سمعه وهو يقول - رحمة الله عليه -: «صحيح»؛ وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعنايةٌ من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك. وكانت وفاته - رحمة الله عليه - بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاتَه - رحمة الله عليه - ووصلتُ وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله ومحلّ كرامته. ولقد حكى لي أنّه لمّا بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿لا إله إلاّ هو عليه توكّلت﴾، تبسّم وتهلّل وجهه وسلّمها إلى ربّه.

(١) وقع في أوائل الأمر: كناية عن بداية الاحتضار.

(٢) هو محمد بن علي بن محمد المعروف بابن زكي الدين الدمشقي، تولى منصب القضاء في عهد صلاح الدين وهو الذي خطب الخطبة المشهورة يوم فتح بيت المقدس، توفي سنة ١٢٠٢/٥٩٨.

وكـان يومـاً لم يُصَبِ المسلمون والإسـلام بمثله منذ فُقِـدَ الخلفاءُ الراشدون، وغَشِيَ القلعةَ والبلدَ والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلّا الله تعالى. وبالله، لقد كنتُ أسمع من بعض الناس أنّهم يتمنّون فداءَ مَنْ يَعِزُّ عليهم بنفوسهم، وما سمعتُ هذا الحديثَ إلّا على ضربٍ من التجوّز والترخّص، إلّا ذلك اليوم، فإنّي علمت من نفسي ومن غيري أنّه لو قُبل الفداء لَفُدِيَ بالنفس. ثم جلس ولده الملكُ الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي، وحُفِظَ بابُ القلعة إلا عن الخواصّ من الأمراء والمُعَمَّمين، وكان يوماً عظيماً قد شغَلَ كلَّ إنسانٍ ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظرَ إلى غيره، وحُفِظَ المجلسُ على أن يُنْشِدَ فيه شاعرٌ أو يتكلّم فيه فاضل أو واعظ. وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوسُ تَزْهَقُ لهول منظرهم، ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مُكّنّا أن نُدْخِلَ في تجهيزه ما قيمته حبّةٌ واحدة إلّا بالقرض، حتّى في ثمن التبن الذي يُلَتُّ به الطين... وأُخرج بعد صلاة الظهر - رحمة الله عليه - في تابوت مُسَجّىً بثوب فُوَطٍ، وكان ذلك وجميعُ ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجْهِ حِلٍّ عرفه؛ وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظمِ الضجيجُ، حتّى إنّ العاقل يتخيّل أن الدنيا كلّها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناسَ من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة، وصلّى عليه الناس أرْسالاً(١)... ثم نزل في أثناء النهار ولدُه الملكُ الظافر، وعزّى النـاسَ فيه وسكّن قلوبَ النـاس، وكان النـاسُ قد شغلهم البكاءُ عن الاشتغـال بـالنهب والفساد، فما يوجد قلبٌ إلّا حزينٌ، ولا عينٌ إلّا باكية، إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبحَ رجوع، ولم يعد منهم أحد في تلك الليلة، إلّا أنّا حضرنا وقرأنـا، وجدّدنـا حالاً من الحـزن،

(١) ارسالاً: فوجاً بعد فوج.

واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى عمّه وإخوته يخبرهم بهذا الحادث. وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عامًّا. وأطلق بابَ القلعة للفقهاء والعلماء، وتكلّم المتكلّمون، ولم ينشد شاعر، ثم انفضّ المجلسُ في ظهيرة ذلك اليوم، واستمرّ الحال في حضور الناس بُكْرةً وعشيّةً لقراءة القرآن، والدعاء له - رحمة الله عليه - واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره، ومراسلة إخوته وعمّه.

ثـم انـقـضـت تـلـك الـسـنـونُ وأهـلُـهـا
فـكـأنـهـا وكـأنـهـم أحـلامُ.

مناقشـات وتمرينـات

١ - ما الفائدة من تتبّع المؤرّخ لحال صلاح الدين يوماً إثرَ يوم؟

٢ - يعتمد الكاتب التأثير من خلال البساطة. كيف؟

٣ - تستطيع من هذه القطعة أن تحدّد معالمَ دقيقةً في شخصيتي القاضي الفاضل وابن شدّاد. حاول ذلك.

٤ - ما العلاقة بين وفاة السلطان وخوفِ الناس على بضائعهم؟

٥ - لماذا يصعب الفصل بين موت صلاح الدين والجوّ الديني؟

٦ - «فما مكّنا أن نـدخل في تجهيـزه ما قيمتـه حبّة واحـدة إلّا بالقرض» - بيّن أبعاد هذه الحقيقة.

-٢٤-

موت فارس كرامة لجبران *

ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامة، فتركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممرّ منفرد بين أشجار الزيتون المتلمّعة أوراقُها الرصاصيةُ بقطرات المطر، متنحّياً عن الطريق العمومية حيث تُزعج ضجّة المركبات سكينةَ الفضاء.

بلغت منزلَ الشيخ ودخلتُ عليه فوجدته ملقىً على فراشه مضنى الجسم، شاحبَ الوجه، أصفر اللون، قد غرقت عيناه تحت حاجبيه فبانتا كهوّتين عميقتين مظلمتين، تجول فيهما أشباح السقم والألم؛ فالملامح التي كانت بالأمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلّصت واكفهرّت وأصبحت كصحيفة رمادية متجعّدة تكتب عليها العلّةُ سطوراً غريبة ملتبسة. واليدان اللتان كانتا مغلّفتين باللطف واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظامُ أصابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة.

ولمّا دنوت منه سائلاً عن حاله حوّل وجهَه المهزولَ نحوي وظهر على شفتيه المرتجفتين خيالُ ابتسامة محزنة، وبصوت ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال: اذهب، اذهب يا ابني إلى تلك الغرفة

(*) من كتاب «المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران» (دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٩) ص ٢٠٦-٢١٣.

وامسح دموعَ سلمى وسكّن روعها ثم عُدْ بهـا إليّ لتجلسَ بجانب فراشي...

دخلتُ الغرفةَ المحاذيةَ فوجدت سلمى منطرحة على مقعد وقد غمرتْ رأسها بزنديها، وغرّقتْ وجهها بالمساند، وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبَها. فاقتربتُ منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقربَ إلى التنهد منه إلى الهَمْس، فتحركت مضطربة كنائم تراوده الأحلام المخيفة ثم استوت على مقعدها ونظرت إليّ بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى شبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدّق حقيقةَ وجودي في ذلك المكان.

وبعد سكوت عميق أرْجَعَنا بتأثيراته السحرية إلى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحتْ سلمى دموعَها بأطراف أناملها وقالت متحسّرة: أرأيت كيف تبدّلت الأيام؟ أرأيت كيف أضلّنا الدهرُ فسرنا مسرعين إلى هذه الكهوف المفزعة؟ في هذا المكان جمعَنا الربيعُ في قبضة الحبّ، وفي هذا المكان يجمعنا الآنَ الشتاء أمامَ عرش الموت، فما أبهى ذلك النهارَ وما أشدّ ظلمةَ هذا الليل!

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغُصّاتُ أواخرَها، ثم عادت فسترت وجهها بيديها كأنّ ذكرى الماضي قد تجسّدت ووقفت أمامها فلم تشأ أن تراها. فوضعت يدي على شعرها قائلا: تعالَيْ يا سلمى، تعالي نتنصبْ كالأبراج أمام الزوبعة. هلمّي نقفْ كالجنود أمام الأعداء متلقّين شِفَارَ السيوف بصدورنا لا بظهورنا، فإن صُرِعْنَا نمت كالشهداء وإن تغلّبنا نعش كالأبطال... إنّ عذابَ النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب لهو أشرفُ من تقهقرها إلى حيثُ الأمنُ والطمأنينةُ. فالفراشة التي تظلّ مرفرفةً حول السّراج حتى تحترقَ هي أسمى من الخُلْدِ الذي يعيش براحة وسلامة في نَفَقِهِ المظلم. والنواة التي لا تحتمل بردَ الشتاء وثَوْرَاتِ العناصر لا تقوى على شقّ الأرض ولن

تفرح بجمالِ نيسان. . . هلمي نَسِرْ يا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوَعِرة رافعين أعينَنا نحو الشمس كيلا نرى الجماجمَ المطروحة بين الصخور، والأفاعيَ المنسابةَ بين الأشواك، فإن أوقفَنا الخوفُ في منتصف الطريق أسمعتْنا أشباحُ الليل صراخَ الاستهزاء والسخرية، وإن بلغنا قِمّةَ الجبل بشجاعة تترنّمْ معنا أرواحُ الفضاء بأنشودة النصر والاستظهار. . . خفّفي عنك يا سلمى وجفّفي دموعَك وأخفي هذه الكآبة الظاهرةَ على محيّاك وقومي نجلِسْ بجانب فراش والدك لأنّ حياتَه من حياتك وشفاءه بابتسامتك.

فنظرتْ إلي نظرة ملؤها الحنانُ والرأفةُ والانعطاف ثم قالت: أتطلب مني الصبر والتجلّد، وفي عينيك معنى اليأسِ والقُنوط؟ أيعطي الفقيرُ الجائع خبزَه للجائع الفقير؟ أو يَصِفُ العليلُ دواء لعليل آخرَ وهو أحرى بالدواء؟

ثمّ وقفت وسارت أمامي منحنيةَ الرأس إلى غرفة والدها. جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلّف الابتسامَ وهدوء البال، وهو يتكلّف الراحةَ والقوة، وكلٌّ منهما شاعرٌ بلوعة الآخر، عالمٌ بضَعفه، سامعٌ غصّاتِ قلبه، فكانا مثلَ قوّتين متصارعتين يُفني بعضُهما بعضاً في السكينة. والدٌ دَنِفٌ[١] يذوب ضَنيً لتعاسة ابنته، وابنةٌ محبّة تذبل متوجّعة بعلّة والدها. نفسٌ راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحبّ والموت، وأنا بينهما أتحمّل ما بي وأقاسي ما بهما. ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدّة حتى سحقتهم: شيخ يمثّل بيتاً قديماً هدمه الطوفانُ، وصبيّةٌ تحاكي زنبقةً قطع عُنُقَها حدُّ المنجل، وفتى يشابه غرسةً ضعيفة لوت قامتها الثلوجُ، وجميعُنا مثلُ ألعوبة بين أصابع الدهر.

وتحرّك الشيخ إذ ذاك بين اللُّحُفِ ومدّ يدَه النحيلة نحو سلمى،

(١) دَنِفٌ: أنهكه المرض.

وبصوت أودعه كلَّ ما في قلب الأب من الرقّة والرأفة وكلَّ ما في صدر العليل من السَّقَمِ والألم قال: ضعي يدَكِ في يدي يا سلمى.

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمّها بلطف ثم زاد قائلا: لقد شبعتُ من السنين يا ولدي، قد عِشتُ طويلا وتلذّذت بكلّ ما تُثمره الفصولُ وتمتّعت بكلّ ما تُبرزه الأيّامُ والليالي، قد لاحقت الفَراش صبيّاً، وعانقتُ الحبَّ فتيً، وجمعتُ المالَ كهلاً، وكنتُ في جميعِ هذه الأدوار سعيداً مغتبطاً. فقدتُ أمَّك يا سلمى قبل أن تبلغي الثالثة ولكنها أبقَتْكِ لي كنزاً ثميناً، فكنت تنمين بسرعة نُمُوِّ الهلال، وتنعكس على وجهك ملامحُ أمّك مثلما تنعكس أشعّةُ النجوم في حوض ماءٍ هادىءٍ، وتظهر أخلاقُها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهورَ الحُلى الذهبيةِ من وراء النِّقاب الرقيق، فتعزّيت بك يا ولدي لأنّك كنتِ مثلَها جميلةً وحكيمة. . . والآنَ قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة الموت الناعمة، فتعزّي يا ولدي لأنني بقِيت لأراك امرأة كاملةً، وافرحي لأنني سأبقى بك حيّاً بعد موتي. إنّ ذهابي الآن هو مثلُ ذهابي غداً أو بعدَه، لأنّ أيامَنا مثلُ أوراق الخريف تتساقط وتتبدّد أمام وجه الشمس، فإن أسرعتْ بي الساعات إلى الأبدية فلأنها علمتْ أنّ روحي قد اشتاقت إلى لقاء أمّك. . .

لفظ الكلماتِ الأخيرةَ بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء، ولاحت على وجهه المنقبض أشعّة شبيهة بذلك النور الذي ينبثق من أجفان الأطفال، ثمّ مدّ يده بين المساند المحيطة برأسه، وانتشل صورة صغيرة قديمة يُمنطقها إطار من الذهب قد نعّمت حدودَه ملامسُ الأيدي ومحتْ نقوشَه قُبَلُ الشفاه، ثمّ قال دون أن يحوّلَ عينيه عن الرسم: اقتربي يا سلمى، اقتربي مني ياولدي لأريَكِ خيالَ أمّك. تعالي وانظري ظلَّها على صفحة من الورق.

فدنت سلمى ماسحةً الدموع من مقلتيها كيلا تَحُولَ بين ناظريها

والرسمِ الضئيلِ، وبعد أن حدّقت إليه طويلا كأنّه مرآةٌ تعكس معانيَها وشكلَ وجهها قرّبته من شفتيها وقبّلته بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة: يا أمّاه. يا أمّاه! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم على شفتيها المرتعشتين كأنها تريد أن تَبُثَّ فيه الحياةَ بأنفاسها الحارّةِ...

كانت سلمى تحدّق إلى رسم أمّها ثم تقبّله بلهفة ثم تلزّه إلى صدرها الخفوق ثمّ تتأوّه متنهدةً، ومع كلّ تنهّدة تفقد جزءاً من قواها، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت وسقطت بجانب سرير أبيها، فوضع كلتا يديه على رأسها قائلا: قد أريتك يا ولدي شبحَ أمّك على صفحة من الورق، فأصغِي إليّ لأُسمِعك أقوالَها.

فرفعت سلمى رأسَها مثلما تفعل الفراخُ في العُشّ عندما تسمع حفيفَ أجنحة العصفورة بين القضبان، ونظرت إليه مصغيةً صاغرة كأن ذاتها المعنويةَ قد استحالت إلى أعينٍ محُدّقة وآذانٍ واعية.

فقال والدها: كنت طفلةً رضيعةً عندما فقدت أُمك والدَها الشيخَ فحزنَتْ لِفَقْدِه وبكَتْ بكاءَ حكيمٍ متجلّد، ولكنها لم تَعُدْ من جانب قبره حتى جلستْ بجانبي في هذه الغرفة وأخذتْ يدي براحتيها وقالت: قد مات والدي يا فارس وأنت باقٍ لي، وهذه هي تعزيتي. إن القلب بعواطفه المتشعّبة يماثل الأرزةَ بأغصانها المتفرّقة؛ فإذا ما فقدت شجرةُ الأرز غصناً قويّاً تتألّم، ولكنها لا تموت، بل تحوّل قواها الحيويةَ إلى الغصن المجاور لينموَ ويتعالى ويملأ بفروعه الغضّة مكان الغصن المقطوع. هذا ما قالَته والدتُك يا سلمي عندما مات أبوها، وهذا ما يجب عليك أن تقوليه عندما يأخذ الموتُ جسدي إلى راحة القبر، وروحي إلى ظلّ الله.

فأجابت سلمى متفجّعة: فقدتْ أمي والدَها فبقيتَ أنت لها، فمن يبقى لي إذا فقدتُك يا والدي؟ مات والدُها وهي في ظلال زوجٍ

محبّ فاضل أمين، مات والدها فبقي لها طفلةٌ تغمر رأسَها الصغير بثدييها، وتطوّق عنقَها بذراعيها، فمن يبقى لي إذا فقدتُك يا والدي؟ أنت أبي وأمّي ورفيقُ حداثتي ومهذّبُ شبيبتي، فبمن أستعيض إذا ما ذهبتَ عني؟

قالت هذا وحوّلت عينيها الدامعتين نحوي وأمسكت طرفَ ثوبي ثمّ قالت: ليس لي غير هذا الصديق يا والدي، ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتَني، فهل أتعزّى به وهو متعذّبٌ مثلي؟ هل يتعزّى كسيرُ القلب بالقلب الكسير؟ إنّ الحزينة لا تتصبّر بحزن جارتها كما أنّ الحمامة لا تطير بأجنحة مكسورة. هو رفيقٌ لنفسي ولكنّني قد أثقلتُ عاتقَه بأشجاني حتى لَوَيْتُ ظهره وسملْتُ عينيه بعَبَرَاتي فلم يعدْ يرى غير الظلمة. هو أخٌ أُحبه ويحُبّني، ولكنّه مثلُ جميع الأخوة يشترك بالُمصيبة ولا يخفّفها، ويساعد بالبكاء فيزيدُ الدمعَ مرارةً والقلبَ احتراقا.

كنتُ أسمع سلمى متكلّمةً وعواطفي تنمو وصدري يضيق، حتى شعرت بأنّ أضلعي تكاد تتفجّر حناجرَ وفُوَّهاتٍ، أمّا الشيخ فكان ينظر اليها وجسدهُ المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السِّراج أمام الريح، ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء: دعيني أذهب بسلام يا ولدي، لقد لمحت عينايَ ما وراءَ الغيوم فلن أحوّلَها نحو هذه الكهوف. دعيني أطر فقد كسّرت بأجنحتي قضبانَ هذا القفص... فقد نادتْني أمّك يا سلمى فلا تُوقفيني... ها قد طابت الريحُ وتبدّد الضبابُ عن وجه البحر فرفعت السفينةُ شراعَها وتأهّبَتْ للمسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفّتَها. دعي جسدي يرقدْ مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظْ، لأنّ الفجرَ قد لاح، والحلمَ قد انتهى...

أمّا أنت يا ابني فكن أخاً لسلمي مثلما كان والدُك لي. كن قريباً منها في ساعات الشدّة، وكن صديقاً لها حتى النهاية، ولا تدعْها

تحزنْ، لأنّ الحزن على الأموات غلطة من أغلاط الأجيال الغابرة، بل اتلُ على مسمعها أحاديثَ الفرح وأنشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسى... قل لأبيك أن يذكرَني. سله فيخبرَك عن مآتي أيّامي عندما كان الشباب يحلّق بنا إلى الغيوم... قل له إنّني أحببته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي...

عندما انتصف ذلك الليلُ المخيف فتح فارس كرامة عينيه الغارقتين في ظلمة النزاع، فتحها لآخر مرّة، وحوّلها نحو ابنته الجاثيةِ بجانب مضجعه، ثمّ حاول الكلام فلم يستطع لأنّ الموت كان قد تشرّب صوتَه، فخرجت هذه الألفاظ لُهَاثاً عميقاً من بين شفتيه: ها قد ذهب اللّيل... وجاء الصباح... يا سلمى... يا... سلمى...

ثمّ نكَس رأسَه وابتسمتْ شفتاه وأسلم الروح.

ومدّت سلمى يدَها ولمَسَتْ يدَ والدها، فوجدتها باردةً كالثلج، فرفعتْ رأسَها ونظرت إليه، فرأتْ وجهَه مُبرقعاً بنِقَاب الموت، فجَمَدتِ الحياةُ في جسدها وجفّت الدموع في محاجرها، فلم تتحرّك، ولم تصرخ ولم تتأوّه، بل بقيت محدّقة إليه بعينين جامدتين كعيني التمثال، ثمّ تراخت أعضاؤها مثلما تتراخى طيّاتُ الثوب البليل، وهبطت حتى لمست جبهتُها الأرض ثم قالت بهدوء: أشفق يا ربّ، وشدّدْ جميعَ الأجنحة المتكسّرة.

مناقشات وتمرينات

(١) يكاد جبران في كلّ خطوة أن يُورد حقيقةً، ثم يشفعها بصورة. لماذا؟ تأمّل صُوَره، وحاول أن تحدّد مميّزاتها.

(٢) كيف يعبر جبران إزاء الموت عن إرادة الحياة؟

(٣) نموذج الأمّ يعود فيظهر هنا. قارن ذلك بما قرأته في «آلام فرتر».

(٤) هل تجاوز جبران حدّ الرسم لمنظر الموت؟ ما هي الآفاق التي بلغها في تصوير هذا المنظر؟

- ٢٥ -

الجريمة

لزكريًا تامر *

كان سليمان الحلبيّ يمشي بخطىً متّئدةٍ مبتهجاً بالهواء الذي يهبُّ فيما حوله مُسقِطاً الأوراقَ الصفراءَ من الأشجار المنتصبة على جانبي الشارع. وكانت يداه قابعتين في جيبي بنطاله كطفلين نائمين. وحين توقَّف لحظة عن السير ريثما يُشعل سيجارةً، دنا منه رجلان، وجهاهما مُتَجهِّمان، وطلبا منه هويته بلهجة صارمة. وارتبك إذ عرف مهنتَهما. وقد كانا طويلي القامة، قسمات وجهيهما متشابهة إلى حدّ عجيب. وأعاد الرجلان إلى سليمان أوراقَ هُـويَّـته، ثم طلبا منه مرافقتهما. فأطاعهما دون تفكير، وسار وهو يقول لنفسه: لا بدّ أنَّ ثمة سوءَ تفاهم.

واقتاده الرجلان إلى مخفرٍ غير بعيد. وأدخلاه إلى غرفة لها ثلاثُ نوافذَ مفتوحة للشمس والهواءِ والسماء. وكان يجلس في صدر الغرفة رجلٌ ذو شارب سوداء(1)، أمامه مكتبٌ حديديٌ، تكوّمت على سطحه أكداسٌ من الورق الأبيض.

وقال سليمان لنفسه: هذا رجل أسود.

(*) من مجموعته القصصية «ربيع في الرماد» (دمشق، ١٩٦٣) ص ٢٧ - ٣٧.

(1) حقه أن يقول «أسود» لأن الشارب مذكّر.

وقال الرجل الأسود متسائلاً: هل أنت سليمان الحلبي؟

فأحنى سليمان رأسه بالإيجاب(1) دون أن يتفوّه بكلمة، وتناول الرجل الأسود ورقة بيضاء موضوعة على المكتب، وطَـفِـقَ يقرأ برتابة وكسل:

«في ليلة السادس من حزيران شاهد سليمان الحلبي حلمًا قتل فيه الجنرال كليبر».

وتوقف الرجل الأسود عن القراءة، وتطلَّع إلى سليمان الحلبي بعينين صارمتين بينما تحوَّل الرجلان إلى تماثيل من حجر، متسمِّرين قرب إحدى النوافذ، وكانت المدينة خلف النافذة. وتساءل الرجل الأسود مخاطباً سليمان:

- هل هذا صحيح؟

فغمغم سليمان الحلبي مستنكراً:

- لا لا. أنا لا أعرف الجنرال كليبر.

فالتفت الرجل الأسود نحو الرجلين، وقال لهما:

- أحضرا الشهود.

ولم يتحرَّكا غير أنَّ باب الغرفة فُـتِـحَ بعد لحظات، ودلف إلى الداخل ثلاثة أشخاص، ثيابهُم معفَّرةٌ بالتراب، ووجوههُم صفراء كأنَّ أصحابها عاشوا مئات السنين في قبور تمقتُ الشمس. وعرفهم سليمان على الفور، وكانوا رجلاً هرماً وامرأة كهلة وفتاة في مقتبل العمر.

وقال الرجل الأسود: ليتقدَّم الشاهد الأول.

وابتعد الهرم منفصلاً عن المرأة الكهلة والفتـاة، واقترب من

---

(1) يريد أن يقول: علامة الإيجاب.

مكتب الرجل الأسود، ووقف أمامه محنيَّ الظهر، وقال بصوت كأنه منبعث من أسطوانة عتيقة تدور بتثاقل تحت ذراع الحاكي[1]:

– في ليلة السادس من حزيران شاهدت سليمان الحلبي يقتل الجنرال كليبر.

فقاطعه سليمان هاتفاً: أبي.

فلم يأبهِ الهرم له، وتابع كلامه قائلاً:

– أبصرتُه يطلق من مسدس ضخم سبعَ رصاصاتٍ اخترقت جسدَ الجنرال وانبثق الدمُ من سبعة ثقوب. وكان الحزنُ في تلك اللحظة فارساً يمتطي صهوةَ جوادٍ غيرِ مُروَّض، وقد وطأت سنابكُه[2] لحمَ سليمان، بينما غرس الفارسُ سيفه في القلب تماماً، ولكن سليمان لم يمت إنما سمع الرجل الأسود يقول:

– الشاهد الثاني.

وتقدَّمت المرأة الكهلة، ووقفت بجانب الرجل الهرم وقالت:

– رأيتُه يقتل الجنرال، وكان يحمل فأساً، وقد رفعها إلى أعلى، وأهوى بها بكل قوته فشطر الرأس إلى قطعتين، وسقطت الجثّة قربي، واستطعتُ رؤيةَ النُّخاع ممزَّقاً خارج الجمجمة المهشَّمة.

وأشارت نحو سليمان الحلبي بإصبع لا ترتجف وقالت:

– هذا هو القاتل.

فتمتم سليمان الحلبي بحسرة: أمي أمي.

فرمقته الكهلة بقسوة، وقالت له:

– أمُّك امرأة واحدة فقط.

(١) الحاكي: (Gramophone).

(٢) السنبك: طرف الحافر.

وتذكر سليمان يومَ كان صغير السن، يلعب في الزُّقاق، مُلَطَّخاً ثيابَه بالطين، فوقفتْ أمه على عتبة باب البيت، وكشفتْ عن صدرها الشديد البياض، وقالت له مناديةً بحنو: تعال تعال.

وقال الرجل الأسود: الشاهد الثالث.

وتطلع سليمان الحلبي إلى الفتاة بنظرات أسيانة[1]. ولم تتحرَّك الفتاة، فدمدم[2] الرجل الأسود بغضب:

– الشاهد الثالث... ليتقدم.

وظلَّت الفتاة متجمِّدة في مكانها، غير أنها بدأت بالكلام قائلةً:

– رأيتُه راكباً سيَّارةً، دهست الجنرال، ومرَّت فوقه عِدَّة مرات حتى تحوَّل إلى لحم لا شكل له.

وصاح سليمان الحلبي:

– ماذا حدث يا أختي؟ ألم أتركْكِ في البيت، وقد طلبتِ مني أن أشتريَ لك مُشْطاً؟

وأخرج يدَه من جيبه حاملةً مشطاً أسودَ اللَّونِ. وقال الرجل الأسود:

– لينصرف الشهود.

وأشار بيده بحركة ضَجِرَةٍ إلى الشهود الثلاثة فتجمعوا في الحال متلاصقين في كتلة واحدة، واتجهوا نحو الباب، وما لبثوا أن غادروا الغرفة.

وضع الرجل الأسود سيجارة بين شفتيه، وحين رفع يده نحو السيجارة حاملةً عودَ الثقاب المشتعل، لاحظ سليمان أن يد الرجل

(١) أسيانة: مليئة بالأسى أي الحزن.

(٢) دمدم: تكلم بغضب.

الأسود غريبة فجلدها كثير التجاعيد فكأنّه جلد سرطان ميتٍ ظلّ زمناً مديداً تحت شمس قاسية.

ونفث الرجل الأسود دخان سيجارته، وتابعه بنظراته بينما كان يتلوّى صاعداً في جو الغرفة ثمَّ يتلاشى بتكاسل، وقال لسليمان:

- هل سمعت ما قيل؟ إن الأدلة على جريمتك ثابتة.
- لم أعترف بشيء.
- اعترافك ليس مهمًّا. لقد اعترف غيرك بذنبك.
- أنا بريء.

فتجهّم وجه الرجل الأسود، وقال بصوت باردٍ وقاس:

- لماذا وُلِدْتَ ما دمتَ بريئاً؟ جئت إلى هذا العالم كي تَهْلِك وستهلِكُ دون احتجاج. أنت مجرم، وكنّا نراقبك منذ أمد طويل فالناس المشبوهون نعرفهم بسرعة ولا يستطيعون خداعنا.

وتناول الرجل الأسود أوراقاً بيضاءَ من على سطح المكتب، وأخذ يقرأ ما كُتِبَ فيها:

«في الثالث من نيسان في الساعة الحادية عَشْرَةَ وثلاثِ دقائق تطلّع سليمان الحلبي إلى القمر، وقال لنفسه: القمر سعيد لأنّه لا يعيش في مدينة حاكمها الجنرال كليبر».

وتألّق القمر في مخيّلة سليمان الحلبي، وكان قمراً تُهرول نحوه سحبٌ قرمزية.

«في اليوم الحادي عشر من مايس في الساعة الثامنة صباحاً فتح سليمان الحلبي أبواب أقفاصه، وأطلق سراح عصافيره».

وتذكر سليمان رغبةً في البكاء اجتاحته بينما كانت العصافير في بدء انطلاقها عبر الفضاء الأزرق ترفرف بأجنحتها بارتباك واضطراب.

«وفي الساعة الثانية من بعد ظهر الثاني من حزيران خطر في

ذهن سليمان الحلبي أن العالم سيكون سعيدًا لو هلك بعض الأشخاص».

ورمى الرجل الأسود الأوراق على المكتب بحركة ساخطة، وقال:

- ألم أقل لك إن أمثالك لا يستطيعون خداعنا؟

وظلّ سليمان صامتاً وقد استغرب أن ينمو في أعماقه شعور حقيقي بالذنب، ولكنّه كان في الوقت نفسه شديد الاقتناع ببراءته.

وابتسم الرجل الأسود، ولعق بلسانه شفته السفلى وقال:

- سَتُعْدَمُ في الساعة السادسة.

فألقى سليمان نظرةً سريعةً على ساعته فألفاها توشك أن تصبح السادسة، فانتابه الهلع، ورفض تصديق ما حدث حوله، واعتبره مجرّد حلم سيصحو منه بعد لحظات على هزّة من يد أمّه وسيسمع صوتها.

وقال الرجل الأسود بتشفٍّ: ستعدم.

- ألن أحاكم؟

فضحك الرجل الأسود، وقال:

- انتهت المحاكمة. أنا القاضي.

وتناهى إلى سمع سليمان صفيرُ قطار، لا بدَّ أنَّ القطار يهدر الآن مارًّا تحت الجسر، قاذفاً دخانه في سحابة صغيرة لن تعيش طويلاً، وستضمحل إثر ابتعاد القطار.

- هل سأموت شنقاً؟
- لا.
- هل ستُطْلَقُ النارُ عليَّ؟
- لا.
- هل سَأُحْرَقُ؟
- لا.

- هل سأُدفَنُ حيًّا في التراب؟

- لا.

وأشار إلى الرجلين قائلاً:

- هيَّا... نفِّذا الحكم بالإعدام.

الساعة الآن هي السادسة تماماً. والمدينة مستسلمة بفتور لضياء الشمس الآفلة، وكانت كامرأة ترغب في النوم قليلاً بعد أن أنهكها العمل لأجل أولادها.

وعُرِّيَ سليمان الحلبي من ملابسه كُلِّها، ولم يخجل من وقوفه عارياً كاملاً أمام أعين الرجال الثلاثة، وكانت السيَّارات تعبر الشوارع وهي تزعق بأبواقها عند المنعطفات. وأخرج الرجلان من خزانة خشبية مِديةً كبيرة، ثم ألقيا سليمان على الأرض، ولم يحاول المقاومة.

وكان بجانب الرجل الأسود، مِنْضَدَة قصيرة القوائم، ملتصقة بالجدار، يقبع فوقها مذياع صغير، مدّ إليه الرجل الأسود يده. وبعد قليل انسابت منه أغنية لامرأة، صوتها مفعم بالعذوبةِ والشَّجَنِ، ويتلاقى فيه الريحُ والمطرُ والحنانُ العارم.

وأنصت الرجلان قليلاً للأغنية ثم تحوَّلا إلى جلاَّدَين، وبترا أصابع اليد اليمنى بالمدية، فصرخ سليمان متألماً، وتدفّق الدم. خمسُ أصابع كانت ملكاً لسليمان الحلبي، وقد صافحت الأصدقاء ولمست باشتهاء لحم النساء وكان باستطاعتها في لحظة غضب خَنْقَ مخلوقٍ ما.

وقال الرجل الجلّاد لزميله: يا لها من أغنية. ماذا تغذيت؟

فأجاب الرجل الآخر:

- حساء وقليلاً من الخبز. أسناني تؤلمني.

- مسكين.

وأشعل الرجل الأسود سيجارة أخرى، وتركها معلَّقة بين شفتيه لتحترق على مَهَل.

وقطع ساعد سليمان، فتأوَّه وأطلق صرخة حيوان، صرخة طويلةً مبحوحةً. ولقد كان سليمان يحلم بأن تنام الفتاة التي سيحبُّها على ساعده، لا على وسادة محشوَّة بالصوف أو القطن.

وقال أحد الرجلين بينما كانت أصابعه تلتفُّ حول مَقْبِضِ المُدْية، وكأنها تتوق لأن تصير قطعة منها:

- ليلةَ الأمس شاهدت فيلمًا وكان سخيفاً.

- كلُّ الأفلامِ سخيفةٌ في هذا الأسبوع.

وكانت أغنية المذياع تصعد وتبوح بالعذاب المرّ الذي يبقى إثْرَ اندثار الحب.

واضمحل مِرفق سليمان، وكان مرفقاً يتكيء على حواجز الأنهر ومناضد المقاهي، ويلكز الأصدقاء.

وجثا أحدُ الرجلين على ركبتيه، وبتر الذراع اليمنى كلَّها بحركة سريعة، بينما كان الرجل الثاني يُمسك بسليمان لمنعه من الحركة، ولم يحاول سليمان الحلبي المقاومة، إنَّما كان ينتفض كلَّما مسَّت المدية لحمه، ويتلوَّى على الأرض الناعمة الملساء بينما يتابع تساقطه ذا الإيقاع الكئيب.

وفتحت دور السينما أبوابها، وغادرها روَّادها بخطى متثاقلة. وبُترت ذراع سليمان اليسرى. ولو كان سليمان الآن متسوِّلاً يمشي في الشوارع لاستدَرَّ الشفقة، ولانهمرت النقود عليه فهو بلا ذراعين، ولن يستطيع معانقة امرأة، وإذا جاع فمن سيضع اللُّقمة في فمه؟

وكان الرجل الأسود يبتسم منتشياً بالأغنية المنبعثة من المذياع. وتابع الرجلان عملهما، وابتدأ جسد سليمان الحلبي ينقرض متضائلاً رويداً رويداً، وكانت الأعضاء المقطوعة تُلْقَى جانبًا. وكان الناس في الشوارع يسيرون على الأرصفة، وبعضهم يقف قليلاً أمام واجهات المكتبات متطلِّعاً إلى عناوين الكتب والجرائد. وكانت أصوات بائعي

أوراق اليانصيب تتصاعد مطارِدَةً المارَّةَ بإلحاح: ستربح مئة ألف ليرة. وكانت الباصات تواظب على المسير متوقِّفة بين الحين والحين في أمكنة معيَّنة.

وقال الرجل الأسود مخاطباً الرجلين:

- لننتهِ بسرعة. لديَّ موعد.

وتخيَّل الرجل الأسود بيته. لا بدّ أن ضيوفه ينتظرون مَقْدَمَه. ولا بدّ أنَّ زوجته ترحِّب بهم، وتقدِّم لهم فناجين القهـوة. وكانت زوجته جميلة، ويشعر الآن بأنَّه يحبُّها بضراوة.

وكان الرجلان في تلك اللحظة متغضِّني الجبين، ويداهما ملوَّثتين بالدم.

وقال الرجل الممسك بالمدية لزميله:

- إلى أين تنوي الذهاب بعد العمل؟

- إلى المقهى.

- أنا سأذهب إلى البيت، سأقرأ قليلاً من الشعر ثم أنام.

ووضع حدّ المدية على عنق سليمان الحلبي، وأغمض سليمان عينيه بينما كان يحسّ بنصل المدية يلامس حنجرته موشكاً على ذبحها، وشاهد نجوماً تبزغ وكأنَّها عصافير ميِّتة.

وجمع الرجل الجلَّاد قوَّته، وضغط على المدية، فاخترقت اللحم والعظم اللَّدن، وفصلت الرأس الذي تدحرج مبتعداً عن قطعة اللحم الباقية، وكانت قلباً وكتفين. وظلَّت عينا سليمان الحلبي مفتوحتين، تُطل منهما نظرة بلهاء.

ونهض الرجل الأسود ووضع في جيبه علبة السجائر ثم سار مُتَّجهاً نحو باب الغرفة، وعندما أمسك بمقبض الباب التفت نحو الرجلين وقال لهما:

- نظِّفا الغرفة قبل ذهابكما.

وعندئذ تذمَّر الرجلان بأصوات مرتفعة.

مناقشات وتمرينات

١ - لماذا اختار الكاتب أن يكون الشهود ضد سليمـان هم أقرب الناس إليه؟

٢ - ما الخطوات الساخرة التي تمثِّلها التهمة أوَّلاً ثم الشهادات؟

٣ - «لماذا ولدت ما دمت بريئاً» - هل تعتقد أن هذا هو المحور الرئيسي في القصة؟

٤ - مـا معنى المقارنة المستمرة بين منظر المـوت وحياة الشـارع وحديث الجلّادين؟

٥ - ما معنى اختيار هذه الطريقة التي آثرها الكاتب في إنهاء حياة سليمان الحلبي؟ (ما المفارقات التي يثيرها منظر القتل؟)

٦ - إذا كان سليمان الحلبي في قتله للجنرال كليبر يمثـل في نظر معاصريه نوعاً من البطولة، فهل تُـعَـدُّ هذه القصة - من هذه الناحية - محاكمةً للتاريخ؟

٧ - هل تقول هذه القصة إن الإنسان لا يحكمه قدر مسبق، وإنما تحكمه «أنظمة» ترصد حركاته وسكناته؟ أو هي تجمع بينهما؟

II

التجربة الجماعية

-١-

الوضع الإنساني والاجتماعي

-٢٢-

قصة أهل البصرة من المسجديّين

للجاحظ*

قال أصحابنا من المسجديّين:

اجتمع ناس في المسجد، ممن يَنْتحِلُ الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، من أصحاب الجمع والمنع. وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحابّ، وكالحلف الذي يجمع على التناصر. وكانوا إذا التقَوْا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه، التماساً للفائدة واستمتاعاً بذكره:

١ - فقال شيخ منهم: ماء بئرنا كما قد علمتم، مِلْحٌ اجاج[١]، لا يَقْرَبُهُ الحمار ولا تُسيغُهُ الإبل وتموت عليه النخل، والنهرُ منا بعيد وفي تكلُّفِ العذب علينا مؤونة[٢]. فكنّا نمزج منه للحمار، فاعتلّ منه وانتقض[٣] علينا من أجله، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفاً. وكنت أنا والنعجةُ[٤] كثيراً ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودَنا منه مثلُ ما اعترى جوفَ الحمار، فكان ذلك الماء العذب الصافي

(*) من كتاب «البخلاء» (تحقيق طه الحاجري، القاهرة، ١٩٤٨) ص ٢٤ - ٢٨.

(١) أجاج: شديد الملوحة.

(٢) يعني في إحضار الماء العذب مشقّة.

(٣) انتقض: تهدم جسمه.

(٤) النعجة: كناية عن الزوجة.

يذهب باطلاً. ثمّ انفتح لي فيه باب من الاصلاح، فعمدت إلى ذلك المتوضّأ، فجعلت في ناحية منه حفرة، وصهرجتها[1] وملَّسْتها، حتى صارت كأنها صخرةٌ منقورة، وصوبت إليها المسيل. فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافياً لم يخالطه شيء. . . والحمار أيضاً لا تقزّز له منه، وليس علينا حَرَجٌ في سقيه منه. وما علمنا أن كتاباً حرّمه ولا سنّةً نهت عنه. فربحنا هذه منذ أيام، وأسقطنا مؤونة عن النفس والمال.

قال القوم: هذا بتوفيق الله ومَنّه.

٢ - فأقبل عليهم شيخ فقال: هل شعرتم بموت مريَم الصَّنَاع؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد، وصاحبة إصلاح. قالوا: فحدّثنا عنها. قال: نوادرها كثيرة وحديثها طويل، ولكنّي أخبركم عن واحدة فيها كفاية. قالوا: وما هي؟ قال:

زوّجتِ ابنتها، وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فحلّتْها الذهبَ والفضّةَ وكستها المَرْوِيّ[2] والوَشْيَ والقزّ والخزّ وعلّقت المُعَصْفَر، ودقّت الطيب، وعظّمتْ أمرها في عين الخَتَن، ورفعت من قدرها عند الأحماء[3]. فقال لها زوجها أنىّ لك هذا يا مريم، قالت: هو من عند الله[4]. قال: دعي عنك الجُملة وهاتي التفسير، والله ما كنتِ ذات مالٍ قديماً ولا ورثتِه حديثاً، وما أنت بخائنة في نفسك ولا في مال بعلك، إلّا أن تكوني قد وقعت على كنز. وكيف دار الأمر، فقد أسقطت عني مؤونة وكفيتني هذه النائبة. قالت: اعلم أنّي منذ يوم وَلَدْتُها إلى أن زوّجتها كنت أرفع من دقيق كلّ عجنة حَفْنةً، وكنا - كما قد علمت -

(١) صهرج الحوض: طلاه.
(٢) نوع من الثياب منسوب الى مدينة مَرْو بخراسان.
(٣) الأختانُ: أقرباء الزوجة كالأب والأخ؛ والأحماء: أقرباء الزوج، والختن عند العامة زوج الابنة.
(٤) فيه إشارة إلى القرآن الكريم (سورة آل عمران: ٣٧).

نخبز في كل يوم مرّة، فإذا اجتمع من ذلك مكّوكٌ[1] بعتهُ. قال زوجها: ثبّت الله رأيك وأرشدك، ولقد أسعد الله من كنتِ له سكناً[2]، وبارك لمن جُعِلْتِ له إلفاً. ولهذا وشبهه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلّم -: من الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل[3]. وإني لأرجو أن يخرج ولدك على عِرْقِكِ الصالح، وعلى مذهبك المحمود. وما فرحي بهذا منك بأشد من فرحي بما يثبت الله بك في عقبي[4] من هذه الطريقة المرضيّة.

فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها، وصلوا عليها. ثم انكفأوا[5] إلى زوجها فَعَزَّوه على مصيبته، وشاركوه في حزنه.

٣ - ثم اندفع شيخ منهم فقال: يا قوم لا تُحَقِروا صغار الأمور، فإن أولَ كل كبير صغير، ومتى شاء الله أن يعظم صغيراً عظّمه وأن يكثّر قليلاً كثّره. وهل بيوتُ الاموال إلّا درهمٌ إلى درهم؟ وهل الدرهم إلّا قيراط إلى جنب قيراط؟ أوليس كذلك رملُ عالجٍ[6] وماء البحر؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا بدرهم من ههنا ودرهم من ههنا؟! قد رأيتُ صاحبَ سَقَطٍ[7] قد اعتقد مائة جَريب[8] في أرض العرب، ولربّما رأيته يبيع الفُلفُل بقيراط، والحِمَّص بقيراط، فأعْلَمُ أنه لم يربح في ذلك الفلفل إلّا الحبّة[9] والحبّتين من خشب

(١) المكّوك: مكيال يساوي صاعاً ونصف صاع.
(٢) السكن: الزوجة.
(٣) الذود: العدد القليل من الإبل، والمعنى أن القطيع الكبير إنّما أصله عدد قليل.
(٤) العقب: النسل.
(٥) انكفأوا: رجعوا.
(٦) عالج: منطقة رملية (الرُّبع الخالي).
(٧) السقط هنا بمعنى الموادّ التي تباع بكميات قليلة، كالفلفل والحمص وما أشبه.
(٨) اعتقد: اشترى، وأصله من العقد (عقد البيع والشراء)؛ والجريب هنا وحدة مساحة، وهو يتسع لعشرة أقفزة تبذر فيه.
(٩) الحبة: $\frac{1}{36}$ من الدينار.

الفلفل فلم يزلْ يجمعُ من الصغارِ الكبار، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب.

ثم قال: اشتكيت أياماً صدري، من سعال كان أصابني. فأمرني قوم بالفانيذ[1] السكّريّ، وأشار عليّ آخرون بالخزيرة تتّخذ من النشاشتج[2] والسكر ودهن اللّوز وأشباهِ ذلك. فاستثقلت المؤونة، وكرهت الكلفة، ورجوت العافية. فبينا أنا أدافع الأيام، إذ قال لي بعض الموفَّقين: عليك بماء النُّخالة، فاحْسُهُ حارّاً. فحسوت، فإذا هو طيب جداً، وإذا هو يعصِم[3]. فما جُعْتُ ولا اشتهيت الغَدَاءَ في ذلك اليوم إلى الظهر. ثم ما فرغتُ من غدَائي وغسل يدي، حتى قاربَتِ العصرُ[4] فلما قرب وقتُ غدائي من وقت عشائي، طويت العَشاءَ وعرفتُ قصدي.

فقلت للعجوز: لِمَ لا تطبخين لعيالنا في كلّ غدَاةٍ نُخالةً؟ فإن ماءها جلاءٌ للصدر وقوتَها غِذاء وعِصمة، ثم تجففين بعدُ النخالة، فتعود كما كانت، فتبيعينه إذا اجتمع بمثل الثمن الأوّل، ونكون قد ربحنا فضلَ ما بين الحالين. قالت: أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السُعال مصالحَ كثيرةً، لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك.

وما أشك أنّ تلك المشورة كانت من التوفيق.

قال القوم: صَدَقْتَ. مثلُ هذا لا يكتسب بالرأي، ولا يكون إلاّ سماوياً.

---

(١) الفانيذ: نوع من الحلوى.

(٢) الخزيرة: طعام من لحم مقطع ودقيق يذرّ عليه، أو هي نوع من الحساء، والنشاشتج: النشاء.

(٣) يعصم: يمنع من الجوع.

(٤) العصر: صلاة العصر.

٤ - ثمّ أقبل عليهم شيخ آخر فقال: كنّا نلقى من الحُرّاق والقدّاحة جَهداً؛ لأن الحجارة كانت - إذا انكسرت حروفُها واستدارت - كَلّتْ ولم تقدح قَدْحَ خير، وأصلدَت فلم تُورِ[1]. وربّما أعجلَنا المطرُ والوكف[2]. وقد كان الحجر أيضاً يأخذ من حروف القدّاحة حتى يدعها كالقوس، فكنت أشتري المرقشيثا[3] بالغلاء والقداحةَ الغليظة بالثمن الموجع. وكان علينا أيضاً في صَنعة الحُرّاق وفي معالجة العُطْبَة[4] مؤونة، وله ريحٌ كريهة. والحرّاق لا يجيء من الخرق المصبوغة، ولا من الخرق الوسخة، ولا من الكتان، ولا من الخُلقان. فكنا نشتريه بأغلى الثمن. فتذاكرْنا منذ أيام أهلَ البدو والأعراب، وقدحَهم النار بالمَرْخ والعَفار[5]، فزعم لنا صديقُنا الثوريّ، وهو - ما علمتُ - أحدُ المرشدين: أن عَرَاجينَ الأعْذَاق[6] تنوب عن ذلك أجمعَ، وعلّمني كيف تُعالج. ونحن نُؤْتَى بها من أرضنا بلا كُلْفَةٍ. فالخادم اليوم لا تقدح ولا توري إلا بالعُرجون.

قال القوم: قد مرّت بنا اليومَ فوائدُ كثيرةٌ، ولهذا ما قال الأول: مذاكرة الرجال تَلْقَح الألباب.

٥ - ثم اندفع شيخ منهم فقال: لم أرَ في وضع الأمور مواضعَها وفي توفيتها غايةَ حقوقها، كَمُعَاذَةَ العنبريةِ. قالوا: وما شأنُ مُعاذةَ هذه؟ قال: أهدى إليها العامَ ابنُ عمٍ لها أُضحية. فرأيتها كئيبة حزينة مفكّرة مطرقة، فقلت لها: ما لك يا معاذة؟ قالت: أنا امرأة

---

(١) أصلدت: لم تقدح؛ يوري: يشتعل.

(٢) الوكف: نقط المطر التي تنزل من السقف.

(٣) المرقشيثا: نوع من المعادن الكبريتية، وهو بوريطس (Pyrites) باليونانية.

(٤) العطبة: الخرقة أو القطنة التي تؤخذ بها النار.

(٥) المرخ والعفار: نوعان من الشجر يوريان بالاحتكاك بسرعة؛ وفي أمثال العرب: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار؛ أي تميزا على سائر الشجر في هذه الناحية.

(٦) العُرجون: العِذقُ اذا يبس واعوجّ؛ والعذِق: الغصن من النخل خاصة.

أرملة، وليس لي قَيِّمٌ، ولا عهدَ لي بتدبير لحمِ الأضاحي. وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقّه. وقد خفتُ أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضْعَ جميعِ أجزائها في أماكنها. وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه. ولكنّ المرء يعجز لا محالة.[1] ولست أخاف من تضييع القليل إلّا أنّه يجرُّ تضييع الكثير.

أما القرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل منه كالخطّاف[2]، ويُسمَّرُ في جذع من أجذاع السقف، فيعُلَّقُ عليه الزبل والكِيرَان[3]، وكلّ ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وَردان[4] والحيّات وغير ذلك. وأمّا المصران فإنه لأوتار المندفة، وبنا إلى ذلك أعظمُ الحاجة. وأمّا قِحْفُ الرأس واللَّحيان وسائرُ العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يُعرَق[5]، ثم يطبخ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة[6] ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها، فلم يَرَ الناس وَقوداً قط أصفى ولا أحسن لهباً منه. وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر، لقلة ما يخالطها من الدخان. وأمّا الإهاب فالجلد نفسه جراب. وللصوف وجوه لا تُعَدّ. وأمّا الفَرْثُ[7] والبعر فحطب إن جُفّف عجيب.

ثم قالت: بقي الآن علينا الانتفاع بالدم. وقد علمت أن الله - عز وجل - لم يحرّم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه، وأن له

(١) المرء يعجز، أما الحيلة فلا تعجز؛ أو قد يكون أن المرء يلحقه العجز ولا بدّ.
(٢) الخطّاف: حديدة معقوفة تعلق بها الأشياء.
(٣) الكيران: جمع كور وهو الرحل؛ ولعل الكلمة مصحفة هنا، واظن صوابها الكُرّات جمع كرة - بضم الكاف وتشديد الراء - وهي البعر، وهذا يناسب ذكر الزبل.
(٤) بنات وردان: نوع من الهوام.
(٥) يعرق: ينزع عنه اللحم.
(٦) الإدام: ما يؤكل مع الخبز؛ والعصيدة: دقيق يلت بالسمن ويطبخ (وربما اتخذت من ذرة مطحونة عقدت بالنشا).
(٧) الفرث: ما يكون في كرش الدابة.

مواضع يجوز فيها ولا يُمنع منها، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به، صار كَيَّةً في قلبي وقذىً في عيني وهمّاً لا يزال يعودني.

قال: فلم ألبث أن رأيتها قد تطلّقت وتبسمت. فقلت: ينبغي أن يكون قد انفتح لك بابُ الرأي في الدم. قالت: أجل ذكرتُ أنّ عندي قدورًا شاميّة جدداً. وقد زعموا: أنه ليس شيء أدبغَ ولا أزيد في قوتها، من التلطيخ بالدم الحارّ الدسم. وقد استرحتُ الآن، إذ وقع كلّ شيء موقعه.

قال: ثم لقيتها بعد ستة أشهر، فقلت لها: كيف كان قديدُ[1] تلك؟ قالت: بأبي أنت! لم يجيء وقت القديد بعدُ، لنا في الشّحم والألية والجُنُوب[2] والعظم والمُعَرَّق وفي غير ذلك معاش، ولكلّ شيء إبّان.

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصى، ثمّ ضرب بها الأرض، ثم قال: لا تعلم أنك من المسرفين، حتى تسمع بأخبار الصالحين.

مناقشات وتمرينات

١ - يتميّز المسجديون بقدرة فائقة على ابتكار الوسائل والطرق التي تؤدي إلى التوفير. كيف ظهرت تلك القدرة - على تنوعها - في قصّة صاحب الحمار ومريم الصناع وصاحب النخالة ومعاذة العنبرية؟

٢ - لو طلب إليك أن تختار جملاً تمثّل خلاصة فلسفة المسجديين فأي جمل تختار من هذه الفقرة؟

(١) القديد: اللحم المجفّف.
(٢) الجنوب: جمع جنب.

٣ - يرى الجاحظ أنّ البخل يمكن أن يشكل رابطة تربط الأفراد برباط متين أقرب إلى العصبية. ما رأيك في هذا؟

٤ - أسلوب الجاحظ فيه قدر غير قليل من السخرية الضاحكة. تلمس مواطن هذه السخرية في هذه القطعة.

-٢٧-

المقامة المضيرية

لبديع الزمان الهمذاني *

حدّثنا عيسى بنُ هشام قال: كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الإسكندري، رجلُ الفصاحة يدعوها فتجيبُه، والبلاغةِ يأمرُها فتطيعُه، وحضرْنا معه دعوةَ بعض التجار فقُدمت إلينا مَضِيرَةٌ[1] تُثْني على الحضارة،وتترجرج في ٱلْغَضَارَة[2]، وَتُؤْذِنُ بالسلامة، وتشهد لمعاويةَ رحمه الله بالإمامة، في قصعة يَزِلُّ عنها الطَّرْف[3]، ويموج فيها الظَّرْف، فلما أَخَذَتْ من الْخُوَانِ[4] مكانها، ومن القلوب أوطانها، قام أبو الفتح الإسكندري يلعنها وصاحبها، وَيمقُتُها وآكلها، وَيَثْلِبُها[5] وطابخها. وظنناه يمزح فإذا الأمر بالضد، وإذا المزاح عين الجدّ، وتنحّى عن الخُوان، وترك مساعدة الإخوان، ورفعناها فارتفعت معها

(*) من كتاب «مقامات بديع الزمان الهمذاني» (شرح الشيخ محمد عبده، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩) ص ١٠٤ - ١١٧.

(١) المضيرة: لحم يطبخ باللحم المضير، أي الحامض، وربما خلط المضير بالحليب وهو الأجود، ثم يضاف إليه من الأبزار ما يوفر اللذة في طعمه، وله مريقة يحمد العرب أكلها.

(٢) الغضارة: القصعة الكبيرة.

(٣) الطرف: البصر.

(٤) الخوان: ما يوضع عليه الطعام.

(٥) الثلب: الشتم والسب. وهو عكس المدح.

القلوب، وسافرت خلفها العيون، وَتَحَلَّبَتْ[1] لها الأفواه، وتلمظت[2] لها الشفاه، واتقدت لها الأكباد، ومضى في إثْرِهَا الفُؤاد. ولكنا ساعدناه على هجرها، وسألناه عن أمرها، فقال: قصتي معها أطول من مصيبتي فيها، ولو حدثتكم بها لم آمن الْمَقْتَ[3]، وإضاعة الوقت. قلنا: هات. قال: دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ولزمني ملازمة الْغَرِيم[4]، والكلب لأصحاب الرَّقِيم[5]، إلى أن أجبته إليها وقمنا فجعلَ طُول الطريق يثني على زوجته، ويفدّيها بمهجته[6]، ويصف حذقها في صنعتها، وتأنقها في طبخها، ويقول: يا مولاي لو رأيتها، والخِرْقَةُ في وسطها وهي تدور في الدُّور[7]، من التَّنُّور إلى الْقُدُور، ومن القدور الى التنور، تَنْفُثُ بفيها النار، وتدق بيديها الأبزار، ولو رأيت الدخان وقد غبّر في ذلك الوجه الجميل، وأثر في ذلك الخد الصَّقِيل[8]، لرأيت منظراً تَحَارُ فيه العيون، وأنا أعشقها لأنها تعشقني، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حَلِيلَتِه[9]، وأن يُسْعَد بظَعِينَتِه[10]، ولا سيما إذا كانت من طينته. وهي ابنة عمي لحّاً[11]، طينتها طينتي، ومدينتها مدينتي، وعمومتها عمومتي، وَأُرُومَتُها أرومتي[12]، لكنها أوسع مني خُلقاً وأحسن خَلْقاً[13]. وصدعني بصفات

(١) تحلبت: سال ريقها (لأجل المضيرة).
(٢) التلمظ: إخراج اللسان بعد الأكل والشرب ليمسح به الشفتان.
(٣) المقت: أشد البغض.
(٤) الغريم: صاحب الدَّيْن، وملازمته لمدينه يضرب بها المثل.
(٥) أصحاب الرقيم: هم أهل الكهف المذكورون في القرآن، وكان كلبهم لا يفارقهم.
(٦) المهجة: دم القلب.
(٧) الدور: جمع دار.
(٨) الصقيل: المجلوّ كالسيف.
(٩) الحليلة: الزوجة.
(١٠) الظعينة: المرأة ما دامت في هودجها، والمراد هنا: الزوجة.
(١١) لحًا: مصدر لحت القرابة لحًا أي التصقت والتحمت.
(١٢) الأرومة: الأصل.
(١٣) الخُلق: الأخلاق، الخَلق: الهيئة والشكل.

زوجته، حتى انتهينا إلى مَحَلَّتِهِ. ثم قال: يا مولاي ترى هذه المحلة: هي أشرف محال بغداد، يتنافس الأخيار في نزولها، ويتغاير[1] الكبار في حلولها. ثم لا يسكنها غير التجار، وإنما المرء بالجار. وداري في السِّطة من قلادتها[2]، والنقطة من دائرتها. كم تُقَدِّرُ يا مولاي أنفق على كل دار منها؟ قله تخميناً، إن لم تعرفه يقينا! قلت: الكثير. فقال: يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط، تقول الكثير فقط؟! وتنفس الصعداء، وقال: سبحان من يعلم الأشياء! وانتهينا إلى باب داره، فقال: هذه داري كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة[3]؟ أنفقت والله عليها فوق الطاقة[4]، ووراء الفاقة[5]. كيف ترى صنعتها وشكلها؟ أرأيت بالله مثلها؟ انظر إلى دقائق الصَّنْعَةِ فيها وتأمل حسن تعريجها[6] فكأنما خط بالبِرْكَار[7]. وانظر إلى حِذْقِ النجار في صنعة هذا الباب: اتخذه من كَمْ[8]؟ قل: ومن أين أعلَم! هو سَاجٌ[9] من قطعة واحدة لا مأروض[10] ولا عفن، إذا حُرِّكَ أَنَّ، وإذا نُقِرَ طَنَّ. مَن اتخذه يا سيدي؟ اتخذه أبو اسحق بن محمد البصري، وهو والله رجل نظيف الأثواب، بصير بصنعة الأبواب، خفيف اليد في العمل، لله در ذلك الرجل! بحياتي لا استعنت إلا به على مثله. وهذه الحلقة[11] تراها؟ اشتريتها في سوق الطَّرَائِفِ من عمران الطرائفي بثلاثة

(١) يتغايرون: يتبادلون الغيرة.
(٢) سطة القلادة: هي أعظم جوهرة فيها.
(٣) الطاقة: الشباك.
(٤) الطاقة: القدرة والاستطاعة.
(٥) الفاقة: العوز والحاجة.
(٦) التعريج: الميل والانحناء على نسب محفوظة.
(٧) البركار: هو البيكار.
(٨) يعني: من كم لوح أو قطعة صنع هذا الباب.
(٩) الساج: شجر يعظم جداً، قالوا: لا ينبت إلا بأرض الهند.
(١٠) المأروض: الذي أكلته الأرضة.
(١١) الحلقة هنا هي حلقة الباب التي يطرق بها.

دنانير معزّية [١]، وكم فيها يا سيدي من الشَّبَه[٢]؟ فيها ستة أرطال، وهي تدور بلَوْلَب[٣] في الباب، بالله دوِّرها ثم انقرها وأبصرها! وبحياتي عليك لا اشتريت الحلق إلا منه[٤]، فليس يبيع إلا الأعْلاَق[٥]. ثم قرع الباب ودخلنا الدِّهْليزَ وقال: عَمَّرَكِ الله يا دَارُ، ولا خَرَّبَكِ يا جدار! فما أمتَنَ حيطانك، وأوثق بنيانك! وأقوى أساسك. تَأمَّلْ بالله معارجها[٦]، وتبين دواخلها وخوارجها! وسلني: كيف حصّلتها، وكم من حيلة احتلتها، حتى عقدتها[٧]؟ كان لي جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة، وله من المال ما لا يسعه الخَزْنُ، ومن الصامت[٨] ما لا يحصره الوزن. مات رحمه الله وخلف خَلَفاً أتلفه بين الخمر والزَّمْر[٩]، ومزقه بين النَّرْدِ والْقَمْر[١٠]، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار، إلى بيع الدار، فيبيعها في أثناء الضجر، أو يجعلها عرضة للخطر، ثم أراها، وقد فاتني شراها، فأنقطع عليها حسرات، إلى يوم الممات. فعمدت إلى أثواب لا تنضّ تجارتها[١١]، فحملتها إليه، وعرضتها عليه، وساومته على أن يشتريها نَسِيَّةً[١٢]،

(١) معزية: نسبة الى المعز لدين الله، الخليفة الفاطمي.
(٢) الشبه: النحاس الأصفر.
(٣) اللولب: هو «البرغي» أو «القلاووظ».
(٤) الضمير عائد إلى الطرائفي.
(٥) الأعلاق: الأشياء النفيسة.
(٦) المعارج: السلالم.
(٧) عقدتها: أي ملكتها بعقد البيع.
(٨) الصامت: المال من الذهب والفضة ونحوهما من المعادن والجوهر؛ عكسه الناطق وهو المال من الحيوان كالإبل والبقر والغنم ونحوها.
(٩) الزمر: الغناء.
(١٠) القمر: القمار.
(١١) لا تنض تجارتها: لا يحصل من تجارتها شيء.
(١٢) النسية والنسيئة: التأجيل.

والمدْبر[١] يحسب النسية عطية، والمُتَخَلِّفُ[٢] يعتدّها هدية. وسألته وثيقة بأصل المال[٣]، ففعل وعقدها لي. ثم تَغَافَلْتُ عن اقتضائه[٤]، حتى كادت حاشية حاله ترق[٥]، فأتيته فَاقْتَضَيْتُه. واستمهلني فَأنْظَرْتُهُ[٦]. والتمس غيرها من الثياب، فأحضرته وسألته أن يجعل داره رهينة لدي، ووثيقة[٧] في يدي، ففعل. ثم درّجته بالمعاملات إلى بيعها، حتى حصلت لي بجَدٍّ[٨] صاعد، وبخْت[٨] مساعد، وقوة ساعد، وَرُبَّ ساعٍ لقاعد[٩]. وأنا بحمد الله مَجْدُودٌ[١٠]، في مثل هذه الأحوال محمود. وَحَسْبُكَ يا مولاي أني كنت منذ ليال نائمًا في البيت مع من فيه إذ قُرع علينا الباب، فقلت: من الطارق المُنْتَابُ؟ فإذا امرأة معها عقد لآل، في جلدة ماء ورقّة آل[١١]، تعرضه للبيع. فأخذته منها إخذة خَلس[١٢]، واشتريته بثمن بَخْسٍ، وسيكون له نفع ظاهر، وربح وافر، بعون الله ودولتك[١٣]. وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جَدِّي في التجارة، والسعادة تُنبط الماء من الحجارة. الله أكبر! لا يُنبِّئك أصدق من نفسك، ولا أقرب من أمسك. اشتريت

(١) المدبر: من أدبرت عنه السعادة فهو شقي؛ واذا قرئت بالتشديد (المدبّر) كان معناها: المقتصد البخيل.
(٢) المتخلف: المتأخر عن الناس في حسن الحال.
(٣) أي صكاً بثمن الثياب يبيّن دَينه للرجل بالمال.
(٤) اقتضائه: مطالبته بالدين.
(٥) رقة الحاشية: قلة ذات اليد.
(٦) أي طلب المهلة فأخرت المطالبة حتى ينظر كيف يقضي دينه.
(٧) الوثيقة هنا بمعنى الضمان.
(٨) الجد (بفتح الجيم) والبخت: الحظ.
(٩) مثل يضرب فيمن ينال شيئاً يكون غيره قد سعى إليه.
(١٠) مجدود: محظوظ.
(١١) الآل: السراب.
(١٢) إخذة خلس: اخذة مخاتلة واحتيال، أي بثمن زهيد.
(١٣) ودولتك: وقوة معونتك.

هذا الحصيرَ في المناداة، وقد أُخرج من دور آل الفُرَاتِ[١]، وقت المصادرات، وزمن الغارات. وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد، والدهر حُبْلَى لَيْسَ يُدْرَى ما يَلِدُ[٢]. ثم اتفق أني حضرت باب الطَّاق[٣]، وهذا يعرض في الأسواق، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً. تأمل بالله دقته ولِينَهُ وصنعته ولونه فهو عظيم القدر، لا يقع مثله إلا في النَّدْر. وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصِيريّ فهو عملُه، وله ابن يخلفه الآن في حانوته لا يوجد أعلاق الحُصُر إلا عنده، فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه، فالمؤمن ناصح لإخوانه، لا سيما من تَحَرَّمَ[٤] بخُوانِه. ونعود إلى حديث المضيرة، فقد حان وقت الظهيرة. يا غلام: الطَّسْتَ والماء! فقلت: الله أكبر! ربما قرب الفرج، وسهل المخرج. وتقدم الغلام، فقال: ترى هذا الغلام؟ إنه رومي الأصل، عراقي النشء. تقدم يا غلام واحسر عن رأسك، وشمر عن ساقك، وَانْضُ عن ذراعك، وافترّ عن أسنانك، وأقبل وأدبر! ففعل الغلامُ ذلك. وقال التاجر: بالله من اشتراه؟ اشتراه والله أبو العباس، من النخاس[٥]. ضع الطست وهات الإبريق! فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره. فقال: انظر إلى هذا الشبه[٦]، كأنه جُذْوَةُ اللَّهب، أو قطعة من الذهب: شبه الشام، وصنعةُ العراق. ليس من خُلْقَان الأعلاق[٧]، قد عرف دُورَ الملوك ودارها. تأمل حسنه وسلني: متى اشتريته؟ اشتريته والله عام

(١) آل الفرات: أسرة تولى عدد من أفرادها الوزارة في العصر العباسي، وقد صودرت أموالهم ونكبوا في أوائل القرن الرابع الهجري.

(٢) والدهر حبلى ليس يُدرَى ما يلد: مثل يضرب في تقلب الزمان بحيث لا يدري ما يأتي به.

(٣) باب الطاق: محلة من محال بغداد.

(٤) تحرَّم: طلب الحرمة والأمان.

(٥) النخاس: بائع الرقيق يتجر فيها.

(٦) الشبه: هو – كما تقدم – النحاس الأصفر.

(٧) خلقان الأعلاق: البالي من النفائس.

المجاعة[١]، وادخرته لهذه الساعة. يا غلام: الإبريق! فقدمه. وأخذه التاجر فقلبه، ثم قال: وأنبوبه منه[٢]! لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدَّسْتِ[٣]، ولا يحسن هذا الدست إلا في هذا البيت، ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف! أرسل الماء يا غلام، فقد حان وقت الطعام! بالله ترى هذا الماء ما أصفاه أزرق كعين السِنَّوْر[٤]، وصافٍ كقضيب البِلَّوْر، استُقي من الفرات، واستعمل بعد البيات، فجاء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة. وليس الشأن في السقاء: الشأن في الإناء! لا يدلُّك على نظافة أسبابه، أصدق من نظافة شرابه. وهذا المنديل: سلني عن قصته، فهو نسج جُرْجَانَ، وعمل أَرَّجَانَ[٥]. وقع إليَّ فاشتريته، فاتخذت امرأتي بعضه سراويلاً، واتخذت بعضه منديلا، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً، وانتزعتُ من يدها هذا القدر انتزاعاً، وأسلمته إلى المُطَرِّز حتى صنعه كما تراه وطرزه. ثم رددته من السوق، وخزنته في الصندوق، وادخرته لِلظِّرافِ، من الأضياف. لم تذله عرب العامة بأيديها، ولا النساء لمآقيها، فلكل علق يوم،[٦]، ولكل آلة قوم. يا غلام: الخوان! فقد طال الزمان. والقِصَاعَ! فقد طال المَصَاعُ[٧]. والطعام! فقد كثر الكلام. فأتى الغلام بالخوان، وقلبه

(١) يريد بعام المجاعة أن مالكه كان حريصاً عليه لا يبيعه إلا مضطراً، كأن يكون ذلك في عام مجاعة.

(٢) أنبوبه منه: أي أن أنبوبه ليس ملحوماً به لحمًا، فهو أثمن.

(٣) الدست: هو أشرف مجلس في البيت.

(٤) السنور: ذكر القط أو الهر.

(٥) جرجان: مقاطعة في فارس بين طبرستان وخراسان، وهي الآن في شرق ايران الحديثة، قرب الحدود الأفغانية الايرانية؛ وأرجان: مدينة في فارس من ناحية خوزستان فيما يلي جنوب شرق العراق اليوم.

(٦) أي فلكل شيء ثمين نفيس يوم يستعمل فيه.

(٧) المصاع: التجالد في القتال.

التاجر على المكان، وَنَقَرَهُ بالبَنان[١]، وعَجَمَهُ بالأسنان[٢]، وقال: عمر الله بغداد، فما أجود متاعها، وأظرف صناعها! تأمل بالله هذا الخوان، وانظر إلى عرض متنه[٣]، وخفة وزنه، وصلابة عوده، وحسن شكله! فقلت: هذا الشكل، فمتى الأكل؟ فقال: الآن. عجل يا غلام الطعام! لكن الخوان قوائمه منه. قال أبو الفتح: فجاشت نفسي، وقلت: قد بقي الخبز وآلاتُهُ، والخبز وصفاته، والحنطة من أين اشْتُرِيَتْ أصلا، وكيف اكترى لها حملا، وفي أي رَحَى[٤] طحن، وإجَّانة[٥] عجن، وأي تنور سَجَرَ[٦]، وخباز استأجر. وبقي الحَطَبُ: من أين احتطِب، ومتى جُلِب وكيف صُفف حتى جُفف، وحبس حتى يبس. وبقي الخباز ووصفه، والتلميذ[٧] ونعته، والدقيق ومدحه، والخمير وشرحه، والملح وملاحته. وبقيت السُّكُرُّجَات[٨]: من اتخذها، وكيف انْتَقَذَهَا[٩]، ومن استعملها ومن عملها. والخلّ: كيف انتقي عنبه، أو اشتري رُطَبُهُ[١٠]، وكيف صُهْرِجَتْ مِعْصَرَتُهُ، واستخلص لبه، وكيف قُيِّرَ حُبُّهُ[١١]، وكم يساوي دَنُّه[١٢]. وبقي: البقل كيف احتيل له حتى قطف، وفي أي مَبْقَلَة رُصِف، وكيف تُؤُنِّق حتى نظف. وبقيت المضيرة: كيف اشتري لحمها، وَوُفِّيَ شحمها، ونصبت

---

(١) البنان: الإصبع.

(٢) عجمه بالاسنان: اختبره باسنانه عضاً.

(٣) المتن: الظهر، وهو هنا: سطح الخوان.

(٤) الرحى: الطاحونة.

(٥) الإجانة: المركن، وهو إناء يغسل فيه ويعجن.

(٦) سجر التنور: ملأه وقوداً، وأحماه.

(٧) يعني تلميذ الخباز.

(٨) السكرجات: الصحاف التي توضع فيها ألوان الطعام.

(٩) انتقذها: استخلصها بالشراء من يد صانعها أو بائعها.

(١٠) الرطب: التمر.

(١١) قيّر حبه: طليت بالقطران خابيته الكبيرة.

(١٢) الدن: الخابية أيضاً.

قدرها، وأججت نارها، ودقت أبزارها، حتى أجيد طبخها وَعُقِّدَ مرقها، وهذا خَطْب يَطُمُّ[١]، وأمر لا يتم. فقمت، فقال: أين تريد؟ فقلت: حاجة أقضيها، فقال: يا مولاي تريد كَنِيفاً يزري بربيعيِّ الأمير، وخريفيِّ الوزير، قد جصص[٢] أعلاه، وصهرج أسفله، وسطح سقفه، وفرشت بالمرمر أرضه، يَزِلُّ عن حائطه الذَّر فلا يعلق، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق، عليهِ بابٌ غِيرَانُهُ[٣] من خليطَي ساج وعاج. مزدوجين أحسن ازدواج، يتمنى الضيف أن يأكل فيه. فقلت: كُلْ أنت من هذا الجراب: لم يكن الكنيف في الحساب! وخرجت نحو الباب، وأسرعت في الذهاب، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح: يا أبا الفتح المضيرة! وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي، فصاحوا صياحه، فرميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر. فلقي رجل الحجر بعمامته، فغاص في هامته[٤]. فأخذت من النعال بما قَدُم وحدث، ومن الصفع بما طاب وَخَبُثَ، وحشرت إلى الحبس، فأقمت عامين في ذلك النحس. فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت. فهل أنا في ذا يا آل هَمَدَانَ ظالم[٥]؟ قال عيسى بن هشام: فقبلنا عذره، ونذرنا نذره، وقلنا: قديماً جنت المضيرة على الأحرار، وقدَّمت الأرذال على الأخيار.

---

(١) خطب يطم: أمر جسيم يعظم ويتفاقم.

(٢) جصص: طلي بالجص (وهو الجفصين).

(٣) الغيران: جمع غار، أصله الأخدود بين اللحيين من الفم، واستعمله هنا للفواصل بين الأبواب.

(٤) الهامة: الرأس.

(٥) شطر بيت أصبح يضرب مثلا لمن عمل عملا يظن أن فيه ظلمًا وليس كذلك.

مناقشات وتمرينات

١ - ارسم صورة لشخصية التاجر صاحب المضيرة، مبيناً وضعه النفسي ومركزه الاجتماعي والاقتصادي.

٢ - لكل مقامة راوية (عيسى بن هشام هنا) وبطل (أبو الفتح الاسكندري)، أين هو موضع البطولة في شخصية أبي الفتح؟ وكيف؟

٣ - هل تستطيع ان تستخلص من هذه المقامة صورة لجانب من الحياة الاجتماعية في بغداد في القرن الرابع الهجري؟ حدد بدقة.

٤ - هل تعتقد ان صعوبة اللغة في المقامات - كما هو شائع - عائق في تذوقها، أم أن القضية مبالغ فيها؟

٥ - لو طلب اليك ان تجعل من هذه المقامة أساساً لعمل فني حديث (قصة قصيرة، اسكتش اذاعي أو تلفزيوني) فماذا تفعل؟

-٢٨-

طبائع الإفرنج وأخلاقهم
لأسامة بن منقذ*

سبحان الخالق البارىء! إذا خبر الإنسان أمور الافرنج سبّح الله تعالى وقدّسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلةُ القوّة والحمل. وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم.

كان في عسكر الملك فلك بن فلك[1] فارس محتشم إفرنجيّ قد وصل من بلادهم يحجّ ويعود، فأنس بي وصار ملازمي يدعوني «أخي» وبيننا المودّة والمعاشرة. فلما عزم على التوجّه في البحر الى بلاده قال لي: «يا أخي، أنا سائر الى بلادي، وأريدك تُنفذُ معي ابنَك (وكان ابني[2] معي وهو ابن أربعَ عشرةَ سنة) الى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسيّة، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل». فطرق سمعي كلامٌ ما يخرج من رأس عاقل. فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسرُ أكثرَ من رواحه الى بلاد الافرنج. فقلت: «وحياتِك، هذا الذي كان في نفسي، لكن منعني من ذلك أن جدّته تحبه وما تَرَكَتْهُ يخرجُ معي حتى استحلفتني أني أردّه اليها». قال: «وأمّك تعيش؟» قلت: «نعم» قال: «لا تخالفها».

(*) من كتاب «الاعتبار» (تحقيق فيليب حتي، برنستون، ١٩٣٠) ص ١٣٢ - ١٣٥.
(١) هو فلك (Fulk) الخامس، توج ملكاً في القدس سنة ١١٣١.
(٢) يعني أبا الفوارس مرهفاً.

ومن عجيب طبّهم أنّ صاحب المنيطرة[1] كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عَشَرَةَ أيّام حتى عاد فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى! قال: أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف[2]. فعملت للفارس لُبَيْخةً ففتحتِ الدمّلةَ وصَلُحَتْ، وحميتُ المرأةوِرطّبتُ مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: «هذا ما يعرف شي[3] يداويهم». وقال للفارس: أيّما أحبّ اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحطّ ساقه على قُرْمَةِ[4] خَشَب وقال للفارس «اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة، اقطعها». فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخّ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها. فحلقوه. وعادت تأكل من مأكلهم: الثومَ والخردل. فزاد بها النشاف. فقال: «الشيطان قد دخل في رأسها». فأخذ الموس وشقّ رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظمُ الرأس وحكّه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: أبقِيَ لكم إليّ حاجة؟ قالوا: لا. فجئتُ وقد تعلّمت من طبّهم ما لم أكن أعرفه.

وقد شاهدت من طبّهم خلاف ذلك. كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد[5] من ألعن الإفرنج وارجسهم، فَرَمَحَهُ حصانٌ في ساقه فعمّلت عليه رجله وفُتحت في أربعة عشر موضعاً، والجراحُ

(١) قرب أفقه عند منبع نهر ابراهيم في شمالي لبنان.
(٢) حالة من حالات اليبوسة في المزاج (بحسب الطب يومئذ).
(٣) بحسب التعبير العامي.
(٤) قرمة: قطعة.
(٥) (Bernard).

كلّما ختم موضع فُتح موضعٌ وأنا أدعو بهلاكه. فجاءه طبيب إفرنجيّ فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخلّ الحاذق. فخُتمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان.

ومن عجيب طبّهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح له ولد قد طلع في رقبته خنازيرُ. وكلّما خُتِمَ موضعٌ فُتحَ موضعٌ. فدخل أنطاكية في شغل له وابنه معه. فرآه رجل إفرنجيّ فسأله عنه فقال: هو ولدي. قال: تحلف لي بدينك إن وصفتُ لك دواءً يُبرئُه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرةً، حتى أصف لك دواء يُبرئُه؟ فحلف. فقال له: تأخذ له أُشناناً[1] غير مطحون تحرقه وتربّه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع. ثم خذ الرصاص المحرّق وربّه بالسمن، ثم داوه به فهو يبرئه. فداواه بذلك فبرأ، وختمت تلك الجراح. وعاد الى ما كان عليه من الصحّة.

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وأزال ما كان يشكوه.

فكلّ من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى اخلاقاً من الذين قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين؛ فمن جفاء أخلاقهم قبّحهم الله، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة. فكنت اذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداويّة[2]، وهم أصدقائي، يُخْلون لي ذلك المسجد الصغير أصلّي فيه. فدخلته يوماً فكبّرت ووقفتُ في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الإفرنج، مسكني وردّ وجهي الى الشرق وقال «كذا صلّ!» فتبادر اليه قوم من الداويّة أخذوه، أخرجوه

(١) الأشنان: نوع من الغسول يتّخذ بدل الصابون.
(٢) الداوية: فرسان الهيكل (Templars).

عنّي وعدت أنا إلى الصلاة. فاغتفلهم وعاد هجم عليَّ ذلك بعينه وردّ وجهي الى الشرق وقال: «كذا صلّ!» فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا إليّ، وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الافرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلّي الى غير الشرق. فقلت:«حسبي من الصلاة!».

مناقشات وتمرينات

١ - الحكم على طبائع الآخرين شيء نسبي، ومع ذلك فإن أسامة إذ ينكر فضائل الفرنجة سوى الشجاعة قد اثبت لهم فضائل أخرى. فما هي؟

٢ - هذه القطعة تتحدّث عن تفاوت حضاريّ وعلمي بين الشرق وأوروبة ميز هذا التفاوت وقارن هذا بالوضع الراهن.

٣ - رغم ظروف الحرب وما يتصل بها فإن أسامة يصور أن التعايش بين الناس أقوى من عناصر العداء. كيف ظهر ذلك في هذه القطعة؟

٤ - تُرى ما الذي عناه الإفرنجي حين اقترح على أسامة أن يبعث ابنه الى أوروبة ليتعلّم **«العقل»**؟

٥ - يلاحظ أن أسامة يستعمل تعبيرات شديدة الصلة باللّغة الدارجة. مثّل على ذلك.

-٢٩-

ذكر بعض من أحوال أهل الصين
لابن بطوطة*

أهل الصين كفّار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود. وملك الصين تتريّ من ذُرِّيَّة تنكيز خان. وفي كلّ مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم فيها. ولهم فيها المساجد لإقامة الجُمُعَات وسواها. وهم معظَّمون محترَمون. وكفّارُ الصين يأكلون لحومَ الخنازير والكلاب، ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهلُ رفاهيَةٍ وسَعَةِ عيش إلاّ أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس. وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تُحْصى أمواله كثرة، وعليه جبّة قطن خشنة.

وجميع أهل الصين إنّما يحتفلون في أواني الذهب والفضّة، ولكلّ واحد منهم عكّاز يعتمد عليه في المشي، ويقولون هو الرّجل الثالثة. والحرير عندهم كثير جدّاً لأنّ الدوْد تتعلّقُ بالثمار وتأكل منها. فلا تحتاج الى كثير مؤونة، ولذلك كثر، وهو لباس الفقراء والمساكين بها. ولولا التجار لما كانت له قيمة، ويباع الثوبُ الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير.

(*) من «رحلة ابن بطوطة» (دار صادر، بيروت، ١٩٦٠) ص ٦٢٨ - ٦٣٢.

وعادتهم ان يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضّة قطعاً تكون القطعةُ منها من قنطار فما فوقه وما دونه. ويجعل ذلك على باب داره. ومن كان له خمسُ قطع منها جعل في إصبعه خاتماً، ومن كانت له عشرٌ جعل خاتمين، ومن كان له خمسَ عَشْرَة سَمّوْهُ السَّتي، وهو بمعنى الكارمي[1] بمصر، ويسمّون القطعة الواحدة منها بَرْكَالة.

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه، وإنّما بيعهم وشراؤهم بقطعِ كاغَدٍ[2]، كلّ قطعة منها بقدر الكفّ مطبوعةٌ بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرون قطعة بالِشْت، وهو بمعنى الدينار عندنا، وإذا تمزّقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها الى دار كدار السكّة[3] عندنا، فأخذ عوضها جُدُداً، ودفع تلك، ولا يُعطي على ذلك أجرة ولا سواها، لأن الذين يتولّون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان.

وقد وُكِلَ بتلك الدار أمير من كبار الامراء. وإذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضّة أو دينار يريد شراء شيء لم يؤخذ منه ولا يُلْتَفَتُ اليه حتى يصرفه بالبالِشْت، ويشتري به ما أراد.

وأهل الصين أعظمُ الأمم إحكاماً للصناعات وأشدُّهم إتقاناً فيها، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه. وأمّا التصوير فلا يجاريهم أحدٌ في إحكامه من الروم ولا من سواهم، فإنّ لهم فيه اقتداراً عظيمًا. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني

---

(١) كان التجار الكارميون معروفين في القرون الوسطى بنقل السلع من الشرق الاقصى الى مصر وحوض البحر المتوسط، وقد اختلف في الاسم فيقال إنه تحريف «كانم» وكلام ابن بطوطة يشير الى رفعة التاجر الكارمي (من الاكارم) لبسطه في ثرائه.

(٢) الكاغد: الورق وهذه اشارةهامة الى التعامل بالعملة الورقية (البنكنوت).

(٣) دار السكة: المكان الذي تسك (تصك) فيه النقود.

ما دخلت قطّ مدينة من مدنهم ثم عدت اليها إلّا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشةً في الحيطان والكواغد، موضوعة في الأسواق.

ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقّاشين، ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابي، ونحن على زيّ العراقيين، فلما عدت من القصر عشيّا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط، فَجَعَلَ كلٌ واحدٍ منّا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطىء شيئاً من شبهه. وذُكِرَ لي أنّ السلطان أمرهم بذلك، وأنهم أتوا الى قصره، ونحن به، فجعلوا ينظرون الينا ويصوّرون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك. وتلك عادة لهم في تصوير كلّ من يمرّ بهم، وتنتهي حالهم في ذلك الى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فِرارَه عنهم بعثوا صورته الى البلاد وبُحِثَ عنه، فحيثما وجد شبهُ تلك الصورة أُخِذَ.

وعادة أهل الصين إذا أراد جُنك[1] من جنوكهم السفَر صعد اليه صاحبُ البحر وكتّابُه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية، وحينئذ يباح لهم السفر، فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه أيضاً، وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس، فإن فقدوا أحداً ممن قيّدوه طلبوا صاحب الجنك به، فإما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك ممّا يحدث عليه، وإلّا أُخِذَ فيه. فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يُمْلِيَ عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع قليلِها وكثيرِها، ثمّ ينزل من فيه، ويجلس حفّاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم، فإن عثروا على سلعة قد كتِمَتْ عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن، وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفّار ولا المسلمين إلّا بالصين، اللّهم إلّا أنّه كان بالهند ما يقرب منه. . .

---

(١) الجنك: المركب الكبير عند اهل الصين (والمتوسط يسمى الزو والصغير يسمى الككم - انظر الرحلة: ٥٦٥).

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خُيِّرَ في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معيَّن، أو في الفُنْدُق، فإن أحبَّ النزول عند تاجرحُصِر مالُه وضُمِّنَه التاجرُ المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف، فإذا أراد السفر بُحِثَ عن ماله، فإن وُجِدَ شيء منه قد ضاع أغرمَه التاجر المستوطن الذي ضُمِّنَه، وإن أرادَ التسرّي اشترى له جاريةً وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق، وأنفق عليهما.

والجواري رخيصات الأثمان، إلاّ أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادَهم وبناتهم، وليس ذلك عيباً عندهم، غير أنهم لا يُجْبَرون على السفر مع مشتريهم، ولا يُمْنَعُون أيضاً منه إن اختاروه. وكذلك إن اراد التزوّج تزوّج. وأمّا إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه، ويقولون: لا نريد أن يُسْمَع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا.

وبلاد الصين آمَنُ البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين، فإنّ الانسان يسافر منفرداً مسيرة تسعةِ أشهر، وتكون معه الأموالُ الطائلة، فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك أن لهم في كلّ منزل ببلادهم فندقاً عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العِشاء الآخرة جاء ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها، واقفل باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كلّ إنسان باسمه وكتب به تفصيلاً، وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثاني له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا اليه، وإن لم يفعل طلبه بهم. وهكذا العمل في كلّ منزل ببلادهم من صين الصين الى خان بالق.

وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج اليه المسافر من الأزواد وخصوصاً الدجاج والإوزّ، وأمّا الغنم فهي قليلة عندهم.

مناقشات وتمرينات

١ - ما هي بعض المظاهر الغريبة حقًّا في حياة الصينيين؟ هل تعتقد أن ابن بطوطة كان رحّالة يهتم بالعجائب والغرائب أو أنه كان ذا نظرة أوسع؟

٢ - اذكر بعض الأمور التي تدل على عراقة التقدم الحضاري في الصين.

٣ - هل توافق ابن بطوطة على استغرابه لمصادرة الجنك إذا كُتمت إحدى السلع عن المراقبين؟

٤ - الا تستغرب أن يكون احتفال اهل الصين في أواني الذهب والفضّة والى بلدهم تنسب أنواع «الصيني» (China Ware) التي عمّت العالم؟ هل لهذا علاقة بعدم استعمال الذهب والفضة في المعاملات المالية؟

٥ - إذا عرفت أنّ ابن بطوطة لم يكتب رحلته، وإنّما تحدث بها، ورتّبها ابن جزيّ، فهل تجد فيها سمات القصص الشفوي حتى بعد أن اجتهد ابن جزيّ في صياغتها؟ وضح ذلك.

-٣٠-
من قضايا الريف
لتوفيق الحكيم *

وضع الرجل الكوب الزجاجي أمامي وانصرف. وما كدت أرشف رشفة حتى فتح الباب ودخل عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي بروحه الذي لا أستخفُّ له ظلاً وقال:

- عندنا من نوع التلبس أربع قضايا.

- هات!

فذهب وأرسل إلى العسكري القادم «بالمحاضر»[1] والمقبوض عليهم. وأخذنا نطالع الأوراق قبل أن نستدعي أمامنا المتَّهمين. وجعلت من نصيبي ثلاث قضايا واستصغرت ملفّاً ألقيت عليه نظرة سريعة وأعطيته مساعدي وأنا أقول له: «سرقة كوز ذرة، لن نعثر لك على أسهلَ من مثل هذه السرقة. سَلْ هذا المخلوق فستجده معترفاً في أمان الله». ويبدا الاضطراب قليلاً على المساعد: فهذه أوَّلُ مرَّةٍ يَسْتَجْوبُ فيها مُتَّهَمًا. وتناول من يدي المحضر. وجعل يقرؤه كلمة كلمة. ويعيد قراءة هذه «القسائم» التي لم تزد على الخمس. وفرغت أنا من أمر نصيبي البالغ أضعاف ما عنده، وهو ما زال منهمكاً في

(*) من كتاب «يوميّات نائب في الأرياف» (المطبعة النموذجية، القاهرة) ص ٦٣ - ٧٠.

(١) المحاضر: جمع محضر وهو الدفتر الذي تقيد فيه اقوال المتهمين.

إعداد ملخصات وافية، وملخَّصات للملخَّصات، وأسئلة معدة إعداداً كأنها قنابل ستلقى في صدر سارق «كوز الذرة». فكتمت ضحكي. أنا أيضاً في مستَهلِّ حياتي القضائية كنت أفعل فعله. ولقد قسا عليَّ القدر أشدّ ممّا قسا على هذا الشاب، فنكبني بقضية تزوير معقَّدة كانت هي أول عهدي بالتحقيق. ولست أنسى اضطرابي وقتئذ وقد مَثل أمامي المتَّهم المزوِّر بطول باعه وذلاقة لسانه واعتياده المثول أمام القضاة: فذهبت الأسئلة المجهَّزة من رأسي ولم أدر ما أقول. وانتظر الرجل واقفاً في هدوء أن أفتح فمي أو يفتح الله عليَّ بسؤال، وتصبَّب مني شبه عرق وأنا أرى المتَّهم أحسنَ مني حالاً وأربطَ جأشاً وأقوى امتلاكاً لأمره، وخُيِّل إليَّ أنَّه يسخر منِّي في دخيلة نفسه. وكان كاتب التحقيق رجلاً قديماً ذا مِران طويل، صادف في حياته، ولا شكَّ عشرات من المساعدين الجُدُد أمثالي. عرف ما بي فأسرع يعاونني ويلقِّنني ما ينبغي أن أبدأ به من أسئلة، وأنا أتقبَّل منه المعاونة بأنفةٍ وكبرياء، دون أن أُظهر حاجتي إلى تدخّله. وأمثال هذا السكرتير الهرم من ذوي الحق المغموط[1] والفضل المجهول كثيرون. وقد سمعت أحدهم يقول لي مشيراً إلى بعض من كبار رجال القضاء: «علّمناهم الشغل ومَشْوا وارتفعوا وبقُوا قضاة ومستشارين، والواحد منّا واقف في مطرحه لا يكبر ولا يصغر، زي جحش السبخ[2]!» تذكرت كلَّ هذا وأنا أنظر إلى وجه مساعدي. ورأيت أن أتعهد خطاه الأولى بنفسي، فطلبت إليه أن ينحِّي جانباً هذه الملخَّصات، وأن يضغط بإصبعه على الجرس ففعل، وظهر الحاجب بالباب فأمرته بإحضار المتَّهم الأول، فدخل فلاَّح كهل قد برز من صدره شعرٌ أزرق أشيب كأنَّه شعر ضبع مُسِن[3]؛ وقلت للمساعد أن يوجِّه ما يحضره من

(١) غمطه حقه: أنكره وجحده.

(٢) أي الجحش الذي ينقل السباخ أي الزبل باللهجة المصرية.

(٣) الصواب أن يقول «مسنّة» لأن الضبع مؤنثة.

أسئلة ولا يخاف، وأنا أعينه إذا توقف، فاحمر وجه الشاب وتردد، ثم تجلد ونظر إلى المتهم وسأله:

- أنت سرقت كوز الذرة؟

فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح:

- من جوعي!

فنظر المساعد إليَّ وقال في لهجة الانتصار:

- اعترف المتَّهم بالسرقة!

فقال الرجل في بساطة:

- ومن قال إني ناكر، أنا صحيح من جوعي نزلت في غيط[1] من الغيطان، سحبت لي كوزاً...

ووقف القلم في يد المساعد، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك. والتفت إليَّ يستنجدني، فنظرت إلى الرجل سائلاً:

- سين، يا رجل لماذا لا تشتغل؟

- جيم، يا حضرة البك هات لي الشغل، وعيب عليَّ إن كنت أتأخر. لكن الفقير منَّا يوماً يلقي، وعشرة ما يلقى غير الجوع.

- أنت في نظر القانون متهم بالسرقة.

- القانون يا جناب البك على عيننا وراسنا. لكن برده[2] القانون عنده نظر ويعرف أني لحم ودم ومطلوب لي أكل.

- لك ضامن يضمنك؟

- أنا واحد على باب الله.

- تدفع كفالة؟

- كنت أكلت بها.

- إذا دفعت يا رجل خمسين قرشاً ضمان مالي يفرج عنك فوراً.

---

(١) الغيط: الحقل.

(٢) برده في اللهجة المصرية تعني أيضاً.

- خمسين قرش! وحياة راسك أنا ما وقعت عيني على صنف النقدية من مدَّة شهرين. التعريفة[1] نسيت شكله، ما أعرف إن كان لحد الساعة (مخروم)[2] من وسطه والا سدّوه.

فنظرت إلى مساعدي وأمليت عليه نص القرار:

- «يُحْبَسُ المتَّهم احتياطيًا أربعة أيام ويُجدَّد له ويُعمل له فيش وتشبيه[3]». اسحبه يا عسكري!

فقبَّل الرجل كفَّه وجهاً وظهراً حامداً ربَّه:

- وماله. الحبس حلو. نلقى فيه على الأقل لقمة مضمونة. السلام عليكم!

وخرج الرجل يدبّ وقد وُضع في معصميه القيد. واطمأن مساعدي واستراح باله بذهاب متَّهمه.

وطلبت القضية التالية، فظهر العسكريُّ ومعه آخر وفتحا باب مكتبي على مصراعَيه، وجُذِبَ داخل الحجرة أكثر من ثلاثين رجلاً وامرأة وولداً قد شُدّوا في حبال من الليف، إذ لم يجدوا في المركز لكل هذا العدد قيوداً حديدية. فما تمالكت أن صحت لمنظرهم:

- الله أكبر! مواشي طالعة سوق السبت؟ حُل الحبال يا عسكريّ!

- فقال الحارس وهو يحل بأسنانه عقدة حبل:

- فتَّشنا يا سعادة البك بيوتهم وجدنا فيها الممنوعات. وباقي غيرُهم من أهل الناحية تحت التفتيش والقبض بمعرفة حضرة الملاحظ وأورطة الهجَّانة![4]

---

(١) التعريفة: عملة تساوي نصف قرش.

(٢) مخروم: مثقوب.

(٣) فيش وتشبيه: بطاقة توضع عليها صورة المتَّهم وبصماته.

(٤) الأورطة: الفرقة، والهجَّانة: الذين يركبون الجمال.

فأدرت بصري في هؤلاء الآدميين. واستعدت في مخيلتي ما قرأته الساعةَ عن تهمتهم في الأوراق التي أمامي وقلت:

- ممنوعات!

فاستدرك الحارس:

- الملبوسات يا فندم.

نعم. إن ما قرأت الساعة هو أنَّ سيَّارة كبيرة كانت تحمل أكياساً ضخمة، مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفية من معاطف وسُتر وسراويل، وكذلك أنواعٍ من الاحذية الجلدية لحساب مَتْجَر في القاهرة من المتاجر الشهيرة، وكانت تجتاز ليلاً بكل هذا جسر الترعة[1] المحاذية لدائر الناحية؛ فسقط منها في الماء كيس كبير مفعم بألوان الملابس، ولبث الكيس في أعماق الترعة حتى انخفض منسوبها وانحسر الماء عن البضاعة فهُرعَتْ تلك البلدة العارية إلى الكنز الذي لا يُشابهُ كلَّ الكنوز. وتسابقَت الأيدي إلى الكيس الراقد في الطين تجذب من بطنه ما تصل إليه، فإن كان سروالاً من الصوف لُبِسَ في الحال فوق الجلباب الأزرق، وإن كان معطفاً من الجوخ دخل فيه الرجل (بحرامه)، وإن كان حذاء لامعاً وضع في الأقدام بغير جوارب. ومضت البلدة تجري في الطرقات فرحة مهللة: «الكساوي في البحر[2]، الكساوي في البحر...»، إلى أن رآهم رجال الحِفْظ واستكثروا عليهم النعمة وعدُّوها بالنسبة لهم «ممنوعات» واستغربوا أمرها واستكشفوا سرَّها...

ورأيت أول الأمر أن أسألهم جملة، علَّني أظفر باعتراف يُيَسِّر عليَّ مُهمَّتي. فألقيت عليهم نظرة شاملة:

- سرقتم الملابس؟

---

(١) الترعة: القناة المتفرعة من النهر.

(٢) الكساوي: الألبسة (الملابس)، والبحر هو نهر النيل.

فأجابني من بينهم صوت عميق رزين:

- أبداً والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة؛ البحر رمى علينا الكيس وكل واحد منَّا طال نصيبه.

فقلت للرجل من فوري:

- نصيبه؟ هو الكيس ملك البحر والاَّ له أصحاب خواجات!

فأجاب الرجل في صوته العميق الهادىء:

- راح من بالنا أن له أصحاب ياحضرة البك، ربَّنا يعلِّي مراتبك، ارأف بحال الفلاحين المساكين!

- المسألة مسألة قانون. والقانون صريح: إنَّ كل من وجد شيئاً مملوكاً للغير وحفظه بنية امتلاكه يُعامَلُ معاملة السارق. فهمتم؟

- فهمنا يا حضرة البك لكن... بقى... الكساوي كانت قدَّام نظرنا، ورماها البحر علينا، والواحد منَّا من غير مؤاخذة - عريان...

- أنت يا رجل فاكر الدنيا فوضى، والاَّ فيه قانون وحكومة!

ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال:

- بقى هي الحكومة لا منها ولا كفاية شرَّها؟! لا كستنا ولا تركتنا ننكسي!

- أنا مضطر إلى أن أحبسكم.

- يا جناب البك، انتم فتَّشتم دورنا وسحبتم الكساوي منَّا؛ والعيال الفرحانة عادت تبكي، ورجعنا لأصلنا لا لنا ولا علينا، يبقى الحبس له لزوم؟!

- أفرج عنكم بضمان مالي.

- مالي؟! الفلاحين عرايا يا حضرة النايب!

- تفضلوا من غير مطرود! دماغي وجعني، والمناقشة مع أمثالكم ضياع وقت. القانون صريح وأنا مقيَّد بنصوص أشد من الحبال الموضوعة في أيديكم؛ المسألة عندي قبل كل شيء مسألة قانون. «يحبس المتهمون كلُّهم احتياطيا أربعة أيَّام، ويجدَّد لهم، ويعمل لهم فيش وتشبيه» أسحبهم يا عسكري!

فخرجوا جميعاً في صف طويل وفي ذيلهم رجل يقول هامساً:

- يحبسونا لأن ربَّنا كسانا!

وهدأ المكان. ولكن رائحة كريهة انتشرت في الحجرة، فناديت الحاجب وأمرته بفتح النوافذ، ففعل، وهو يلعن بصوت خافت هذا الجاموس الأبيض الذي لا ينبغي إدخاله حُجُراتِ الحكومة.

مناقشات وتمرينات

١ - هنالك قضيَّتان في هذه القطعة، فهل من فرق بينهما؟

٢ - كيف صوَّر الحكيم حيرة مساعد النائب لأوَّل مرَّة يحاول فيها توجيه أسئلة للمتَّهمين؟

٣ - هل يريد الحكيم تصوير الأوضاع التعسة التي يعانيها الريفيون أو أن يسخر من القانون وواضعيه؟

٤ - علِّق على القولين الآتيين:

(آ) بقى هي الحكومة لا منها ولا كفاية شرَّها؟!

(ب) سحبتم الكساوي منَّا، والعيال الفرحانة عادت تبكي، ورجعنا لأصلنا لا لنا ولا علينا، يبقى الحبس له لزوم؟

٥ - أين تجيء سخرية الحكيم في ذروتها: في العبارات؟ أو في المفارقة بين منطق الريفيين والقانون؟ أو في مواطن أخرى؟

٦ - ما رأيك في مستوى لغة الحوار في هذه القطعة؟

- ٣١ -

إسماعيل يتحدّى المجتمع

ليحيى حقّي *

ولكن أين فاطمة النبوية؟ أقبلتْ فإذا أمامه فتاةٌ في شرخ الصِّبا[1]، ضفيرتاها وأساورها الزجاجيّة الرخيصة، وحركاتها وكل ما فيها وما عليها يصرخ بأنها قَرويةٌ من أعماق الريف. هل هذه هي الفتاة التي سيتزوجها؟ علم منذ اللحظة أنّه سيخونُ وعده وينكث عهده. وما لها معصوبةَ العينين؟ فهي ترفع ذقنها لتستطيع أن ترى وجهه. لم يَدَعْها الرمدُ منذ سافر، وساء حالها يوماً بعد يوم.

وأُعِدّ العَشاء وجلسوا، ولعلّهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم من الخشب الأبيض[2]. لم يأكل أحد، لم يأكلوا هم من حدّة الفرح، ولم يأكل هو من صدمة اليَقَظَة. اعترف لي إسماعيل فيما بعد بأنّه حتى في اللحظة التي كان يجب أن تَشْغَلَه سعادةُ العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد، لم يملك نفسه عن التساؤل: كيف يستطيع أن يعيش بينهم؟ وكيف سيجد راحته في هذه الدار؟

(*) من قصة «قنديل أم هاشم» (سلسلة اقرأ رقم: ١٨، دار المعارف بمصر) ص ٣٩ - ٤٦.

(١) شرخ الصبا: ريعان الصبا.

(٢) الخشب الأبيض يكون عادة رخيصاً.

وأعــدّ الفراش، وأبى الشيخ رجب إلاّ الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر. وهذه أمه تجذب نفسها جذباً وتهمّ بتركه، ولكنها تُشير إلى فاطمة وتقول:

- تعالَي يا فاطمة قبل أن تنامي أقطر لك في عينيك. ورأى إسماعيل أمّه وفي يدها زجاجةٌ صغيرة، وترقُدُ فاطمة على الأرض وتضع رأسَها على ركبة الأم، فتسكبُ من الزجاجة في عينيها سائلاً تتأوّه منه فاطمة وتتألم.

سألها إسماعيل:

- ما هذا يا أمّي؟

- هذا زيت قنديل أم هاشم. تعودت أن أقطر لها منه كل مساء. لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديري إنه يذكرك ويتشـوّق إليك. هل تذكره؟ أم تراك نسيته؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع. أليس من العجيب أنّه وهو طبيب عيون، يشاهد في أول ليلة من عودته، بأية وسيلة تُداوى بعضُ العيون الرُّمْدِ في وطنه؟...

تقدّم إسماعيـل إلى فاطمـة فأوقفهـا، وحلّ ربـاطها وفحص عينيها، فوجد رَمَـداً قد أتلف الجفنين وأضرّ بالمقلة، فلو وُجِـدَ العلاجُ المهدِّىء المسكّن لتماثلت للشفاء، ولكنها تسوء بالزيت الحارّ الكاوي.

فصرخ في أمّه بصوت يكاد يمزّق حلقه:

- حرام عليك الأذيّـة. حرام عليـك، أنت مؤمنة تصلّين، فكيف تقبلين أمثالَ هذه الخُرافاتِ والأوهام؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها، تحاول أن تتمتم ولا تُبين.

ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب، في جلبابٍ أبيضَ قصير، وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مُربَدّ. هل يتوقّع قلبه الحنون مكروهاً؟

ماذا؟ لعلّ في تصرّفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ في نفسه منذ اللحظة الأولى بعضَ الريبة. ما هذا الصراخ؟ ماذا حدث؟

ونطقت أمّه تستعيذ بالله وتقول له:

- اسم الله عليك يا ابني. ربّنا يكملك بعقلك. هذا غير الدوا والأجزا[١]. هذا ليس إلاّ من بركة أم هاشم[٢].

وإسماعيل كثور هائج لوّحت له بغلالة حمراء.

- أهي دي أم هاشم بتاعتكم هي اللي حَ تجيب للبنت العمى. سترون كيف أداويها فتنال على يدي أنا الشفاء الذي لم تجده عند الست أم هاشم.

- يا ابني ده ناس كتير بيتباركوا بزيت قنديل أم العـواجز. جرّبوه وربنا شفاهم عليه. إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم. ده سرّها باتع[٣].

- أنا لا أعرف أمَّ هاشم ولا أمّ عفريت.

هبط على الدار صمتٌ مُـقْبِـضٌ كصمت القبور. في هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد[٤]، وصدى الأذان، كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت، ثم أطرقت وانطفأت، وحلّ محلّها ظلامٌ ورهبة... لا عيشَ لها مع هذه الروح الغريبة التي جاءت لهم من وراء البحار.

وسمع صوت أبيه كأنّما يصل إليه من مكان سحيق:

- ماذا تقول؟ هل هذا كلّ ما تعلّمته في بلاد برّه؟ كلّ ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً؟

---

(١) الأجزا: الدواء (لفظة تركية).

(٢) أم هاشم: السيدة زينب من آل البيت ولها مقام معروف في القاهرة.

(٣) سرّها باتع: أي بركتها نافذة.

(٤) الأوراد: جمع ورد وهو النصيب الذي يقرؤه المرء من القرآن أو «الحصة» التي يردّدها من الدعاء.

كلّ ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدلّ على أن المرض العصبي القديم قد عاوده فجأةً، وانفجر بشدّة من جديد. فَقَدَ وعيَه وشعر بحلقه يجفّ، وبصدره يشتعل، وبرأسه يموج في عالم غير هذا العالم. شبّ على قدميه واقفاً. لا شكّ أن في نظرته ما يُخيف، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه. هجم إسماعيل على أمّه يحاول أن ينتزع منها الزجاجةَ فتشبّثت بها لحظة، ثمّ تركتها له، فأخذها من يدها بشدّة وعنف، وبحركة سريعة طوّح بها من النافذة.

وكان صوت تحطّمها في الطريق دَويّ القنبلة الأولى في المعركة.

ووقف إسماعيل حائراً لحظة، له نظرةٌ تجوبُ ما حوله وتتنقّل من وجه أمّه وفاطمة إلى وجه أبيه. وجد إشفاقاً وعطفاً، ولم يجد تسامحاً وفهمًا. ربّما استشفّ في نظرتهم بعضَ الرعب فتزايد هياجاً، وانطلق إلى الباب، وفي طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثمّ هرب من الدار جرياً، لن ينكص[1] عن أن يطعن الجهل والخرافة في الصميم طعنةً نجلاء[2] – ولو فقد روحه.

أشرف على الميدان[3] فإذا به يموج كدأبه بخلق غفير، ضُربت عليهم المسكنةُ، وثقلت بأقدامهم قيودُ الذلّ. ليست هذه كائناتٍ حيةً تعيش في عصر تحرّك فيه الجماد. هذه الجموع آثار خاوية محطّمة كأعقاب الأعمدة الخربة ليس لها ما تفعله إلاّ أن تعثر بها أقدامُ السائر. ما هذا الصَّخَبُ الحيواني؟ وما هذا الأكل الوضيع الذي تلتهمه الأفواه؟ يتطلّع إلى الوجوه فلا يرى إلاّ آثارَ استغراقٍ في النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون. . .

(١) ينكص: يتراجع.
(٢) نجلاء: واسعة.
(٣) ميدان السيدة زينب في القاهرة.

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كلّ واحد منهم وهزّه هزّة عنيفة وهو يقول:

– استيقظ، استيقظ من سباتك[1] وأفق، وافتح عينيك. ما هذا الجدل في غير طائل؟ والشقشقة والمهاترة في سفاسف[2]؟ تعيشون في الخرافات، وتؤمنون بالأوثان، وتحجون للقبور، وتلوذون بأموات.

وعثرت قدمه بطفلٍ مُلْقًى على الرصيف، والتفّ حوله جموعٌ من الشحاذين يعرضون عليه عاهاتٍ يرتزقون منها رزقاً حلالاً كأنها من نعم الله عليهم، أو مِهَنٌ وصناعات.

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تُطبق على صدره، وتكتم أنفاسه، وتبهظ أعصابه. يصطدم به بعض المارّة كأنهم عُمْيٌ يتخبّطون. هذا الرضا عجز، وهذه الطيبة بلاهة، وهذا الصبر جبن، وهذا المرح انحلال.

انفلت إسماعيل من الزحام وجرى إلى الجامع ودخله، واجتاز الصحن إلى الحرم. المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة[3]. هذا هو القنديل قد علق الترابُ بزجاجه واسودّت سلسلته من (هبابه)[4]. تفوح منه رائحةُ احتراقٍ خانقةٌ. أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء. هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل. يحوم في سقف المقام خفاش اقشعرّ له بدنه. حول المقام أناس كالخُشُب المسندة، وقفوا مشلولين متشبّثين بالأسوار، فيهم رجل يستجدي صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه إسماعيل، وإنّما وعى أنه يستعديها[5] على خصم له، ويسألها أن تخرب بيته وتيتّم أطفاله؛

(١) السبات: النوم.
(٢) الشقشقة: الإكثار من الكلام؛ السفاسف: توافه الأمور.
(٣) أي عطور نفّاذة كالتي يستعملها سكان شمالي السودان (البرابرة).
(٤) الهباب: ما يتراكم من السناج (الشحبار) بسبب دخان القنديل.
(٥) يستعديها: يستعينها لتنصره.

والتفت إسماعيل إلى ركن في المقام فوجد الشيخ درديري يناول رجلاً معصوبَ الرأسِ بمنديل نسائيّ زجاجةً صغيرةً في حِرْصٍ وتستّر، كأنما هي بعضَ المهرّبات. لم يملك إسماعيل نفسه.... فقد وعيَه، وشعر بطنينِ أجراسٍ عديدة، وزاغ بصرُه، ثم شبّ، وأهوى بعصاه على القنديلَ فحطّمه، وتناثر زجاجه، وهو يصرخ:

- أنا.. أنا.. أنا...

ثمّ لم يستطع أن يتمّ جملته. (من يدري ماذا كان سيقول؟) هجمت عليه الجموع، وتهدّمت فوقه، فخرّ على الأرض مُغْمىً عليه. ضربوه وداسوه بالأقدام، وجُرِحَ رأسُه، وسال الدم على وجهه، ومُزّقت ثيابُه.

مناقشات وتمرينات

١ - ما الذي جعل اسماعيل يحسّ بالغربة وهو في بيته؟

٢ - هل من مصلحة القصة أن يقول القاص «اعترف لي إسماعيل فيما بعد» أو أن يجعل بطل قصته مصاباً بمرض عصبي يعاوده في الأزمات؟

٣ - صف «الوضع الإنساني» حسبما تمثّل لإسماعيل بين بيته ومقام السيدة زينب.

٤ - ما الخطأ الذي ارتكبه إسماعيل حين حاول أن يطعن الجهل والخرافة؟

٥ - هل ترى من الضروري أن تكون لغة الحوار لدى الناس غير المثقفين دائما باللّهجة الدارجة؟

-٣٢-

مطاردة منتصف الليل ليوسف الشاروني *

-١-

كان ذلك عند هبوط المساء الا قليلاً، حين كنت أبحث عن شيء أحكّ به جسدي، وكانت الليفة هي حاجتي الحقيقية للخلاص مما أنا فيه، وانا أؤجل ذلك من يوم الى يوم، حتى أدركت أخيراً ان الأمر أصبح ضروريا لا مفر منه...

ولقد صدق حَدْسي حين هبطت الطريق التي توسمت انهم يبيعون فيها أمثال هذه الحاجات، فقد عثرت أخيراً على الليفة الأخيرة في دكان بائع متآكل الأنف، وكانت ليفة كبيرة في غير نفع، فهي ممزقة كئيبة ومليئة بالثقوب كأنما أكلتها الفئران... ولكني لا أحب الجولان في الطرق، وأخشى أن تثير كثرة السؤال شبهة حولي، كما اني ما أحب أن أعود من رحلتي فارغ اليدين. فدفعت الثمن في غير جدل، ولاحظت البائع وهو يلفها لي في كثير من ورق الجرائد في عجلة وبغير كبير عناية ثم يمد قامته نحوي قليلاً ويدسها تحت أبطي.

فلما خرجت وسرت وجدتني - وعلى بعد خطوات قلائل - أمام واجهة زجاجية تزدحم خلفها أدوات مختلفة وكثيرة للزينة، فبدا لي أن أقف لأُسرّح فيها البصر. وكانت زجاجات العطور وألوان الصابون

(*) هي أول قصص مجموعته القصصية بعنوان «مطاردة منتصف الليل» (سلسلة اقرأ رقم ٣٦٤، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٣).

وأرقام الأسعار تنتشر وتنتصب وتستلقي، والى جانبي معطف من الفراء يطل منه وجه حسناء وتنبعث منه رائحة نفاذة، وشاب يحادثها وهما يتصنعان تأمل العطور والصابون والأسعار ثم يلتفتان يَمْنَةً ويسرةً كأنما في حذر. فلما دلفا داخل الدكان أحسست ان شيئاً يشدني بخيوط لزجَةٍ نحوه كأنه المادة الكريهة المتراكمة على جسدي. ولم أدرك ذلك الشيء في أول الأمر، لكن حين استدرتُ لأعبر الطريق وسط زحمة السيارات والناس، كنت قد امتلأت رغبة عنيفة في الاختفاء، فأسرعت نحو طريق يهدأ فيه النور قليلاً وتهدأ فيه الحركة كثيراً، ولما أصبحت على مَبْعَدَة من هذين الشخصين استدرت خلفي فجأةً، وكان الطريق يكاد يكون خالياً، الا أني كنت مُوقِناً أن ثمة عينين لَزِجَتين تنتظراني في مكان ما وتتعقبان طريقي لسبب ما .

فانحنيت نحو أحد الشوارع الخلفية، وكانت اللفافة تعوق حركتي وهي تحت إبطي، فنقلتها الى يدي اليمنى، وهكذا أصبحت أكثر حرية. ثم أصبحت أكثر انحناء وأسرع مشياً وأنا أخطو في حذر الى جانب المنازل الضيقة المتراكمة المعتمة، باحثاً عن طريقة للفرار. غير ان طريقي الضيق سرعان ما أفضى بي الى آخر متسع، يضجّ بالنور الباهر والحركة والناس والعطور، وينعكس الوهج على عيني ويملأ العطر أنفي، وأحسست بجسدي يخوض في قطع اللحم المتحركة المسرعة المتعطرة، وأدركتُ أيةَ سهولة يجدها في مهمتهم من يقتفون أثري حين ينتشرون في هذه الزحمة الكبيرة المتسعة. وهكذا أشرتُ الى سيارة من سيارات الأجرة، فلما انحنى بها سائقها نحوي لمحته يتردد قليلاً، وحين وقفت سيارته أمامي تماماً أخذ يفحصني بريبة وينظر الى اللفافة في يدي، فأدركتُ أن ثَمّةَ ما يقلقه مني، وفكرت أن أفتحها له وأريه ان ما بداخلها ليس سوى ليفة مما يَسْتحم بها الناس، غير أنه لم يكن ثمَّة مجالٌ للنقاش، فلوحتُ له بحافظتي، وفي لمحةٍ كنت قد أغلقتُ بابها على نفسي وجلست وحيداً وأمامي سائقي الأسود.

وكان عليه أن يتجه الى مكان ما ، وكان هذا غريباً وضرورياً وصعباً للغاية. فأين يمكن أن أختفي في غير هذه السيارة؟ ولكن السيارة كانت منخفضة للغاية وجسدي منحنياً في داخلها كأنما أتأهب للصلاة بغير أن أصلي. ولقد كرر السائق سؤاله عن الجهة التي أقصدها وهو يلمحني في مرآته التي أمامه منبعجاً الى هذا الحدّ الفظيع في سيارته الصغيرة الخانقة. فلما عبرنا طريقين مزدحمين وتأهبنا للانحناء في طريق ثالث أحسست السيارة ترتجّ فجأةً كأنما تزلزلت الأرض تحتها، وسمعت صوتاً مزعجاً،صوتاً غير إنساني ينبعث من أسفل سيارتي. ولمحت رأس السائق كأنما تتأرجح في الهواء، بينما اصطدم جانب السيارة بشدة في ذراعي اليمنى حتى لقد حَسِبْته قد أصبح كتلة خالصةً من دمٍ متجمد؛ فلما أطللت من زجاج النافذة المرضوض وجدت ما يشبه بقايا رجل كأنما أُجبر على أن يزحف بنصفه الأسفل تحت عجلات السيارة، والدم ينزف من ذراعه اليمنى، والقوم يتجمعون ويتفرجون وينزعجون. وخُيِّل لي أن ذراعي أنا أيضا - وبغير حق - تقطر دماً. فامسكتها بيدي الأخرى وأنا أضغط اللفافة بينهما. وكان عليّ أن أجد مخرجاً، وأنا أنظر في عيني سائقي، وهو مشغول بالإجابة على غضب الجماهير التي تزاحمت حتى أصبح مجرد انتسابي الى السيارة شيئاً خطراً للغاية. . . وهكذا كان علي أن أتخلى عن سائقي في هذه اللحظة الحرِجة من حياته لئلا يكتشفني أحد الذين يتعقبونني ويجدون الفرصة ملائمة لهم، فيشركونني في اتهام لا يد لي فيه، وهكذا حملت لفافتي وتسلّلت من السيارة وأنا أحس ارتجاجاً في ذراعي حياً ومؤلماً وفظيعاً للغاية. وتركت سائقي وحيداً وله في عنقي بضعة قروش لم أدفعها له، واتجـاه لم أخبره عنه، ومعونة ما قدمتها له، ونظرات الذعر في عينيه لا تمحي من عيني.

وكان علي ألا أستسلم وألا أسلّم أبدا لمطارديّ. لهذا عندما وجدتني أمام باب للسينما وفي مقابل الجمهور المزدحم تماماً، عرجت

ناحية النافذة الحديدية المربعة، حيث جلست عجوز مصبوغة الألوان تقضم أظافرها وتتأملها في سرعة وقلق، فانحنيت واشتريت منها تذكرة بغير أن أعرف أي الأفلام سأرى ومن ذا الذي سيجلس على المقعد التالي بجواري. وحين انحنيت وأنا داخل من الباب المنخفض لمحت قاطعَ التذاكر يهمس شيئا في أذن زميله، ولا ريب ان اللفافة أثارت شيئا من ريبة في نفسيهما، مما أحزنني حزناً شديداً، لأني كنت واثقاً انه اذا قُدِّر لأحد ممن يقتفون أثري أن يسألهما عني فلا شك انهما يستطيعان تذكُري ويدلانه على رقم مقعدي.

وكان الفيلم قد بدأ وأنا داخل على أطراف أصابعي، والأشياء تبرز قليلاً قليلاً من العماء التامّ الذي واجهني حين دخولي. وحين أصبحت أكثر أُلْفَةً مع العتمة، لمحت سقف القاعة يكاد ينحني فوق الناس وقد ازدحموا ازدحاما لا مثيل له كأنهم مذعورون يلجأون من غارة. وقد حُشِرْتُ بين رجلين عن يميني يتحدثان بصوت خفيض كأنما يقلقهما أمر، واحدهما دائم التَّمَخُّط، وسيدة عن يساري تحكّ ذراعها وهي تهمس شيئاً في أذن زوجها على ما يبدو، مما أغراني لحظة أن أحك أنا أيضا ظهري المتلبّد بالعرق، ولكني ما كنت لأجرؤ على ذلك لئلا ألفت الأنظار وأبعث الاشمئزاز من حولي. وكان في همسها شيء من كآبة كأنما انتُزِعَ ابنٌ بالامس منها. اما وجودي المفاجىء فيبدو أنه قد أثار حولي شَيْئاً من التأفُّف لأنني أحدثت شَيْئاً من ضجة وقطعت عليهم صمتهم وإنصاتهم كأنما أزيز الطائرات فوقهم.. ولا شك أن الجالس خلفي كان سيء الحظ تماماً، فقد سمعته يبدي بعضَ التبرم، ويهمهم بكلام غير مفهوم راجياً أن يصلني منه شيء، فقد كان يبدو أنه قصير القامة وعليه أن يميل إنْ يميناً وإن يساراً إذا حرص ألّا يفوته انتحار أحد أبطال القصة، ولقد انتحر البطل فعلاً، ولكنه لم يكن البطل الرئيسي بطبيعة الأمر: الواقع أن هذا كان البداية فقط. وكان مقعدي منبعجاً الى الامام قليلاً بحيث أكاد انكفىء على وجهي، في

أحد جانبيه انخفاض شديد، وحين حاولت ان أعدّل من جلستي المضنية سرت طَقْطَقات في المقعد وانتشرت حتى آذت القوم من حولي واحسستها تسري في أسناني، فآثرت أن أظلّ ساكناً لا ألتفت يمنةً ولا يسرةً منحنياً الى الأمام متشبثاً حتى النهاية بمسندي مقعدي. وبينما كانت السيدة تحك الآن فخذها بأظافرها الطويلة المصبوغة وبصوت خشن مسموع كان البطل الحقيقي يطبع قبلة على شفتي حسناء تصاحبهما موسيقى عاطفية حالمة. وفجأة وعلى الشاشة، بدأ ضجيج موسيقى كتفجّر القنابل، والسيدة الى جانبي ما تنفك تحك ساقها اليمنى، ثم تمسك منديلا به تجفّف دمعتين، فلا ريب أن البطل كان يستحق كثيرا من الرثاء، بحيث لم أستطع أنا أيضاً أن أمنع عن نفسي احساسا فجائياً بالكآبة. فلما لمحت زوجها يشاركها دموعها أدركتُ أن شيئاً هنا - مريرا كئيباً - يمس حياتهما.

غير ان هذا لم يكن كل شيء، فقد كانت النهاية السعيدة مقبلة بلا ريب، فرغم هذا الخطر الحقيقي الماثل، ورغم هذه الكآبة الضرورية الفجائية، فقد كان يملأني ايمان أستمده من كثرة الأفلام التي رأيتها من قبل ان هذا ليس إلا السبيل الى الاحساس بالنصر الحقيقي السعيد. وهكذا سرعان ما انشرحت الأسارير - التي اكتأبت مدى ثمانين ثانية كاملة - ثم ضجت القاعة بتصفيق متقطع أجوف، وقهقهات منبعثة من أماكن بعيدة ومجهولة، والرجل ماضٍ يحدث صديقه حديثاً هاماً، أكثر أهمية عما كان عليه من قبل، بحيث مال تماماً على أذنه وأصبح خفيضاً ومتصلاً وجدياً.

وكان يبدو أن البطل يبحث الآن عن حسنائه ليقبلها القبلة التقليدية الختامية على ما أعتقد، أو لعله سيبدأ معها دوراً جديداً من أدوار القصة، غير أن صوت الأظافر الخشن عن يساري، وحركة الرجل القصير القلقة من خلفي، وتوقعي وجود شخص أو أشخاص حولي ممن يبحثون عني، وتمخّط الرجل عن يميني، ثم مقعدي المنحني

المتكسر كأنما سيهبط بي نحو الأرض في كل لحظة - كل ذلك جعل المدة التي عشتها في هذا المكان كافية تماماً، والعتمة والأنفاس الحارّة والصمت والتوقع - جعلت مغادرتي لهذا المكان حاجة ضرورية وجدّية للغاية.

-٢-

فلما خرجت أُهَرْول قبل أن تفرز السينما جمهورها، كانت الطرق قد ازدادت إظلاماً، والناس يمشون في حَذَر فرادى بجوار الحوائط، كأنما سيلتقون بفاجع عند نهاية الطريق، أو هم يتدحرجون على حافة الأرصفة تماماً كأنما يعدون خطواتهم، وقد وجدتني أسير خلف رجلٍ أعرج وأنا أعدّ خطواتي أيضاً كأنما اقيس بها الطريق، وكان الأعرج يهرول وقد جذبني خلفه وفي دائرته، بحيث حرصت - وبغيرأن أحرص- على أن أبقي المسافة بيننا بلا زيادة ولا نقصان، فاضطررت أن أهرول مثله، ولما تنبهت الى ذلك أشعتُ الاضطرابَ عامداً في سيري، وأسرعتُ قليلاً في خطوي، فقد خشيت أن يحسبني الرجل أني أتبعه، وما كنت احبّ ان اعرضه لمثل هذا الإحساس المحيرّ الخانق، فعبرته ومضيت أسير أمامه حتى أُثبت له حسن نيتي، وأن الأمر كان مجرد صدفة خالصة وليس ثمة خطة مُبَيَّتَة على الإطلاق. وهكذا رَضيتُ لحظةً عن نفسي لأني قد أكون أزحتُ عنه احساساً لا شك أنه لَازمه لحظةً، فها أنا الآن أسير أمامه وها هوذا يخبّ ورائي مرتفعاً ومنخفضاً باستمرار، وها هي ذي المسافة بيننا تبتعد حتى لنكاد نفترق.

وكانت اللفافة ما تزال في يدي، وقد ضمرتْ وتهلهل بعضُ ورقها لقبضتي المتشبثة بها، الا أنها أصبحت مبعثاً حقيقيًّا للريبة والخطر، فان أحداً لا يمكن أن يدرك أبداً - وعلى وجه يقيني - ما بداخلها، فهي تثير للسائرين معي شَتى الظنون، حتى لقد فكرت أكثر من مرة أن أتخلى عنها وألقي بها في أقرب زاوية. إلا ان ذلك

كان أكثر خطراً بالنسبة لي: لئلا تستحيل ريبة العابر الى يقين، ويدرك أن شيئاً خَطِراً وفظيعاً حقا بها، مما يسبب لي مضايقات لا نهاية لها، وكنت أكافح كفاحاً هائلاً حتى أقتنع أخيراً - بلحظات معدودات - أن أحداً لا يهتم بما في يدي. وهكذا كنت بين شعورين متناقضين يتبادلانني الواحد بعد الآخر، كأنهما يدان متوحشتان تلطمانني على وجهي بالتناوب. فكنت أرى الناس ينظرون - ولا ينظرون - الى اللفافة.

فلما انزلقت في شوارع أكثر إظلاماً، كنت أسمع بين حين وآخر قهقهات وهمسات تنبعث من زوايا ومنحنيات مجهولة. وكنت أخشى دائمًا أن يصلهم وقع أقدامي فيحسبونني سأفاجئهم لأستجوبهم، فأفسد عليهم - وبمجرد هذا الشك الذي يصيبهم - لحظة من حياتهم. لهذا كنت أتعمد أن أضرب بقدمي الأرض، وبصوت واضح مسموع، حتى أعطيهم المهلة الكافية لتدبير أمورهم. ولكن ما إن بدا لي أحدب متآكل الوجه، يدخن سيجاراً على مهل وببطء عند بدء الطريق المفضي إلى الميدان التالي، حتى وجدتني أنكمشُ وأسرع وأخفّف من وَقْع قدمي، حتى لقد نظر الي في ارتياب، وصعّد بصره نحوي، مما زاد شكي أنه قد يكون في أثري أو في أثَر آخرين. فها هوذا شخص لا يخاف وقع أقدام في الليل، وفي مثل هذه المدينة المتسعة الكثيبة، ويدخن سيجاره بهدوء، وينظر الي فاحصا، حتى إذا ما استقر بصره على اللفافة احسست أنني أحمل في يدي خطيئة ملموسة وحقيقة يستطيع - إذا شاء - أن يدينني بها. وهكذا عشت ثلاثين ثانية فقط شخصاً يقتفي الناس، ثم سرعان ما أصبحت موضوع ذلك الاقتفاء.

وكان علي ان أجتاز ميداناً صغيراً قبل أن أصل الى الطريق النهائي... فسلكت جانبا كانت قد نصبت فيه مراجيح قلائل متفرقة ومهجورة غمرها صمت ووجوم. ورأيت على ضوء المصابيح الخافتة

ظلي الطويل ينعكس على أرض الميدان المغطى بالحشائش الجافة والتراب، حتى يصل الى ما وراء المراجيح. وثمة عابرون قلائل يتهامسون ويتلفتون، والأشجار الساكنة تلقي ظلالها كأنما في تراخٍ وملل. ولم يكن أمامي أن أختار، فقد كانت الظلمة هي ملجأي الوحيد، الظلمة التي يغور في نهايتها منزلي قابعاً ومستكيناً للفجيعة التالية... فمضيت أتدحرج وأصوات القوم تتقهقر في أذني شيئاً فشيئاً أمام نباح الكلاب المُخْشَوْشِن الجاف وهو يرتفع وينداح، وكان هذا علامة على اقترابي من منزلي. فلما سمعت صوت الكلب الأسود الضخم على السطح التالي لمنزلي ينطلق أجوف منخوباً في الظلمة أدركت أنني وجهاً لوجه أمام باب بيتي. وترامى الى سمعي وقع أقدام بعيدة، فلما تَلَفَّت لمحت ما يشبه الظل المتكوّر البعيد، ما ان رآني حتى انحنى نحو الأرض كأنما يبحث عن شيء مجهول، فتفرست أبحث لعل أحدا يتصنع التنزه حول جدران بيتي، أو لعل الظل أن يقترب متصنعاً السؤال عن طريق أجهله.

وكنت أعلم أن خادمتي «نور» لا بد أن تكون قد نامت منذ زمن بعيد، فها هي ذي قد أطفأت أنوار المنزل جميعه، وهي ما تعودت مني المجيء في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولولا مرضها لكانت قد ذهبت واشترت الليفة بنفسها، وكنت أحب ألاّ أزعجها، وكنت أدرك اني سأزعجها، وذلك عند محاولتي فتح الباب في مثل هذه الساعة من الليل، فهي - مثلي - رقيقة حساسة، تتوجس خيفة من كل طارق في الليل، فهي لن تسمع الحركة الحذرة للمفتاح في الباب حتى تهب مذعورة من نومها، ويزدحم رأسها بخليط رائع - أنا آلفه تماماً - من الأوهام والحقائق، وستكون الحركة الخافتة الحذرة هي أقرب الى حركة الغريب المتلصص منها الى حركة صاحب البيت المطمئن، وستعاني لحظة انتظار واستسلام هائلة كالقضاء. لهذا بدا لي أن أدخل البيت في حركة مسموعة مطمئنة. غير أن هذا أيضاً

لم يكن أقل خطراً من المحاولة السابقة. وفكرت أخيراً ألاّ ادخل على الإطلاق، وأنه من الخير لي ولها أن أفضل البقاء خارج بيتي. غير أن هذا التفكير لم يستمر أكثر من عشرين ثانية. فقد كانت هناك قلقلات بطيئة خفية تشرئبّ في الليل حولي، لا يخفيها تماماً نباح الكلب الأسود الضخم وانقياد بقية الكلاب له، فلا أنا أعرف مكانها بوضوح ولا هي تختفي تحت ستار هذا العواء المتصل المستديم. وكان نباح الكلب قد ارتفع واتجه نحوي - ومعه جوقة الكلاب الأخرى - متصلاً ومؤلماً عن ذي قبل، بحيث لا بد وان يثير ريبة السكان في وجود غريب يتلصص قريبا من بيوتهم... وهكذا اتضح لي أن محاولة البقاء خارجاً إنْ هي الا محاولة خيالية ليس من سبيلٍ الى تنفيذها. لهذا جمعت أطراف شجاعتي وأولجت مفتاحي في الباب فانفتح على الأثر، ودخلت وانا أتلمس الضوء بيد وأقفل بيد، في بطء و إنصات.

وأنصتُ... فسمعت مُوَاء قطتي ممطوطاً ومبحوحاً. فقلت لا شك أنها جوعانة، وان خادمتي المريضة السمراء ذات العين الواحدة قد نامت بغير أن تطعمها لما أَلَمَّ بها من تعب هذا النهار.

فما إن اضأتُ النورَ حتى وضعت اللفافة على المنضدة، وأسرعت أنزع الورق، ورقة ورقة، بغير أن أصل الا الى فراغ! فلا شك أن الليفة - واأسفاه - قد سقطت مني أثناء هذه المطاردة المضنية... وفكرت أين يمكن أن تكون قد سقطت. في السيارة أم في السينما أم في الطريق حين نظر الأحدب في ريبة نحوي؟ ولم أستطع أن أفهم شيئاً وما كان يمكن لي ان أتذكر أو أن أفهم... لقد كنت أحس بكتلتها داخل الورق حين اشتريتها وكذلك حين وقفتي أمام الواجهة الزجاجية... لكن متى بدأتُ أفقد الاحساس بكتلتها؟ ليس ثمة سبيل الى معرفة ذلك أبداً، هذا اللغز مجهول الى الأبد...

لقد كنت أُمنّي النفس بحمامٍ رائع هذه الليلة، حتى

التخلص من هذا العرق الذي يتسرب متلكئاً فوق جسدي، ويزحف في خطوط متعرجة من منابع تنضح باستمرار وبلا انقطاع، وحتى أنام - لأول مرة منذ ليالٍ - في سعادة عميقة. فأنا شخص عندما ينسكب الماء المتدفق أحس احساسات عظيمة ورائعة، وأقوم بمشروعات ضخمة وحقيقية، وتتفتح أمامي كل معاني الحياة المقدسة، وأتشبث بالأرض، وبالإنسان، وأحس أنني كائن عظيم وسعيد. فهنا، في الحمام، أدع الماء ينهمر فوقي حتى يتشربه شعري وعيناي وكل مَسامّ بدني، ويظل يعلو في داخلي احساس سماوي يرتفع شيئاً فشيئاً وأنا أصيح وأغني وأقفز، حتى أصل الى قمة فيها تقترن العظمة بالسعادة كأنما لأول مرة ولآخر مرة... وكانت هذه هي حاجتي الحقيقية الى الليفة في حياتي.

فألقيتُ نظرة جدَّ آسفة على هذا الورق الكثير الفارغ الراقد فوق المنضدة بلا منفعة، وعلى هذا الجهد الضائع الذي بذلته مخلصاً طوال هذه الرحلة الشاقة المضنية، وأدركت انني أمام قوىً تسلبني كل شيء وتفقدني في عراكي معها كل شيء حتى الليفة التي كنت أحلم بما ستنعم به علي من حمام رائع وسعادة مطهرة. وأدركت انني في معركة غير شريفة، ولكن عليّ ألاّ أيأس، ولا ألقي اسلحتي أبداً، وان أستعد للدفاع عن نفسي، وان أدرك الخطر المقبل.

وكان مواء القطة ما يزال في جنبات البيت، ولم أكن أعرف أين يمكن أن يكون طعامها، فذهبت نحو «نور» علها تكون مستلقية مستيقظة متعبة، لكني وجدتها نائمة، نوماً عميقاً وبلا قلق، فلما أصبحت أكثر اقترابا منها لأتأكد من ذلك، لفحتني أنفاسها المنتظمة على وجهها، وثمة عَرَق كريه - أكثر كرها من عرقي فابتعدت عنها... ثم اتجهت الى المطبخ أبحث للقطة عن طعام...

وانحدرتُ نحو المطبخ اتلمَّس الضوء، فلما أضأته لمحت على

المنضدةطبقاً فيه ما يشبه الجبن وخطوطاً هندسية من النمل تذهب وتجيء منها وإليها، فأشعتُ الاضطراب في هذه الخطوط بنفحة من فمي حتى أبعدتها عن الطبق قليلاً ثم قلت: ها هو ذا قد وجدت لك أيتها القطة المسكينة ما تبلغين به فتواصلين إطعام صغارك حتى الصباح... غير إني لاحظت أن قطعة الجبن تموج بالدود خلالها وحواليها وينتشر منها ويقفز في اتجاهات مختلفة لا معقولة... وحاولت عبثاً أن أغري بها القطة، فلا شك أنها تعرف مكانها وتأنف الاقتراب منها، وها هي ذى تعاود المواءوتتشمم زوايا المطبخ واثداؤها المدلاة تكاد تلمس الأرض...

فلما خرجت من المطبخ ادركت أن نوافذ بيتي لا تزال مفتوحة وكنت قد لاحظت ذلك منذ دخولي، وكانت النافذة المفتوحة تثير فيّ قلقاً خافتاً ظللت أقاومه حتى اتضح واتضح، فقد كانت النوافذ منخفضة بحيث يمكن للعابر في ظلمة الطريق أن يراني وأنا مغمور في النور بغير أن أراه. وكانت بها قضبان حديدية تمنع اللصوص، وشباك سلكية تمنع الحشرات التي قد تسعى خارجاً في الليل، ولكنها -ما دامت مفتوحة- تبيح للنظرات الخارجية أن تنفذ إلى داخل بيتي حين يغمره النور، تتأمل ما فيه من أثاث وما فيه من حركات وهمسات. وكانت نافذة الردهة أمامي مفتوحة على مصراعيها وخُيِّل إلي - وربما بغير حق- أن ثمة خيالاً قد مرَّ، فأسرعت أطفىء النور حتى يخفيني عنه الظلام وتضل عني عيناه، فلما انطفأ النور رأيتُ الطريق الآن من خلف نافذتي الحديدية مغموراً في ضوء لا هو بالعتمة ولا هو بالنور، وكان كل شيء ساكناً كأنما الحركة التي سمعتها قد ربضت تتحفَّز حتى أضيء النور من جديد... وكافحت كفاحاً هائلاً وحقيقياً وأنا أتجه نحو المفتاح لأضيء الردهة من جديد، ولكن الكلب كان دائم النباح، والقلقلات تنبعث من خلف نافذتي، حتى مرت دقيقة ولعلها عشرون، وكانت هذه نهاية طاقتي الانسانية،

فاتجهت نحو النافذة واغلقت بحذر نصفها الخشبي على أن أخفي جسدي في المكان الذي يحميه هذا النصف من الغرفة، وكافحت من جديد وأنا أوجه نظري ما بين حين وآخر إلى النصف المفتوح، فإذا حولت بصري عنه أرهفت أذني نحوه... ومرت ثلاثون ثانية ثم قمت أغلق نصفها الآخر وأنا أنصت لما عسى أن يكون خلفها، متسائلاً عما إذا كان هنالك من رأى حركاتي وهواجسي، وما إذا لم يكن قد ارتاب فيّ لمجرد هذه الحركات وهذه الهواجس... لقد أغلقت الآن النافذة ووضعت بيني وبينه حاجزاً يمنعه من العمل في الظلام والتستر فيه، فإذا كان ثمة من يتتبعني فليطرق الباب وليواجهني في نور بيتي وليحدد لي شكله وصوته ومهمته، فهذا خير من تحركه في الظلمة خارج بيتي كأنه هاجس شيطاني اعرفه ولا اعرفه كأنه قريب جداً مني وبعيد جداً عني، كأنه موجود ولا موجود... وهنالك ذلك الكلب الأسود الضخم يعلو نباحه ويشتد كأنما هناك من يزمعون اقتحام بيتي في كل لحظة أو كأنما هناك آلاف المارة الغرباء يسعون ذهاباً وجيئة في حارتنا المتواضعة هذه الليلة...

- ٣ -

وسمعت طرقاً ناعماً على الباب كأنه وقع حوافر الدواب في ليالي الحصاد أو كأنه تساقط المطر في أوائل الخريف أو كأنه تكسر أحطاب جافة تحت أرجل حيوان، فوجف قلبي، فقد كان هذا هو ما توقعته تماماً. ثم عاد الطرق من جديد شديداً ومتعالياً ومغموراً في الظلام كأنه أحجار يلقيها أطفال على شجرة النخيل أو كأنه أظافر كلب تبحث عن عظمة بين التراب، أو كأنه الريح تصفق حطام منزل خرب. وعاد الطرق يشتد حتى اهتزت له جدران المنزل. وتململت «نور» في فراشها، فأدركت أنه لا يجب أن أتأخر أكثر من ذلك وأن الطارق يريدني جدياً أن أسرع إليه فليس علي إلا أن أفتح الباب ثم أكون على أهبة الاستعداد.

فلما فتحت الباب وجدتني أمام ذلك الأحدب البشع الذي عبرته في الطريق منذ لحظات، ثم برز وراءه من الظلمة شخص أنيق الهندام رائع الوجه حتى لقد حسبته في أول الأمر حسناء يصطحبها الأحدب، وكانا يرتديان ثياب السهرة السوداء... ودخلا بلا استئذان وانحرفا ناحية المخدع فهما - كمايبدو - يعرفان الطريق. وكان الطرق قد أزعج «نور» فرأيتها تفتح عينيها، إلا أنها ما إن لمحت الأحدب بوجهه المتآكل حتى أغلقت أجفانها من جديد، وشدت على وجهها الغطاء بحيث ظهرت أصابع قدميها، فلما حاولتُ الدخول وقف الرشيق إلى جانبي يمنعني ويقول لي موضحاً إن تحقيقاً سيجري معي وبشأني هذه الليلة وهما يبحثان الآن عن أدلة الاتهام.

واتجه الأحدب نحو الدولاب يقلب فيه ملابسي، ثم اتجه نحو صندوق في زاوية سفلية منه قد علاه التراب، وكنت قد نسيت ماذا وضعت فيه... فلما اقترب منه أخذ ينفي عنه التراب... تذكرت ما به وعراني وجوم ثم ضحكة خافتة أنّبني عليها الرشيق بنظرة منه... ورأيته يفض الرسائل القديمة التي جمعتها أيام كان لي حب، وأيام كانت لي صداقات، ثم مضى يقرأها واحدة واحدة، وكنت قد حرصت أن أضعها بعيداً - حتى عن نفسي - في مثل هذا المكان، وحتى كدت أنسى أمرها تماما، ولو تذكرتها أخيراً لأحرقتها فيما أحرقت من صور وذكريات ما كنت لأطمئن إلى عدم وصول كائن إليها... وهكذا قُدِّر لي أن أرى رجلاً أحدب متآكل الوجه يقرأ قبل منتصف الليل أعز ذكرياتي ويفض الأسرار التي تكوّن مقومات حياتي والتي ذخر بها شبابي، والتي حرصت على أن تستمد قداستها من علاقتها الصامتة بينها وبين نفسي... وكان الأحدب يبحث حيناً في دقة، ثم يبدو أن نباح الكلب المستمر المبتسم يضايقه فتضيق عيناه وينظر نحوي ثم يعاود القراءة من جديد، وكان عجزي هو أني لم استطع أن أشاركه ولا أن أفهم التيارات الخفية التي تعتمل فيه وهو يقرأ رسالاتي القديمة

العزيزة. ثم اتجه نحو «نور» - بعدما أدرك عبث قراءته - وتأمل فيها قليلاً. وخشيت أن تصاب المسكينة بسوء، فقد أزاح الغطاء عنها، ولا ريب أن المسكينة كانت تقشعرّ الآن، فقد انحنى - حتى اصبح منبعجاً كنصف الكرة - وأدركت أي فزع يتملكها، وأنا ما استطيع إنقاذها، فعلى قيد ذراع مني يقف الشاب الأنيق ومعه ما يشبه مسدساً في يده، وأنا حريص على حياتي بل أنا حريص ألاّ أصاب بجرح ولا بألم سخيف - كأن يكون لكمة مثلاً. . . ولكني تساءلت في هذه اللحظة ما إذا لم يكن حرصي على حياتي بهذه الصورة يفقدنيها - وكان ذلك عندما انحنى الأحدب يقبل «نور» ويحتضنها، قبلة حقيقية لا شك فيها هذه المرة، رغم الرائحة الكريهة النفاذة، ورغم ما رآه بوضوح من جحوظ إحدى العينين جحوظاً بشعاً مشوهاً تفقده كل شهية نحوها.

فلما انتهى من هذه المداعبات المريبة، أخذ يعدل من ياقته البيضاء، ثم أخرج ما يشبه المذكرة ودوَّن ما يشبه الملاحظات، ثم مضى يقلب تحت السرير، ورأيته يخرج نصلاً ذا حدين ويغوص به في الوسادة حيث كانت المريضة «نور» راقدة، ومضى يعبث بقطع القطن المتلبدة ينثرها أمام عينيه ثم ينفخ فيها وهو يتأمل محاولاتها الفاشلة للصعود، ثم يبعثر بقيتها على الأرض. . . فلما أبديت شيئاً من اشمئزازي ألقى به في وجهي.

وخرج من المخدع وأنا أتبعه مع حارسي الأنيق، حتى وصلت إلى باب المطبخ، فمنعت كذلك من الدخول، واكتفيت بأن أقف بحيث أستطيع أن أرقب كل شيء، فلقد ذهب الأحدب يقلب بطرف سبابته في القطعة التي كانت جبناً واستحالت - منذ الأمس على وجه التقريب - إلى مجموعة من دود، وكان النمل قد عاد إليها من جديد. . . ثم مضى يقلب القمامة، وبها فضلات من طعام وبقايا خبز جافة وأوراق متسخة يحاول أن يقرأها بعينيه الكليلتين. ولاحظ القطة وهي تموء

فنظر إليها بارتياب في أول الأمر وإلى أثدائها المدلاة، وتتبعها وهي تتشمم زوايا المطبخ، ثم ما لبث أن انصرف عنها وقام يقيس عرض المنضدة، وهو دائب يدوِّن ملاحظاته الهامة الدقيقة، ويرفع يده اليمنى نحو أذنه اليمنى كأنما يطرد بها الذباب كلما تنبه إلى عواء الكلب المتصل في الظلمة الخارجية. ثم خرج من المطبخ ليعد نوافذ المنزل واحدة واحدة، وأبوابه، ثم بدا لي أنه يعد قطع البلاط في كل غرفة، ولو أني ما تأكدت من ذلك أبداً - وقد أغفلوا ذكر ذلك في التحقيق. . .

كان هذا هو كل ما يحتويه منزلي: غرفة للنوم ومطبخ للطعام وردهة فيما بينهما. فلما أوشكا على الخروج لمحا الأوراق الفارغة منثورة وممزقة فوق المنضدة بالردهة، وكانت لا تزال بها بقايا العرق من آثار قبضتي التي تشبثت بها طوال هذه الليلة، وقد أثارت هذه الأوراق اهتمامهما البالي، فأدناها الأحدب من أنفه ثم أدناها إلى أنف زميله يتشممها معه، فلما لم يقنعا بذلك أخذا يقرآنها بعناية، وما لبثا أن وضعاها في ظرف كبير ونظيف، ثم رأيتهما ينحنيان ويتهامسان، كل منهما يهمس بدوره كأنما ثمة مؤلف وضع لهما حواراً وهما يشيران إلى ما وضعاه بالظرف. وقد عددت المرات التي تكلم فيها كل منهما فوجدتها اثنتي عشرة مرة، فقد همس الأحدب في أذن الرشيق اثنتي عشرة مرة وهمس الرشيق رداً على الأحدب اثنتي عشرة مرة، ثم دَوَّن كل في مذكراته ما يشبه الملخص العام وما يشبه الرأي النهائي في الأمر. . . وانتزعاني من بيتي، ثم اقتاداني الى الخارج حيث ظلمة الظلمات. . .

وكانت غرفة التحقيق - بعكس ما كانت السينما - مرتفعة الباب، شديدة النظافة، قوية الإضاءة، خالية صامتة كأنما تنتظرني. وقد دفعني الرجلان إلى الداخل بغير أن يدخلا، ولم أجد مقعداً واحداً فاضطررت أن أجلس القرفصاء على الأرض متأملاً ظلي المطمئن إلى جانبي. وجعلت انتظر. . . كان ثمة منضدة مستطيلة ومرتفعة ونظيفة جداً أمامي تماماً وليس عليها شيء على الإطلاق، ومن خلفها ستارة مزركشة يغلب عليها اللون الرمادي كالتي يضعونها في بعض الهياكل،

ثم أربع زوايا وسقف وأرض خشبية كلها نظيفة ومضاءة ومعنى بها عناية فائقة... ومضيت أنتظر وأرقب ما عسى أن تكون الحركة التالية...

وسمعت صوتاً يناديني، فاستدرت أبحث عمن يكون مصدره، لكنه كان يبدو آتياً من خلف جدار، أو من خلف ستارة على وجه التحديد... وهكذا أدركت أني لن أرى وجه محققي، لكني عرفته رغم هذا الجدار المصطنع القائم بيننا، فلا شك أنه كان صوت ذلك الشاب الرشيق الذي كان يحرسني، بينما بدا لي أن الأحدب يقوم الآن بدور ثانوي هو دور الكاتب، فقد سمعت حفيف القلم أكثر من مرة وهو يحاول اللحاق بي حتى لا يفوته شيء مما أجيب. وكان واضحاً أن المحقق يعرف كل شيء من حياتي، فقد مضى يلقي أسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة، عليَّ أن أجيب عنها جميعاً بلاد تردد ولا غموض... وقد بدا لي أكثر من مرة أن أفاجئه بمعرفتي له، أو على الأقل أن ألحد - فيما بيني وبين نفسي - بسلطته، وانتزع من قلبي الايمان بقدرته التامة على اتهامي وعقابي، وبهذا وحده أستطيع أن أضع بيني وبينه حجاباً حقيقياً وكثيفاً لا يستطيع أن ينفذ من خلاله إلى ما يجد من أسرار في حياتي. كان ضعفي أمامه وخوفي منه وإيماني بقدرته وحرارة الغرفة المعذبة هي التي تساعده على الحصول مني على كل ما يريد... سألني عن اسمي وعن وظيفتي وعن أقربائي وسمعت الأحدب يكتب الإجابات في سرعة فائقة، ثم عاد يسألني عن سبب اختياري لهذا المسكن في هذه الحارة، وعن سبب وجود هذه الخادم بهذا الاسم في منزلي وما إذا كان لي بها علاقة ثم عاد يسألني: ما الذي كنت تحمله معك مساء اليوم؟ وأجبته: ليفة مما يغتسل بها الناس. فقهقه قهقهة مدوية وسألني: أين اختفت إذن؟ أجبته: لقد ضاعت مني أثناء الطريق. قال: إذن فها أنت تعترف... ثم زاد ضحكه رعباً ودوياً، كما يبدو أن الأحدب رمى قلمه واستلقى على قفاه ليشترك معه في الضحك... ثم سألني

عن معنى الكلام الذي كان مكتوباً فوق ورق الجرائد، وعن لون مخدعي الأزرق، ولماذا أخذت سيارة الأجرة ثم هربت منها، ولماذا شاهدت ذلك الفيلم بالذات وجلست بين السيدة والرجلين، ولماذا انحنيت على أرض الطريق، وماذا التقطت إذ ذاك، وهذا أمر لا أذكر أني فعلته هذا المساء إلا أني لم استطع أن أنكر احتمال ذلك، بل وتصديقه، فقد كان يبدو أنه يعرف أشياء أجهلها أنا عن نفسي، وهو لا يريد حقائق فهو يعرفها لكنه كان يريد أن يحصل على اعتراف، وهكذا بتُّ على استعداد لأن أؤيده على اقتراف أعمال بمجرد ذكرها لي... فمضى يسألني عن القط الذي كان يموء، والجبن والدود والكلب الذي يملكه جارنا والخطوات التي كنت أقيس بها الطريق، ولماذا لا أدخن ولماذا لم استطع الزواج ولماذا لا أستطيع الاختلاف إلا إلى مقهى واحد... كان يطلب مني تفسيراً لأشياء لا أجد لها تفسيراً، وكان هذا عجزاً حقيقياً مني فقد توهمت أنني هيأت نفسي بكل ما أملك من دفاع، لكن سرعان ما ثبت لي خطئي الفاحش وأني مجرد أَعْزَل من كل شيء أمام هذا السيل المنهمر من الاسئلة الدقيقة التي تخصني تماماً والتي كان يجب أن أعرف إجاباتها جميعاً... كان المحقق يضعني موضع المسؤولية من كل ذلك، وأني لمسؤول عنه جميعاً...

وحين انقطع حفيف القلم ادركت أن التحقيق قد انتهى، وعليَّ أن أُخلي المكان، فقمت أتجه نحو حارسي الذي ينتظرني في الظلمة الخارجية، متذكراً كيف كنت في جبن التحايل على التهرب من الإجابة الصحيحة، لأنه كان يبدو لي أنه لم يكن ثمة إجابة لكثير من هذه الأسئلة... لهذا أدركت أني قصرت تقصيراً شديداً، تقصيراً يكاد يدنيني من العدم... ففي استطاعة هذا المحقق أن يلصق التهمة بي، ولهذا أعددت عن نفسي هذا الدفاع.

فغدا سيجلسون لمحاكمتي، وسيلقون عليَّ التهمة تلو التهمة ولن

أدعهم يستمرون... سأدافع عن نفسي، وسأجعلهم يدركون أن شيئاً مما فعلوه لم يكن ليفاجئني... سأخبرهم كيف نشأ لديّ ذلك شيئاً فشيئاً وأنا أعبر طرقات هذه المدينة المزدحمة في طريقي إلى عملي صباحاً وفي طريقي إلى مقهاي مساء وفي طريقي إلى منزلي صباحاً ومساء... ساقول لهم إن زحمة الطريق كانت تضايقني، وحتى المقهى الذي اخترته لأن به شيئاً من هدأة كان أحياناً ما يزدحم في بعض الأماسي، فينعكس ضجيج الناس ووهج النور في عيونهم وفي رائحة دخانهم، فيصيبني انقباض ويأس شديدان... لقد كانت المسألة في أول أمرها مجرد رغبة في الهدوء، ثم أصبح شبه احساس بالخوف ثم بلزوجة في أجساد الناس وكلماتهم ونظراتهم... وأخيراً أدركت وأنا أعبر شوارع هذه المدينة أن هناك من يتبعني وسط الزحمة وكان هذا أبعد مما وصلت إليه مخاوفي، فأنا رجل مسالم لا أصدقاء ولا زوج ولا أطفال لي، فلماذا يتعقبني شخص أو أشخاص وأنا سائر في هذه الزحمة الكريهة؟ وهكذا نشأت لدي رغبتي المستمرة في الانكماش والتضاؤل، حتى أصبحت كأني فأر في مصيدة عليه أن يتجه إن يميناً وإن شمالاً حتى يدمي وجهه وينهك عبثاً قواه...

لقد كان كل أملي في الحياة هو أن أعيش في هدوء، بعيداً عن كل صخب وضجيج، ملتصقاً بعمل هادىء لا مجال فيه للمغامرة والمقامرة، وظيفة ذات أجر ثابت، حيث تتبلور كل آمالي في أن يزداد أجري جنيهاً أو جنيهين كل بضع سنين، لهذا نفضت يدي من الحب وتحاشيت الزواج، وتجنبت أسرتي منذ زمن بعيد، وحاولت أن أختار مسكناً هادئاً وخادماً مطيعة في منعزل عن الناس، ومضيت أدبِّر شؤون حياتي بأقل قلق مستطاع، لكن ها قد ذهبت كل محاولاتي أدراج الرياح، ورغمًا عن كل هذه المحاولات فقد وجدت أخيراً من يتتبعني في شوارع المدينة وأزقتها، ومن يعرف كل أسرار حياتي، ومن يحاول أن يسد عليَّ كل منافذ الخلاص، ويتدخل فيما حرصت أن أخفيه عن

كل انسان... وحتى وضعت أخيراً في مكان مظلم تذهب فيه الخفافيش وتجيء طولاً وصعوداً وهبوطاً...

سأعلن على الجميع أني ما اردت يوماً أن أكون بطلاً ولا رجلاً مشهوراً وسيكون شهودي على ذلك هم أولئك الذين شاهدوني لآخر مرة هذا المساء، سأستشهد بالبائع المتآكل الأنف وبالحسناء والشاب الذي يحادثها كأنما في حذر، وبالسائق المذعور والمصاب الذي وطأته العجلات، وبقاطعي التذاكر والسيدة التي تحك جسدها في كآبة إلى جانبي، وبالذين كانوا يتهامسون وبالذين كانوا يتلفتون ويتآمرون... ثم أستشهد بخادمتي «نور» وبالقط الذي يموء وبالكلب الذي ينبح وبلون غرفتي الأزرق، فكل هؤلاء معي وهم يدركون أن كل ما أردته هو أن أكون مطمئناً - ولا أقول سعيداً... ولقد كانت طريقتي اليوم إلى ذلك هي ليفة أحك بها جسدي المتلبد، وسأحلف بنوافذ بيتي السبع - التي دوَّن عددها الأحدب - وبحق البطل الذي انتصر على الشاشة أنني حين اشتريت هذه الليفة ما كنت أدرك ما يترتب على ذلك من خطورة بالغة ومعركة مضنية... سأشهد هؤلاء أمام الناس مكرراً أني ما أردت أن أصبح عظيًما ولا زعيًما ولا غنياً، بل كائناً تطمئن أقدامه للخطوة التالية... وأنا أعلم أن هذا هو موطن الضعف الوحيد في دفاعي - ولكني سأدافع عن نفسي حتى نهاية النهاية.

مناقشات وتمرينات

١ - هل هناك مجال للحقيقة في وسط الهواجس الوهمية التي تحيط ببطل القصة؟ (مثلاً: هل أخذ حقاً للتحقيق... الخ.)

٢ - ارصد الأشياء المعينة التي لفتت انتباه البطل من أول القصة إلى آخرها: على أي حالة نفسية للبطل تدل؟

٣ - لماذا لم تستغرب «نور» عندما شاهدت الأحدب، وعادت مطمئنة للنوم؟ ما علاقة الأحدب بـ «نور»؟

٤ - لماذا انقلب الأحدب «كاتباً» والرجل الأنيق «محققاً» وقت التحقيق؟

٥ - هل للقصة دلالات سياسية اجتماعية في نظرك؟

-٣٣-

الجبّار

لنجيب محفوظ*

أخيراً تراءت القرية، والليل يهبط من ذروة الأفق، والقوم عائدون وراء البهائم ينوءون بالإعياء[١]، والخلاء المدثرُ[٢] بالمغيب يترامى الى ما لا نهاية. تقدم أبو الخير بقدمين متورّمتين نحو القرية. من شدّة الخوف تجمّد قلبه فلم يعد يخفق بالخوف، ومن شدّة الألم لم يعد يشعر بالألم. ولمحه العائدون فاتسعت الأعين دهشة وَفَغَرَتِ[٣] الأفواه، وراحوا يتهامسون ويشيرون نحوه. وغَضَّ أصدقاؤه بينهم الأبصار. وجعل يشقّ طريقه بعيداً عنهم ماضياً نحو مصيره. وتابعته الأعين وهو يبتعد رويداً رويداً حتى لم يبقَ منه إلاّ ما يبقى في الخاطر من حلم. وهزوا الرؤوس وقالوا: ضاع الرجل... انتهى أبو الخير...

وقعت مأساة أبو الخير فيما يشبه المصادفة. غلبه النعاسُ ذاتَ ليلة في مَخْزَنِ الغلال بدَوَّار[٤] سيده الجبار. واستيقظ على حركة لكنّه

(*) من مجموعته القصصية «دنيا الله» (مكتبة مصر، القاهرة) ص ١٧٨- ١٨٧.

(١) ناء بالإعياء: لم يطق حمله، والاعياء: التعب.

(٢) المدثر: الملتف.

(٣) فغر: فعل لازم بمعنى انفتح، ويجيء متعدياً فتقول: فغر فمه، أي فتحه.

(٤) الدوار: المركز.

للوهلة الأولى لم يشعر إلّا بأنه شيء غارق في الظلام. أيُّ مكان؟ أيُّ زمان؟، لم يدرِ شيئاً في الوهلة الأولى، ثم ردّته رائحة الغلال الى وجوده. وانتبه الى الحركة التي أيقظته فمدّ نحوها بصرَه في الظلام، وإذا به يسمع صوتاً يقول في ضراعة[١] ورعب:

- لا . . لا . . يا سيدي . .

هذا الصوت يعرفه. صوت زنوبة بنت عليوة. مذعورة كأنّ وحشاً يأكلها. توثّب أبو الخير لِيُعرِبَ عن[٢] شهامته بعمل ما ، لكن صوتاً غليظاً عميقاً سبقه هاتفاً في نبرة محمومة:

- اسكتي . .

تسمّر في مكانه وخارت قواه. هذا الصوت يعرفه ايضاً. صوت سيّده، عبدِ الجليل، الجبّار، السلطة، القانون، الحياة والموت. نسي زنوبة وانحصر تفكيره في وجوده غيرالمبرَّر[٣] في هذا المكان، في المأزق الذي خلقته غفوة خائنة، وبِمَ يجيب لو استجوب! وفي لحظة اقتنع بأن الورطة وَرْطَتُه هو، لا ورطةُ زنوبة وحدَها، وبأن الذنبَ ذنبُه هو لا ذنبُ الجبّار الذي لا يُسأل عما يفعل. وظلّ يحملق في الظلام حتى تراءى له كائن ضخم كالشبح يضطرب بالحركة. لعلّه الجبّار مستولياً على البنت كالفرخ بين مخالب الحدأة[٤]. واستمرّت الضراعةُ الباكية تلطمها الزجرةُ المحمومة كما تلطم الزوبعة ورقَةَ الشجر. وتولّاه فزَعٌ وتقززٌ ويأسٌ، حتى أحبّ لو يستجيب الله مرةً اخرى الى دعاء نوح. وندّت عن الأرض خشخشة مكتومة نمّت عن تحرّكات الاقدام المتوتّرة، ولم تتعدَّ دائرةَ الشَرَكِ الرهيب، وأنينٌ متوجّع أعقبته همهمةٌ كلفحة نار. وخيّل إليه أنّ الظلام يعوي تحت وطأة ثقيلة، وأن عروقه

(١) الضراعة: الخضوع والتذلل.
(٢) يعرب عن: يفصح عن. يدل على.
(٣) غير المبرر: الذي لا يجد له مسوّغاً (وبرز بهذا المعنى استعمال حديث).
(٤) الحدأة: نوع من الطيور الجوارح (Kite) .

ستنفجر. وتوثّب ليصرخ لأنه لم يعد يتحمّل الألم، غيرَ أن صرخةً من الجبّار سبقته، صرخةَ ألمٍ مُباغِتٍ، بدأت حادة ثمّ غلظت وانتهت كالزئير، ثم صاح:

- يا مجرمة . . .

وسمع وقع لطمة شديدة تُبِعَتْ بأنين مستسلم يائس وسقوطِ جسمٍ، جسمٍ رقيقٍ خفيفِ الوزن. وقال الجبّار بحنق ملتهب:

- يا مجرمة! . . . خذي . . .

وانهالت مِطرقةُ القدم الغليظةِ على المتأوّهة. خذي . . خذي . . خذي. وتواصل الأنين آخذاً في الهبوط حتى اختفى، وتلته زفرات هامسة، أما الغضب فاشتعل جنونه الى ما لا نهاية، خذي . . خذي . . خذي . . ، وصاح أبو الخير بلا وعي:

- اتقِ الله . . .

فتلقّى صوتاً كالقذيفة متسائلاً:

- من؟ . .

فاندفع أبو الخير نحو الباب وشدّه اليه. انفتح الباب وتدفّق ضوء القمر فمرق أبو الخير منه، وإذا بالجبار يصيح:

- عرفتك، أبو الخير، قف . .

جرى كالرصاصة بقوة التقزز والفزع واليأس، والصوت في أعقابه:

- ولد يا أبو الخير . . . يامجرم . . قف يا مجرم . . .

وتردّد صوت السيّد فَهُرِعَتْ نحوه الأقدام، وأُرهِفَتِ الأسماع، وما لبثت أن استيقظت القرية، وجعل ابو الخير يجري شوطاً ويهرول آخر حتى انتهى الى كوخ صديقه حارسِ حقل بطيخ بزمام العماري. ارتمى الى جانبه وهو يلهث من الجهد والكلال، فأقبل الآخَرُ عليه مرحِّباً ملاطفاً ومواسياً. قدّم له كوز ماء ليشرب ويبلل وجهه، وراح يصغي الى مأساته في جوف الليل. وتنهد ابو الخير أخيرًا وتساءل:

- أتكلّم في النقطة[1]؟
فهزّ صاحبُه رأسَه محذّراً وقال:
- يقتلونك ولو في المحكمة..
فتساءل في حَيرة:
- والعمل؟
- اختف...
- طولَ العمر؟
فرفع الحارس رأسه الى السماء دون كلام، فقال أبو الخير:
- الوليّة والبنت في القرية تحت رحمة الجبّار بلا معين..
- فكر في حياتك..
فتنّهد في كَرْب شديد وتساءل:
- أين القانون؟
فضحك الحارس ضحكة جافة وقال:
- تجده نائمًا في بطن بطيخة[2]..

في اليوم التالي جاءه الحارس بأخبار. قال له إنه ذاع في القرية أن أبو الخير اغتصب البنت وقتلها ثم هرب. شهد بهذا السيد نفسُه، والجميعُ يصدّقونه دون مناقشة. وأهل الضحية في حريق من الحزن، كذلك الأهل والجيران. ورجال كثيرون توعّدوا بالانتقام. والحكومة تُجري التحقيقَ وتسمع أقوال الشاهد الوحيد. وحقَّ الخزي على امرأته وابنته وأخرسهما الحزن.
- جريمتي أنني رأيت جريمة الآخر..
- لمَ نِمْتَ في المخزن؟
- أمر ربّنا!
فرمقه بأسف قائلًا:
- اختفِ...

(١) النقطة: مركز الشرطة (البوليس).
(٢) تعبير دارج كناية عن الراحة وهدوّ البال.

ومر بالحارس رجالٌ من رجال السيد يبحثون عن أبو الخير. ومرّ به رجال من أهل البنت الضحية. سمع أبو الخير من مخبئه أصوات المُجدّين في البحث عنه، ولمح وجوهَهم الكالحة ونُذُرَ الموت المتطايرة من محاجرهم.
- سأهرب..
- نعم، ربنا معك..
- ليس معي مليم...
فقال وهو يداري خجله بغضّ البصر:
- ولا أنا..
انطلق أبو الخير عند جثوم[1] الظلام بلا هدف ولا مُعين. لم يكن جاوز طيلة حياته السوقَ بحال ولا يعرف عن الدنيا شيئاً. وتجنَّبَ القرى القريبةَ لعلمه بأنها في متناول الجبّار، إلّا أن الحكومة نفسها تجدُّ الآنَ في أثره، ولا سبيلَ الى تبرئة نفسه، وسيكون دائمًا عُرضةً في هذه البقاع وفي أي لحظة الى رصاصة تنطلق فتقضي عليه. وظلامُ هذا الليل لن يمتد الى الأبد، سرعان ما ينقشع عن ضوء النهار، ويبدو هو للأعين كعقرب تستبق اليها الهراواتُ والنعالُ. ومن لامرأته وابنته؟ من لهما في جَوٍّ ينضج بالَمقْتِ والرغبةِ في الانتقام؟ وجدّ في السير على غير هدىً. ووجد الأشياء تُعلن في حذر عن ذواتها، فوضُحَتْ نوعاً ما أشجارُ الصفصاف والنخيل، والزرع المنتشر تتخلله المماشي، وترعةٌ ابتسم ماؤها وتلألأت اطرافٌ من موجاته، فخرج من ذهوله متعجّباً، والتفت لخاطرٍ برق في رأسه المكدود[2] نحو الأفق الى يساره، فرأى القمر صاعداً فوق الأرض بأذرعٍ متجلّياً كأكبر ما يُرى، وأسهم الضياء تنطلق منه وانية[3]. ضايقه على غير عادةٍ القمرُ، وجعل يلتفت الى الوراء كلّما أوغل في السير. وترامى نُباحٌ من

(١) جثم: حطّ (شبه الظلام بالطائر).
(٢) المكدود: المتعب.
(٣) وانية: بطيئة.

أطراف الصمت الثقيل، ومرّة تعالى عُواء فارتعدت فرائصُه. أين منه مِصرُ[1] الكبيرةُ ليذوبَ في زحمتها، ويجد مخبأ ولقمة؟ كم يلزم من الوقت للقدم المتورمة لتقطع ما يقطعه القطارُ السريع في أربع سـاعـات؟ وانطلقت زعقةُ غفير كصفير القاطرة فتوقّف لها قلبُه. لعلّه يعترض سبيلَه متسائلاً عن هُويته ومذهبه. وخاف أن يتقدم خطوة. ومال نحو شجرة جُمَّيز فلبد عندَ أصلها كأنه نتوء في سحاتها[2]. لن يتعرض له غفير في ضوء النهار، ولكن من للمرأة والبنت؟ يمكن أن يبلغ بعدَ العذاب مصرَ، ولكن من يحمي المرأة والبنت؟ وكيف تطيب الحياةُ لمن يعيش مطارَداً إلى الأبد، محروقَ القلب على امرأته وابنته؟ ولبث يحملق في الفضاء، أفكاره تتلاطم، والساعات تمرّ، حتى سرقه النوم. واستيقظ وهو يحلم بأنه يتهاوى من قِمّة جبل. فتح عينيه فرأى الاقدام الغليظة تضرب مِن حوله حلقةً مُحكَمة.

وقف فزعاً وهو يلمح الرجال يرمونه بنظرات كالأحجار المدبّبة وجيادهم وراء ظهورهم تصهل. وهتف من الأعماق:

- أنا في عِرض النبي!

فلطمه أحدُهم لطمةً أردته على الأرض وصاح به:

- تهرب يا ابن التيس!

فهتف مرّة أخرى:

- أنا في عِرض النبي!

فغرس الرجل قدمه في بطنه وهتف:

- تغتصب البنت وتقتلها!

- أنا...

أوشك أن يقول أنا بريء، ولكنّه، تذكّر لحسن حظّه أنّه

(١) مصر: يعني مدينة القاهرة.

(٢) السحاة: القشرة.

يخاطب رجالَ الجبّار فأمسك، ورمق الرجلَ بنظرة ذليلةٍ خرساء، فقال الرجل:

- ارجع واعترف..

فقال بنبرة باكية:

- يشنقونني!

فركله بقسوة وقال:

- السيد لن يتركك لحبل المشنقة!

- يسجنونني!

فركله ركلة أشدَّ من الأولى وقال:

- ويعيش أهلك في أمان!

تأوّه يائساً ولم يَنْبِس، فزجرت الحناجر تتعجّله، فقال بصوت مهموس:

- سأرجع..!

ورَحَلَ يقطع الطريقَ على قدميه وهم يتبعونه عن بعد.

وأخيراً تراءت القرية، والليـل يهبط من ذروة الأفق، والقوم عائدون وراء البهائم ينوءون بالإعياء، والخلاء المدثر بالمغيب يترامى إلى ما لا نهاية. تقدم أبو الخير بقدمين متورّمتين نحو القرية. من شدّة الخوف تجمد قلبه فلم يعدْ يخـفقُ بالخوف، ومن شدّة الألم لم يعد يشعر بالألم. ولمحه العائدون فاتسعت الأعين دهشة وفَغَرَتِ الأفواه. وراحوا يتهامسون ويشيرون نحوه. وغضّ أصدقاؤه بينهم الأبصار. وجعل يشقّ طريقه بعيداً عنهم ماضياً نحو مصيره. وتابعته الأعين وهو يبتعد رويداً رويداً حتى لم يبقَ منه إلّا ما يبقى في الخاطر من حلم. وهزّوا الرؤوس وقالوا: ضاع الرجلُ.. انتهى أبو الخير..

مناقشات وتمرينات

١ - لماذا كانت خاتمة القصة هنا هي بدايتها؟

٢ - كيف ربط الكاتب بين الحال النفسية لبطل القصة وبين مظاهر الطبيعة؟

٣ - الجبّار - السلطة - القانون - الحياة والموت: هل هذه العناصر كلّها متساوية في «سحق» الإرادة الانسانية؟
٤ - يمكن أن يقال إنّ هذه القصة واقعية من حيث الحدث، فهل هي واقعية من حيث التمهيد لوضع أفضل؟
٥ - «ضاع الرجل... انتهى أبو الخير»: هل هذه هي المشكلة الحقيقية؟
٦ - لماذا يدقق الكاتب في وصف مواقف الخوف بالتفصيل؟ هل هذا مما تتحمله القصة القصيرة؟

-٣٤-

يا أيها الكرز المنسيّ
لزكريا تامر *

شهقت ضيعتنا مندهشةً لما علمت أن عمر القاسم قد صار وزيراً. وها هي ضيعتنا يا عمر كما تركتها وردةً من طين وعشباً أصفر ونهراً من الأطفال الحُفاةِ.

وارتبك عمر قليلاً ولكنّه قال لأمه: «لا داعي للبكاء. لست ذاهباً إلى المشنقة».

فمسحت أمّه دموعها بأصابعها، وقالت بصوت مرتعش: «ليس لي غيرك في الدنيا. احرص على صحتك ياابني فالقرى كلّها أمراض وأوساخ. مسكين أنت. لو كان لك قريب مهمّ لما عُيّنت معلّماً في قرية».

فقال لها عمر بلهجة مرحة: «اطمئني يا أمي اطمئني فابنك ليس زجاجاً سهلَ الكسر».

وعمّ ضيعتنا الفرح ورحّبت بحرارة بذلك النبأ الذي أذاعه الراديو. إذن عمر القاسم صار وزيراً، فسبحان من يُعطي دون أن يُسأل وصدق من قال: إنّ من جَدّ وجد.

(*) من مجموعته «دمشق الحرائق» (دمشق، ١٩٧٣) ص ٢٩ - ٣٧.

«ماذا يشتغل الوزير؟»

«تخصّص له سيّارة أحلى من أجمل بنت».

«ويقبض في آخر كل شهر معاشاً يتيح له أن يأكل خروفاً في كلّ يوم».

«وعندما يدخل إلى مبنى وزارته يرتجف الموظفون خوفاً ويسلّمون عليه وكأنّه عيسى النازلُ من السماء».

«ويأمر فيطاع. يقول للمطر انزل فينزل».

«وإذا أمر الآغا فهل يطيع الآغا؟»

وحدّق أهل الضيعة بوجوم وفضول إلى شاب نزل من الباص الآتي من دمشق. كان شاباً مرفوع الرأس، ذا عينين وديعتين وصارمتين في آن واحد. سلّم علينا وكأنّه واحد من أهلنا غاب عنّا زمناً ثم عاد. قال لنا إن اسمه عمر القاسم وهو معلّم المدرسة الجديد.

وقال واحد هو من أهل الضيعة: «يجب أن نذهب إلى دمشق لتهنئته».

قال آخر بحماسة: «سنذهب كلّنا الرجال والنساء والصغار».

وقال ثالث: «سنذهب أيضا الأبقار والخراف والدجاج والأرانب».

قال رابع: «الفكرة عظيمة ولكن من سيدفع أجرة الباص؟ هل نذهب سيراً على الأقدام؟»

ران الصمت حيناً ثم قال رجل عجوز: «يكفي أن يذهب واحد منّا ويهنئه باسم الضيعة. هو يعرف حالنا ولن يعتب علينا».

«ولكن من سيذهب؟»

قال العجوز: «اختاروا من تشاؤون. فليذهب مثلاً أبو فيّاض».

فحاول أبو فيّاض الرفض غير أن أصواتنا حاصرته قائلة:

«أنت أعقلنا».

«وأكبرنا سنّاً وقدراً».

«وأنت تتقن الكلام حتى مع الملوك».

«كان عمر يحبّك».

«دائمًا كان يشرب الشاي عندك».

«كان يحبّ حديثك».

«كان صديقك».

قال أبو فيّاض: «ولكن عمر كان أيضاً صديقَكُمْ وكان يحبّكم. أنسيتم؟»

ونظر عمر بحب إلى الأولاد المتسمّرين على المقاعد وقال لهم: «أنا معلّمكم الجديد. اسمي عمر... عمر القاسم. إني أحب المجتهدين أما الكسالى فمن الأفضل لهم أن يتخلوا عن كسلهم وإلّا...».

ورفع رجل أشيب طفله الصغير إلى أعلى بحركة فخورة، وقال: «سأسمّيه عمر كاسم جدّه». ونظر إلى الأم الشاحبة الوجه المستلقية على الفراش وضحك وقال لها: «لو كان يعرف ما ينتظره لرفض المجيء، ويوم أموت لن يرث سوى ثيابي».

وقلنا لأبي فيّاض: «لا فائدة من التهرّب. ستذهب إلى دمشق وتقابل عمر وتهنئه».

فهزّ أبو فيّاض رأسه موافقا مستسلما.

وقال مختار الضيعة لعمر: «يا أستاذ.. حتى الآن لم تذهب لزيارة الآغا».

قال عمر: «لماذا أذهب ما دمت لا أعرفه وهو لا يعرفني؟»

قال المختار: «اللباقة ضرورية، والآغا سينفعك، فكلّ ما تراه عينك من أراضٍ في الضيعة هي ملكه».

قال عمر: «أبي وأمي لم يعلّماني اللباقة. وعملي في الضيعة أن أعلّم الصغار القراءة والكتابة».

وقال أهل الضيعة لأبي فيّاض: «قل لعمر إننا ما زلنا جياعاً».

«قل له إن جوعنا ازداد».
«بتنا نأكل حتى الحصى».
«حدّثه عن القمل الذي يأكلنا».
«وعن اللحم الذي نسينا طعمه».
«حدّثه عن أمراضنا».
«قل له إننا بحاجة إلى أطبّاء وأدوية».
«ضيعتنا بحاجة إلى ماء نظيف للشرب».
«حدّثه عن شوقنا إلى نور الكهرباءِ».
«كلّمه عن الآغا وفعاله».
«نحن نشتغل وهو يحصد».

وقال رئيس مخفر الشرطة لعمر: «إنّي والله يا أستاذ أعتبرك كأخي تماماً، وسأنصحك نصيحة، أنت حرّ، إن شئت اعمل بها أو ارمها وراء ظهرك. أنت دائم السهر مع فلاّحي الضيعة ولا يليق بأستاذ مثلك أن يسهر معهم. معلّم المدرسة شخصية محترمة».

قال عمر: «فلاّحو الضيعة ناس طيّبون».

قال رئيس المخفر: «وأنت تكلّمهم كلاماً إذا سمعه الآغا فسيزعل[1] وإذا زعل الآغا فالله يعلم ما يحدث».

(١) يزعل: عامية بمعنى يغضب وهي في الفصحى تدل على النشاط.

وصاح شاب من شبّان الضيعة: «اسمعوا.. من المناسب أن يأخذ أبو فيّاض معه هدية لعمر».

فتعالت أصواتنا مؤيّدة ولكن أيَّ هدية نختار؟

«خروف أو عدّة دجاجات».
«هذه هدية لا تليق بوزير».
«إذن أي هدية نرسل؟»

قال أبو فيّاض: «أفضل هدية هي سلّة من كرز ضيعتنا. أتذكرون كم كان عمر يحبّ كرز ضيعتنا ويقول عن لونه الأحمر إنه تعبنا ودمنا».

فأثنينا جميعاً على رأي أبي فيّاض.

وقال لنا عمر: «الظلم لا يدوم».
وقال لنا: «كيف تقبلون بحياة الذلّ؟»

فقلنا له: «العين بصيرة واليد قصيرة».

فقال عمر بصوت غاضب: «اليد قصيرة لأنّ القلب خائف».

وأقبل ليل أبيض، واستسلمت الضيعة للنوم، وكنّا نحن الفقراء جسداً واحداً مرتجفاً مبتهجاً ينادي أيّام كنّا نتنصّت إلى كلام عمر مبهورين فكأنّه عاش أمداً في قلوبنا وقلوب موتانا.

وعندما أشرقت شمس الصباح على الضيعة تجمّع الرجال والصغار والنساء حول الباص المسافر إلى دمشق.

وقال لنا عمر قبل أن يصعد إلى الباص: «الآغا صاحب نفوذ وجاهٍ في دمشق وهو الذي نقلني من ضيعتكم لأني لم أصبح خادماً له ولأني أحبّكم، ولكن اليوم الذي تتخلّصون فيه من ذلك الآغا وأمثاله ليس بالبعيد، بل هو قريب، وسترونه أنتم لا أحفادكم، وستصبح

الأرض التي تشتغلون فيها ملكاً لكم». وركب أبو فيّاض الباص وبرفقته سلّة مليئة بالكرز الأحمر ذي الحبّات الناضجة البرّاقة.

ولما أوشكت شمس الضيعة أن تأفل[1] بلغ سمعنا بوق الباص العائد من دمشق، فتراكضنا إلى ساحة الضيعة. أتى الباص ونزل منه أبو فيّاض عابسَ الوجه، واجماً، وكانت إحدى يديه ما زالت تحمل سلّة الكرز. تصايحنا بدهشة: «لماذا لم تعطِ عمرَ سلّةَ الكرز؟»

«ألم تقابله؟»
«ماذا قال لك؟»

ظلّ أبو فيّاض ساكتاً كأنّه أصمّ ووضع سلّة الكرز على الأرض، وتكلّم بصوت أجشّ فقال للصغار: «تعالَوا وكلوا الكرز، وعندما تكبرون لا تنسَوا طعمَه».

ثمّ مشى متّجهاً إلى بيته، فاعترضنا طريقه، وقلنا له: «تكلّم وأخبرنا بما حدث».

قال أبو فيّاض: «عمر مات».

فزعلنا كأنّ أمّنا قد ماتت بينما عاود أبو فيّاض السير وقد ازداد ظهره انحناء.

مناقشات وتمرينات

١ - في هذه الأقصوصة تراوحٌ واضح في الزمن. تابع هذا التراوح بدقّة في القصّة. هل قوّى هذا التراوح غاية المؤلف الفنية أو أنه أضعفها؟

(١) أفلت الشمس: غابت.

٢ - لعمر القاسم صورتان في هذه القصة القصيرة. حدّد معالم كلّ من الصورتين.

٣ - هذه القصة لا تتعمّد «وصف» حال الفلاّحين البائسة، ومع ذلك فإنها تفلح في نقل صورة أوضاعهم بدقّة. كيف؟

٤ - «الآغا» شخصية غامضة في القصة. إذا طلب إليك أن تحدّد ملامحها فماذا يمكنك أن تقول؟

٥ - هل يمكننا أن نعدّ القرية - بكامل أفرادها - شخصية واحدة، مقابل شخصية عمر القاسم؟ اعقد مقارنة بين هاتين الشخصيتين.

-٣٥-

الصغير يذهب الى المخيم

لغسان كنفاني *

كـان ذلك زمن الحـرب. الحرب؟ كـلا، الاشتبـاك ذاتـه.. الالتحام المتواصل بالعدو لأنه أثناء الحرب قد تهب نسمة سلام يلتقط فيها المقاتل أنفاسه. راحة. هدنة. إجازة. تقهقر. أما في الاشتباك فانه دائمًا على بعد طلقة. أنت دائمًا تمر بأعجوبة بين طلقتين، وهذا ما كان، كما قلت لك، زمن الاشتباك المستمر.

كنت أسكن مع سبعة إخوة كلهم ذكور شديدو المراس، وأب لا يحب زوجته ربما لأنها أنجبت له زمن الاشتباك ثمانية أطفال. وكانت عمتنا وزوجها وأولادها الخمسة يسكنون معنا أيضاً، وجدّنا العجوز الذي كان إذا ما عثر على خمسة قروش على الطاولة أو في جيب أحد السراويل الكثيرة المعلقة مضى دون تردد واشترى جريدة، ولم يكن يعرف، كما تعلم، القراءة. وهكذا كان مضطراً للاعتراف دائمًا بما اقترف كي يقرأ أحدنا على مسمعيه الثقيلين آخر الأخبار.

في ذلك الزمن - دعني أولا أقول لك إنه لم يكن زمن اشتباك بالمعنى الذي يخيل اليك، كلا لم تكن ثمة حرب حقيقية. لم تكن ثمة أي حرب على الإطلاق. كل ما في الأمر أننا كنا ثمانية عشر شخصاً

(*) من الآثار الكاملة (المجلد الثاني، بيروت، ١٩٧٣) ص ٧١٥-٧٢٦.

في بيت واحد من جميع الأجيال التي يمكن ان تتوفر في وقت واحد. لم يكن أي واحد منا قد نجح بعد في الحصول على عمل، وكان الجوع - الذي تسمع عنه - همنا اليومي. ذلك أسميه زمن الاشتباك. أنت تعلم. لا فرق على الاطلاق. كنا نقاتل من أجل الأكل، ثم نتقاتل لنوزعه فيما بيننا، ثم نتقاتل بعد ذلك. ثم في أية لحظة سكون يخرج جدي جريدته المطوية باعتناء من بين ملابسه ناظراً الى الجميع بعينيه الصغيرتين المتحفزتين، معنى ذلك أن خمسة قروش قد سرقت من جيب ما - إذا كان هناك جيب فيه خمسة قروش - أو من مكان ما وأن شجاراً سيقع. ويظل جدي متمسكاً بالجريدة وهو يتصدى للأصوات بسكون الشيخ الذي عاش وقتاً كافياً للاستماع الى كل أنواع الضجيج والشجار دون أن يرى فيها ما يستحق الجواب أو الاهتمام.. وحين تهدأ الأصوات يميل على أقرب الصبيان اليه (ذلك أنه لم يكن يثق بالبنات) ويدفع له الصحيفة وهو يمسك بطرفها، كي لا تخطف.

وكنت مع عصام في العاشرة - كان أضخم مني قليلا كما هو الآن.. وكان يعتبر نفسه زعيم أخوته أبناء عمتي - كما كنت أعتبر نفسي زعيم إخوتي.. وبعد محاولات عديدة استطاع والـدي وزوج عمتي ان يجدا لنا مهنة يومية: نحمل السلة الكبيرة معاً ونسير حوالى ساعة وربع حتى نصل الى سوق الخضار بعد العصر بقليل. في ذلك الوقت أنت لا تعرف كيف يكون سوق الخضار: تكون الدكاكين قد بدأت بإغلاق أبوابها وآخر الشاحنات التي تعبأ بما تبقّى تستعد لمغادرة ذلك الشارع المزحوم. وكانت مهمتنا - عصام وأنا - هينة وصعبة في آن واحد. فقد كان يتعين علينا ان نجد ما نعبىء به سلتنا: أمام الدكاكين. وراء السيارات. وفوق المفارش أيضاً إذا كان المعنيّ في قيلولة أو داخل حانوته.

أقول لك إنه كان زمن الاشتباك: أنت لا تعرف كيف يمـر

المقاتل بين طلقتين طوال نهاره. كان عصام يندفع كالسهم ليخطف رأس ملفوف ممزق أو حزمة بصل، وربما تفاحة من بين عجلات الشاحنة وهي تتأهب للتحرك، وكنت أنا بدوري أتصدى للشياطين – أي بقية الأطفال – إذا ما حاولوا تناول برتقالة شهدتها في الوحل قبلهم. وكنا نعمل طوال العصر: نتشاجر عصام وأنا من جهة مع بقية الأطفال أو أصحاب الدكاكين أو السائقين أو رجال الشرطة أحياناً، ثم أتشاجر مع عصام فيما تبقى من الوقت.

كان ذلك زمن الاشتباك. أقول هذا لأنك لا تعرف: ان العالم وقتئذ يقف على رأسه، لا أحد يطالبه بالفضيلة.. سيبدو مضحكاً من يفعل.. أن تعيش كيفما كان وبأية وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة. حسناً؛ حين يموت المرء تموت الفضيلة أيضاً. أليس كذلك؟ إذن دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك أن تحقق الفضيلة الأولى، أي أن تحتفظ بنفسك حياً. وفيما عدا ذلك يأتي ثانياً. ولأنك في اشتباك مستمر فإنه لا يوجد ثانياً. أنت دائماً لا تنتهي من «أولا».

وكان يتعين علينا ان نحمل السلة معاً حين تمتلىء ونمضي عائدين الى البيت: ذلك كان طعامنا جميعاً لليوم التالي.. بالطبع كنا أنا وعصام متفقين على أن نأكل أجود ما في السلة على الطريق. ذلك اتفاق لم نناقشه أبداً، لم نعلن عنه أبداً. ولكنه يحدث وحده. ذلك أننا كنا معاً في زمن الاشتباك.

وكان الشتاء شديد القسوة ذلك العام، وكنا نحمل سلة ثقيلة حقاً، (هذا شيء لا أنساه، كأنك وقعت أثناء المعركة في خندق فاذا به يحوي سريرا) وكنت آكل تفاحة، فقد خرجنا من بوابة السوق وسرنا في الشارع الرئيسي. قطعنا ما يقرب من مسير عشر دقائق بين الناس والسيارات والحافلات وواجهات الدكاكين دون ان نتبادل كلمة (لأن السلة كانت ثقيلة وكنا نحن الاثنين منصرفين تماماً الى الأكل) وفجأة...

لا، هذا شيء لا يوصف. لا يمكن وصفه: كأنك على بعد نصل سكين من عدوك وأنت دون سلاح وإذا بك في اللحظة ذاتها تجلس في حضن أمك..

دعني أقول لك ما حدث: كنا نحمل السلة كما قلت لك وكان شرطي يقف في منتصف الطريق، وكان الشارع مبتلاً، وكنا تقريباً دون أحذية. ربما كنت أنظر الى حذاء الشرطي الثقيل والسميك حين شهدتها فجأة هناك: كان طرفها تحت حذائه أي كنت بعيداً حوالى ستة أمتار ولكنني عرفت، ربما من لونها، أنها أكثر من ليرة واحدة.

نحن في مثل هذه الحالات لا نفكر. يتحدثون عن الغريزة. طيب. أنا لا أعرف ما إذا كان لون الأوراق المالية شيئاً له علاقة بالغريزة. له علاقة بتلك القوة الوحشية، المجرمة، القادرة على الخنق في لحظة، الموجودة في أعماق كل منا. ولكن ما أعرفه هو أن المرء في زمن الاشتباك لا ينبغي له أن يفكر حين يرى ورقة مالية تحت حذاء الشرطي وهو يحمل سلة من الخضار الفاسد على بعد ستة أمتار. وهذا ما فعلته: ألقيت ببقايا التفاحة وتركت السلة في اللحظة ذاتها. ولا شك أن عصام تمايل فجأة تحت ثقل السلة التي تركت في يده ولكن كان قد شاهدها بعدي بلحظة واحدة. إلا أنني بالطبع اندفعت تحت وطأة القوة المجهولة التي تجبر وحيد القرن على هجوم أعمى، غايته آخر الأرض، ونطحت ساقي الشرطي بكتفي فتراجع مذعوراً. وكان توازني أنا الآخر قد اختل. ولكنني لم أقع على الأرض – وفي تلك اللحظة التي يحسب فيها الأغبياء أن لا شيء يمكن له ان يحدث – شاهدتها: كانت خمس ليرات. لم أشاهدها فحسب بل التقطتها واستكملت سقوطي. إلا أنني وقفت بأسرع مما سقطت وبدأت أركض بأسرع مما وقفت.

ومضى العالم بأجمعه يركض ورائي: صفارة الشرطي، وصوت

حذائه يقرع بلاط الشارع ورائي تماماً. صراخ عصام، أجراس الحافلات. نداء الناس.. هل كانوا حقاً ورائي؟ ليس بوسعك أن تقول وليس بوسعي أيضاً. لقد عدوت متأكداً حتى صميمي أن لا أحد في كل الكواكب السيارة يستطيع أن يمسكني. وبعقل طفل العشر سنوات سلكت طريقاً آخر. ربما لأنني حسبت أن عصام سيدل الشرطي على طريقي. لست أدري. لم ألتفت. كنت أركض ولا أذكر أنني تعبت.. كنت جندياً هرب من مَيدان حرب أجبر على خوضها وليس أمامه إلا أن يظل يعدو والعالم وراء كَعْبَيْ حذائه.

ووصلت البيت بعد الغروب، وحين فتح لي الباب شهدت ما كنت أشعر في أعماقي أنني سأشهده: كان السبعة عشر مخلوقاً في البيت ينتظرونني. وقد درسوني بسرعة، ولكن بدقة، حين وقفت في حلق الباب أبادلهم النظر: كفي مطبقة على الخمس ليرات في جيبي، وقدماي ثابتتان في الأرض.

كان عصام يقف بين أمه وأبيه، وكان غاضباً. لا شك أن شجاراً قد وقع بين العائلتين قبل مقدمي. واستنجدت بجدي الذي كان جالساً في الركن ملتحفاً بعباءته البنّية النظيفة ينظر اليّ بإعجاب: رجلا كان حكيمًا. رجلا حقيقياً يعرف كيف ينبغي له أن ينظر الى الدنيا. وكان كل ما يريده من الخمس ليرات: جريدة كبيرة هذه المرة.

وانتظرت الشجار بفارغ الصبر. كان عصام بالطبع قد كذب: قال لهم إنه هو الذي وجد الخمس ليرات وإنني أخذتها منه بالقوة. ليس ذلك فقط بل أجبرته على حمل السلة الثقيلة وحده طوال المسافة المنهكة: ألم أقل لك إنه زمن الاشتباك؟ لم يكن أي واحد منا مهتمًا بمناقشة عصام، بصدقه أوبكذبه، فذلك شيء لا يمكن أن يكون له أية قيمة. لم يكذب عصام فقط بل كان متأكداً أن أحداً لن يهتم بالحقيقة. ليس ذلك فقط بل إنه ارتضى أن يذل نفسه ويعلن ربما

للمرة الأولى أنني ضربته وأنني أقوى منه.. ولكن ما قيمة ذلك كله أمام المسألة الحقيقية الأولى؟

كان أبوه يفكر بشيء آخر تماماً: كان مستعدًّا لقبول نصف المبلغ وكان أبي يريد النصف الآخر؛ لأنني لو نجحت في الاحتفاظ بالمبلغ كله لصار من حقي وحدي، أما إذا تخليت عن هذا الحق فسأفقد كل شيء وسيتقاسمون المبلغ.

ولكنهم لم يكونوا يعرفون حقًّا ما معنى ان يكون الطفل ممسكاً بخمس ليرات في جيبه زمن الاشتباك.. وقد قلت لهم جميعاً بلهجة حملت لأول مرة في حياتي طابع التهديد بترك البيت والى الأبد: إن الخمس ليرات لي وحدي.

وأنت تعرف لا شك: جُن جنونهم، ضاع رابط الدم فوقفوا جميعاً ضديَ. لقد أنذروني أولا. ولكنني كنت مستعداً لما هو أكثر من ذلك ثم بدأوا يضربونني. وكان بوسعي بالطبع ان أدافع عن نفسي، ولكن لأنني أردت أن أحتفظ بكفي داخل جيبي مطبقة على الخمس ليرات فقد كان من العسير حقاً أن أتجنب الضربات المحكمة. وقد تفرج جدي على المعركة باستثارة باديء الأمر ثم لما بدأت المعركة تفقد طرافتها قام فوقف أمامهم، وبذلك يسر لي أن ألتصق به. اقترح تسوية. قال: إن الكبار لا حق لهم بالمبلغ ولكن من واجبي أن آخذ كل أطفال البيت ذات يوم صحو الى حيث نصرف جميعاً مبلغ الخمس ليرات كما نشاء.

عندها تقدمتُ الى الأمام معتزماً الرفض إلا أنني في اللحظة ذاتها شهدت في عينيه ما أمسكني. لم أفهم بالضبط آنذاك ما كان في عينيه، ولكنني شعرت فقط أنه كان يكذب وأنه كان يرجوني أن أصمت.

أنت تعرف أن طفل العشر سنوات - زمن الاشتباك - لا

يستطيع أن يفهم الأمور (إذا كان ثمة حاجة لفهمها) كما يستطيع عجوز مثل جدي. ولكن هذا هو ما حصل. كان يريد جريدته ربما كل يوم لمدة أسبوع - وكان يهمه أن يرضيني بأي ثمن.

وهكذا اتفقنا ذلك المساء. ولكنني كنت أعرف أن مهمتي لم تنته. فعليّ أن أحمي الليرات الخمس كل لحظات الليل والنهار. ثم علي أن أماطل بقية الأطفال. وعليّ أيضاً أن أواجه محاولات إقناع وتغرير لن تكفّ عنها أمي. قالت لي ذلك المساء: إن الليرات الخمس تشتري رطلين من اللحم، أو قميصاً جديداً لي، أو دواء حين تقتضي الحاجة، أو كتاباً إذا ما فكروا بإرسالي الى مدرسة مجانية في الصيف القادم... ولكن ما نفع الكلام؟ كأنها تطلب مني أن أعبر بين طلقتين، أن أنظف حذائي.

ولم أكن أعرف بالضبط ما كنت أنوي أن أفعل. ولكنني طوال الأسبوع الذي جاء بعد ذلك نجحت في مماطلة الأطفال، بآلاف من الكذبات التي كانوا يعرفون أنها كذلك ولكنهم لم يقولوا إطلاقاً إنها أكاذيب. لم تكن الفضيلة هنا. أنت تعلم. كانت مسألةً اخرى تدور حول الفضيلة الوحيدة آنذاك: الخمس ليرات.

ولكنّ جدّي كان يفهم الأمور وكان يريد جريدته ثمناً معادلا لدوره في القصة، وحين مضى الأسبوع بدأ يتململ. لقد شعر (من المؤكد أنه شعر؛ ذلك لأن رجلا عجوزاً مثله لا يمكن أن تفوته تلك الحقيقة) أنني لن أشتري له الجريدة، وأنه فقد فرصته، ولكنه لم يكن يمتلك أية وسيلة لاستردادها.

وحين مرت عشرة أيام أخرى اعتقد الجميع أنني صرفت الليرات الخمس، وأن يدي في جيبي تقبض على فراغ. على خديعة. ولكنّ جدّي كان يعرف أن الليرات الخمس ما تزال في جيبي. وفي الواقع قام ذات ليلة بمحاولة لسحبها من جيبي وأنا مستغرق في النوم،

(كنت أنام بملابسي) إلا انني صحوت فتراجع الى فراشه ونام دونما كلمة.

قلت لك: إنه زمن الاشتباك. كان جدي حزيناً لأنه لم يحصل على جريدة وليس لأنني نكثت بوعد لم يُتّفق عليه. كان يفهم زمن الاشتباك، ولذلك لم يلمني طوال السنتين اللتين عاشهما بعد ذلك على ما فعلته. وقد نسي عصام القصة أيضاً. كان في أعماقه - كطفل صعب المراس - يفهم تماماً ما حدث. واصلنا رحلاتنا اليومية الى سوق الخضار، كنا نتشاجر أقل من أي وقت مضى ونتحادث قليلا. يبدو أن شيئاً ما - جداراً مجهولا ارتفع فجأة بينه - هو الذي ما زال في الاشتباك - وأنا الذي تنفست - ليس يدرى كم - هواء آخر.

وأذكر أنني احتفظت بالخمس ليرات في جيبي طوال الخمسة أسابيع: كنت أعد خروجاً لائقاً بها في زمن الاشتباك. إلا أن كل شيء حين يقترب من التنفيذ كان يبدو وكأنه جسر للعودة الى زمن الاشتباك وليس للخروج منه.

كيف تستطيع أن تفهم ذلك؟ كان بقاء الليرات الخمس معي شيئاً يفوق استعمالها. كانت تبدو في جيبي وكأنها مفتاح أمتلكه في راحتي وأستطيع في أية لحظة أن أفتح باب الخروج وأمضي. ولكن حين كنت أقترب من القفل كنت أشم وراء الباب زمن اشتباك آخر، أبعد مدًى، كأنّه عودة الى بداية الطريق من جديد.

وما بقي ليس مهمًّا: ذات يوم مضيت مع عصام الى السوق، وقد اندفعت لأخطف حزمة من السلق كانت أمام عجلات شاحنة تتحرك ببطء. وفي اللحظة الأخيرة زلقت وسقطت تحت الشاحنة. كان حظي جيداً فلم تمر العجلات فوق ساقي، إنما توقفت بالضبط بعد ملامستها. وعلى أية حال صحوت من إغمائي في المستشفى. وكان أول ما فعلته - كما لا شك تخمن - أن تفقدت الخمس ليرات. إلا أنها لم تكن هناك.

أعتقد أن عصام هو الذي أخذها حين حملوه معي في السيارة الى المستشفى. ولكنه لم يقل وأنا لم أسأل. كنا نتبادل النظر فقط ونفهم. لا، لم أكن غاضباً لأنه كان ملهيًّا وأنا أنزف دمي بأخذ الليرات الخمس. كنت حزيناً فقط لأنني فقدتها.

وأنت لن تفهم. ذلك كان في زمن الاشتباك.

مناقشات وتمرينات

١ - تجد في قصة غسان كنفاني ثلاثة معان - على الأقل - بتعبير «زمن الاشتباك» حدد هذه المعاني محللا إياها بالتفصيل.

٢ - يميز الكاتب بين «الحرب» و «الاشتباك»، لماذا؟ ما هو الفرق بينهما؟

٣ - اختلال القيم الأخلاقية زمن الحرب من القضايا المسلّم بها لدى غسان كنفاني في قصته. كيف؟

٤ - لاحظ قول غسان «وكان الجوع - **الذي تسمع عنه** - هنا اليومي». لمَ يقول ذلك على هذا النحو؟

٥ - قال توكيديدس (Thucydides) في تأريخه للحرب الأهلية في كوركيرا (كورفو اليوم في اليونان): إن من لم يشترك في الحرب كان يغضب عليه كلا الفريقين المتحاربين لغير سبب واحد: من ذلك أنه كان يحاول الحياة بينما كانوا هم يموتون. كيف تطبق هذا القول في نطاق الفقر - مقابل الخمس ليرات؟

٦ - هل تعتقد أنه كان مهمًّا - فنّيًّا - أن يصرح غسان باسم الشخص الذي أخذ الليرات الخمس؟ لماذا؟

٧ - شخصية الجد شخصية ليس لها قيم. لماذا رسمها الكاتب بهذا الشكل؟

٨ - هل يريد الكاتب أن يفهمنا ان القيم تتغير بتغيُّر نسبة الملكية؟ وإلا فلماذا اضطربت العلاقات والنظرات بعد العثور على الفئة النقدية المذكورة؟

-٢-
البعد التاريخيّ

-٣٦-

خالد يجتاز المفازة *

وكتب أبو بكر إلى خالد وهو بالحِيرة يأمره أن يمُدَّ أهلَ الشام بمن معه من أهلِ القوّة، ويخرجَ فيهم ويستخلفَ على ضَعَفَةِ الناس رجلاً منهم، فلما أتى خالداً كتابُ أبي بكر بذلك قال خالد: هذا عمل الأُعَيْسِر ابنِ أمِّ شَمْلةَ - يعني عمرَ بن الخطّاب - حسدني أن يكون فتحُ العراق على يدي[١]. فسار خالد بأهل القوّة من الناس وردّ الضعفاء والنساء إلى المدينة - مدينةِ رسول‌الله صلّى‌الله عليه وسلّم - وأمّر عليهم عُمير بن سعد الأنصاري. واستخلف خالدٌ على من أسلم بالعراق من ربيعة وغيرهم المُثنّى بنَ حارثةَ الشيباني ثمّ سار حتى نزل عل عين التمر فأغار على أهلها فأصاب منهم... ثمّ أراد السير مفوّزاً[٢] من قُراقر وهو ماء لكلب إلى سُوَى وهو ماء لبَهْراء[٣] بينهما خمس ليالٍ، فلم يهتدِ خالدٌ الطريقَ، فالتمس دليلاً فدُلّ على رافع ابن عميرة الطائيّ فقال له خالد: أنطلقْ بالناس، فقال له رافع: إنّك لن تُطيقَ ذلك بالخيل والأثقال، والله إنّ الراكب المفرد ليخافها على

(*) من تاريخ الطبري (الطبعة الأوروبية) ١: ٢١٢١-٢١٢٣.

(١) هذا يشير الى عدم ارتياح خالد بن الوليد لرأي عمر بن الخطّاب فيه، بينما كان أبو بكر الصديق يرى في خالد قائداً قديراً.

(٢) المفوِّز: الذي يقطع المفازة وهي الصحراء التي يعزُّ فيها الماء، ويفوّز قاطعها أي يهلك أو يُخشى عليه الهلاك.

(٣) كلب وبهراء قبيلتان.

نفسه وما يسلكها إلّا مغرّراً[١]، إنّها لخمس ليالٍ جيادٍ[٢] لا يُصاب فيها ماء مع مَضَلَّتها[٣]، فقال له خالد: ويحك إنّه والله إنْ لي بدّ[٤] من ذلك، إنّه قد أتتني من الأمير عزمة بذلك، فمُر بأمرك، قال: استكثروا من الماء، من استطاع منكم أن يَصُرّ[٥] أُذُنَ ناقته على ماء فليفعل، فإنها المهالك الّا ما دَفَعَ الله، ابغني عشرين جزوراً عظاماً سماناً مَسانّ، فأتاه بهنّ خالد، فعمد إليهنّ رافع فظمّأهنّ حتى إذا أجهدهنّ عطشاً أوردهنّ فشربن، حتى إذا تملأن عمد إليهنّ فقطع مشافرهنّ ثمّ كعمهنّ[٦] لئلاّ يجترِرن... ثمّ قال لخالد: سِرْ، فسار خالد معه مُغِذّاً[٧] بالخيول والأثقال، فكلّما نزل منزلاً افتظّ[٨] أربعاً من تلك الشوارف[٩] فأخذ ما في أكراشها فسقاه الخيلَ، ثمّ شرب الناس مما حملوا معهم من الماء، فلما خشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة وهو أرمد: ويحك يا رافع ما عندك؟ قال: أدركتَ الريَّ إن شاء الله، فلما دنا من العلمين[١٠] قال للناس: انظروا هل تَرون شُجَيرة من عوسجٍ كقعدة الرجل؟ قالوا: ما نراها، قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، هلكتم والله إذاً وهلكت، لا أبا لكم انظروا، فطلبوا فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقيّة، فلما رآها المسلمون كبّروا وكبّر رافع بن عميرة ثم قال: احفروا في أصلها فحفروا، فاستخرجوا عينا فشربوا حتى روي

---

(١) مغرّراً: مخاطراً.
(٢) جياد: جمع جَيّدة، اي كاملة.
(٣) أرض مُضِلّة: تُضِلّ من يسلكها.
(٤) إن لي بدّ: ما لي بدّ.
(٥) يصرّ: يربط.
(٦) كعم البعير: وضع في فمه كعامة - من حبل أو غيره - يمنعه من الأكل والشرب.
(٧) مُغذّاً: مسرعاً.
(٨) افتظّ: استخرج الماء الذي في الكرش.
(٩) الشوارف: جمع شارفة وهي الناقة المسنّة.
(١٠) العلم: الجبل. والإشارة هنا إلى جبلين على مسيرة يوم من دومة الجندل.

الناس، فاتّصلت بعد ذلك لخالد المنازل، فقال رافع: والله ما وردتُ هذا الماء قطّ إلاّ مرة واحدة، وردته مع أبي وأنا غلام.

مناقشات وتمرينات

(١) لماذا حوّل أبو بكر خالداً من العراق إلى الشام؟ (كان أمراء الجيوش التي أرسلها أبو بكر إلى الشام قد بعثوا إلى أبي بكر يطلبون مددا بعد إذ رأوا كثرة حشود الروم).

(٢) هل كان خالد في محاولته «اختصار الطريق» يحقّق غايات أخرى سوى تلبيته لما سمّاه «عزمة» أمير المؤمنين؟

(٣) علّق على وصف الدليل الذي وُكِلَ إليه أمر تلك المغامرة بأنّه كان «أرمد».

(٤) أين تبلغ القصّة ذروتها؟

(٥) هل ترى مسوّغاً لتردّد عمر في الاعتماد على خالد بعد أن تقرأ عن ركوبه المخاطر؟

(٦) كيف يمكن أن تطوّر هذه «الحادثة» التي شرحت باقتصاد وإيجاز لتغدو قصّة، معتمداً عنصري المغامرة والمفاجأة؟

-٣٧-

تمصير الكوفة *

بعد أن فتح المسلمون المدائن أرادوا اتّخاذها منزلاً؛ فكثر على الناس الذباب، وأصابهم البعوض، فكتب سعد[١] إلى عمر يعلمه أنّ الناس قد بُعضوا وتأذَّوْا بذلك، فكتب إليه عمر: إن العرب بمنزلة الإبل لا يُصلحها إلّا ما يُصلح الإبل، فارتدْ لهم موضعاً عَدِناً[٢]، ولا تجعلْ بيني وبينهم بحراً.

وولّى الاختطاط[٣] للناس أبا الهيّاج الأسدي عمرو بنَ مالك ابن جُنادة.

ثمّ إنّ عبد المسيح بن بُقَيلة أتى سعداً وقال له: أدلّك على أرض انحدرت عن الفلاة، وارتفعت عن المباقّ[٤]؛ فدلّه على موضع الكوفة اليوم، وكان يقال لها سورستان، فلما انتهى إلى موضع مسجدها، أمر رجلاً فغلا بسهم[٥] قِبَلَ مهبّ القبلة فأعلم على موقعه، ثمّ غلا بسهم آخر قِبَلَ مهبِّ الشمال وأعلم على موقعه، ثمّ

(*) من كتاب فتوح البلدان للبلاذري (القاهرة، ١٩٥٦) ص ٣٣٨-٣٤٠.
(١) سعد بن أبي وقّاص: قائد الجيوش في «الجبهة» الشرقية، وبطل معركة القادسية.
(٢) عدن: تألفه الإبل لِتَوَفُّر المرعى فيه.
(٣) الاختطاط: تقسيم الخطط (أي الأحياء والمنازل) عند تأسيس مدينة.
(٤) المباقّ: الأراضي التي يكثر فيها البقّ.
(٥) غلا بالسهم: رفع يده به ليقذفه فيصيب أقصى الغاية؛ والغلوة: مسافة رمية سهم.

غلا بسهم قبل مهبّ الجنوب وأعلم على موقعه، ثمّ غلا بسهم قبل مهبّ الصَّبا[١] فأعلم على موقعه، ثمّ وضع مسجدها، ودار إمارتها في مقام الغالي[٢] وما حوله، وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنّه من خرج بسهمه أوّلاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما، فخرج أهل اليمن، فصارت خططهم في الجانب الشرقيّ، وصارت خطط نزار في الجانب الغربيّ من وراء تلك العلامات، وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الإمارة.

ثمّ إنّ المغيرة بن شعبة[٣] وسّع المسجد وبناه زياد[٤] فأحكمه... وكان زياد يقول: أنفقت على كلّ أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مائة... وكان سبب إلقاء الحصى في مسجد الكوفة، وفي مسجد البصرة أنّ الناس كانوا يصلّون فإذا رفعوا أيديهم وقد تَرِبَتْ نفضوها، فقال زياد: ما أخوفَني أن يظنّ الناس على غابر الأيام أنّ نفضَ الأيدي سُنَّةٌ في الصلاة، فزاد في المسجد ووسّعه وأمر بالحصى فجمع، وألقي في صحن المسجد، وكان الموكلون بجمعه يتعنّتون[٥] الناس ويقولون لمن وَظّفوه عليه: إيتونا به على ما نُريكم، وانتقوا منه ضروبا اختاروها؛ فكانوا يطلبون ما أشبهها، فأصابوا مالاً، فقيل: حبّذا الإمارة ولو على الحجارة؛ وقال أبوعبيدة: إنّما قيل ذلك لأنّ الحجّاج بن عَتيك الثقفي أو ابنه تولّى قطع حجارة أساطين مسجد البصرة من جبل الأهواز فظهر له مال، فقال الناس:

(١) الصَّبا: الريح الشرقية.
(٢) الغالي والمغالي: رامي السهام.
(٣) المغيرة بن شعبة: ولي الكوفة في عهد عمر بن الخطاب ثم وليها في عهد معاوية بن أبي سفيان وتوفيّ سنة ٥٠هـ.
(٤) زياد بن أبيه (أو زياد بن أبي سفيان): ولي الكوفة مضافة الى البصرة بعد وفاة المغيرة.
(٥) التعنّت: التشدّد.

حبّذا الإمارة ولو على الحجارة. وقال أبو عبيدة[1]: وكان تكويف الكوفة[2] في سنة ١٨[3].

مناقشات وتمرينات

١ - لدراسة تفصيلات أخرى حول تمصير الكوفة راجع الطبري (الطبعة الأوروبية) ١: ٢٤٨١-٢٤٩٦.

٢ - كيف «تترجم» رأي عمر في المناخ الصالح للعرب، بلغة العلم الحديث؟

٣ - ارسم صورة تقريبية للكوفة في أول عهدها.

٤ - هل تعدّ الخطة في تأسيس الكوفة نموذجاً لغيرها من المدن (البصرة - الفسطاط - القيروان... إلخ).

٥ - لماذا تقدّر أن فرش الحصى في المسجد (بعد التراب) سيتطلّب في المستقبل تغييراً؟

٦ - هل كان من الممكن تلافي التوزيع القبلي في التخطيط؟ ما الأخطار الكامنة في مثل هذا التوزيع وما الأسباب التي دعت إليه حينئذ؟

---

(١) هو الراوية اللغوي النحوي معمر بن المثنى (توفي حوالى ٢١١/٨٢٦).

(٢) تكويف الكوفة: تأسيسها؛ تمصيرها (أي اتخاذها مِصراً).

(٣) هناك اختلاف حول السنة التي تم فيها تأسيس الكوفة.

-٣٨-

خبر الكاهنة*

لمّا دخل حسّان بن النعمان[1] القيروان أراح بها أياماً ثم سأل: «من أعظم ملوك أفريقية؟ وإذا قتل أو قهر دانت أفريقية لقاتله ويئس الروم والبربر من أنفسهم؟» فقيل له: «امرأة يقال لها الكاهنة، وهي في جبل أوراس[2]، وجميع من بأفريقية خائفون منها، والروم سامعون لها مطيعون، فإن قتلتها يئس الروم والبربر أن يكون لهم ملجأ». فلما سمع بذلك حسّان عزم على قصدها، فخرج إليها بجيوشه... وبلغ الكاهنةَ أمرُه، فزحفت من جبل «أوراس» في عدد لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ، فنزلت بمدينة «باغاي»[3]. فأخرجت من بها وهدمتها، وظنّت أنّ حسّان يريد حصنها يتحصّن به؛ ثمّ اقبل حسّان حين بلغه الخبر الى وادي مسكيانة[4]، فقيل له إنها قد أقبلت في عدد لا يحصي ما هم إلاّ الله تعالى، فقال لهم: «دُلّوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه»، فمالوا به الى نهر فنزل عليه، وزحفت اليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه، فكان يشرب هو وأصحابه من اعلاه وتشرب

(*) من كتاب «رياض النفوس» للمالكي (القاهرة، ١٩٥١) ١: ٣٢ - ٣٦، والبيان المغرب لابن عذاري (ليدن، ١٩٤٨) ص ٣٥ - ٣٨.

(١) ولاّه عبد الملك بن مروان افريقية سنة ٧٨هـ.

(٢) جبل أوراس في بلاد الجزائر، في الشمال الشرقي منها.

(٣) مدينة بالجزائر، وتقع على بعد خمسين كيلومتراً الى الجنوب الغربي من العين البيضاء.

(٤) مسكيانة: في شرق الجزائر.

هي وأصحابها من أسفل النهر. فلما دنا بعضهم من بعض وتواقفت الخيل أبى حسّان أن يقاتلهم بالليل، فوقف كلّ قوم على مصافّهم، فلما أصبحوا زحف بعضهم الى بعض، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فعظم البلاء، وظنّ المسلمون أنّه الفناء، وانهزم حسّان بعد بلاء عظيم، وقتل من العرب خلق كثير، فسميّ ذلك اليوم «يوم البلاء». فاتبعته الكاهنة بمن معها، حتى خرج من حدّ «قابس» فأسلم أفريقية ومضى على وجهه، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً، منهم خالد بن يزيد العبسي، وكان رجلاً مذكوراً . . .

ثمّ إن امير المؤمنين عبد الملك بن مروان كتب اليه: «إنه قد بلغني أمرُك وما لقيت وما لقي المسلمون، فانظر حيث لقيت كتابي هذا، فأقِمْ ولا تبرح حتى يأتيك أمري»، فلقيه الكتاب وهو نازل بمكان يقال له اليوم «قصور حسّان» فبنى هنالك قصراً لنفسه، وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين، وملكت الكاهنة أفريقية كلّها. فلما رأت ابطاء العرب عنها قالت للبربر: إن العرب انما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن انما نريد منها المزارع والمراعي، فلا أرى لكم إلاّ خراب بلاد أفريقية كلها حتى يَيْئِسَ منها العرب، فلا يكون لهم رجوع اليها آخر الدهر. فوجهت قومها الى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون. فذكروا ان افريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس الى طنجة، وقرى متصلة ومدائن منتظمة . . . فخربت الكاهنة ذلك كله.

وكانت الكاهنة حين اسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسّان فكّت[1] إسارهم إلاّ رجلاً واحداً هو خالد بن يزيد العبسي، وكان أذكَر من كان مع حسّان، فحبسته عندها، ثم عمدت الى دقيق

(١) في الأصل: اساءت؛ وقد جاء في البيان المغرب لابن عذاري (١: ٣٧) «احسنت اليهم وأرسلت بهم الى حسان، وحبست عندها خالد بن يزيد».

شعير مقلوّ فأمرت به فَلُتَّ بزيت، والبربر تسّمي ذلك «البسيسة»، ثم دعت خالد بن يزيد وابنين لها، فأمرتهم فأكلوا ثلاثتهم منها، وقالت لهم: «انتم قد صرتم إخوة»، وذلك عند البربر من أعظم العهد في جاهليتهم إذا فعلوه.

ثمّ إنّ حسّان بعث رسولاً الى خالد - وهو عند الكاهنة - يقول له: «مالك لا تكاتبنا بخبر الكاهنة؟» فكتب خالد خطاباً الى حسّان مع رسوله في مَلَّةِ خُبْزٍ[1] قد أنضجها، ثم دفعها الى الرسول ليُخفي الكتاب، وليظنّ من رأى الخبزة أنّه زادُ ذلك الرجل، فلم يغب شخص الرجل الرسول حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت: «يا ويلكم يا معشر البربر ذهب ملككم في ما يأكله الناس». فتفرق الناس يطلبون الرسول، فستره الله حتى وصل معسكر حسان. ثم إن حسان رحل بجنوده اليها، فخرجت ناشرة شعرها وقالت: «يابنيّ؛ انظروا ماذا ترون في السماء» قالوا: «نرى شيئاً من سحاب احمر» فقالت: «لا والهي! ما هي إلاّ وَهَجُ خيلِ العرب قد اقبلت عليكم». ومضى حسان ومن معه يريد الكاهنة، فوصل الى «قابس» فلقيته الكاهنة في جيوش عظيمة، فقاتلهم حسّان فهزمهم الله عزّ وجلّ، وهربت الكاهنة تريد جبال أوراس، ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبده، يُحْمَل بين يديها على جمل، فتبعها حسّان حتى قرب من موضعها، فلما كان الليل قالت الكاهنة لابنيها: «إنيّ مقتولة، وأرى رأسي تركض به الدواب مقطوعاً تمضي به الى المشرق من حيث تطلع الشمس، وأراه موضوعاً بين يدي الملك - ملك العرب الأعظم - الذي بعث الينا بهذا الرجل». فقال لها خالد وولداها: «فإذا كان الأمر عندك هكذا، فارحلي له من البلاد»، فقالت له: «كيف، وأنا ملكة من الملوك، والملوك لا تفرّ من الموت، فأُقلّد قومي عاراً الى آخر الدهر».

(١) خبز المَلّة: خبز ينضج بملّه، أي بإدخاله في الرماد الحارّ.

. . . فقال لها خالد وولداها: «فما نحن صانعون؟» فقالت: «أما أنت يا خالد فستنال ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم، وأمّا أولادي فسيدركون ملكاً بأفريقية مع هذا الملك الذي يقتلني». ثم قالت لهم: «اركبوا وأسلموا انفسكم اليه». فركب خالد بن يزيد وولداها في الليل وتوجّهوا الى حسّان.

فلمّا أصبح حسّان زحف اليها، وأقبلت الكاهنة زاحفة إليه، فلقيت الخيلُ خالداً وولديها فسلّموا عليهم، ومضوا بهم إلى حسّان، فدخل خالد على حسان وأخبره بما قالت الكاهنة، وأنها وجّهت اليه بولديها، فأمر بهما حسان، فأدخلها في عسكره، ووكّل بهما أقواماً. وقدم خالداً على أعنة الخيل، فالتقى القوم، ووضعوا السلاح بعضهم على بعض، وصبروا حتّى ظنّ القوم من المسلمين أنه الفناء، فانهزمت الكاهنة وقتلت عند بئر فسماه المسلمون «بئر الكاهنة» فنزل حسّان على الموضع الذي قتلت فيه؛ وعقد لولدي الكاهنة بعد إسلامهما لكلّ واحد منهما على ستة الآف فارس من البربر وجعله والياً عليهم، وأخرجهم مع العرب يفتحون افريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر، فمن ذلك صارت الخطط للبربر بأفريقية، فكان يقسم الفيء بينهم والأرض وحسنت طاعتهم، فدانت له أفريقية، ودوّن الدواوين.

مناقشات وتمرينات

١ - على أي العناصر كان يعتمد حسّان بن النعمان في خططه الحربية؟ وعلى أي العناصر كانت تعتمد الكاهنة في خططها؟
٢ - كيف تفسّر «القوة الغيبية» التي كانت تتمتّع بها الكاهنة؟
٣ - إذا كانت الكاهنة تتمتّع بتلك القوّة فكيف غاب عنها دور خالد ابن يزيد وكيف تؤاخي بينه وبين ولديها؟
٤ - في قصة الكاهنة عناصر مستمدّة من روافد مختلفة: ما هي تلك الروافد؟

٥ - هل شعيرة التآخي (بأكل الخبز والملح) وقف على البربر؟
٦ - ربّما كانت سياسة «حسان» من أنجح الخطط - عملياً - في تعريب «افريقية»: ما هي تلك السياسة وكيف أدّت ثمراتها؟
٧ - أوجز المؤلّف بقوله: «ودوّن الدواوين». ما المعاني المنضوية تحت هذه العبارة؟
٨ - خبر الكاهنة - وما يتعلّق به من تفصيلات في المصادر الأخرى - مادّة صالحة **لقصة**: (ما هي نقطة الضعف التي لا بدّ للقاصّ من تجنّبها هنا وهو يعتمد على الأخبار والروايات التاريخية أو الأسطورية؟ هل يصلح دور البطولة مع رؤية مسبقة للمصير؟ ناقش هذه الناحية).

-٣٩-

جمل من شؤون معاوية للمسعودي*

كان من أخلاق معاوية أنّه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات؛ كان إذا صلّى الفجر جلس للقاصّ حتّى يفرغ من قصصه، ثمّ يدخل فيقرأ جزءه، ثمّ يدخل الى منزله فيأمر وينهى، ثمّ يصلّي أربع ركعات، ثمّ يخرج الى مجلسه فيأذن لخاصّة الخاصة فيحدثهم ويحدّثونه، ويدخل عليه وزراؤه فيكلّمونه فيما يريدونه من يومهم الى العشي، ثم يؤتى بالغداء الأصغر وهو فضلة عشاء الليل من جدي بارد أو فرخ أو ما يشبهه، ثمّ يتحدّث طويلاً، ثمّ يدخل الى منزله لما أراد.

ثمّ يخرج فيقول: «يا غلام أخرج الكرسيّ»؛ فيخرج الى المسجد فيوضع فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي ويقوم الأحراس، فيتقدم اليه الضعيف والأعرابي والصبيّ والمرأة ومن لا أحد له فيقول: «ظُلمتُ»، فيقول: «أعزّوه»؛ ويقول: «عُدِي علي»، فيقول: «ابعثوا معه»؛ ويقول: «صُنع بي»، فيقول: «انظروا في أمره»؛ حتّى إذا لم يبقَ أحد، دخل فجلس على السرير؛ ثم يقول: «ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يَشْغَلْني أحد عن ردّ السلام»، فيقال: «كيف أصبح أمير المؤمنين؟ - أطال الله بقاه -»، فيقول: «بنعمة من الله»؛ فإذا استووا جلوساً قال: «يا هؤلاء إنّما سُمِّيْتُم أشرافاً لأنكم شرّفتم من دونكم بهذا المجلس؛ ارفعوا الينا حاجة من

(*) من كتاب مروج الذهب للمسعودي (تحقيق شارل بلا، بيروت، ١٩٧٠) ٣: ٢٢٠ - ٢٢٢.

لا يصل إلينا»؛ فيقوم الرجل فيقول: «استُشْهد فلان» -فيقول: «افرضوا لولده»[١]، ويقول آخر: «غاب فلان عن أهله» - فيقول: «تعاهدوهم، أعطوهم، اقضوا حوائجهم، اخدموهم».

ثمّ يؤتىَ بالغداء، ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له: «اجلس على المائدة»، فيجلس فيمدّ يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه بأمره فيقول: «يا عبد الله اعقب»، فيقوم ويتقدّم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلّهم، وربّما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء ويقال للناس: «أجيزوا»[٢]، فينصرفون؛ فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلي، ثمّ يدخل فيصلّي أربع ركعات ثمّ يجلس فيأذن لخاصة الخاصة.

فإن كان الوقت شتاء أتاهم بزاد الحاجّ من الأخبصة اليابسة والخُشْكَنانج[٣] والأقراص المعجونة باللبن والسكّر ودقيق السّميد والكعك المسمّن[٤] والفواكه اليابسة؛ وإن كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة؛ ويدخل اليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقيّة يومهم، ويجلس الى العصر، ثمّ يخرج فيصلي العصر، ثمّ يدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع، حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره، ويُؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما يُنادَى بالمغرب، ولا يُدعى له بأصحاب الحوائج، ثمّ يرفع العشاء وينادى بالمغرب، فيصلّي ثمّ يصلي بعدها أربع ركعات، يقرأ في كلّ ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى.

ثمّ يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة

(١) افرضوا لولده: أعطوه الفريضة وهي العطاء أو المرتّب.
(٢) أجيزوا: كلمة اصطلاحية تقال إيذاناً بالانصراف.
(٣) الخشكنانج: نوع من الحلوى يسمى في بعض البلاد «المكفّن».
(٤) المسمّن: الملتوت بالسمن.

فيخرج فيصلّي، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية، فيؤ امره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم ويسمرُ ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياساتها وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياساتها لرعيّتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة؛ ثمّ تأتيه الطُرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثمّ يدخل فينام ثلث الليل، ثمّ يقوم فيقعد، فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتّبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها، فيمر بسمعه كلّ ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثمّ يخرج فيصلّي الصبح. ثمّ يعود فيفعل ما وصفنا، في كلّ يوم.

وقد كان يمّم بأخلاقه جماعةٌ بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ولا إتقانه للسياسة ولا التأتي للأمور ولا مداراته للناس على منازلهم ورفقه بهم على طبقاتهم.

مناقشات وتمرينات

١ - كان معاوية يأذن خمس مرات في اليوم والليلة: من كان يقابل في كلّ مرّة وما هي المهمّات التي كانت تؤدي؟

٢ - هل تجد في مصطلحي «خاصة الخاصة» و«الوزراء» تجوّزاً في الاستعمال هنا؟

٣ - هل هناك مبالغة في عدد الوجبات وفي أنواع الأكل التي تقدّم يومياً؟

٤ - ما الناحية الثقافية التي كانت تهمّ معاوية؟

٥ - ما هي الأشياء الهامّة التي سقطت من هذا البرنامج اليومي والتي لا بدّ أن تعطّل جانباً من الروتين فيه؟ (أين تفقّد البريد؛ مهمّات ديوان الرسائل...؟ الخ).

٦ - إذا علمت أن المسعودي ذو ميل شيعي فكيف يكون حكمك على هذه القطعة؟

سفارة الغَزَال*

ولما وفد على السلطان عبد الرحمن[١] رسلُ ملك المجوس[٢] تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية، وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها، وقتْل قائدِ الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر الغزال[٣] أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم، لما كان الغزال عليه من حدّة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنّجدة والاقدام والدخول والخروج من كلّ باب، وصُحْبَتَهُ يحيى بن حبيب، فنهض الى مدينة شِلب[٤]، وقد أنشىء لهما مركبٌ حَسَنٌ كاملُ الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفىء على هديّته، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب الغزال، فلما حاذوا الطّرف الأعظم الداخل في البحر الذي هو حدّ الأندلس في آخر

(*) من كتاب المطرب لابن دحية الكلبي (القاهرة، ١٩٥٤) ص ١٣٨ - ١٤٣.

(١) هو عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثاني) أمير الأندلس (٢٠٦- ٢٣٨ / ٨٢١- ٨٥٢).

(٢) المجوس: اسم اطلقه عرب الأندلس على الشماليين (Norse-men) الذين يعتقد أنهم هم (Vikings)، وإنما سموهم مجوساً لأنهم راوهم يوقدون النيران فظنّوا انهم يعبدونها، وقد هاجموا الأندلس سنة ٢٣٠ ووصلوا حتى إشبيلية وقتلوا كثيراً من أهلها، وعاثوا فساداً ونهباً في غيرها من المدن.

(٣) هو يحيى بن حكم الجياني (-٢٥٠ / ٨٦٤): شاعر أندلسي، لُقب الغزال لجماله، وكان محطَ ثقة الأمراء الأمويين بالأندلس.

(٤) شلب (Silves): مدينة تقع اليوم في البرتغال.

الغرب، وهو الجبل المعروف بألوية هاج عليهم البحر، وعصفت بهم ريح شديدة. . . . .

ثمّ إنّ الغزال سلم من هول تلك البحار، وركوب الاخطار، ووصل أوّل بلاد المجوس الى جزيرة من جزائرها فأقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم، وأجمّوا أنفسهم(١). وتقدم مركب المجوس الى ملكهم، فأعلمه بلحاق الرّسل معهم، فسرّ بذلك ووجّه فيهم، فمشوا اليه الى مستقر ملكه، وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط، فيها مياه مطّردة(٢) وجنّات، وبينها وبين البرّ ثلاث مجار، وهي ثلاثمائة ميل، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم. وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة، منها صغار وكبار، أهلها كلّهم مجوس، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيّام، وهم مجوس (وهم اليوم على دين النصرانية وقد تركوا عبادة النار ودينَهم الذي كانوا عليه، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائرَ منقطعة لهم في البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار). . .

فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم، وأخرج اليهم من يلقاهم، واحتفل المجوس لِرؤيتهم. فرأوا العجبَ العجيب من أشكالهم وأزيائهم. ثمّ إنهم أُنزلوا في كرامة، وأقاموا يومهم ذلك، واستدعاهم بعد يومين الى رؤيته، فاشترط الغزال عليه ألاّ يسجدَ له ولا يُخرجَهما عن شيء من سُنتّهما، فأجابهما الى ذلك. فلما مشيا اليه قعد لهما في أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذي يُفضي إليه، فضُيّق حتى لا يدخلَ عليه أحدٌ إلاّ راكعاً، فلما وصل اليه جلس الى الأرض وقدم رجليه وزحف على أليته زحفةً، فلما جاز البابَ استوى واقفاً، والملك قد أعد له وأحفلٍ في السّلاح والزّينة الكاملة، فما هاله ذلك ولا ذعره، بل قام ماثلا بين يديه، فقال: السّلام عليك أيها الملك وعلى

(١) أجمّوا أنفسهم: استراحوا.
(٢) مطّردة: جارية.

من ضمّه مشهدك، والتحيّة الكريمة لك، ولا زلت تُمَتَّعُ بالعزّ والبقاء والكرامة الماضية بك الى شرف الدنيا والآخرة، المتّصلة بالدوام في جوار الحيّ القيّوم، الذي كلّ شيء هالك إلاّ وجهه، له الحكم واليه المرجع. ففسّر له التّرجمان ما قاله، فأعظم الكلام، وقال: هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم، وعجب من جلوسه الى الأرض وتقديمه رجليه في الدخول، وقال: أردنا أن نُذلّه، فقابل وجوهنا بنعليه! ولولا أنّه رسول لأنكرنا ذلك عليه. ثمّ دفع اليه كتاب السلطان عبد الرحمن وقرىء عليه الكتاب، وفُسِّرَ له، فاستحسنه وأخذه في يده، فرفعه ثمّ وضعه في حجره، وأمر بالهديّة ففُتحت عيابُها(١)، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني فأعجب بها، وأمر بهم فانصرفوا الى منزلهم ووسّع الجراية عليهم.

وللغزال معهم مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة؛ في بعضها جادل علماءهم فبكّتهم(٢)، وفي بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم(٣).

ولمّا سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجّهت فيه لتراه، فلما دخل عليها سلّم، ثمّ شخص فيها طويلاً ينظرها نظرَ المتعجّب. فقالت لترجمانها: سله عن إدمان نظره لماذا هو؟ ألفرط استحسان أم لضدّ ذلك؟ فقال: ما هو إلاّ أني لم أتوهم أنّ في العالم منظراً مثل هذا، وقد رأيت عند ملكنا نساء، انتخبن له من جميع الأمم فلم أرَ فيهنّ حسناً يشبه هذا. فقالت لترجمانها: سله أجدّ هو أم هازل؟ فقال: لا ، بل مجدّ. فقالت له: فليس في بلدهم إذاً جمال! فقال الغزال: فاعرضوا عليّ من نسائكم حتى أقيسها بها. فوجّهت الملكة في نساء معلومات بالجمال فحضرن، فصعّد فيهنّ وصوّب ثم قال: فيهنّ جمال

(١) العياب: جمع عيبة وهي الحقيبة.
(٢) بكّتهم: غلبهم بالحجّة.
(٣) ناضلهم: تبارى معهم في رمي السهام؛ أثبتهم: أوقفهم عند حدّهم.

ولبس كجمال الملكة، لأن الحسن الذي لها والصفات المناسبة ليس يميزه كلّ احد، وإنّما يعنى به الشعراء، وإن أحبّت الملكة أن أصف حسنها وحَسَبها وعقلها في شعر يروى في جميع بلادنا فعلت ذلك، فسرّت بذلك سروراً عظيمًا وَزُهيت، وأمرت له بصلة، فامتنع من أخذها الغزال، وقال: لا أفعل. فقالت للتّرجمان: سله، لِمَ لا يقبل صلتي ؟ ألأنه حَقَرها أم لأنه حقرني؟ فسأله، فقال الغزال: إنّ صلتها لجزيلة، وإن الأخذ منها لتشرّف لأنها ملكة بنت ملك، ولكن كفاني من الصّلة نظري اليها وإقبالُها عليَّ، فَحسْبي بذلك صلة، وإنّما أريد أن تصلني بالوصول اليها أبداً. فلمّا فسّر لها الترجمان كلامه زادت منه سروراً وعُجباً وقالت: تُحمل صلتُه اليه، ومتى أحبّ أن يأتيني زائراً فلا يحجب ، وله عندي من الكرامة والرّحب والسّعة. فشكرها الغزال، ودعا لها وانصرف.

قال تمّام بن علقمة: سمعت الغزال يحدّث بهذا الحديث، فقلت له: وكان لها من الجمال في نفسها بعض هذه المنزلة التي صَوَّرت؟ فقال: وأبيك، لقد كانت فيها حلاوة، ولكني اجتلبت بهذا القول محبّتها.

مناقشات وتمرينات

١ - في هذه القصة مواطن تستحق التوضيح مرّ بها الراوي عابراً. ما هي هذه المواطن؟

٢ - الى أين ذهب الغزال في هذه السفارة؟ هل هناك ما يُعين على تحديد تقريبي للبلاد التي زارها؟

٣ - ما رأيك في أنّ ملك المجوس يطلب الصلح، مع أنّ المجوس كانوا هم المنتصرين؟ هل تقدّر أن هناك مقدمات قد حذفت من القصّة؟

٤ - في دخول الغزال على ملك المجوس تفسير مصطنع: ألا يمكن أن تكون مداخل بيوت المجوس ضيّقة بطبيعة هندستها؟

٥ - هل تعتقد أن الغزال كان يحسن السفارة؟

٦ - لماذا قال الملك: هذا حكيم من حكماء القوم؟

٧ - «وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم» هل هذه هي المبالغة الوحيدة التي اعتمدها الغزال في قصته ؟

-٤١-

دولة بني جَهْور بقرطبة *

قال ابن حيّان[١]: وفي منتصف ذي الحجّة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، بعد خلع هشام المعتدّ[٢] ومقتل وزيره حكم الحائك، اجتمع الملأ من أهل قرطبة على تقليد أمرهم وتأميرهم للشيخ أبي الحزم ابن جهور، وعدّدوا من خصاله ما لم يختلف فيه احد منهم، وأبى من ذلك، فألحوا عليه، حتى أسعفهم شارطاً اشتراك الشيخين: محمد بن عباس وعبد العزيز بن حسن ابني عمه خاصةً من بين الجماعة. فرأوا مشورتهما دون تأمير، فرضي الناس بذلك، وخلعوا مَن دونهم من الرؤساء، ووحّدوا له عَقْد الرياسة، فأعطوا منه قوس السياسة باريها[٣]، وولّوا من الجماعة أمينها المأمون عليها. فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه، فاقترن صلاحهم به، واقتصر من الجند على أعيانهم، وسدَّ باب البرابر[٤] جملةً إلاّ من قد صار في البلد من بني يفرن الموثوق بهم، وأقصى مَن سواهم من

(*) من كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٨) ١: ٦٠٢ - ٦٠٤ والدولة الجَهْورية إحدى دول ملوك الطوائف التي ظهرت على أثر سقوط الخلافة الأموية بالأندلس.
(١) انظر التعليقات للتعريف بابن حيان.
(٢) هشام المعتد: آخر خلفاء بني أمية بالأندلس (- ٤٤٢ / ١٠٣٠).
(٣) اعطى القوس باريها: وكّل الأمر لمن يحسنه.
(٤) سدّ باب البرابر: منعهم من سكنى قرطبة.

فرق البرابرة من غير إيحاش، فنال منهم الرضى، وملكهم عما قليل، وأصبح في ذلك عجباً. وأجاد السياسة، فانسدل به السّتر على أهل قرطبة مدّتَهُ، وحصّل كل ما يرتفع من البلد[١] في جميع أوقاته، بعد إعطاء مقاتلته فارسهم وراجلهم، وصيّر ذلك بأيدي ثقاتٍ من أهل الخدمة، مُشارفاً لهم بضبطه، فإن فَضَلَ شيء تركه بأيديهم مُثقّفاً[٢] مشهوداً عليه الى أن يَعِنَّ وجهُ تصرُّفه فيه، لا يلتبس بشيء منه ولا يدخل داره، ومتى سئل قال: «ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم». وإذا رابه أمر أو عَزَمَ على تدبير، أحضرَهم وشاورهم فيُسرعون اليه، فإذا علموا مراده فوّضوا إليه بأمرهم؛ وإذا خوطب بكتاب لا ينظرُ فيه إلاّ أن يكون باسم الوزراء. فأعطى السلطانَ قسطَه من النظر، ولم يخلُ مع ذلك من النظر لنفسه وترقيحه[٣] لمعيشته، حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع عينُه على أغنى منه، حاط ذلك كلَّه بالبخل الشديد والمنع الخالص، اللذين لولاهما ما وَجَدَ عائبه فيه طعناً، ولَكَمُلَ لو أن بشراً يَكْمُلُ. وكان مع براعته، ورفعة قدره، وتشييده لقديمه بحديثه، من أشدِّ الناس تواضعاً وعفّةً وصلاحاً، وأنقاهم ثوباً، وأشبههمْ ظاهراً بباطن، وأولاً بآخر، لم يختلف به حال من الفَتَاء الى الكهوَلَة، ولم يُعثر له قط على حال يدُلُّ على ريبة؛ جليسُ كتاب منذ درج، ونجيّ نظر[٤] منذ فَهِمَ، مشاهداً للجماعة في مسجده، خليفة الأئمّة متى تخلّفوا عنه[٥]، حافظاً لكتاب الله قائماً به في سرّه وجهره، متقناً للتلاوة، متواضعاً في رفعته، مشاركاً لأهل بلده، يزور مرضاهم ويشاهد جنائزهم.

(١) ما يرتفع من البلد: يعني صنوف الضرائب والأموال المحصّلة.
(٢) مثقف: موضوع في حرز؛ مصون.
(٣) الترقيح: الاكتساب للمال والاصلاح له.
(٤) نجيّ نظر: صاحب تأمل.
(٥) يريد أن ابن جهور قبل أن يُرئّسه أهل قرطبة لم تكن تفوته صلاة الجماعة، وكان إذا غاب الإمام ناب عنه في الصلاة (الضمير في عنه - في المتن - يرجع الى المسجد).

واستمر ابن جهور في تدبير قرطبة، فأنجح سعيُهُ بصلاحها، وَلَمَّ شَعَثَها في المدّة القريبة وأثمر الثمرة الزكيّة، ودَبّ دبيبَ الشفاء في السقام، فنعش منها الرُّفات، وألحفها رداء الأمن، ومانَعَ عنها من كان يطلبها من أمراء البرابرة المتكنفين[1] لها، المتوزّعين أسلابها، بخَفْض الجناح والرفق في المعاملة، حتى حصل على سلمهم، واستدرار مرافق بلادهم. ودَرَأ القاسطين[2] عليه من ملوك الفتنة، حتى حفظوا حضرته وأوجبوا لها حُرْمَةً، بمكابدته الشدائد حتى ألانها بضروب احتيـاله. فرَخُصَتِ الأسعار، وصاح الرّخاء بالناس أن هلمّوا، فلبَّـوْهُ من كل صُقع، فظهر تزيُّد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها حتى ملأوا المسـاجد والأفنيـة، وسمت[3] أثمانُ الـدور بها، والابتنـاء لخرابها الفاشي، أخذاً بالهوينا، فاتّصل البنيان بها، وغَلَت الدّور، وحرّكوا الأسواق، فعجب ذو التّحصيل للذي أوى اليه[4] في صلاح أحوال الناس من القوة ولمّا تعتدلْ حال، أو يهلك عدوّ، أو تَقْوَ جباية، وأمْرُ الله تعالى بين الكاف والنون[5].

مناقشات وتمرينات

١ - لماذا يمكن أن يعدّ أبو الحزم ابن جهْوَر سياسياً بارعاً؟
٢ - إذا علمت أنّ ابن حيّان كان يعيش في كنف بني جَهْوَر فهل يمكنك أن تصفه بالموضوعية أو التحيّز؟ هل هذا يصدق على موقفه من البربر؟
٣ - اسلوب ابن حيّان في تاريخه ليس أسلوباً بسيطاً سردياً: بيّن المظاهر التي تميّزه.

(١) المتكنّفون: المحيطون.
(٢) درأ: دفع؛ القاسطون: الظالمون.
(٣) سمت: ارتفعت.
(٤) أوى اليه: لجأ اليه، والمعنى استعمله.
(٥) ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون﴾ (يس: ٨٢).

٤ - ارتباط الأسباب بالنتائج شديد الوضـوح في منهج ابن حيّـان التاريخي: أين تجد مصداق ذلك في هذه القطعة؟
٥ - اهتمام ابن حيّان في تاريخه بالوقـوف عند النـواحي العمرانية الاقتصادية أمرٌ متميز: الى أي حدّ وضح ذلك في هذه القطعة؟

-٤٢-

أهميّة العصبية والدين في إنشاء الدول *

١ - فصل في أن الملك والدولة العامة إنّما يحصلان بالقبيل والعصبية:

وذلك أنّا قرّرنا في الفصل الأوّل أن المغالبة والممانعة إنّما تكون بالعصبية لما فيها من النّعرة والتذامر[١] واستماتة كلّ واحدٍ منهم دون صاحبه. ثمّ إنّ الملك منصبٌ شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً؛ وقلّ أن يسلّمه أحد لصاحبه إلاّ إذا غُلِبَ عليه؛ فتقع المنازعة وتُفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة؛ وشيء منها لا يقع إلاّ بالعصبية. وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له، لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أوّلها، وطال أمدُ مَرْباهم في الحضارةِ وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل؛ فلا يعرفون ما فعل الله أولَ الدولة، إنما يدركون أصحابَ الدولة وقد استحكمت صبغتهم، ووقع التسليم لهم، والاستغناء عن العصبية في تمهيد أمرهم، ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوّله، وما لقي أوّلهم من المتاعب دونه...

(*) من «مقدّمة ابن خلدون» (تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٥٨) ٢: ٤٦١-٤٦٣، ٤٦٧-٤٦٩.

(١) النعرة: الغضب من أجل الرابطة العرقية؛ والتذامر: التلاوم على تضييع الفرصة؛ أو استحثاث الواحد للآخر غضباً وحميّة.

٢ - فصل في أنّه إذا استقرّت الدولة وتمهّدت قد تستغني عن العصبية:

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أوّلها يصعب على النفوس الانقياد لها إلاّ بقوّةٍ قوية من الغَلَب، للغرابة، وان الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرّت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالمُلْكِ في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين ودولٍ متعاقبة، نسيت النفوس شأنَ الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغةُ الرياسة، ورسخ في العقائد دينُ الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناسُ معهم على أمرهم قتالَهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة؛ بل كأنّ طاعتها كتابٌ من الله لا يُبَدَّل ولا يُعْلَمُ خلافه... ويكون استظهارهم[١] حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة: إما بالموالي والمصطنعين الذين نشئوا في ظلّ العصبيّة وغيرها، وإمّا بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها.

ومثل هذا وقع لبني العبّاس، فإنّ عصبيّة العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق، واستظهارُهم بعد ذلك إنّما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم. ثم تغلّب العجمُ الأولياء على النواحي وتقلّص ظلُّ الدولة فلم تكن تعدو أعمالَ بغداد، حتى زحف إليها الديلم وملكوها، وصار الخلائق في حكمهم. ثم انقرض أمرهم ومَلَكَ السلجوقيةُ من بعدهم فصاروا في حكمهم. ثم انقرض أمرهم وزحف آخِراً التتارُ فقتلوا الخليفة ومَحَوْا رسم الدولة.

وكذا صنهاجةُ[٢] بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو

(١) الاستظهار: طلب المظاهرة أي المساعدة والعون.

(٢) صنهاجة من أكبر القبائل البربرية، ومن الدول التي انشأوها دولة بني زيري بافريقية ودولة المرابطين بالمغرب والأندلس.

ما قبلها، واستمرّت لهم الدولة مقلَّصة الظلّ بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور أفريقية. وربّما انتزى[١] بتلك الثغور من نازعهم الملكَ واعتصم فيها؛ والسلطان والملك مع ذلك مُسَلَّمٌ لهم، حتى تَأَذَّنَ الله بانقراض الدولة، وجاء الموحّدون بقوّة قويّة من العصبية في المصامدة، فمحوا آثارهم.

وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف[٢] على أمرها، واقتسموا خُطَّتَها، وتنافسوا بينهم، وتوزّعوا ممالك الدولة، وانتزى كلّ واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه[٣]. وبلغهم شأنُ العَجَم مع الدولة العباسية، فتلقبوا بألقاب الملك، ولبسوا شارته، وأمنوا ممن ينقُضُ ذلك عليهم أو يغيّره؛ لأن الأندلس ليس بدارِ عصائبَ ولا قبائل... واستمر لهم ذلك، كما قال ابن شرف[٤]:

مما يزهّدني في أرضِ أندلسٍ ... أسماءُ معتصمٍ فيها ومعتضدِ
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعها ... كالهرِّ يحكي انتفاخاً صورةَ الأسد

٣ - فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوّةً على قوة العصبية التي كانت لها من عددها:

والسبب في ذلك كما قدّمناه أنّ الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتُفردُ الوجهة إلى الحقّ فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء، لأنّ الوجهة واحدة والمطلوبَ متساوٍ عندهم، وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم

(١) انتزى: ثار ووثب.
(٢) راجع ما سبق عن بني جهور فهم من ملوك الطوائف، ومنهم بنو عباد وبنو الأفطس وبنو هود وغيرهم وقد استقل كل فريق بناحية.
(٣) شمخ بأنفه: تعاظم واستكبر.
(٤) ينسب البيتان أيضاً إلى ابن رشيق القيرواني.

طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذُلُهم لتقيَّةِ الموت حاصلٌ؛ فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدّمناه.

وهذا كما وقع للعرب صدرَ الإسلام في الفتوحات، فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعاً وثلاثين ألفاً في كلّ معسكر؛ وجموعُ فارسَ مائة وعشرين ألفاً بالقادسية، وجموعُ هرَقْلَ على ما قاله الواقديّ أربعمائة ألف؛ فلم يقف للعرب أحدٌ من الجانبين، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم.

واعتبرْ ذلك أيضاً في دولة لمتونة[١] ودولة الموحّدين، فقد كانَ بالمغرب من القبائل كثيرٌ ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يَشِفّ[٢] عليهم، إلّا أنّ الاجتماع الديني ضاعف قوّة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه، فلم يقف لهم شيء.

واعتبرْ ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت، كيف يَنْتقضُ الأمر ويصير الغَلَبُ على نسبة العصبية وحدها دون زيادةِ الدين؛ فيغلب الدولةَ من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوّة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوّتها، ولو كانوا أكثر عصبيةً منها وأشدَّ بداوة. واعتبر هذا في الموحّدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى[٣] من المصامدة وأشدّ توحشا، وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتّباع المهدي[٤]، فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتةَ أوّلاً واستتبعوهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشدّ منهم؛ فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضتْ

(١) دولة لمتونة هي دولة المرابطين الملثّمين.
(٢) يشفّ: يزيد.
(٣) أبدى: أكثر بداوة.
(٤) المهدي: محمد بن تومرت، القائم بدعوة الموحّدين.

عليهم زناتةُ من كلّ جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم، والله غالب على أمره.

٤ - فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتمّ:

وهذا لما قدّمناه من أن كل أمر تُحْمَلُ عليه الكافة فلا بد له من العصبية. وفي الحديث الصحيح: «ما بعث الله نبيّاً إلّا في مَنْعَةٍ من قومه». وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد[1]، فما ظنك بغيرهم؟ ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبيّة؟

وقد وقع هذا لابن قَسِيّ شيخ الصوفية وصاحب كتاب «خلع النعلين» في التصوّف؛ ثار بالأندلس داعياً إلى الحقّ وسمى أصحابه بالمرابطين قُبَيْل دعوة المهديّ، فاستتبّ له الأمر قليلاً لِشُغْل لمتونةَ بما دهمهم من أمر الموحّدين، ولم تكن هناك عصائبُ ولا قبائلُ يدفعونه عن شأنه، فلم يلبثْ حين استولى الموحّدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم، وتابعهم من معقله بحصن أركش[2]، وأمكنهم من ثغره، وكان أوّلَ داعيةٍ لهم بالأندلس، وكانت ثورته تسمىّ ثورة المرابطين.

ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير الُمنْكر من العامة والفقهاء. فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجَوْر من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف، رجاءً في الثواب عليه من الله؛ فيكثر أتباعهم والمتشبّثون بهم من الغوغاء والدهماء، ويعرّضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلِكون في تلك السبيل مأزورين[3] غير

(١) خرق العوائد: تجاوز الأمور الطبيعية المألوفة.

(٢) أركش (Arcos de la Frontera): هي اليوم في ولاية قادش وتبعد عنها حوالى خمسة عشر كيلومتراً إلى الشمال الشرقي.

(٣) مأزور: أي حامل للوزر وهو الذنب، (وأصله موزورين وغيّره للتجانس مع مأجورين).

مأجورين، لأنّ الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، وإنّما أمر به حيث تكون القدرة عليه؛ قال صلى الله عليه وسلّم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه». وأحوالُ الملوك والدولِ راسخةٌ قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلّا المطالبةُ القويّة التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر، كما قدّمناه.

مناقشات وتمرينات

١ - لماذا كانت العصبية هامة في إنشاء الدولة؟

٢ - متى تستغني الدولة عن العصبية؟ (هل هذا استغناء حقيقي أو شكليّ؟)

٣ - اضرب أمثلة لاستمرار الدول بعد فساد العصبية الأولى التي أنشأتها.

٤ - ما العلاقة بين العصبية والدين وأيها يعدّه ابن خلدون أساسياً وأيها يراه فرعيا؟

٥ - أعطِ أمثلة تحقّق بها رأي ابن خلدون في إخفاق الدعوات الإصلاحية الدينية التي لم ترتكز إلى عصبية.

٦ - إذا كانت آراء ابن خلدون تنطبق على الدول العربية والإسلامية في المشرق والمغرب - حتى عهده - فهل ما تزال هذه الآراء تصدق على أوضاع الدول الحديثة؟

٧ - ابن خلدون خطا خطوة أبعد مما فعل ابن حيّان في استخدام قانون السببية، بيّن كيف تمّ ذلك.

٨ - هل يقول ابن خلدون بأمور حتمية لأنها وقعت؟ أو لأنها لا بدّ أن تقع؟ أو أنّ الأمر هو قياس مستمرّ على الماضي؟

-٤٣-

عبقرية عمر
للعقّاد *

يوصف عمر بالعبقرية إذا نظرنا إلى أعماله، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذي جعله مستعدًّا لتلك الأعمال مضطلعاً بتلك القدرة، وإن لم يكن من اللازم اللازب أن تقترنَ بالعمل الذي تستطيعه، لما يتفق أحياناً من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه الى ذلك العمل.

إلّا أن عمر كان رجلاً ممتازاً بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الاقدمين والمحدثين، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين؛ إذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذي يوصف لهم رجلٌ ممتاز أو رجل نسيجُ وحدِهِ، وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيسون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء، عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز، أو رجل موهوب.

كانت نظرة إليه - قبل السماع بعمل من أعماله - توقع في الرُّوع أنه من مَعْدِن في الرجال غير معدن السّواد[1]، وأنه جدير

(*) من كتب «العبقريات الإسلامية» (دار الآداب، بيروت، ١٩٦٦) ص ٣٦٩ - ٣٧٢، ٣٧٥ - ٣٧٦.

(١) السواد: جمهور الناس.

بالهيبة والإعظام، خليق أن يُحْسَبَ له كلُّ حساب. كان مهيباً رائع المحضر حتّى في حضرة النبي الذي تتطامن عنده الجباه، وأولها جبهة عمر.

أذن النبي يوماً لجارية سوداء أن تفي بنذرها «لتضربنّ بدُفّها فرحاً إن ردّه الله سالماً» فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدّف بين يديه. ودخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، والصحابة مجتمعون؛ فما هو إلاّ أن دخل عمر حتى وَجِمتِ الجارية وأسرعت الى دُفّها تُخْفيه والنبي عليه السلام يقول: إنّ الشيطان ليخاف منك يا عمر!

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيبَ له من الذين يجهلونه.. وتلك علامة على أن هيبته كانت قوّة نفسٍ تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار. فربّما اجترأ عليه من لم يعرفه ولم يختبره لتجافيه عن الخُيَلاء وقلّة اكتراثه للمظهر والثياب. أمّا الذين عرفوه واختبروه، فقد كان يروعهم على المفاجأة روعة لا تُذهبها الألفةُ وطولُ المعاشرة، ومن ذاك أنّه كان يمشي ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت، فلم يبقَ منهم أحد إلاّ وَخَبْلُ ركبتيه ساقط. وتنحنح عمر والحجّامُ يقصُّ له شعره، فَذُهِلَ الحجامُ عن نفسه وكاد أن يُغشى عليه، فأمر له بأربعين درهماً.

فهي هيبة من قوّة النفس قبل أن تكون من قوّة الجسد. إلاّ أنه مع هذا كان في منظر الجسد رائعا يهول من يراه، ولا يُذهب الخوفَ منه إلا الثقةُ بعدله وتقواه: كان طويلاً بائن الطول يُرى ماشياً كأنه راكب، جسيمًا صلباً يصرع الأقوياء ويروض الفرسَ بغير ركاب، ويتكلّم فيسمعُ منه وِفاق ما رأى من نفاذِ قولٍ وفصلِ خطاب؛ تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن مَعْدِن العظمة، أو معدن العبقرية والامتياز بين بني الانسان.

وللمحدثين علامات في العبقرية تتّصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال؛ فالعالم الإيطالي «لومبروزو» ومدرسته التي تأتمّ برأيه يقرّرون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علاماتٍ لا تخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها... وهي علامات تتفق وتتناقض ولكنها في جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة. فيكون العبقريُّ طويلاً بائن الطول، أو قصيراً بيّن القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين. ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود في سائر الناس. ويكثر بين العبقريين من كلِّ طراز جَيَشانُ الشعور وفرط الحسّ وغرابة الاستجابة للطوارىء، فيكون فيهم من تُفْرطُ سَورته كما يكون فيهم من يفرط هدوؤه، وهم على الجملة ولعٌ بعالَم الغيب وخفايا الاسرار على نحو يلحظ تارة في الزكانة والفراسة، وتارة في النظر على البعد، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع لله. ومهما يكن من الشكّ في استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهي بلا ريب صادقة في حالات، مقاربة في حالات، غيرُ أهْلٍ في كلّ حال للتصديق التام ولا للنبذ التّام، ولا سيّما عندما تتّفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور.

وفي عمر بن الخطّاب من هذه العلامات كثير: كان كما تقدّم طويلاً يمشي كأنه راكب، وكان أعسر يسراً يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال: وكيف تجدون عمر؟ فقال: خير الناس، إلاّ أنه إذا غضب فهو أمر عظيم. وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي الله، وأثّرَ البكاءُ في صفحتي وجهه حتى كان يُشاهَدُ فيهما خطّان أسودان. ومن فرط حسّه وتوفّز شعوره أنه كان يميّز بين بعض المذوقات والمشمومات التي لا يسهل التمييز بينها. سقاه غلامه ذات يوم لبناً

فأنكره. فسأله: ويحك! من أين هذا اللبن؟ قال الغلام: إن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها، فحلبت لك ناقة من مال الله. وقد عرفنا أهل البادية وعرفنا أنهم جميعاً أصحاب إبل وألبان، ولكنّنا لم نجد منهم إلاّ قليلاً يدّعون أنهم يفرّقون بين لبن ناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة، ولا سيّما في المناخ الواحد والمرعى المتقارب.

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أنّ «من لم ينفعه ظنُّه لم تنفعه عينه»... وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرّب المبالغة الى كثير، ولكنها على كلتا الحالين تنبئنا بحقيقة لا شكّ فيها، وهي أنّه اشتهر بالفراسة وحبّ التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة. فمن ذلك أنّه كان جالساً فمر به رجل جميل فقال ما معناه: أحسبه كان كاهنهم في الجاهلية، فكان كذلك.

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال، رجل عبقري أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدّون في الزمن الواحد بأكثر من الآحاد.

أتقول رجل قوي؟ نعم هو رجل قويّ لا مراء. وكلّ عظيم فهو قويّ بمعنىً من معاني القوة. نعلم هذا فنعلم الشيء المهمّ عنه، ولكنّنا بعد هذا لا نعلم شيئاً مهمًّا عن صفاته وأخلاقه. لأن الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون الى هنا تارة والى هناك تارة اخرى. أما من حيث الصفاتُ والأخلاق فهم ألوف وألوف، وهم في قوتهم أو ضعفهم أنماط لا تحصى من المناقب والعيوب، وأحرى بنا أن نقول إنّ القوّة صفة تستفاد من جملة مناقب الإنسان وعيوبه. فهي حالة تدلُّ عليها المناقب والأخلاق وليست هي بالحالة التي تدلّنا على مناقب الانسان وعيوبه، وتهدينا بغير هادٍ الى صفاته وأخلاقه.

فإذا قلت إنّ عمر بن الخطاب رجل قوي فما زدت على أن تقول

إنّه رجل عبقري أو إنّه رجل عظيم. وكلّ رجل من هـذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير، لأنه نمط لا يتكرّر فيسهل فهمه بالقياس الى أمثاله الكثيرين. وقد يكون الرجل العظيم نمطاً وحيداً في التاريخ كلِّه لا نظير له في تفصيل أخلاقه وصفاته، وإن ساواه في القدر أندادٌ وقُرَناء. وعمر بن الخطّاب مَثَلٌ فذٌّ من أمثلة هذا الطراز الفريد، تفهم سرَّه فإذا هو على وفاق مع جهره، وتنفذ الى باطنه فإذا هو مصدق للظاهر من سيماه.

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة؟ كلاّ. ولا تقدّمنا بعيداً في طريق حلّها، لأننا لا نعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التي نبحث عنها، فلا بدّ إذاً من المعرفة، فإذا وصلنا الى الغور البعيد عرفنا ساعتئذٍ أنـه لا يناقض الظاهر المكشوف؛ ولكن لا بدّ من الوصول الى الغور البعيد قبـل ذلك.

لا تناقض في خلائق عمر بن الخطّاب، ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهمًا من المتناقضين، بل لعلّه أعضـل فهمًا منهم في كثـير من الأحـوال. فالعظمة على كلّ حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ الى صميمه ويحتويه. إنمّا الأمر الميسور في التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدّاً لا يسترها حجاب. فما من قارىء ألمَّ بفذلكة صالحة من ترجمته الا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلاً، وكان رحيمًا، وكان غيوراً، وكان فطناً، وكـان وثيق الإيمان عـظيم الاستعداد للنخـوة الدينية.

مناقشات وتمرينات

١ - إذا أصر كاتب على أن يسبغ صفة «العبقرية» على إنسان ما فهل يكون قد وسّع مجال القول لنفسه أو ضيّقه ولماذا؟

٢ - يرى الكاتب أنّ عمر كان يتمتّع بهيبة مستمدّة من قوّة النفس كما هي مستمدّة من قوّة الجسد: وضّح ذلك.

٣ - ما هي نظرية لومبروزو في العبقرية، وهل ما يقوله يمثّل أصولاً صارمة تقسم البشر الى عباقرة وغير عباقرة؟

٤ - ما هي علامات العبقرية في عمر حسب رأي الكاتب؟

٥ - هل توافق الكاتب على أن: العبقري - العظيم - القـويّ: صفات مترادفة؟

٦ - ميل الكاتب الى بناء صورة من «لبنات قليلة» واضح: هل هذا يتعارض والتحليل؟ هل هو ترجمة مقاربة للرؤية التاريخية؟ هل هو صورة الذات في الآخرين او صـورة الآخرين في مـرآة الذات؟

- ٤٤ -

التراث الحضاري العربي

لقسطنطين زريق *

ننتقل من هذه الأوصاف العامة للتراث الحضاري الى تبيان أمرين آخرين يتعلقان به ويتضمّنان نتائجَ تستدعي النظرَ والاهتمام.
أولهما أن هذا التراث لا يكون موجوداً بالفعل إلا بحسب شعورنا به وتقديرنا له. فالتراث الحضاري العربيّ كان دفيناً في خلال السنين الخمسمائة الأخيرة لا يحرّك النفس العربية ولا يفعل فيها. كان دفيناً في الكتب المنسية، وفي السِّيَرِ المهملة، وفي الفتوحات الضائعة، وفي الفضائل المطوية. كذلك كان التراث اليوناني - الروماني للشعوب الغربية خلال القرون الوسطى، وتراثات أبناء الحضارات الهندية والصينية واليابانية وسواها في عصور الشعوب المظلمة وادوار حياتها الراكدة. ومعنى هذا أن حضاراتنا حية فينا بمقدار ما نحن أحياء فعلاً، وأننا جديرون بها بنسبة ما نُحرز من جدارة واستحقاق.

الفتوحات العربية، كيف نفهمها ونعلّلها ونعتبر بها؟ الروائع الأدبية والفنية: شعر الشعراء وأدب الناثرين ومنشآت البُناةِ وَتُحَفُ الصَّنعةِ، الى أيّ حدّ يمكننا أن ننفذ الى صميمها ونستلهم صورها؟ تدابير القادة، وحكمة الفلاسفة، وسِيَرُ المجاهدين في شتى الحقول، كيف نهتدي بهديها؟ وما نوع هذا الاهتداء وفعله؟ أليس هذا كلّه مرتبطاً بمدى تنبّهنا العقلي، وسعة اطّلاعنا، وصحّة أحكامنا؟ ثمّ أليس

(*) من كتاب «هذا العصر المتفجر» (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٧) ص ٧٣ - ٧٧.

اكتشاف هذا التراث أصلاً، رهناً بما نتّصف بـه من علم، وما يضطرب في نفوسنا من تَوْقٍ الى المعرفة، وما نقدر عليه من ضبط وإحكام وتمييز؟

فِعْلُ التراث في الفرد والمجتمع يتوقّف إذن على عاملين، أوّلهما نَفاسة التراث ذاتِهِ. فالإرث الضئيل المجدب قلّما يُلهم أو يدعو بذاته الى الفتوحات الباهرة والتحقيقات الجليلة، وما خلا من إبداع قلّما يكون مصدر خلقٍ وإبداع. أمّا العامل الثاني فهو الحال التي يكون عليها أبناء المجتمع، ومقدارُ تفتحهم، وسعةُ أفقهم، وعمق ثقافتهم، ومدى جدارتهم بنوع عام. فقد لا يشعرون من الحضارة المتحدّرة اليهم إلاّ بالعناصر السلبية الفاسدة دون العناصر الإيجابية التي تجلى فيها الإبداع، أو قد يكون إحساسهم بهذه أضعفَ وأخفَّ من إحساسهم بتلك، وقد يَقْدرون منها ما هو أقل إبداعاً أكثر من قَدْرِهم لما هو أرفع وأروع، وقد يكون فهمهم لها جميعاً ناقصاً أو حكمهم عليها خاطئاً. ومن هنا يمكننا القول إنّ التراث الحضاري لا يكون تراثاً بالمعنى الصحيح إلاّ إذا كان حيًّا في العقول والنفوس، وانّ حيويته هذه - نشاطَها، وفعلَها، وإثمارها - رهينةٌ بصفات العقول والنفوس ذاتها. فنوع التراث الحيِّ فينا هو، من حيث ندري أو لا ندري، حُكْمٌ علينا - على نوع صفاتنا ومبلغ رقيّنا وقيمة وجودنا.

أمّا الأمر الثاني الذي نبتغي الإشارة اليه فهو علاقة هذا كلّه بمفهوم التعليم والتربية. فإذا صحّ أنّ جوهر التاريخ الماضي هو الحضارة، وجب أن يكون تدريسنا للتاريخ القومي وللتاريخ العام منصبّاً على هذا الموضوع بالذات، فلا تأتي التقلّبات السياسية وأخبارُ المعارك والحروب وتتابع الدول والتطورات الاقتصادية والتبدُّلات الاجتماعية والعقلية إلاّ من حيث اتّصالُها بتكوين الحضارة الماضية: من حيث كونها عواملَ ساعدت على إنشاء الحضارة وإنمائها وطبعها بطابعها الخاص، أو من حيث عاقت الإنشاء أو أفسدت النموّ،

أو جاءت مظاهر لأسباب وعوامل أعمق وأنفذَ في الحضارة أثراً. فإن معنى أي نشاط تاريخي، وأساس الحكم عليه، هو مبلغ أثره في تحرير الانسان فرداً ومجموعاً وفي إنشاء الحضارة، أو بالعكس، في منع هذا التحرير وبالتالي في كبت الإنتاج والإبداع.

وإذا صحّ أن هذا التراث الحضاري هو نتيجةُ سعيٍ ومجاهدة، وأن هذا السعي مَبْعَثه فضائل ذاتية، وجب أن نفتّح عيونَ النشء لكي يروا نوع التحدّيات التي جابهت قومهم أو الأقوام الأخرى في الماضي، وكيف شعر أو لم يشعر هؤلاء وأولئك بهذه التحدّيات، وإلى أي حدّ نهضوا للردّ عليها أو تقاعسوا، فشاركوا في الحضارة وفي بناء الحياة أو كانوا عاملَ تهديم وإفساد لأنفسهم ولسواهم.

وإذا صحّ أخيراً أن التراث الحضاري لا ينكشف إلاّ لمن هو أهلٌ للحضارة ولا يفعل إلاّ فيه، فقد وجب أن تنصرف التربية الى مفهومها الأساسي، أي الى تنمية شخصية الفرد وقابلياته العقلية والخلقية. فالتربية ليست في النهاية أداة لتلقين المعلومات أوللإعداد المهنيّ فحسب. إنّ للمعلومات شأنَها بلا جدال، إذ هي المادة التي تُبنى عليها الأحكام. وكذلك الإعداد لحياة العمل أمر له شأنه وخطورته، خصوصاً لمجتمع كمجتمعنا ينهض الآن الى استثمار موارده ورفع مستوى عيشه وتنظيم شؤونه. ولكن هذا، وذاك، وسواهما من سبل التربية تصلح أو تفسد وتُصلِحُ أو تُفْسِد تبعاً لنوع المزايا والفضائل التي تُبْعَثُ في عقول النشء ونفوسهم. إن تكوين الصفات المطلوبة في الانسان الصالح والمواطن يجب أن يبقى دوماً نصب العين. وهذه الصفات هي ذاتها التي تتيح للفرد وللمجتمع اكتشاف التراث وتمثّله، فتجعل من هذا التراث عاملاً محيياً للنفس، ومثارَ انطلاق لحضارة جديدة. تلك هي المهمّة الجليلة التي تقع على عاتق التربية في كلّ مجتمع وفي كلّ دور من أدوار التاريخ، وبخاصة

في مجتمع كمجتمعنا وفي دور حاسم من تاريخنا ومن تاريخ الإنسانية جمعاء.

مناقشات وتمرينات

١ - قد يكون تراثنا موجوداً كمعدوم، متى يكون الأمر كذلك؟
٢ - على ماذا يعتمد اثر التراث في الفرد والمجتمع؟
٣ - ما هي أنواع التراث التي يشير اليها الكاتب في سياق هذا البحث؟
٤ - نوع التراث الحيّ فينا حكم علينا: وضّح هذه العبارة وناقشها.
٥ - متى يكون لأي نشاط تاريخي قيمة في نظر الكاتب؟
٦ - ما هو دور التربية في مجتمعنا؟
٧ - لو انطلق الكاتب من رفض التراث فهل يكون مؤرخاً؟
٨ - كيف تتصوّر منهجاً للتاريخ على ضوء آراء الكاتب؟

-٣-

نمــاذج الكمــال

-٤٥-

الأشياء المشتركة لأهل المدينة الفاضلة
للفارابي *

فأمّا الأشياء المشتركة التي ينبغي أن يعلمها جميع أهل المدينة الفاضلة فهي أشياء، أوّلها معرفةُ السبب الأول وجميع ما يوصف به، ثمّ الأشياء المفارقة للمادة وما يوصف به كلّ واحدٍ منها بما يخصّه من الصفات والمرتبة إلى أن تنتهي من المفارقة إلى العقل الفعّال، وفعل كل واحد منها؛ ثمّ الجواهر السماوية وما يوصف به كلّ واحد منها، ثمّ الأجسام الطبيعية التي تحتها، كيف تتكوّن وتفسد، وأن ما يجري فيها يجري على إحكام وإتقان وعناية وعدل وحكمة، وأنها لا إهمال فيها ولا نقص ولا جور ولا بوجه من الوجوه؛ ثم بكَوْن الإنسان، وكيف تحدث قوى النفس، وكيف يُفيض عليها العقل الفعّال الضوء حتى تحصل المعقولات الأول، والإرادة والاختيار؛ ثمّ الرئيسُ الأول وكيف يكون الوحي؛ ثمّ الرؤساء الذين ينبغي أن يخلفوه إذا لم يكن هو في وقت من الأوقات، ثم المدينة وأهلها والسعادة التي تصير إليها أنفسهم، والمدن المضادّة لها وما تؤول إليه أنفسهم بعد الموت: أما بعضهم إلى الشقاء وأما بعضهم إلى العدم؛ ثمّ الأمم الفاضلة والأمم المضادة لها.

(*) من كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» (بيروت، ١٩٥٩) ص ١٢١-١٢٥.

وهذه الأشياء تُعرف بأحد وجهين: إمّا أن ترتسم في نفوسهم كما هي موجودة، وإمّا أن ترتسم فيهم بالمناسبة والتمثيل، وذلك أن يحصل في نفوسهم مثالاتُها التي تحاكيها؛ فحكماء المدينة الفاضلة هم الذين يعرفون هذه ببراهين وببصائر أنفسهم. ومَن يلي الحكماء يعرفون هذه على ما هي موجودة ببصائر الحكماء اتّباعاً لهم وتصديقاً لهم وثقة بهم؛ والباقون منهم يعرفونها بالمثالات التي تحاكيها لأنهم لا هيئة في أذهانهم لتفهّمها على ما هي موجودة إمّا بالطبع وإما بالعادة، وكلتاهما معرفتان. إلاّ أن التي للحكيم أفضل لا محالة؛ والذين يعرفونها بالمثالات التي تحاكيها، بعضهم يعرفونها بمثالات قريبة منها، وبعضهم بمثالات أبعد قليلاً، وبعضهم بمثالات أبعد من تلك، وبعضهم بمثالات بعيدة جداً.

وتحاكي هذه الأشياء لكلّ أمّة ولأهل كلّ مدينة بالمثالات التي عندهم الأعرف فالأعرف، وربّما اختلف عند الأمم إمّا أكثره وإمّا بعضه، فتحاكي هذه لكل أمّة بغير الأمور التي تحاكي بها الأمّة الأخرى. فلذلك يمكن أن يكون أمم فاضلة ومدن فاضلة تختلف ملّتهم، فهم كلّهم يؤمّون سعادة واحدة بعينها ومقاصدَ واحدة بأعيانها.

وهذه الأشياء المشتركة، إذا كانت معلومة ببراهينها، لم يمكن أن يكون فيها موضعُ عنادٍ بقولٍ أصلاً، لا على جهة المغالطة ولا عند من يسوء فهمه لها. فحينئذ يكون للمعاند، لا حقيقةُ الأمر في نفسه، ولكن ما فهمه هو من الباطل في الأمر. فأمّا إذا كانت معلومةً بمثالاتها التي تحاكيها، فإن مثالاتها قد تكون فيها مواضع للعناد وبعضها يكون فيه مواضع العناد أقلّ، وبعضها يكون فيها مواضعُ العناد أكثر، وبعضها يكون فيه مواضعُ العناد أظهر، وبعضها يكون فيه أخفى.

ولا يمتنع أن يكون في الذين عرفوا تلك الأشياء بالمثالات المحاكية من يقفُ على مواضع العناد في تلك المثالات ويتوقّف عنده،

وهؤلاء أصناف: صنف مسترشدون، فما تزيّف عند أحد من هؤلاء شيء ما، رفع إلى مثالٍ آخر أقربَ إلى الحق، لا يكون فيه ذلك العناد، فإن قنع به ترك، وإن تزيف عنده ذلك أيضا رفع إلى مرتبة أخرى، فإن قنع به ترك. وكلّما تزيف عنده مثالٌ في مرتبة ما رفع فوقها، فإن تزيفت عنده المثالات كلّها كانت فيه مُنّةٌ للوقوف على عرف الحق، وجعل في مرتبة المقلّدين للحكماء؛ فإن لم يقنع بذلك وتشوق إلى الحكمة، كان في منّته تلك عِلْمها. وصنف آخرون بهم أغراض ما جاهلية من كرامة ويسار أو لذّة في المال وغير ذلك، ويرى شرائع المدينة الفاضلة تمنع منها، فيعمد إلى آراء المدينة الفاضلة فيقصد تزييفها كلّها، سواء كانت مثالاتٍ للحق، أو كان الذي يُلقى إليه منها الحقُّ نفسه. أمّا المثالات فتزييفها بوجهين: أحدهما بما فيه من مواضع العناد، والثاني بمغالطة وتمويه؛ وأمّا الحق نفسه فبمغالطة وتمويه ـ كلّ ذلك لئلاّ يكون شيء يمنع غرضه الجاهلي والقبيح، وهؤلاء ليس ينبغي أن يجُعلوا أجزاء من المدينة الفاضلة.

وصنف آخر تتزيّف عندهم المثالات كلّها لما فيها من مواضع العناد، ولأنهم مع ذلك سيّئو الأفهام، يغلطون أيضا عن مواضع الحق من المثالات، فيتزيّف منها عندهم ما ليس فيها موضع للعناد أصلاً. فإذا رفعوا إلى طبقة الحقّ حتى يعرفوها، أضلّهم سوء أفهامهم عنه، حتى يتخيّلوا الحقَّ على غير ما هو به، فيظنّون أيضاً أن الذي تصوره هو الذي ادّعى الحق أنه هو الحق؛ فإذا تزيّف ذلك عندهم، ظنّوا أنّ الذي تزيّف هو الحق الذي يُدَّعى أنه الحق لا الذي فهموه هم؛ فيقع لهم لأجل ذلك أنّه لا حقّ أصلاً، وان الذي يُظنّ به أنه أُرْشِدَ إلى الحق مغرور. وأن الذي يقال فيه إنه مرشد إلى الحقّ، مخادع مموّه، طالب بما يقول من ذلك رئاسةً أو غيرَها؛ وقوم من هؤلاء يخرجهم ذلك إلى أن يتحيّروا، وآخرون من هؤلاء يلوحُ لهم مثلُ ما يلوح الشيءمن بعيد أو مثل ما يتخيله الإنسان في النوم أن الحقّ موجود

ويُباين من إدراكه لأسباب يرى أنها لا تتأتّى له، فيقصد إلى تزييف ما أدركه، ولا يحسبه حينئذ حقّاً، ثمّ يعلم أو يظن أنه أدرك الحقّ.

مناقشات وتمرينات

١ - يعد الفارابي ممّا يضادّ المدينة الفاضلة: المدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدّلة والمدينة الضالة (ص: ١٠٩ من آراء أهل المدينة الفاضلة) ويحدّد سمات كلّ واحدة منها. فالمدينة الفاضلة هي التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة؛ وهذه الأشياء منها ما هو مشترك في أهل المدينة ومنها ما هو خاصّ بكلّ فرد على حدة.

٢ - ما الأشياء المشتركة التي ينبغي أن يعلمها جميع أهل المدينة الفاضلة؟

٣ - كيف تتم معرفة هذه الأشياء؟

٤ - متى ينشأ العناد حول هذه الأشياء المشتركة؟

٥ - كم صنفاً هم الذين يتوقّفون عند مواضع العناد في المثالات المحاكية؟

٦ - متى تزيّف ما ليس فيه موضع للعناد من المثالات المحاكية فقد وقع اليأس من صلاح هذا الصنف من الناس، وضّح ذلك.

٧ - كيف يمكن أن تكون هذه المدينة - في النهاية - فاضلة، وفيها من سكانها من يقصد تزييف آرائها؟ (هل يكفي هنا قول الفارابي: وليس ينبغي أن يجعلوا أجزاء من المدينة الفاضلة؟)

-٤٦-

من رسالة الغفران للمعرّي *

-١-

لما نهضتُ أنتفض من الرَّيم [١]، وحضرت حرَصاتِ القيامة - والحرصات مثل العَرصات [٢]، أبدلت الحاء من العين - ذكرت الآية: ﴿تعرجُ الملائكةُ والروح اليه في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألف سنة، فاصبرْ صبراً جميلاً﴾ [٣]، فطال عليَّ الأمد، واشتد الظمأ والوَمدَ - والومد شدّة الحر وسكون الريح - كما قال أخوكم «النميري» [٤]:

كـأنَّ بَيْضَ نَعَام في مَـلاحِفها ... جلاّه طلٌ وقَيظٌ، ليَلةُ ومَـدُ [٥]

وأنا رجل مِهْيافُ أي سَريع العطش. فافتكرت، فرأيت أمراً لا قِوام لمثلي به. ولقيني الملك الحفيظ بما زَبَر [٦] لي من فعل الخير، فوجدت حسناتي قليلة كالنُّفأ في العام الأرمـل - والنفأ الـرياض، والأرمل قليل المطر - الا أن التوبة في آخرها كأنها مصباح أبيل [٧]،

(*) من «رسالة الغفران» للمعري (تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء، دار المعارف بمصر، ١٩٥٠) ص ٢٤٨-٢٦٢ و٢٠٤-٢٠٧.

(١) الريم: القبر.

(٢) العرصات: جمع عرصة، وهي ساحة الدار أو كل بقعة ليس فيها بناء.

(٣) سورة المعارج، الأيتان ٤-٥.

(٤) النميري: هو عبيد بن الحصين بن جندل، من بني الحارث بن نمير. شاعر أموي مشهور، وغلب عليه لقب الراعي لكثرة وصفه للإبل.

(٥) البيت للراعي في وصف امرأة. الملاحف جمع ملحف أو مِلْحفَة وهي الملاءة التي تلتحف بها المرأة. وليلة ومد: شديدة الحر. وجلاه: كشفه وحسره.

(٦) زبر: كتب.

(٧) الابيل والابيلي والايبلي: الراهب.

ورُفعَ لسالك السبيل. فلما أقمتُ في الموقف زهاء شهر أو شهرين، وخفتُ في العَرَق من الغَرَق، زيّنتْ لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتاً في «رضوان» خازن الجنان عملتها في وزن:

* قفا نبك من ذكرى حبيب وعِرفانِ[1] *

ووسمتُهـا «بـرضَـوان». ثم ضـانكت[2] النـاس حتى وقفت منه بحيث يسمع ويرى، فما حَفِل بي، ولا أظنه أبه[3] لما أقول.

فغبَرتُ[4] برهة نحو عشرة أيام من أيام الفانية، ثم عملت أبياتاً في وزن:

بان الخليط ولو طووعت ما بانا   وقطّعوا من حبال الوصل أقرانا[5]

ووسمتها «برضـوان» ثم دنوت منـه ففعلت كفعلي الأول، فكأني أحرك «ثبيراً»[6] وألتمس من الغِضْرِم عبيرا - والغضرم تراب يشبه الجصّ - فلم أزل أتتبّع الأوزانَ التي يمكن ان يُوسَم بها «رضوان» حتى أفنيتها وأنا لا أجد عنده مغُوثَة، ولا ظننته فهم ما أقول. فلما استقصيت الغـرض فمـا أنجحت، دعـوت بـأعلى صـوتي: يا رضوان، يا أمينَ الجبار الأعظم على الفراديس، ألم تسمع ندائي بك واستغاثتي إليك؟ فقال: لقد سمعتك تذكر «رضوان» وما علمت ما مقصدُك، فما الذي تطلب أيها المسكين؟

فأقول: أنا رجل لا صبرَ لي على اللُّواب - أي العطش - وقد استطلت مدة الحساب، ومعي صَكٌّ بالتوبـة، وهي للذنوب كلهـا

(١) صدر بيت لامرىء القيس، وعجزه: ورسمٍ عَفَتْ آياته منذُ أزمانِ.
(٢) ضانكت: زاحمت.
(٣) أبه له وبه: فطن والتفت.
(٤) غبرت: مكثت.
(٥) البيت لجرير، وهو مطلع قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل.
(٦) ثبير: اسم لعدة جبال بظاهر مكة.

ماحية. وقد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمـك. فقال: ومـا الأشعار؟ فاني لم أسمع بهذه الكلمة قط الا الساعة. فقلت: الأشعار جمعُ شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، ان زاد أو نقص أبانه الحِسّ. وكـان أهل العـاجلة يتقربـون به الى الملوك والسادات، فجئتُ بشيء منه اليك لعلّك تأذن لي بالدخول الى الجنة في هذا الباب، فقد استطلت ما الناسُ فيه، وأنا ضعيف مَنين[1] ولا ريبَ أني ممن يرجو المغفرة، وتصحّ له بمشيئة الله تعالى. فقال: انك لغَبين[2] الرأي! أتأمل أن آذن لك بغير اذن من رب العزّة؟ هيهات هيهات! ﴿وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد﴾[3].

فتركته، وانصرفت بأملي الى خازن آخر يقال له: «زُفَر». فعملت كلمة ووسمتها باسمه في وزن قول «لبيد»:

تمنى ابنتـايَ أن يعيش أبوهمـا   وهل أنا الا من ربيعةَ أو مُضَر؟

وقَرُبْتُ منه فأنشدتهـا، فكأني انما أخاطب ركُـوداً صمّاء[4]، لأستنزل أبوداً عصماء[5]. ولم أترك وزناً مقيّداً ولا مطلقاً يجـوز أن يوسم «بزفر» الا وسمته به، فما نجع ولا غَير. فقلت: رحِمَك الله! كنّا في الدار الذاهبة نتقرب الى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة، فنجدُ عنده ما نحب، وقد نظمت فيك ما لو جمع لكان ديواناً، وكأنـك ماسمعت لي زَجمة - أي كلمة - فقال: لا أشعر بالذي حَمَمْت - أي قصدت - وأحسبُ هذا الذي تجيئني به (قرآن ابليس) المارد، ولا يَنْفُقُ على الملائكة، انما هو للجان وعلموه وَلَدَ «آدمَ»، فما بغيتُك؟ فذكرت له ما أريد، فقال: والله ما أقدر لك على نفع، ولا أملك

(١) المنين: الضعيف والقوي (ضدّ).
(٢) الغبين: ضعيف الرأي.
(٣) من سورة سبأ، الآية ٥٢. والتناوش: التناول.
(٤) الركود: الثقيلة الممتلئة.
(٥) الأبود: المتوحشة، والعصماء: انثى الأعصم، وهو الوعل الذي في يديه بياض.

لخلق من شَفْع، فمن أيِّ الأمم أنت؟ فقلت: من أمة «محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب». فقال: صدقتَ. ذلك نبيُّ العرب، ومن تلك الجهة أتيتَني بالقريض، لأن «ابليس» اللعين نفثَه في اقليم العرب فتعلّمه نساءٌ ورجال. وقد وجبَ عليَّ نصحُك، فعليك بصاحبك لعله يتوصّل الى ما ابتغيت.

فيئست مما عنده، فجعلت أتخلّل [1] العالم، فاذا أنا برجل عليه نور يتلألأ، وحواليهِ رجال تأتلق منهم أنوار. فقلت: من هذا الرجل؟ فقيل: هذا «حمزةُ بنُ عبد المطلب»[2] صريع «وحشي»[3] وهؤلاء الذين حوله من استشهد من المسلمين في «أُحُد»[4]. فقلت لنفسي الكذوب: الشعر عند هذا، أَنْفَقُ منه عند خازن الجنان، لأنه شاعر، واخوته شعراء، وكذلك أبوه وجدّه، ولعلّه ليس بينه وبين «معدّ بن عدنان» إلا من قد نظم شيئاً من موزون. فعملت أبياتاً على منهج أبيات «كعب ابن مالك»[5] التي رثى بها «حمزة» وأولها:

صفيّة قومي ولا تعجَزي وبكّي النساءَ على حمزةِ

وجئت حتى وَلِيتُ[6] منه فناديت: يا سيّد الشهداء، يا عمّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا «ابن عبد المطلب»! فلما أقبل عليَّ بوجهه أنشدته الابيات. فقال: ويحك! أفي مثل هذا الموطِن تجيئُني بالمديح؟ أما سمعت الآية؟ ﴿لكل امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ

(١) يتخلل الناس: يسير بينهم.
(٢) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف: شهد بدراً وأبلى فيها بلاء حسناً مشهوداً. ثم شهد أحداً في السنة الثالثة للهجرة، وقتله فيها غلام حبشي يقال له وحشي.
(٣) وحشي بن حرب من سودان مكة، وقد وعد بالاعتاق إنْ قتل حمزة، فأخذه على غرة في أحد، وصوب اليه حربته فأثبتها في جسمه.
(٤) أحد: جبل في شمال المدينة. حدثت عنده وقعة احد التي قتل فيهاحمزة وسبعون من المسلمين وفيها جرح الرسول.
(٥) كعب بن مالك الخزرجي الانصاري، شاعر الرسول، وقد شهد معه المشاهد كلها الا بدراً، وكان من القلة التي ثبتت في أحد.
(٦) وليت: دنوت.

يُغنيه﴾[1] فقلت: بلى قد سمعتها، وسمعت ما بعدها ﴿وجوه يومئذٍ مُسْفرة، ضاحكةٌ مستبشِرة، ووجوه يومئذ عليها غَبَرة، تَرهَقُها قَتَرة، أولئك هم الكَفَرة الفَجَرة﴾[2] فقال: اني لا أقدر على ما تطلب، ولكني أُنفِذُ معك تَورا - أي رسولاً - الى ابن أخي «علي بن أبي طالب»، ليخاطب النبي - صلى الله عليه وسلم - في أمرك. فبعث معي رجلاً، فلما قص قصتي على أمير المؤمنين، قال: أين بيِّنتُك؟ - يعني صحيفةَ حسناتي - وكنت قد رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة، يعرف «بأبي عليّ الفارسي» وقد امترَسَ[3] به قومٌ يطالبونه، ويقولون: تأولت علينا وظلمتَنا. فلما رآني أشار الي بيده، فجئته فاذا عنده طبقةٌ.

وإذا جماعةٌ من هذا الجنس، كلُّهم يلومونه على تأويله، فقلت: يا قوم، إن هذه أمور هيّنة، فلا تُعنِتوا هذا الشيخ فانه يَمُتُّ[4] بكتابه في القرآن المعروف بكتاب الحُجَّة[5]، وإنه ما سفك لكم دماً، ولا احتَجَن[6] عنكم مالاً. فتفرّقوا عنه. وشُغِلتُ بخطابهم والنظر في حَويرهم[7] فسقطَ مني الكتاب الذي فيه ذكرُ التوبة فرجعت أطلبه فما وجدته، فأظهرت الوَلَهَ والجزعَ، فقال أمير المؤمنين: لا عليك! ألك شاهد بالتوبة فقلت: نعَم، قاضيَ حلب وعُدولها. فقال: بمن يعرف ذلك الرجل؟ فأقول: «بعبد المنعم بن عبد الكريم» قاضي حلب - حرسها الله - في أيام «شِبْل الدولة»[8]، فأقام هاتفاً يهتف في الموقف: يا «عبد المنعم بن

(١) سورة عبس، الآية ٣٧.
(٢) سورة عبس، الآيات ٣٨ - ٤٢ مسفرة أي مضيئة. الغبرة: الغبار. ترهقها: تغشاها. قترة: ظلمة وسواد.
(٣) تمرس بالشيء وامترس به: احتك. وتمرس بالرجل وامترس: اعترض له بشرّ.
(٤) يمت: يتصل، ويعني هنا أن له سابقة في الخير تشفع له.
(٥) يشير الى كتاب «الحجة في علل القرآن السبع» لابي علي الفارسي.
(٦) احتجن المال: احتجزه لنفسه واحتواه.
(٧) حويرهم: جوابهم، ومحاورتهم.
(٨) حكم من ٤٠٠ - ٤٢٩ هـ.

عبد الكريم» قاضي حلب في زمان «شبل الدولة»، هل معك علْم من توبة «علي بن منصور بن طالب، الحلبي الأديب»؟ فلم يجبه أحد. فأخذني الهلع - أي الرِّعْدَة - ثم هتف الثانية، فلم يجبه مجيب. فليح بي عند ذلك - أي صُرعت الى الأرض - . ثم نادى الثالثة، فأجابه قائل يقول: نعم، قد شَهدت توبة «علي بن منصور» وذلك بأخرة من الوقت، وحضَرت متابه عندي جماعةٌ من العُدول، وأنا يومئذ قاضي حلب وأعمالها، والله المستعان. فعندها نهضت وقد اخذت الرَّمق[1]، فذكرت لأمير المؤمنين - عليه السلام - ما ألتمسُ، فأعرض عني وقال: إنك لتروم جَدداً[2] ممتنعاً، ولك أسْوةٌ بولَد أبيك «آدم». وهممت بالحوض فكدت لا أصل اليه، ثم نَغَبْت[3] منه نغبات لا ظمأ بعدها، وإذا الكَفَرة يحملون أنفسهم على الورْد، فتذودهم الزبانية بعِصي تضطرمُ ناراً، فيرجع أحدهم وقد احترق وجهه أو يده وهو يدعو بويل وثُبور. فطُفت على العِتْرةِ المنتَجبين[4] فقلت: اني كنت في الدار الذاهبة إذا كتبت كتاباً وفرغت منه، قلت في آخره: وصلّى الله على سيدنا محمد خاتَم النبيين، وعلى عترته الأخيار الطيبين. وهذه حُرمةٌ لي ووسيلة، فقالوا: ما نصنع بك؟ فقلت: إن مولاتنا «فاطمة» - عليها السلام - قد دخلت الجنة مذ دهر، وإنها تخرج في كل حين مقداره أربعٌ وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية، فتسلم على أبيها وهو قائم لشهادة القضاء، ثم تعود الى مستقرها من الجنان، فإذا هي خرجت كالعادة، فاسألوا في أمري بأجمعكم فلعلها تسأل أباها فيّ.

فلما حان خروجُها ونادى الهاتف: أنْ غضّوا أبصاركم يا أهل

(١) الرمق: بقية الحياة.

(٢) الجدد: الارض الغليظة المستوية، أو الطريق.

(٣) نغب: احتسى وجرع.

(٤) العترة المنتجبين: يريد الذرية المصطفاة، وهي العترة النبوية الشريفة.

الموقف حتى تعبر «فاطمة بنت محمد صلى الله عليه»، اجتمع من «آل أبي طالب» خلقٌ كثير، من ذكور وإناث، ممن لم يشرب خمراً، ولا عرف قطُّ منكراً. فلقوها في بعض السبيل، فلما رأتهم قالت: ما بالُ هذه الزَّرافة[1]؟ ألكم حال تُذكَر؟ فقالوا: نحن بخير، إنا نلتذ بتُحَفِ أهل الجنة، غير أنّا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرع الى الجنّة من قبل الميقات، إذ كنّا آمنين ناعمين بدليل قوله: ﴿إنّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مُبعدون. لا يسمعون حسيسَها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. لا يحزنُهم الفزع الأكبر، وتتلقّاهم الملائكة هذا يومُكم الذي كنتم توعَدون﴾[2]. وكان فيهم «علي بن الحسين» وابناه «محمد» و«زيد» [3]، وغيرهم من الأبرار الصالحين. ومع «فاطمة» عليها السلام، امرأة أخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة، فقيل: من هذه؟ فقيل: «خديجةُ ابنة خُويلد بن أسد بن عبدِ العُزّى» ومعهما شبابٌ على أفراسٍ من نور، فقيل: من هؤلاء؟ فقيل: «عبدُ الله، والقاسمُ، والطيِّب، والطاهر، وابراهيم بنو محمد» - صلى الله عليه - فقالت تلك الجماعةُ التي سألت: هذا وليّ من أوليائنا، قد صحّت توبتُه، ولا ريب أنه من أهل الجنة، وقد توسّل بنا اليك - صلى الله عليك - في أن يُراح من أهوال الموقف،

(١) الزرافة: الجماعة من الناس.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات ١٠١-١٠٣. حسيسها: صوتها. عنها: أي عن النار. والفزع الأكبر: هو ان يؤمر بهم إلى النار. وتتلقاهم الملائكة عند خروجهم من القبور، ويقولون لهم هذا. - الآية.

(٣) علي بن الحسين: الإمام زين العابدين ابو الحسن. وهو احد الأئمة الاثني عشر لدى الشيعة الامامية، توفي سنة ٩٤هـ. وقيل سنة ٩٢هـ. بالمدينة، ودفن بالبقيع. وابنه محمد هو الملقب بالباقر أحد الأئمة الاثني عشر وهو والد جعفر الصادق. توفي بين سنتي ١١٣ و١١٨هـ. على خلاف ودفن بالبقيع. وزيد، ابنه الثاني، قتله يوسف بن عمر الثقفي بين سنتي ١٢٣ و١٢٦هـ. وإليه تنسب الفرقة الزيدية.

ويصير الى الجنّة فيتعجل الفوزَ. فقالت لأخيها «ابراهيم» صلّى الله عليه: دونَك الرجُلَ. فقال لي: تعلّق بركابي. وجعلتْ تلك الخيل تَخَلّلُ الناس وتنكشف لها الأمم والأجيال، فلما عَظُمَ الزِّحام طارت في الهواء، وأنا متعلق بالركاب، فوقفت عند «محمد» – صلى الله عليه – فقال: من هذا الأتاويّ؟ – أي الغريب – فقالت له: هذا رجل سأل فيه فلان وفلان – وسمّت جماعة من الأئمة الطاهرين – فقال: حتى يُنْظَرَ في عمله. فسأل عن عملي فوُجِد في الديوان الأعظم وقد خُتِم بالتوبة، فشفع لي، فأذن لي في الدخول.

ولما انصرفت «الزهراء» – عليها السلام – تعلّقتُ بركاب «ابراهيم» صلىّ الله عليه. فلما خَلَصْتُ من تلك الطُّموشر[١]، قيل لي: هذا الصِّراطُ فاعبُرْ عليه. فوجدته خالياً لا عريبَ[٢] عنده، فبلوتُ نفسي في العبور فوجدتني لا أستمسك. فقالت «الزهراء» صلى الله عليها لجارية من جواريها: يا فلانة أجيزيه. فجعلت تُمارسُني[٣] وأنا أتساقط عن يمين وشِمال، فقلت: يا هذه، إن أردت سلامتي فاستعملي معي قولَ القائل في الدار العاجلة:

سِتّ إنْ أعياك أمري فاحمليني زَقَفونَه

فقالت وما زَقفونه؟ قلت: أن يطرح الانسان يدَيه على كتفي الآخر، ويُمسِك الحاملَ بيديه ويحملهُ وبطنهُ الى ظهره، أما سمعت قول «الجحجلول»[٤] من أهل كَفرْطاب[٥]:

صلحت حالتي الى الخلفِ حتى صِرتُ أمشي الى الورى زَقفونَه

فقالت: ما سمعتُ بزقفونة، ولا الجحجلول، ولا كفرطاب، الا الساعة. فتحملني وتجوز كالبرق الخاطف. فلما جُزتُ، قالت

(١) الطمش: الناس جمعه طموش، فلعله يقصد الجموع والزحام.
(٢) يقال: ما بالدار عريب أو معرب، اي أحد.
(٣) تمارسني: تعالجني وتحاول العبور بي.
(٤) الجحجلول: شاعر مغمور، لم تذكره المراجع.
(٥) كفرطاب: بلدة بين المعرة وحلب.

«الزهراء» عليها السلام: وقد وهبنا لك هذه الجارية، فخذها كي تخدمك في الجنان.

فلما صرت الى باب الجنة، قال لي «رضوان»: هل معك من جواز؟ فقلت لا. فقال: لا سبيل لك الى الدخول إلا به. فبعِلت بالأمر[١]. وعلى باب الجنة من داخل، شجرة صفصاف، فقلت: اعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع الى الموقف فآخذ عليها جوازاً فقال: لا أخرج شيئاً من الجنة الا بإذن من العلي الأعلى – تقدس وتبارك. فلما دَجِرتُ[٢] بالنازلة، قلت: إنا لله وإنا اليه راجعون! لو أن للأمير «ابي المُرَجّى» خازنا مثلك، ما وصلتُ أنا ولا غيري الى قُرقوف من خزانته – والقرقوف الدرهم.

والتفت «ابراهيم» – صلى الله عليه – فرآني وقد تخلّفت عنه، فرجع إلي فجذبني جذبة حصلني بها الجنة.

وكان مُقامي في الموقف مدة ستة أشهر من شهور العاجلة، فلذلك بقي عليَّ حفظي، ما نَزَفَتْه الأهوال، ولا نَهَكَه[٣] تدقيقُ الحساب.

- ٢ -

ويمرّ رفّ من إوزّ الجنّة، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لأمر – ومن شأن طير الجنّة أن يتكلّم – فيقول:[٤] ما شأنكن؟ فيقلن: أُلْهِمنا أن نسقط في هذه الرّوضة فنغني لمن فيها من شَرْب[٥]. فيقول: على بركة الله القدير. فينتفضن،

(١) بعل بالأمر: حار فيه ولم يدر ما يفعل.
(٢) دجر: حار.
(٣) نهكه: اضعفه أو ذهب به.
(٤) فيقول: يعني ابن القارح الذي ذهب يجوب أرجاء الجنة.
(٥) الشرب: الجماعة الذين يشربون.

فيصرن جواريَ كواعبَ يرفلن في وَشْي الجنّة، وبأيديهن المزاهرُ وأنواع ما يُلتمس به الملاهي. فيعجب - وحُقّ له العجب - وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلّت عَظمته، وعزّت كلمته، وسَبَغَتْ على العالم نعمته، ووَسِعت كلَّ شيء رحمته، ووقعت بالكافر نقمته. فيقول لإحداهنّ على سبيل الامتحان: اعملي قول «أبي أمامة»[1] - وهو هذا القاعدُ:

أ مِن آل «ميّة» رائحٌ أو مغتدِ   عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوّدِ؟

ثقيلاً أوّلاً. فتصنعه، فتجيء به مُطرباً، وفي أعضاء السامع متسرِّباً. ولو نُحِتَ صنمٌ من أحجار، أو دَفُّ أُشرَ[2] عند النجّار، ثُمّ سَمِعَ ذلك الصوتَ، لرقص، وإن كان متعاليا هبط ولم يُراعِ أن يُوقص[3]. فَيَرِدُ عليه - أورد الله قلبَه المحابّ - زَوْلٌ[4]، تعجزَ عنه الحيل والحول. فيقول: هلمّ خفيفَ الثقيلِ الأوّل؛ فتنبعث فيه بنغم لو سمعه الغَريض[5]، لأقرّ أنّ ما ترنّم به مريض[6]. فإذا أجادته، وأعطته المَهرَة[7] وزادته، قال: عليك بالثقيل الثاني، ما بين مَثالثك والمثاني؛ فتأتي به على قريّ[8] لو سمعه «عبد الله بن جعفر»[9] لقرن أغاني «بُدَيْح»[10] إلى هدير ذي المِشْفَر[11]. فإذا رأى ذلك قال: سبحان الله! كلّما كُشِفَتِ القدرة بدت لها عجائبُ، لا تثبت لها

(١) يعني النابغة الذبياني، واعمليه بمعنى لحّنيه.
(٢) الدفّ: جانب الرحل، والمقصود هنا: لوح من خشب؛ أشر: نشر.
(٣) وقص: دقّت عنقه.
(٤) الزول: العجب.
(٥) الغريض: أحد مغنّي العصر الأموي.
(٦) مريض: ضعيف أو ناقص.
(٧) أعطته المهرة: أحسنته وأجادته.
(٨) القريّ: الطريقة.
(٩) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من رجالات العصر الأموي وكان شغوفاً بالغناء.
(١٠) بُدَيْح: مولى عبد الله بن جعفر.
(١١) ذو المشفر: البعير.

النجائب؛ فصيري إلى خفيف الثقيل الثاني، فإنّك لمجيدة محسنة، تُطْرَدُ بغنائك السِّنَة[1]. فإذا فعلت ما أمَرَ به، أتت بالبُرَحين[2]، وقالت للأنفس: ألا تمرحين؟ ثم يقترح عليها: الرَّمَلَ وخفيفه، وأخاه الهَزَجَ وذفيفَه[3]؛ وهذه الألحان الثمانية، للأذن تمنّيها المانِيَة[4].

فإذا تيقّن لها حذاقةً، وعرف منها بالعود لباقة، هلّل وكبّر، وأطال حمدَ ربّه واعتبر. وقال: وَيحكِ! ألم تكوني الساعة إوزّة طائرة، والله خلقك مَهْدِيَّة لا حائرة؟ فمن أين لك هذا العلم، كأنك لجَذَلِ النفس خلم[5]؟ لو نشأتِ بين «مَعْبَدٍ» و«ابن سُرَيْج»[6]، لما هِجْتِ السامعَ بهذا الهيج، فكيف نفضتِ بَلَهَ إوزّ، وهززت إلى الطرب أشدّ الهزّ؟ فتقول: وما الذي رأيتَ من قدرة بارئك؟ إنّك على سِيف بَحْرٍ[7]، لا يُدرك له عِبْر[8]. سبحان من يحيي العظام وهي رميم.

مناقشات وتمرينات

١ - يمزج أبو العلاء بين السخرية من ابن القارح وبين الإجلال الواضح لرجالات الرسالة والتاريخ الإسلاميين. كيف؟

٢ - في أي المواطن من هذه القطعة يظهر إسقاط الوضع الأرضي على الوضع في الآخرة حسب تصوير المعري؟

(١) السِّنَة: النعاس.
(٢) البرحين: بكسر الباء وضمّها: الدواهي.
(٣) الذفيف: الخفيف السريع (يعني خفيف الهزج وهو أسرع من الهزج).
(٤) تمنيها: تتلوها أي تلحّنها؛ المانية: القادرة (يعني هنا المغنّية) والألحان الثمانية هي: الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه والرمل وخفيفه والهزج وخفيفه.
(٥) الجذل: السرور؛ الخلم: المصاحب.
(٦) معبد وابن سريج: من أشهر المغنّين في العصر الأموي.
(٧) سيف البحر: ساحله.
(٨) العبر: الشاطىء.

٣ – رغم السخرية الحادة في هذه القطعة لا يتخلى المعري عن شغفه بإظهار معرفته اللغوية. كيف؟ لماذا؟

٤ – كيف يصوّر أبو العلاء مدى اللذة بالغناء المتقن؟

٥ – لماذا جعل الإوزّ هنّ المغنيات؟

٦ – لم يزد أبو العلاء على أن نقل صورة الغناء في الدنيا وأسماء المغنّين المشهورين فيها إلى الجنّة. ناقش.

٧ – لِمَ يتكىء أبو العلاء في أسلوبه على الجمل المعترضة؟

٨ – يراوح أبو العلاء بين الاسترسال والسجع. فما الداعي لذلك وما أثره؟

-٤٧-

وصول المسمّى بكامل إلى تعرّف أمر النبوّات

لابن النفيس *

إنّ المسمّى بكامل لما بلغ في المعرفة إلى الحدّ الذي ذكرناه وكان إذ ذاك قد تهذّب ذهنه وقد قارب الشبيبة فأراد أن يعرف ما حقُّ الخالق على عباده، ففكّر هل الخالقُ تعالى ينبغي أن يُعْبَدَ وأن يطاع وما الطريقُ إلى تعرّف العبادة اللائقة بجلاله، وبقي يفكّر في ذلك مدّة.

واتّفق أن الريح ألقت إلى تلك الجزيرة سفينةً فيها خلقٌ كثير من التجار وغيرهم، وأقاموا هناك مدّة لأجل إصلاح تلك السفينة ممّا نالها بقوّة ضرب الرياح لها، وانتشر أهلها في تلك الجزيرة يحتطبون ويجنون من ثمارها، فلحظهم كامل ونفر منهم أوّلاً، ولم يزل يدنو منهم قليلاً قليلاً مع حَذَرٍ حتى شاهدوه، فهالهم عِظَمُ بدنه واستدعَوْهُ ففرَّ منهم، فألقوا إليه شيئاً من الخبز ومن طعام كان معهم، فلما أكله استطابه جداً لأنّه لم يكن قبلَ ذلك أكل غذاءً صناعيّاً، ثم تأنّس بهم فألبسوه ثوباً، وأكل من أطعمتهم فأعجبه ذلك، واجتهدوا في تعليمه اللغة فتعلّم كثيراً منها، وأخبروه بأحوالِ مدنهم وما يؤكل فيها فتعجَّبَ من ذلك، إذ كان يظن أنّه ليس سوى تلك الجزيرةِ أرض، وأحبَّ السفرَ معهم فحملوه إلى مدينة بالقرب من تلك الجزيرة فأكل من أطعمة أهلها ولبس ملبوسهم، فالتذّ بذلك لذّة عظيمة، وتذكّر

(*) من «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية» (أكسفورد، ١٩٦٨) ص ٩-١٢.

ما كان عليه من سوء العيش لأجل دوام التعرّي في البرد والحرّ والاقتصار على الأغذية الطبيعية ووصول الحيوانات إليه ونهشها له كلّ وقت، فعلم أنّ الإنسان لأجل فقدانه السلاحَ الطبيعيَّ واحتياجهِ إلى غذاء صناعيّ وملبس صناعيّ ليست تجود عيشته إذا انفرد بنفسه بل لا بدّ وأن يكون الإنسان مدنياً حتى يكون مع جماعة، يكون لبعضهم أن يزرع وللآخر أن يحرث وللآخر أن يخبز وللآخر أن ينقل المادة وللآخر أن يَخِيطَ الثّوبَ ونحو ذلك.

ثمّ تفكّر فقال في نفسه: وإذا الإنسان يحتاج في جَوْدَة معيشته إلى ذلك فهو لا محالةَ محتاج إلى وقوعِ معاملة كبيع وإجارة ونحوهما، وهذه المعاملة تؤدّي إلى المنازعة، وكلّ أحدٍ يرى أنّ ما له حقّ وما عليه باطل، فلذلك إنّما تجود معيشةُ الإنسانِ بأن يكونَ مع جمع بينهم شرعٌ محفوظ تنقطع به المنازعة، وإنّما يمكن ذلك بأن يكون ذلك الشرع مما يُتَلَقّى بالطاعة والقبول، وإنّما يكون ذلك إذا اعتقد أنّه من الله تعالى، وإنما يكون ذلك إذا كان وروده من شخص يصدّقه الناسُ في إخباره أنّه من الله تعالى، وهذا الشخص ليس يمكن أن يكون حيوانياً غير إنسان، فإنّ غير الإنسانِ من الحيوانات لا نطقَ له البتّة فضلاً عن أن يكون مُبَلِّغاً لشرع، ولا يمكن أن يكون مما لا يقوى أكثر الناس على الإحساس به كالمَلَك أو الجنّ، وإلاّ لم يتمكّن الجمهورُ من سماع الشرع منه، فلذلك لا بدّ أن يكون هذا الشخص إنساناً.

ثمّ تفكّر فقال: وإذا كان هذا المُبلّغ إنساناً فلا بد وأن يكون مختصّاً بأمر لأجله يصدّقه الجمهور وغيرهم في إخباره أن ما جاء به هو من عند الله، وإنّما يكون كذلك إذا كان مختصاً بأمر يعلم معه أنّه لولا اتّصالُه بالله تعالى وصدقُه فيما يخبر به عنه لم يكن له ذلك، وهذا الأمر هو الذي يسمّى بالمُعْجز، فإذاً لا بدّ وأن يكون هذا الشخص ذا معجز يُشعر الأنفسَ معه أن ما جاء به ليس بزُورٍ ولا باطل بل هو حقّ من عند الله تعالى، والشخص الذي له ذلك هو النبيّ. فعلم

لذلك كامل أن جودة عيشة الإنسان إنّما تتمّ بوجود هذا النبي، فوجودُهُ خيرٌ عظيمٌ للإنسان ونفع عام، والله تعالى يعلم ذلك، فواجب بحسب عنايته وجودُ هذا النبي، إذ من المستحيل أن يترك الله تعالى خَلْقَه هذا النبي مع نفعه العام... فلذلك علم كامل أن خلقه هذا مما لا بدّ منه.

ثمّ تفكّر بعد ذلك في منفعة النبي فرأى أنّ له ثلاث منافع: إحداها أنه يبلّغ الناس شرع الله عزّ وجل كما ذكرناه، وثانيتها أنه يعرّفُ الناسَ بجلال الله تعالى وبسائر صفاته، وثالثتها أنه يعرفهم حالَ المعاد وما هو مُعَدٌّ لهم في الدار الآخرة من السعادة والشقاوة.

ثمّ تفكّر بعد ذلك كامل وقال: إنّ هذه الأشياء مما يعسر على طبائع كثير من الناس قَبولُها؛ إذ كثيرٌ في الناس يعسر عليهم تسليم وجود ما هو ليس بجسم ولا قوّة في جسم ولا هو في جهة ولا إليه إشارة، وكثير منهم يعسر عليه تصوّر كيفيّة الرسالة وكيفيّة بعثة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وكثير منهم يعسر عليه تسليم أمر المعاد وتسليم العودة بعد الموت وتسليم البقاء الأبدي في النعيم أو في الجحيم ونحو ذلك مما تتضمّنه تلك المنافع، ولولا أن الناس في هذا الزمان قد اعتادوا ما جاءت به الشريعة وألفوا أقوالها لبادروا بالاستنكار والردّ على الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وإذا كان قبول هذه الأشياء عسراً، فلو ورد النبي بها دفعةً من غير أن يتقدّمه أنبياء أُخر يقرّبون أكثر ذلك إلى أذهان الناس لنفر الناس عنه جدًّا، وكان تكذيبهم له شديداً، فلذلك ينبغي أن يَرِدَ أوّلاً أنبياء بما هو من هذه الأشياء أسهلُ قبولاً والحاجةُ إليه في جودة بقاء الإنسان وجودةِ عيشه أمَسُّ...

مناقشات وتمرينات

١ - كيف توصّل «كامل» إلى الاعتقاد بأن الإنسان مدني؟

٢ – ماذا ينشأ عن التجمّع الإنساني، وكيف يصبح الشرع ضرورة؟
٣ – ما الخصائص التي يجب أن تتوافر في النبيّ؟
٤ – لماذا يفترض كامل الحاجة إلى عدد من الأنبياء؟
٥ – يستبق كامل الأمور فيفترض مثلاً وجود «المعاد» قبل أن يؤدّي به تفكيره إليه. هل ترى في تدرّج ابن النفيس في مراحل التفكير افتعالاً؟
٦ – مع أن هناك مشابهة بين «كامل» و«حي بن يقظان» (انظر القطعة رقم: ٥٤في هذه المختارات) فان لكلّ منهما غاية مختلفة عن الآخر. وضّح ذلك.

III

آفـاق المعرفـة

-١-

أفق الطبيعة

منظر صيد
لعبد الحميد الكاتب *

أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين مؤيَّداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، ممتَّعاً بالنعمة؛ إنه لم يُلَقَّ أحدٌ من المقتنِصين، ولا مُنِحَ متطرِّف من المتصدين، إلا دون ما لَقّانا الله به من اليُمْن والبركة، ومَنَحَنا من الظفَر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتَنَص، وتمكين الحاسة، وقُرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة[1]، إلا ما كان من محاولة الطلب، وشدة النَّصَب[2]، لنافر الصيد، وقائد الطريدة[3] التي أَمْعَنَّا في الطلب لها، وأعجَزَنا البُهْرُ[4] عن اللَّحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرِّق سُبُلُها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفَر، وتناول الأرب[5]، ونهاية الطرب.

وإني أخبر أمير المؤمنين أنّا خرجْنا إلى الصيد بأعدىَ[6]

(*) من كتاب مختارات من أدب العرب لأبي الحسن علي الحسني الندوي (الطبعة الثانية، دار الشروق، بيروت، ١٣٩٨/١٩٧٨) ٢:٥٢. ولم يذكر الأستاذ الندوي المصدر الذي نقل عنه هذه القطعة.

(١) القدورة: القدرة.

(٢) النصب: العناء والتعب.

(٣) الطريدة: ما يطارد من صيد ونحوه.

(٤) البهر: انقطاع النَّفَس من الإعياء.

(٥) الأرب: الغاية والمقصد.

(٦) أعدى: أكثرها عدوا وجرياً.

الجوارح[١]، وأثقف[٢] الضّواري[٣]؛ أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدّها أطرافاً، وأطولها أعضاء، قد ثُقِّفَتْ بحسن الأدب، وعُوِّدَتْ شدّةَ الطلب، وسبرت[٤] أعلامَ[٥] المواقف، وخبَرتْ المجاثم[٦]، مجبولةً على ما عُوِّدت، ومقصورةً على ما أُدِّبت؛ ومَعَنَا من نفائس الخيل المخبورة[٧] الفراهة[٨]، من الشِّهْريَّة[٩] الموصوفة بالنجابة، والجري والصلابة. فلم نزل بأخفض سير، وأثقفِ طلب، وقد أمطرتْنا السماء مطراً متداركاً[١٠]، فرَبَتْ منه الأرض، وزهَرَ البقل، وسكن القتامُ[١١]، من مُثار السنابك[١٢]، ومتشعبات الأعاصير، مهلةَ أن سرْنا غَلَوَات[١٣]، ثم برزت الشمس طالعةً، وانكشفت من السحاب مسفرةً، فتلألأت الأشجار، وضحك النُّوّار[١٤]، وانجلت الأبصار، فلم نر منظراً أحسنَ حُسناً، ولا مرموقاً أشبهَ شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض، والخيلُ تمرح بنا نشاطاً، وتجتَذِبُنا أعِنّتُها انبساطاً؛ ثم لم نلبث أن علَتنا ضبابةٌ تقصُر طرفَ الناظر، وتخفي سُبُلَ السلام، تغشانا تارة

(١) الجوارح: ذات الصيد من الطير والسباع والكلاب.
(٢) أثقف: أمهر وأحذق.
(٣) الضواري: الكلاب المتعودة للصيد والمولعة به.
(٤) سبرت: اختبرت.
(٥) أعلام: جمع علم (بفتح اللام) وهو الشيء الذي ينصب فيهتدى به.
(٦) المجاثم: موضع جثوم الطير والحيوان ونحوهما بالأرض.
(٧) المخبورة: المعروفة عن تجربة واختبار.
(٨) الفراهة: النشاط في السير.
(٩) الشهرية: البراذين، وهي الخيل التركية، وخلافها: العراب.
(١٠) المطر المتدارك: المتتابع المتلاحق.
(١١) القتام: الغبار الأسود.
(١٢) السنابك: أطراف الحافر.
(١٣) الغلوات: جمع غلوة، وهي مسافة تقدر برمية سهم.
(١٤) النوار: الأزهار.

وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دَمِثَة[١] التراب، أشِبَة الأطراف[٢]، مُغدِقَة[٣] الفِجَاج، مملوءةٍ صيداً، من الظباء والثعالب والأرانب. فأدّانا المسير إلى غابةٍ دونها مألَف الصيد، ومجتَمَع الوحش، ونهاية الطلب، قد جَاوَزْناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون، وبكلّ حرَّة[٤] جَوْنة[٥] متفرِّقون، فرجع بنا العَوْدُ على البدء، وقد انجلت الضبابة، وامتدّ البصر، وأمكن النظر، فإذا نحن برَعْلَةٍ[٦] من ظِبَاء، وخِلْفَةٍ[٧] آرام[٨] يرتَعْن آنسات[٩]، قد أحَالَتْهنّ الضبابةُ عن شخصنا، وأذهَلَهُنَّ أنيق الرياض عن استماع حسّنا، فلم نَعُجْ[١٠] إلا والضواري لائحة لهنّ من بعد الغاية، ومنتهى نظَر الشاخص. ثم مدّت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مَقَاوِدَها[١١]، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضَرها، وسرعة الجوارح في طَلَبها، فمرت تُحَفُّ حفيفَ[١٢] الريح عند هُبوبها، تُسِفّ[١٣] الأرضَ سفّاً، كاشفةً عن آثارها، طالبةً لِخِيارها، حارشة[١٤] بأظفارها، قد مزّقتها تمزيق الريح الجرداء: فمن صائح بها وناعر[١٥]، وهاتف بها وناعق[١٦]، يدعو

(١) دمثة التراب: ليّنة ذات رمل.
(٢) أشبة الأطراف: فيها شجر ملتفّ.
(٣) مغدقة: متسعة.
(٤) الحرة: الأرض ذات الحجارة السوداء.
(٥) الجونة: السوداء.
(٦) الرعلة: الجماعة المتفرقة.
(٧) الخلفة: ما يبقى أو يتبع.
(٨) الآرام: جمع رئم، وهو الظبي الأبيض.
(٩) آنسات: متبسطات غير مستوحشات.
(١٠) نعوج: ننعطف ونميل.
(١١) المقاود: ما تقاد به الدابة من حبل ونحوه.
(١٢) الحفيف: صوت الريح.
(١٣) تسف: تمر على وجه الأرض أو تدنو منه.
(١٤) حارشة: خادشة.
(١٥) ناعر: مصوّت صائح.
(١٦) الناعق: المصوّت بصوت أشبه بصوت الغراب.

الكلبَ باسمه، ويفدِّيه بأبيه وأمّه، وخافِقٍ[1] يطلُبه الرمح، وطامحٍ[2] يمنعه، وسانح قد عارضه بارحٌ[3]، قدْ حيّرتْنا الكثرة، وألهجَتْنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهّاب.

ثم مِلنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد احكمتْه التجارب، وخَبَر أعلامَ المذانب، إلى غدير أفيح[4]، وروضة خَضِرة، مستأجِمة[5] بتلاوين الشجر[6]، ملتفّة بصنوف الخَمَر[7]، مملوءة من أنواع الطير، لم يذْعَرهنّ صائد، ولا اقتنصهنّ قانص، فَخُفِقَ لها بطبول، وصُفر بنفير الحتف[8]، فثار منها ما مَلأ الأُفُقَ كثرتُها، وراعت الجوارحَ خَفَقَاتُ أجنحتها؛ ثم انبرَت البُزاة[9] لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفِضْنَ الظفر بها، حتى سئمنا من الذبح، وامتلأنا من النضيح[10] كأنا كتيبةٌ[11] ظَفِرتْ ببغيتها، وسريّة نُصِرت على عدوها، وألحقتْ ضعيفَها بقويِّها وغَلبتْ محسَنها بمسيئها، لا نملك أنفسنا مرَحاً، ولا نستفيق من الجذَل[12] بها فَرحاً، بقيَّةَ يومنا، والله المنعِم الوهّاب.

---

(١) خافق: خائف ومضطرب.
(٢) طامح: ناشز جامح.
(٣) السانح: الآتي من اليمين؛ والبارح هو الآتي من اليسار.
(٤) أفيح: واسع.
(٥) مستأجمة: ملتوية ملتفة كالأجمة.
(٦) تلاوين الشجر: صنوفها.
(٧) الخمر: الشجر.
(٨) الحتف: الموت.
(٩) انبرت البزاة: تصدت الطيور المسماة بالبازي.
(١٠) النضيح: العرق.
(١١) الكتيبة: القطعة من الجيش، وكذلك السرية.
(١٢) الجذل: الفرح.

مناقشات وتمرينات

١ - هذه القطعة ترقى الى العصر الأموي: ماذا تستنتج منها عن كيفية الإعداد للصيد آنذاك ثم كيفية الصيد نفسه؟ ما الفرق بين صيد الحيوانات وصيد الطيور؟

٢ - لم يقتصر عبد الحميد الكاتب على تصوير عملية الصيد (بعد الإعداد لها) وانما أرفق بذلك وصفا للطبيعة (متدرجا) في غير موطن من قطعته. هل يخدم وصف الطبيعة هذا أية غاية فنية في القطعة، أم إنه مجرد حلية لفظية؟

٣ - هذه القطعة موجهة الى الخليفة الأموي مروان بن محمد؛ كيف أثر ذلك في محتوياتها وأسلوبها؟

٤ - قارن هذه القطعة بمنظر صيد في الشعر الجاهلي، وبيّن لماذا اختفت مقاومة الحيوان في هذه القطعة.

٥ - حدد السمات المميزة لأسلوب عبد الحميد الكاتب في هذه القطعة. هل تختلف عن سمات أسلوبه في القطعة التي قرأتها له من قبل (القطعة رقم ١٠)؟ كيف؟

-٤٩-

جملة القول في الظليم والنعامة
للجاحظ *

ممّا في الظليم[١] من الأعاجيب أنّه يغتذي الصّخر، ويبتلع الحجارة، ويعمد إلى المَرْو - والمرو من الحجارة التي توصف بالملاسة - ويبتلع الحصى، والحصى أصلب من الصّخر، ثمّ يميعه ويُذيبه في قانصته، حتى يجعله كالماء الجاري. ويقصد إليه وهو واثق باستمرائه[٢] وهضْمِه، وأنّه له غذاء وقِوام.

وفي ذلك أعجوبتان: إحداهما التغذّي بما لا يُتغذّى به. والأخرى استمراؤه وهضمه للشيء الذي لو ألقي في شيء ثمّ طبخ أبداً ما انحلّ ولا لان، والحجارة هو المثل المضروب في الشدّة. قال الشاعر:

«حتى يلينَ لضرسِ الماضغِ الحجرُ»

وقال آخر:

ما أطيبَ العيشَ لو أنّ الفتى حجرٌ   تنبو الحوادثُ عنه وهو ملموم

(*) من كتاب «الحيوان» (تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٠) ٤: ٣١٠، ٣٢٠-٣٢١.

(١) الظليم: ذكر النعام.

(٢) استمراؤه: استساغته.

ووصف الله قلب قوم بالشدّة والقسوة، فقال: ﴿فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة﴾، وقال في التشديد: ﴿ناراً وقودها النّاسُ والحجارة﴾.

وبابٌ آخرُ وهو عندي أعجب من الأوّل، وهو ابتلاعه الجمرَ حتى ينفذ إلى جوفه، فيكون جوفُه هو العاملَ في إطفائه، ولا يكون الجمرُ هو العاملَ في احراقه.

وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام[١] - وكنّا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عِيان - أنّه شهد محمد بن عبد الله، يُلقي الحجر في النّار، فإذا عاد كالجمر قذف به قدّامه، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر. وكنت قلت له: إنّ الجمر سخيف سريع الانطفاء إذا لقي الرّطوبات، ومتى أطبق عليه شيء، يحول بينه وبين النّسيم خمد، والحجر أشد إمساكاً لما يتداخله من الحرارة، وأثقل ثقلاً، وألزق لزوقاً، وأبطأ انطفاءً، فلو أحميت الحجارة! فأحماها ثم قذف بها إليه، فابتلع الأولى، فارتبت به، فلما ثنّى وثلّث اشتدّ تعجبي له، فقلت له: لو أحميتَ أواقِيَّ الحديد، ما كان منها ربعَ رطل ونصف رطل! ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجب من الأوّل والثّاني، وقد بقيت علينا واحدة، وهو أن ننظر: أيستمري الحديدَ كما يستمري الحجارة؟ ولم يتركنا بعضُ السفهاء وأصحاب الخُرْق[٢] أن نتعرّف ذلك على الأيام. وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفَه وقانصته، فلعلّ الحديدَ يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجا، فعمد بعض ندمائه إلى سكّين فأحمِيَ، ثم ألقاه إليه فابتلعه، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السّكين من موضع مذبحه، ثمّ خرّ ميتاً. فمَنَعَنا بخُرْقِهِ من استقصاء ما أردنا.

وفي النعامة أنّها لا طائر ولا بعير. وفيها من جهة المَنْسِم

---

(١) أستاذ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة في عصره.

(٢) الخرق: الطيش والحمق.

والوظيف[١] والخَزَمَة[٢]، والشقّ الذي في أنفها ما للبعير. وفيها من الرّيش والجناحين والذّنب والمنقار ما للطائر. وما كان فيها من شكل الطائر أخرجها ونقلها إلى البيض، وما كان فيها من شكل البعير لم يخرجها ولم ينقلها إلى الوَلَد. وسمّاها أهل فارس: «أشْتُرمُرْغ» كأنهم قالوا: هو طائر وبعير.

مناقشات وتمرينات

١ - عدّ الجاحظ أعجوبتين في النعام: ما هما؟
٢ - تفيد هذه القطعة بواكير الاستنتاجات العلمية القائمة على التجربة، وضّح ذلك.
٣ - لماذا سمّى الفرْسُ النعامةَ اشترمرغ: (طائر - بعير)؟
٤ - كيف فسد على النظام ما انتواه من تجربة علمية؟

(١) الوظيف: مستدقّ الذراع والرجل من الخيل والإبل.
(٢) الخزمة: موضع الخزم من الأنف.

-٥٠-

طبائع بعض الضواري
لأسامة بن منقذ *

قاتلت السباع في عدّة مواقفَ لا أُحصيها. وقتلت عدّة منها ما شركني في قتلها أحدٌ سوى ما شاركني فيه غيري، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري. فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابنَ آدم ويهرب منه وفيه غفلةٌ وبَلَهٌ ما لم يُجْرَحْ فحينئذ هو الأسد، وذلك الوقتَ يُخافُ منه. وإذا خرج من غاب أو أَجَمَة وحمل على الخيل فلا بدّ له من الرجوع إلى الأجمة التي خرج منها، ولو أنّ النيران في طريقه. وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه، قبل أن يُجرح. فإذا رجع تركته إلى أن يتجاوزني وطعنته، قتلته.

فأمّا النمور فقتالها أصعب من قتال الأُسْد لخفّتها وبُعد وثبتها. وهي تدخل في الغارات والمجاحر[١] كما تدخل الضباع، والأسد ما تكون إلاّ في الغابات والآجام. وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها مَعَرزف[٢] من أعمال شيزر. فركب إليه عمّي عزّ الدين، رحمه الله، وأرسل إليّ

(*) من كتاب الاعتبار ص: ١٠٩.
(١) الغارات: الكهوف؛ المجاحر: الأماكن التي يمكنها أن تنجحر أي تختبىء فيها.
(٢) مَعَرزف: قرية إلى الشمال الغربي من حماة.

فارساً وأنا راكبٌ في شغل لي يقول «الحقني إلى معرزف». فلحقته وجئنا إلى الموضع الذي زعموا أنّ النمر فيه، فما رأيناه. وكان هناك جبّ[1] فنزلت عن حصاني ومعي قنطاريّة[2] وجلست على فم الجبّ، وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كالمجحر. فحرّكت القنطاريّة في ذلك الخرق الذي في الجبّ فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطاريّة. فلما علمنا أنه في ذلك الموضع نزل معي أصحابنا، وصار بعضنا يحرّك ذلك الموضع بالرمح، فإذا خرج طعنه الآخر. وكلّما أراد الصعود من الجبّ أوثقناه بالرماح، حتى قتلناه، وكان خلقةً عظيمة، إلاّ أنّه كان قد أكل من دواب القرية حتى عجز عن نفسه. وهو دون سائر الحيوان يقفز إلى فوق أربعين ذراعاً.

وقد كان في كنيسة حُناك[3] طاقةٌ في ارتفاع أربعين ذراعاً. فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب إليها ينام فيها إلى آخر النهار،ويثب منها ينزل ويمضي. ومُقْطَعُ حُناك[4] ذلك الوقتَ فارسٌ إفرنجيّ يقال له سير آدم[5] من شياطين الإفرنج. فأخبروه خبر النمر فقال: إذا رأيتموه أعلموني . فجاء النمر كعادته وثب إلى تلك الطاقة. فجاء بعض الفلاّحين أخبر السير آدم، فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء إلى الكنيسة وهي خراب، إنّما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة. فلماّ رآه النمر وثب من الطاقة عليه، وهو على حصانه، فكسر ظهره وقتله ومضى. . .

ومن خواصّ النمر أنه إذا جرح الانسان وبالت عليه فأرة مات. ولا ترتدّ الفأرة عن جريح النمر، حتى إنه يُعمل له سرير يُجْلَسُ في الماء ويربط حوله السنانير خوفاً عليه من الفأر.

---

(١) الجبّ: البئر.
(٢) القنطارية: الرمح.
(٣) حناك: حصن يقع إلى الجنوب الغربي من معرّة النعمان.
(٤) مُقْطَع حناك: أي الذي خصّصت حناك إقطاعاً له.
(٥) Sir Adam.

والنمر لا يكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهم. وقد كنت مرّة مجتازاً بمدينة حيفا من الساحل، وهي للافرنج، فقال لي إفرنجي منهم: تشتري مني فهداً جيّداً؟ قلت: نعم. فجاءني بنمر قد ربّاه حتى صار في قدّ الكلب. قلت: لا، ما يصلح لي. هذا نمر ما هو فهد. فعجبت من أنسه وتصرّفه مع الإفرنجي.

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثلُ وجه الكلب وعيناه زرق، والفهد وجهه مدوّر وعيناه سود.

وقد كان بعض الحلبيين أخذ نمراً وجاء به في عِدْلٍ إلى صاحب القدموس[1] وهو لبعض بني محرز، وهو يشرب. ففتح العِدْلَ، فخرج النمر على من في المجلس. فأمّا الأمير فكان عند طاقة في البرج دخل منها وغلّق عليه الباب. وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم إلى أن قتلوه.

مناقشات وتمرينات

١ - يتحدّث أسامة عن طبائع بعض الحيوانات بناء على الخبرة والتجربة: الأسد - النمر - الفهد: حدّد خصائص كلّ منها كما يراها أسامة.

٢ - هل تجد في حديث أسامة أشياء لا يسندها العلم؟

٣ - صوّر مغامرة أسامة في معرزف، وقارن بينها وبين تجربة الإفرنجيّ في حناك.

٤ - سمّى أسامة كتابه «الاعتبار» فهل لهذه التسمية صلة بالحكايات التي يوردها هنا؟

---

(١) القدموس: حصن إلى الجنوب الغربي من شيزر.

-٥١-

تطوّر صورة الكون
لفؤاد صرّوف *

كان مساء اليوم السابع من شهر كانون الثاني سنة ١٦١٠ – أي منذ ثلاثة قرون ونصف قرن – حدّاً من الزمن، ختم عهداً في تاريخ الفكر على الأرض، واستهلّ عهداً جديداً. ففي ذلك المساء جلس غاليليو، أستاذ الرياضة في جامعة بادوَى الإيطالية أمام مَرْقَبٍ صنعه بيديه ونظر من خلاله إلى القبّة المرصّعة بالنجوم.

كان روجر بيكون، مستنبطُ النظارات، قد بيَّن قبل ذلك بثلاثة قرون، كيف يمكن أن يصنع مرقباً «يمدّ في قوّة العين البشرية، ويقرّب النجومَ إلينا ما نشاء». ومع ذلك فلم يُصنع المرقب الأول إلاّ في مستهلّ القرن السابع عشر (١٦٠٨) صنعه لبرشي الفلمنكي، فلم يكد خَبَرُهُ ينتهي إلى غاليليو حتى دأب على البحث محاولاً أن يستبين المبادىء التي يقوم صنعه عليها، ثمّ جعل يصنع جهازاً على غراره، فلما تمّ كانت قوّته أكبر من قوّة مرقب لبرشي. ولم يكد نبأ هذا المرقب الذي صنعه غاليليو يذاع في إيطاليا حتى أحدث ضجّةً في دوائرها الفكرية، فدُعيَ إلى البندقية ليعرضه على الدودج[1] وأعضاء مجلسه.

(*) من كتاب «الانسان والكون» (بيروت، ١٩٦١) ص ١٥٩-١٦٦.

(١) Doge : حاكم البندقية (Venice).

وذات صباح شاهد سكّان البندقية حكامهم الشيوخ يتوقّلون[1] قمّة برج أقيم المرقب عليه ليروا سُفُناً في عُرْضِ البحر لا تتبيّنها العينُ المجرّدة.

ثمّ كانت بعد ذلك، تلك الليلة التاريخية في ٧ كانون الثاني سنة ١٦١٠ التي تعدّ الحدّ الذي استهلّ عهداً جديداً في علم الفلك، وخُطّت عنده الخطوط الأولى لصورة جديدة للكون.

فمنذ أن أخذ الانسان القديم، يرعى النجوم ويسائلها عسى أن يفهم شيئاً عن الفلك المُدَار وطبيعته وأصله ومصيره مرّ الفكر البشري في تصوّر الكون، قبل غاليليو، في أطوار متعددة استغرقت دهوراً طوالاً، وبصور متباينة متعاقبة، قد تبدو غريبةً اليوم، وقد يثير بعضها في سذاجته وغرابته شيئاً من التهكّم، ولكنها كانت ولا ريبَ المحاولاتِ الأولى التي حاولها العقل البشري، للإجابة عن أسئلة كثيرة، نستطيع الإجابة عن بعضها اليوم، إجابة الواثق المطمئنّ، ولا تزال الأسئلة الأخرى تُمِضُّنا وتحيّرنا، فلا نُحير جواباً[2] شافياً –

*بربّك أيها الفلك المدار[3] ! *

في القرون السابقة للميلاد، يوم كان الفكر الإغريقي ذاهباً في طريقه إلى الذروة، كانت الأرض في نظر طاليس[4] قرصاً سابحاً في محيط من الماء، وذهب أناكسيماندر[5] إلى أن الشمس والقمر والنجوم ليست سوى ثقوب في الجَلَد[6]، وفسّر أوجه القمر بانفتاح الثّقب

(١) يتوقلون: يصعدون.

(٢) ما أحار جواباً: أي ما رجع جواباً.

(٣) هذا صدر بيت لابن الشبل البغدادي (١٠٨٧/٤٧٤) وعجزه: أقصدذا المسير أم اضطرار؛ وهو من قصيدة فلسفية أوردها ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء ١:٢٤٨.

(٤) طاليس (Thales) : أول الفلاسفة الاغريق قبل سقراط.

(٥) Anaximander : فيلسوف يوناني، عاش بين سنتي ٦١١ و٥٤٧ تقريباً قبل الميلاد.

(٦) الجلد: رقعة السماء.

الخاص بالقمر وانغلاقه، وان الكسوف والخسوف يحصلان عندما ينسدُّ ثقب القمر أو ثقب الشمس انسداداً عابراً. وتعاقبت مذاهب وآراء أخرى في تعليل هذه الظاهرات الكونية الرائعة، فقال هيراقليطس[1] إن الشمس والقمر والنجوم كؤوس أو طسوت تجمع في قعرها منبعثات نارية تصدر عن الأرض ثم تحيلها لهباً، وإن كأس القمر تدور على نفسها دوراناً بطيئاً فتتعاقب وجوهه، وإن الكسوف والخسوف التامَّين يحدثان عندما تشيح[2] عنا الكأس إشاحةً كاملة في دورانها.

وكان بين هؤلاء الفلاسفة، مَن تبيّن في لمحة من لمحات البصيرة أو العبقرية، شعاعاً من الحقيقة، فقال أناكساغوراس[3] إن طبيعة القمر شبيهة بطبيعة الأرض وعلّل أوجهه وخسوفه تعليلاً لا تتنكّر لمبدئه اليوم؛ وعلّم فيثاغوراس[4] تلاميذه بأن الأرض كرة تدور حول الشمس؛ وذهب ارسترخس[5] إلى أنّ الشمسَ مركز الكون، وحاول أن يقيس المسافةَ بين الشمس والأرض الدائرة حولها. وقد طويت هذه الآراء، بين الإغريق وغاليليو[6]، وكادت أن تُطْمَس لولا عنايةُ بعض العلماء العرب بالأخذ بها والحفاظ عليها، وفي طليعتهم أبو عبيدة مسلم (بن أحمد) البلنسي[7] في النصف الأوّل من القرن العاشر الميلادي.

(١) Heraclitus : فيلسوف يوناني، عاش في الفترة بين ٥٣٥ و٤٧٥ تقريباً قبل الميلاد، وكان يسمى الفيلسوف الباكي.

(٢) تشيح: تدير وجهها.

(٣) Anaxagoras : فيلسوف يوناني، عاش بين ٥٠٠ و٤٢٨ تقريباً قبل الميلاد.

(٤) Pythagoras : فيلسوف ورياضي ومصلح ديني يوناني، عاش بين ٥٨٢ و٥٠٠ قبل الميلاد.

(٥) Aristarchus : فيلسوف يوناني قديم.

(٦) Galileo Galilei : فيزيائي وفلكي ايطالي. توفي سنة ١٦٤٢ ميلادية.

(٧) عالم اندلسي يعرف بصاحب القِبلة، توفي سنة ٢٩٥/٩٠٨.

ولعلّ أعظم السبب في إهمال هذه الآراء، التي تجلّت فيها لمحة من الحقيقة، يعود إلى المقام الذي أحرزه بطليموس[1] الإسكندري بين علماء عصره، وبخاصة في كتابه «المجسطي»، فقد أخذ بأن الأرض مركز الكون، وعلل مداراتِ الكواكب السيّارة في الفضاء بنظام بارع معقّد خلاصته أن هذه الكواكب تسير في أفلاك مستديرة حول نقط متحرّكة، وهذه النقط تسير بدورها، في دوائر حول الأرض الثابتة فسمّيت أفلاك التدوير. ونال هذا النظام فيما بعد رضى الدوائر المعنية بكلّ ما يمتّ إلى العقيدة الدينية بسبب، إذ كيف السبيل إلى الإيمان بأنّ «الفداء» قد تمّ في مكان سوى مركز هذا الكون العظيم.

بيد أن كوبرنيكوس[2] اعترض على النظام البطليموسي المعقّد، بأن لا مسوّغ له ولا ضرورة، لأنّ تعليل حركات الكواكب السيّارة (السيّارات) ومداراتها، ميسور، على سبيلٍ أهونَ وأدنى إلى العقل والقَبول، بحسبان الأرض والسيّارات تدور جميعاً حول الشمس الثابتة، فكان قوله هذا في كتابه «دوران الأجرام السماوية» بدء «الثورة الكوبرنيكية» كما وصفها أحد الكتّاب المعاصرين. ولكن الرأي الذي أعرب عنه ظلّ ستّاً وستّين سنة مدارَ أخذٍ ورد، وجدلٍ ونقاش، دون أن يوفّق أحد إلى إثباته أو نفيه، بالبرهان العلمي.

وإذا غاليليو يوجّه مرقبه إلى صدر القبّة المرصّعة بالنجوم.

وقد أخذ غاليليو أوّلاً برصد نواح من الجَلَد تبدو للعين المجرّدة لُطَخاً سحابيةً فتبيّن فيها مجموعة كثيفة من النجوم يتعذّر تمييز النجم عن النجم فيها لبعدها الشاسع، وحوّل مرقبه إلى صفحة القمر فشاهد

(١) Ptolemy (Claudius Ptolemaeus) : رياضي وفلكي وجغرافي يوناني من أهل الاسكندرية، مولده في حدود سنة ١٢٧ ميلادية ووفاته في حدود سنة ١٥١ ميلادية.

(٢) Nicolaus Copernicus : فلكي بولندي توفي سنة ١٥٤٣، وهو واضع النظرية المقبولة اليوم أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس.

الجبال وظلالها، والبقع التي ظنّ أوّلاً أنها كؤوس براكين خامدة فأثبت ما قاله اناكساغوراس الإغريقي وبرونو[١] الايطالي. فخطر له يومئذٍ، أن الأداة التي بين يديه، قد تُبيّن له الصحيح من الفاسد في مذهبَيْ بطليموس وكوبرنيكوس.

وكان ذات ليلة يرصد المشتري، فكشف أربعة أجسام تدور حوله، كفراشات تدور حول شمعة، فخطر له أنّ المشتري والأجسام التي تدور حوله، ليست سوى مثالٍ دقيق للنظام الشمسي الذي وصفه كوبرنيكوس في كتابه. ولكنّه لم يُوغل في الاستنتاج العلمي أو الفلسفي ممّا شاهد، بل اكتفى بقوله إنه كشف أربعة سيّاراتٍ صغيرة يتبع بعضها بعضاً حول المشتري. وبعد انقضاء تسعة أشهر أخرى أثبت أن للزهرة أوجهاً كأوجه القمر، وهو قولٌ كان كوبرنيكوس قد سَبَقَ إليه، فقد بيّن أنّ تركيب النظام الشمسي على المثال الذي قال به، يقتضي أن يكون لعطارد والزهرة - على اعتبار أنهما يدوران حول الشمس في مدارين داخل مدار الأرض حولها - أوجهٌ كأوجه القمر. وها هوذا مرقب غاليليو يؤيّد بالمشاهدة قول كوبرنيكوس النظري.

وما إن تبدّلت الصورة القديمة (البطليموسية) للكون، على كثرة ما رافق تبدّلها من الجدل والمناقشة والاضطهاد، حتى توالى على علم الفلك، بعد كوبرنيكوس وغاليليو، علماء فحول فمضوا يضعون قواعده، ويدرسون حركات النجوم والسيّارات، ويمعنون في بحث بعض مشكلاته الأصيلة، وخرجوا من نطاق النظام الشمسي، إلى النجوم وراء أبعد السيّارات، وعيّنوا بعد عناء كبير مواقع مئات منها. وكان منهم رجل إنكليزي من أصل ألماني يدعى وليم هرشل[٢]، نشأ موسيقيّاً وهاجر إلى إنكلترا، وَعَلِقَ الفلكَ وهو في الخامسة والثلاثين،

(١) Giordano Bruno : فيلسوف ايطالي توفي سنة ١٦٠٠ ميلادية.

(٢) Sir William Herschel (١٧٣٨-١٨٢٢).

فكشف السيّار أورانوس (وهو الذي يلي المشتري بين الكواكب السيّارة حول الشمس) ولو لم يوفّق إلى هذا الكشف لكان خليقاً أن يبقى موسيقياً يسترق اللحظ إلى السموات في ساعات الفراغ، إشباعاً لشوق فيه، ولكنّ كشفه استرعى عناية المليك وأفضى به إلى زواجٍ من سيّدة ذات ثراء.

فمضى هرشل، يُتقن صنع العدسات للمراقب الكاسرة، فلما أنجز صنع مرقب قُطْرُ عَدَسته تسعَ عشرةَ بوصة، وجّهه إلى السموات فكشف ما يعرف بدرب التبّان أو المجرّة ووصف ما كشف في الجمعية الملكية سنة ١٧٨٤ بقوله «إنها طبقة ممتدة من النجوم، وليست الشمس ومجموعتنا الشمسية سوى جزء منها». وقال أيضا: «كلما كبرت عدسة المرقب تبيّن أن ما يبدو لطخاً سديمية إنّما هو في الواقع عناقيد من النجوم (القنوان)، وأنه كلّما استكشف واحدة منها وحلّها إلى مقوّماتها، وجد عشراً أخرى لا يقوى مرقبه على حلّها». فلمّا قضى نحبه حُفر على شاهد قبره: «نفذ إلى السموات».

وكذلك بدأ علماء الفلك - بعد توضيح بناء النظام الشمسي - يخرجون من نطاقه إلى الأجرام السماوية التي تحيط به في رحاب الفضاء، وفي سبيل هذه المغامرة الرائعة، شحذوا الأذهان لاستنباط ما يمكنهم من امتحان آرائهم، ويُعينهم على الإيغال في الكشف، فأتقنوا القديم من وسائل الرصد، وزادوا حجم المراقب التي يعتمدون عليها، وابتكروا أساليبَ رياضيةً تساعدهم في حسابات البعد وغيرها، واستنبطوا على مراحل، التصوير الضوئي[١]، والحل الطيفي، فانتقل علم الفلك من العناية بالنظام الشمسي - ولا تزال شؤونه إلى اليوم محلَّ دراسةِ كثيرين منهم - إلى الاهتمام بما هو خارجه. فلما بلغوا حدود المجرّة، التي نظامنا الشمسيُّ منها، أخذوا يتطلعون الى ما

(١) الضوئي أفضل من الشمسي لأن التصوير قد يتم في ضوء غير ضوء الشمس المباشر.

وراءها، فإذا هم حيال مجرّات لاتكاد تحصى، كلّ واحدة منها عالم قائم بنفسه كجزيرة كبيرة في محيط. وإذا كانت أقرب شمس إلى شمسنا تبعد عنها أربع سنوات ونحو خُمْسِ سنة ضوئية، فإن أقرب مجرّة الى مجرّتنا تبعد عنها نحو مليون ونصف مليون سنة ضوئية. (كان التقدير الأوّل ٧٥٠ ألف سنة ضوئية).

وإذن فالمراحل الثلاث الكبرى في رسم الصورة الجديدة للكون، هي أوّلاً مرحلة الانتقال من حِسْبانِ الأرضِ مركزَ الكون، إلى دراسة النظام الشمسي على الأسس التي وضعها كوبرنيكوس وأيّدها غاليليو. وأمّا الثانية فهي مرحلة دراسة نظام المجرّة ونظامنا الشمسيّ منها وشكلها وعدد نجومها وأجرامها الأخرى، وأبعادها وحركتها، ومكان النظام الشمسي فيها. وكانت المرحلة الثالثة دراسة الكون خارِ المجرّة التي نحن فيها، واستكشاف مجرّاته وأحجامها وحركتها وسرعتها وتفرّقها والفضاء بينها وما يحتويه من غبار كوني، إلى حدود تبعد عنّا ألفي مليون سنة ضوئية أو تزيد.

مناقشات وتمرينات

١ - اذكر بعض الآراء الفلكية التي كانت لدى بعض فلاسفة اليونان.

٢ - ما هي أبعاد ثورة كوبرنيكوس في تاريخ الفلك؟

٣ - لماذا تُعدّ سنة ١٦١٠ حاسمة في تاريخ علم الفلك؟

٤ - عدّد بعض الكشوف التي توصّل إليها غاليليو.

٥ - ما الكشف الذي توصّل إليه وليم هرشل؟

٦ - مضى العلم في رسم صورة الكون في ثلاث مراحل: حدّدها.

-٥٢-
الحياة معركة شاملة قاسية ضارية
لأحمد زكي *

منذ سنوات ثلاث، رأيت على شاشة التلفاز رحلةَ جماعةٍ من العلماء، خرجوا إلى براري افريقية الوسطى وأدغالها، يدرسون ما بها من صنوف الحيوانات. واتخذوا لهذه الرحلةِ الطائرةَ التي تسير في بطء، على مقربة من الأرض، تلك التي سمّوها الهيلوكبتر، وعجز العرب، في عجزهم الشائع عن اتفاقٍ، عن ابتداع اسم لهذه الطائرة، لـه الجرْس(١) العربي، يرضونه جميعاً.

ومن هذه الطائرة رأى الراكبوها ما يجري في تلك البراري والأدغال من أحداث صغار وأحداث كبار. ورأت معهم العدسة التلفازية بالكَمِرَةِ التي حملوا، وبها سجلوا كل ما رأوا.

وكان ما رأوا، ورأيت معهم بعد ذلك على الشاشة، مناظرَ قطعان، مئاتٍ أحياناً، من ذوات الحافر، قابعةٍ على سطح الأرض، وسائرة حيناً، تـرود(٢) في أرض الله الواسعة المعشبة ما لا بدّ منه من طعام.

(*) نشر هذا المقال بمجلة «العربي» (الكويت)، العدد: ٩٨، يناير ١٩٦٧.

(١) الجرس: النغم.

(٢) ترود: تجول طلباً للطعام.

ورأيت من هذه القطعان، قطيعاً كبيراً، كأنّه البقر، وقد انتفض من مراقده على حين بغتة، وأطلق للريح سيقانه[1]، وما لبثتُ أن رأيتُ جماعة من الذئاب تجري وراءه تطلب منه صيداً. ولَحِقَت الذئابُ بأطراف القطيع، وأخذت تفصل عنه البقر الصغير الرضيع، وتفترسه افتراساً. وكانت ساعةً ذَهَلَتْ فيها كلُّ مرضعةٍ من البقر عمّا أرضعت[2]، فلم تتريَّثِ الأمهاتُ لتحميَهَا ومضت لا تَلْوِي على شيء[3].

وأخذت العاطفة أحد رجال الطائرة أخذاً، فهمَّ بأن يُطْلِقَ على ذئب من الذئاب الرصاصَ وقد همّ أن ينال فريسته الصغيرة الثائرة الجائعة المرتاعة. فقال له آخر: بالله لا تحرم الذئب من غدائه، فلعلّه قد مضى عليه أيّامٌ أهلكه فيها الجوع.

نعم: لا تحرم الذئب من غدائه!!

قاتلٌ من الحيوان ومقتول، توزعت بينهما عاطفة الرجلين، وتعطلت بينهما لغة الآداب، فلم تدرِ ما تقول.

إن ظواهر هذا الوجود الكبرى جلَّتْ عن أن يكون فيها ما يستطيع إنسان أن يسميه حقًّا، وما يستطيع أن يسمّيَه باطلاً، إنها أمور خرجت عن نطاق الأحكام.

إنّك تحمل في يدك الشيءَ الهشَّ الغاليَ، ويُفلِتُ من يدك فيسقط على الأرض، فيتهشّم، ولكنك لا تغضب على الأرض لأنّ كلّ شيء ينجذب إليها.

وقد ينهار جانب من جبل على قرية فيدفنها دفناً، ولا يغضب

(١) جرى هارباً.

(٢) من الآية ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ (سورة الحج، الآية ٢) في وصف حال الناس يوم القيامة.

(٣) لا تلوي على شيء: لا تلتفت إليه.

أحد على الجبل، بأن انحدر منه، بفعل الجاذبية الأرضية أيضاً، ما انحدر. والرعد والبرق قد يثوران في السماء ثورةً تَجْري بأذيالها على الأرض، فَتَصْعَقُ، أو يَفيضُ ماؤها فتُغرقُ، ولا يغضب أحد على برق أو رعد.

فجائعُ، في نظرنا، تصدر عن قوانينَ ثابتةٍ في أرض وسماء، لا تعي جوامدُ الأرض والسماء من معنى الفجيعة فيها شيئاً، ولا من معنى العدل والظلم، ولا من معنى الذم والحمد.

وكما في عالم الجوامد، فكذلك في عالم الأحياء؛ كلٌّ يقتل، وكلٌّ يأكل. وكلُّ مقتول هو في دوره قاتل. وكلّ مأكول هو في دوره آكل، ولو عشب الأرض، فما خلا العشبُ من حياة.

إنّه قانون الحياة، ليس إلى إنكاره من سبيل. وهو بين قوانين الحياة، أصدقُ قانون، وأشمل قانون. وهو القانون الذي إذا تعطل، تعطّلت معه الحياة كما نعرفها.

وتتمثل السلسلة الغذائية في أوّل مثل ذكرناه: الذئب يأكل الأبقار (الوليدة)، والأبقار تأكل العشب.

سلسلة ذات ثلاث حلقات، كلّها من الأحياء. العشب منها.

وقد تلتقي السلسلة بسلاسل أخرى فتتفرع أو تتصالب. فقد يقتل الذئب الغزلان ويأكلها، وقد يأكل الفئران، والأسماك. والأبقار يأكلها الأسد، ويأكلها النمر. سلاسل تلتقي في حلقة أو أكثر من حلقة من حلقاتها.

والسلسلة قد تطول. فالنمر يأكل الكلب (البري)، والكلب يأكل الأرنب. والأرنب يأكل العشب.

وفي الماء كما في الأرض، سلحفاة الماء تأكل السمك، والسمك الكبير يأكل السمك الصغير، والسمك يأكل القشريات البحرية،

والقشريات البحرية تأكل الحشرات المائية، وهذه تأكل من أحياء البحر ما هو أصغر، من الحيوانات البحرية والنباتات.

ولو جمعنا هذه السلاسل، وكتبناها على صفحة من الورق، وأشركنا فيها المشترك من الحلقات، لتألف عندها «شبكة»، كلّ ما فيها آكل ومأكول. وتعرف بالشبكة الغذائية.

سلسلة من ثلاث حلقات.

أوّلها العشب وهو لا يَأكل، وإنّما يُؤكل.

وآخرها السبع، وهو يَأكل، وغالبـاً لا يُؤكل حيّاً.

وبينهما ذو الحافر، وهو آكل ومأكول.

ومع هذا فلا بدّ للعشب من أصل سبق.

ولا بدّ للسبع من نهاية سوف تلحق.

أمّا العشب فليس يسبقه أصل من حياة، إنّ العشب نفسه الذي يصنع الحياة. إنّه يصنعها من ثاني أكسيد الكربون الذي بالهواء، ومما في الأرض من ماء، ومما فيها من أملاح معدنية، يجمع بينها جميعاً شعاع الشمس، فيخيطها خيطاً كما يُخاط الثوبُ، ويصنع منها الحياة: خلايا حيّة تنمو، ومع النماء هي تتنفس. وفيها السكر والنشاء والبروتينات، وحتى الزيوت. إنّه النبات الذي يغطي سطح الأرض، بعشبه، وعيدانه، وشجره، وثمره.

والعشب والنبات جميعه قوت الحيوانات، التي تأكل العشب، وتأكل من الشُجيرات والشجر ورقَها وحبَّها وثمرها. والبقر منها فهو عاشب. والفيل منها، والغزال والوَعْل، وحمار الوحش، وبعض الحشرات، وبعض الطير.

والنبات أول أشكال الحياة، بل هو غذاء الحياة جميعاً، من كلّ صنف، وكلّ نوع.

ومن وراء النبات تقبع الشمس، تمُدُّ بطاقتها إلى الأرض، في صمت، هو أجدر شيء بالمختبرات الأولى التي تجري فيها عمليّات الخلق.

حتى في البحر، تبدأ الحياة بمثل ما تبدأ به على الأرض. خلايا نباتية، تبني في الماء ما تبنيه خلايا النبات في التراب، من ماء وملح، وأكسيد كربون، وأشعة شمس. وإذا صارت نباتاً، أكلها الحيوان البحري الصغير، ليأكله الكبير.

ويأتي بعد آكلات النبات، في أرض أو بحر، آكلات اللحم. وهي تأكل آكلات النبات، في أرض أو بحر.

والنبات طيِّع، لا يمنع آكله أن يأكل.

والحيوانات تمنع آكلها، فتدفع عن نفسها. وإذن تقوم المعركة متّصلةً دائمة، ميدانُهَا الأرض والبحر والهواء.

وتُغيرُ الحيوانات آكلات اللحم، من ساكنات أرض أو هواء أو بحر، على آكلات العشب وآكلات اللحم حيثما كانت. تُغير على سمك في بحر. وتغير على طير في هواء. والطير يهبط من هواء، جارحاً أو غيَر جارح، يطلب رزقه من نبات، أو من حشرات، أو من حيوان زاحف، أو حتى من إنسان طفل رضيع.

ومعنى هذا أن آكلات اللحم تمتدّ معاركها إلى آكلات اللحم، التي هي أصغر منها، أو أضعف منها، أو أقلّ حيلة.

وآكلات اللحم تأكل الحيوانات ذاتَ اللحم لأنها لا تستطيع أكلَ غيره.

إنّ الحياة مادة وطاقة. وجسم الإنسان، وجسم الحيوان، مادة تُمسّ وتوزن. ولكن بها طاقة خفيّة هي التي تخْرج منها الحركة وهي طاقة، وهي التي تُجري التبدّل والتحوّل الجثماني من هضم، وامتصاص ودورة دم، ودقات قلب، وحتى الفكر، وهو من طاقة.

والحياة تبدأ من الشمس، وما في الهواء من أكسيد كربون، وما في الأرض من ماء وملح. فهذا ما سبق ذكره. وهذه مواد طاقتها أدنى طاقة.

ومنها يصنع النبات مادته. فتخرج وبها من الطاقة أكثر كثيراً ممّا في المواد الأولية التي صنعها منها (أكسيد الكربون، والماء، وملح الأرض). فهي أكثر تركّزاً، تَرَكُّزَ طاقةٍ.

ثمّ يأتي الحيوان آكل العشب فيأكل هذه المادة المركّزة، ورقاً، أو ثمراً، أو حبًّا، ويهضمها مفكّكا إيّاها، ثم هو يركّب منها مادة اللحم، وهي أغزر طاقة، وأغزر كثيراً.

ويأتي الحيوان آكل اللحم فيلتهم اللحم، وهو أغزر مأكولٍ طاقةً.

وأثر هذا في توزع هذه الأقسام الثلاثة على الأرض (النبات، فآكلات النبات، فآكلات اللحم) بيّن ظاهر.

النبات أوسع الأحياء انتشاراً في الأرض. إنّه طاقة مركّزة نوعاً؛ يليه في الانتشار آكلات النبات من الحيوان، ومنها كلّ ذي حافر؛ يلي هذه في الانتشار آكلات اللحوم. ومنها كلّ ذي مِخْلب وناب. وطعامها أكثر الأطعمة تركُّزَ طاقة. ولا ننس الإنسان.

وبسبب هذا أيضاً نجد حيواناً، آكلَ عشبٍ، كالفيل، يحتاج إلى أن يأكل من النبات في اليوم الواحد ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رطل

من أخضر الطعام. وذلك لأنه طعام غير مركّز. وإذن فهو يقضي أكثر نهاره يطلب طعاماً.

أما آكل اللحم من الحيوان، فقد يأكل الوجبة الواحدة، من اللحم، وهي أشدّ تركّزاً، فتكفيه يوماً كاملاً وأكثر من يوم.

ونقول إنّ الأحياء آكل ومأكول. ولكنّا نأتي على الأسد فنتساءل، أين آكله؟ ونأتي على الفيل فنتساءل، أين آكله؟ والدبّ وغير ذلك من اللاحمات التي تأتي في أعلى سلاسل الطعام فلا يأكلها شيء.

أتنجو؟

والجواب: لا.

إنها تموت. ثم لا تلبث أصغر الكائنات الحيّة أن تجعل من جسمها مائدة فاخرة عظيمة. إنها كائنات التحليل والتفكيك والعَفَن والفساد.

وأهمها البكتير. وعمله حَلُّ الموادّ العضوية، التي تتألّف منها الجثة إلى موادّ كيماوية أبسط تركيباً. فالبروتينات تنحلّ إلى أحماض أمينية مثلاً. ثم تنحلّ هذه إلى النشادر، ثم تتأكسد هذه إلى أملاح الآزوتات. والآزوت المركّب من هذه الأملاح سماد ينفع الحياة، في أرض أو بحر، في نشأتها الأولى.

ومن نتائج هذا التحلّل خروج ثاني أكسيد الكربون إلى الجو، ليعيد سيرته الأولى.

والبكتير وهو يصنع هذا، ليس ينسى نفسه. إنّه يتغذّى، ويصبح طعاماً للأحياء الحيوانية الدقيقة في أدنى صورها. تلك الحيوانات التي تتغذى بها حيوانات أعلى درجة، فتتغذى بها حيوانات أعلى منها، وهكذا حتى أرقى صور الحياة.

إنّها دورة: حياة درجات، تهبط من أعلى درجاتها، إلى أدنى

دركاتها، ثمّ تعود ترتفع، لتهبط بعد ذلك منخفضة، في دورة متصلة دائمة دائبة.

والطبيعة، كما ترى، يبدأ الفرد فيها، من نبات وحيوان وإنسان، بالحياة، لينتهي إلى فناء مهما طال عيشه. حتى الشجرُ الكبير له يوم تسكت فيه أنفاسه (الشجر يتنفّس).

همُّ الطبيعة في البذرة التي تُنتج الشجرة. وهمها في البيضة الملقّحة التي تنتج الحيوان. وفي أشباه هذه ممّا يتصل بالنسل.

هذا الاتصال هو همّ الطبيعة في الحياة. وحتى الرجل، كأنه عند الطبيعة ذو بال فقط ما دام ينتج. وكذا المرأة. فان بلغا الكهولة التي ينتهي عندها النسل، اختصرت الطبيعة حياتهماليتسع الكون لحياة جديدة وتأتي الحياة الجديدة لتزول، ليحل محلها جديد، وهكذا دواليك.

فمن جاءته الكهولة بالعجز، ثم أوشك، فليطمئن، فهذه إرادة الله.

وحتى البكتير، ذلك الذي يسمونه القمّام، لأنه يقوم بتحليل الأجسام بعد موتها، فتتخلّص الأرض منها والبحار، باعتبار أن الجثث قُمامة، هذا البكتير نفسه لا يعدم الموت. إنه يتكاثر أسرع شيء. البكتيرة الواحدة تنتج الملايين سريعاً والبلايين، ولكنها لا تلبث أن تستهلك طعاماً لغيرها أو تفنى.

ومن عجب أن يُظهر البحث العلمي الحديث، فيهذه السنوات الستينية الأخيرة، أن من البكتير ما يتغذى بالبكتير، إنه يفترسه. فحتى تحت المجهر نجد معركة الحياة قائمة، وقد ذكرنا أن النبات طيع، يأكله آكله ولا يمتنع.

ولكن ما هكذا الحيوان.

إنها معركة. ولكن لا بد في المعركة من سلاح؛ وأظهر سلاح هذه المعارك الظفر والناب. وقد حُرمت العاشبات من الحيوان الظفر والناب.

الظفر في المواشي ظلف، وفي الخيول حوافر.

والأسنان: قاطعات من أمام، بعدها الناب، يميناً ويساراً، ثم الأضراس الطاحنات.

وهي في الحيوانات العاشبة تقطع وتطحن، ولكنها لا تجرح لتقتل. أما في الحيوانات اللاحمة فالأنياب فيها خارجات بارزات مدببات كالخناجر. متهيئات لتخرج وتبرز، ولتدمي ولتمزق. والفك الذي يحملها كأنه الحديد.

والغريزة علمت الأسد أين يجرح ليقتل، وعلّمت النمر والفهد، وعلمت حتى الكلب. إن الكلب البري أول ما ينال من الوعل رقبته. فمن يا ترى أدْراه؟!

والفيل خرج من فكه الأعلى سنان علويتان قاطعتان، فامتدتا وطالتا. وهما السلاح إذا وقعت واقعة اضطرت فيها الفيلة الى الدفاع عن أطفالها، وهذه كثيراً ما تكون هدف القط الكبير، أعني الفهود والنمور. والفيل يبقر بطون أعدائه بَقْراً.

ومن أجل رجحان كفة اللاحمات على العاشبات من الحيوان، ألفت العاشبات العيش في القطيع. إن الزحام مهيب. حتى الأسود تهابه. ولهذا هي تتلصص حتى تقترب. والأسد يدور حول القطيع، شمالا مثلا، ليثيره الى الهرب جنوباً، بينا في الجنوب قبعت اللبؤة تنتظر وصوله. وهي عندئذ تتلقف منه فريستها.

واللبؤة تقتل، وتنتظر حتى يبدأ الأسد طعامه. وتأتي هي من بعده لتأكل، تماماً كما يفعل بعض أهل الريف، أليست هي الأنثى؟!

وجاموس انفرد عن قطيعه، فنالته ذئاب، والذئاب تصيد جماعاتٍ جماعات، والتفّت حوله. وأخذت تقترب على حذر، وهجم قائدهم، وهو ذو حجم صغير إذا نسب الى حجم الجاموس الكبير. فما درى إلا والجاموس يرفسه بالمؤخر من قدميه ويناله. ويذهب هذا ويأتي ثان يحاول ما خاب فيه صاحبه، ويخفق. ويتراءى للجميع أن هذا الجاموس عصى عليهم فيتركونه.

ولكن كثيراً ما ترجح كفتهم، فيكون لهم، وهم عشر وعشرون، من لحم الجاموس طعام هنيء.

والقرون من أدوات الدفاع، لا شك في هذا. ولكنها لا تنفع والعدو ضخم كاسر. وأكثر ما يستخدم الوعل الذكر قرونه في أهل جنسه، فهو بها يدفع عن حريمه ضد كل «زير نساء» من الوعل، لا سيما وفصل الحب قائم.

والدروع من أدوات الدفاع. ومن أشهر الدروع درع السلحفاة، فهي اذا أخيفت وتوجست شراً، دخلت تحتمي في بيتها فلا ينالها الشر.

وجلد الفيل، وجلد وحيد القرن، سميكٌ أكثر السُّمك، فهو كالدرع يحمي صاحبه في القتال، فهو لا يجرح بسهولة. وللفيل من ضخامته، وكذا لوحيد القرن، هيبة تدركها، بحكم الطبع، الجارحات من الحيوان. حتى الانسان، الضخامة تخيفه، بحكم الطبع أيضاً، لأول وهلة، لا سيما اذا صحبها حركة.

والشوك، يحوط الجسم، يدفع الأعداء فلا يحاولون غزواً، ومثال ذلك القنفذ، يكوّر نفسه فلا يرى الناظر اليه إلا كرة من شوك. وفي الحروب يفوّت الضعيف على القوي النصر، وذلك بالهرب. سلاحه في أرجل له سريعة. فهكذا الغزال. وهو ينط فوق رأس الأسد كما لا يستطيع

حيوان. وهو بهذا يفوز بالنجاة. إلا أن يتلقاه عند هبوطه أسد آخر أو لبؤة قعدت له بالمرصاد. فهذه من حيل الآساد.

ومن طرائق النجاة للضعيف الاختفاء في الجحور، فكذلك يفعل الفأر والأرنب، وما هو أكبر منهما، وما هو أصغر.

والتخفي غير الاختفاء. إن التخفي هو التمويه والتعمية على الناظر. وفي هذا تشد الطبيعة فيه أزْر الضعيف من الحيوان شدًّا. فالحمار الوحشي، والمخطط اسم أصحّ، له من خطوطه ما يتعمّى به عن الأنظار، وهو في دغل من الأدغال فلا يراه الناظر.

والحشرات هي أكثر سكان هذه الأرض عدداً. ويتمثل فيها أكثر من ثلاثة أرباع أنواع الحيوانات جميعها.

ومن أنواع الحشرات ما يتغذى بالنباتات. وهو لو ترك له المجال لتكاثر حتى أتى على أكثر نبات الأرض، والنبات هو الأصل الذي منه تبدأ حياة الأحياء جميعاً.

لهذا كان من الحشر أنواع تأكل الحشر. وزادت الطبيعة تأميناً للزرع، والشجر، بأن جعلت لهذا الحشر، آكل الحشر، حيوانات تأكله. إنها آكلات، بعضها فوق بعضٍ طبقات.

إنه مثل من «ميزان الطبيعة» (Balance of Nature) الشهير الذي لا يأذن لصنف من الحيوان جملةً أن يطغى جملة. فهو كالميزان السياسي بين أمم الأرض. لا بد للقوة الغاشمة ان تقابلها في الكفّة الأخرى قوة تكافئها والا انقلب الميزان، وافترست سباع بني الناس خرافَها والنعاج.

والجراد مثلُ ذلك، في سرعة تناسله والتهامه الزرع، ومع التهام الزرع نضوب الضَّرع[1].

(١) كنى بذلك عن حدوث الجدب، لأن الحيوانات لا تجد ما تأكله فلا تدر ضروعها باللبن.

والصراع ليس قائمًا في دنيا الحشر، بين آكلات النبات فيه، وآكلات الحشر فحسب، فالحشر غذاء مستطاب لأنواع من الحيوان عدة، مما هو أرفع في جدول الحيوانات مكانة. فالطير يأكل الحشر. وتأكله كذلك السحالي، والضفادع وحتى القردة، وأنواع عدة يعصب حصرها.

ولما كان الحشر هو في الدرك الأسفل من ضعف الحيلة، فقد أعانته الطبيعة خاصة بالتخفي.

والحشرة قد تتخفى على الشجر، وتموه على ناظرها، وتتعمى، بسبب شكلها، أو شكلٍ تستطيع أن تتخذه، تقف به على فرع النبات، فتمتزج مع الفرع امتزاجاً. حتى الأجنحة قد تمتد لتتشبه ورقة.

ومن أدوات التخفي اللون، تعطيه الطبيعة لينسجم مع البيئة التي يسكنها الحشر.

والتخفي حيلة الضعيف.

وكذا السم. سم الثعبان، وهو من الزواحف، يقتل به ضحيته، أو يخدرها به، قبل التهامها. وليس السم من سلاح ذي الناب الكاسر.

والسم من سلاح الحشر، ندرك ذلك من قرصة النحلة والنملة.

ومن التخفي التماوُت، يلحق الكلب البريُّ بالأبسوم (Opossum) (من الحيوانات ذات الثدي، لأنثاه كيس تحمل فيه وليدها)، فيسقط بظهره على الأرض لتوّه، ووجهه الى أعلى. ويسكن سكون الموت. حتى عيناه تلمعان كالزجاج. ويعاف الكلب الموق، فيذهب. ويصحو الأبسوم من بعد ذلك على حذر.

والتخفي والتمويه والتعمية بكل صنوفها أسلحة يمارسها

الانسان. فالتخفي في حرب (الكامُفلاج)، والسم في حرب وفي سلم، والتمارض على الصحة، كلها بعض حيلة الانسان.

والانسان إخاله بدأ وحشياً بين وحشان، بَرِّيًا يعيش في البراري، أو هكذا يحدثنا العلماء. بدأ لا يعرف الزرع، فهو إذن يدور على نبات الأرض يأكل من حبه، وعلى شجره يأكل من ثمره. وليس للإنسان ناب، ولا ظفر، فهو يفترس بحيلته كما تفترس السباع. أكبر سلاحه العقل، وبالعقل ابتدع السلاح، مصنوعاً، لا مطبوعاً. ثم تعلم كيف يزرع، فاستنبت من تربة الأرض كل ما استطاع من طعام.

ثم تعلم كيف يستأنس الحيوان، فاستأنس الشياه والأبقار وما إليهما. ومن الطير استأنس الدجاج والبط والإوزّ وما اليها. ولم يستطع أن يستأنس أسماك البحار فظل على صيده اياها.

ضراوة الصيد خفّت عن الانسان. إنه يستأنس، فيطعم الحيوان الذي استأنس من زرعه، ويطعمه من حبه ومن ثمره، ويسمّنه من شبع، ويحميه من علل، ويرأف به ويحنو عليه. حتى إذا بلغ من ذلك غاية، ساقه الى حيث يذبح ويجزر أو ينحر، وهو يذهب الى الذبح طائعاً. أوَ لم يكن قد استأنس!

ويتلطف الانسان، يحمي أحاسيسه من منظر الدم المسفوح، فيخفي بالماء عن عينيه كل أثر من حمرة. ويعلق الجزار في دكانه جثثاً، يضعها صفاً، لا تثير في رائيها الا التحرق للطعام.

ويتلطف الانسان على المائدة ويترفق. وفي وقار الرجل المتمدن وتؤدته يقطع بالسكين، ويلتقم بالشوكة، ويمسح شفتيه برقيق النسيج.

جريمة تهذبت؟
أبداً.

إنه حكم الطبع. إنه امتداد لقانون الحياة. قاتل ومقتول. آكل

ومأكول. إنه الحلال الذي لا مِرْية فيه. إنه العدل وإن تخضب بالدم. ظاهره القسوة وباطنه الحقيقة، حلوة أو مرة.

إنها السكين تستبق عوامل الفناء، عوامل العجز، عوامل الشيخوخة، تلك التي تنتهي بالحي، الى حيث لا محيص من انتهاء.

وأعود فأقول، لا لوم على أحد في شيء من ذلك ولا تثريب[1].

وأعود فأقول لا لوم على الحجر اذا هو تدحرج على سفح جبل. ولا لوم على عاصفة اذا هي أبرقت وأرعدت ثم أغرقت.

ظواهر في الكون الجامد لا هي بالخير ولا هي بالشر.

وكذلك هي في الكون الحي، يأكل بعضه بعضاً.

وعند الطبيعة، وهي من إرادة الله القوي العلي، أنه لا بد من زوال الفرد، حتى لا تضيق به الأرض. فهو ليس بخالد. ولكن تتصل الأنواع وتخلد، أباً عن جد، وهي خالدة ما شاء لها الله الخلود.

و﴿كل من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[2].

مناقشات وتمرينات

١ - يقول المؤلف: «ورأيت... قطيعاً كبيراً كأنه البقر» ثم يتحدث عنه في أنه بقر على التحقيق (دون كأن). هل تعتقد أن هذا يمثل دقة علمية؟

٢ - في عالم الجوامد فجائع: لماذا يقف الانسان إزاءها مجرداً من القدرة على الحكم (هل يكفي تعليل الكاتب لذلك؟)

(١) التثريب: التأنيب والاستقصاء في اللوم.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان ٢٦ و٢٧.

٣ - قانون «الآكل والمأكول» أصدق قانون وأشمل قانون: لماذا كان كذلك؟

٤ - ما هي الحلقات الثلاث التي تتكون منها السلسلة الغذائية؟

٥ - ما التفسير العلمي للتغذية ولتنوعها؟

٦ - الطبيعة تهتم باستمرار الحياة (وبالموت من أجل الحياة). فسّر هذه الظاهرة بذكر أمثلة.

٧ - ما هي أنواع الأسلحة التي تستعملها الكائنات في الوقاية والدفاع؟

٨ - تحدث عن ضروب الاختفاء والتخفّي والتماوت والتمويه عند الحيوان.

٩ - ما رأيك في طريقة المؤلف في عرض موضوعه: هل فيها إسراف في التبسيط؟ هل فيها رغبة عامدة في التشويق؟ هل يمكن معالجة الموضوع من زاوية أخرى؟

-٢-
أفق العقل

-٥٣-

دلالات لفظة «العقل» للفارابي *

اسم العقل يقال على أنحاء كثيرة. . .

أمّا العقل الذي به يقول الجمهور في الإنسان إنه عاقل فإن مرجع ما يعنون به هو إلى التعقّل، وذلك أنّه ربّما امتنعوا أن يسمّوه عاقلاً ويقولون: العقال يحتاج إلى دين، والدين عندهم هـو الذي يظنّون هم أنه هو الفضيلة، فهؤلاء إنّما يعنون بالعاقل من كان فاضلاً وجيّد الرويّة في استنباط ما ينبغي أن يُؤثَر من خير أو يُتجنّب من شرّ، ويمتنعون أن يوقعوا هذا الاسم على من كان جيّد الرويّة في استنباط ما هو شرّ، بل يسمّونه نَكُراً[١] وداهيةً وأشباهَ هذه الأسماء.

وجودةُ الرويّة في استنباط ما هو في الحقيقة خيرٌ ليُفعل، وفي استنباط ما هو شرّ ليُتجنَّب، هو تعقّل، فهؤلاء إنّما يعنون بالعقل على المعنى الكليّ ما يعنيه أرسطو بالتعقّل. وأمّا من سمّى معاويَة عاقلاً فإنّه أراد به جَوْدَةَ الرويّة في استنباط ما ينبغي أن يُؤثَر أو يُتجنَّب على الاطلاق، وهؤلاء متى توافقوا في أمر معاوية أو أمثاله بأن يراجعوا في من هو عاقل عندهم: هل يسمّون بهذا الاسم من كان شرّيراً وكان يستعمل جودةَ رويّته فيما هو عندهم شرّ توقّفوا أو امتنعوا أن يسمّوه

(*) من «رسالة في العقل» (تحقيق موريس بويجيه، بيروت، ١٩٣٨) ص ٣ - ٩.

(١) بفتح النون وضم الكاف: ويقال أيضاً نَكِر - بكسر الكاف - وهو المنكر الداهية.

عاقلاً، وإذا سُئلوا عن من يستعمل جودة رويّته في فعل الشرّ: هل يسمّى داهياً أو نَكْراً أو ما أشبه هذه الأسماء لم يمنعوه هذا الاسم؛ فمن قول هؤلاء أيضاً يلزم أن يكون العاقل إنما يكون عاقلاً مع جودة رويّته اذا كان فاضلا يستعمل جودة رويته في أفعال الفضيلة ليفعل ، وفي أفعال الرذيلة ليجتنبَ، وهذا هو المتعقل. فالجمهور لما كانوا فيمن يعنونه بهذا الاسم طائفتين: طائفةً تعطي من قِبل أنفسها أن العاقل ليس يكون عاقلاً ما لم يكن له دين، وأن الشرِّير وإن بلغ في جودة الرويّة في استنباط الشرور ما بلغ لم يسمّوه عاقلاً، فإنّها متى روجعت فيمن هو شرير وله جودة رويّة فيما ينبغي أن يفعل من شر هل يسمّى عاقلاً توقّفوا أو امتنعوا، صار مرجع الجمهور بأسرهم فيما يعنونه بالعاقل إلى معنى المتعقّل. ومعنى المتعقّل عند أرسطو هو الجيّد الرويّة في استنباط ما ينبغي أن يفعل من أفعال الفضيلة في حين ما يفعل في عارضٍ عارضٍ إذا كان مع ذلك فاضلاً بالخلقة.

وأمّا العقل الذي يردّده المتكلّمون على ألسنتهم فيقولون في الشيء «هذا ممّا يوجبه العقل أو ينفيه العقل أو يقبله العقل أو لا يقبله العقل» فإنّما يعنون به المشهورَ في بادىء رأي الجميع، فإن بادىء الرأي المشترك عند الجميع أو الأكثر يسمّونه العقل، وأنت تتبيّن ذلك متى استقريت كلامهم شيئاً شيئاً مما يتخاطبون فيه وبه أو مما يكتبونه في كتبهم ويستعملون فيه هذه اللفظة.

وأمّا العقل الذي يذكره أرسطو في كتاب البرهان فإنّه إنّما يعني به قوّة النفس التي بها يحصل للإنسان اليقينُ بالمقدمات الكلّيّة الصادقة الضرورية، لا عن قياس أصلاً ولا عن فكر، بل بالفطرة والطبع أو من صباه أو من حيث لا يشعر من أين حصلت وكيف حصلت، فإن هذه القوة جزء ما من النفس يحصل لها المعرفة الأولى - لا بفكر ولا بتأمّل أصلاً - واليقين بالمقدّمات التي صفتها الصفة التي ذكرناها، وتلك المقدّمات هي مبادىء العلوم النظرية...

مناقشات وتمرينات

١ - عدّ الفارابي هنا ثلاث دلالات للفظة «العقل» وهو لا يقف عند هذه الثلاث، بل سيتحدث عن استعمالات أخرى؛ راجع مقالاته لاستيفاء الأنواع الأخرى.

٢ - ماذا يعني الجمهور في استعمال لفظة «عقل»: لماذا ينقسم الجمهور إزاء أصحاب «جودة الرويّة» في قسمين؟

٣ - حين يقول لك المتكلّم «هذا شيء يقبله العقل» فما الذي يعنيه؟

٤ - حصول اليقين بالفطرة والطبع: من يسمّي هذا عقلاً وأين؟

٥ - هل يمكن التحدث عن دلالة «العقل» من زاوية أخرى؟ (مثلاً العقل الفعّال... العقل المستفاد... الخ).

-٥٤-

موت الظبية وأثره في تفكير حيّ لابن الطفيل *

ما زال الهزال والضعف يستولي على الظبية[١] ويتوالى، إلى أن أدركها الموت، فسكنت حركاتها بالجملة وتعطَّلَتْ جميعُ أفعالها. فلمّا رآها الصبي على تلك الحالة جزع جزعاً شديداً، وكادت نفسه تفيض[٢] أسفاً عليها. فكان يناديها بالصوت الذي كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه، ويصيحُ بأشدّ ما يقدر عليه: فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيُّراً. فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى بشيء منها آفة. فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلَها عنها، فترجعَ إلى ما كانت عليه، فلم يتأتَّ له شيء من ذلك ولا استطاعه. وكان الذي أرشده لهذا الرأي ما كان قد اعتبره في نفسه قبل ذلك: لأنه كان يرى أنّه إذا غمّض عينيه أو حجبهما بشيء لا يُبصر شيئاً حتى يزول ذلك العائق، وكذلك كان يرى أنّه إذا أدخل إصبعيه في أذنيه وسدَّهما لا يسمع شيئاً حتى يزول ذلك العارض، وإذا أمسك أنفه بيده لا يشمّ شيئاً من الروائح حتى يفتح أنفه. فاعتقد من أجل ذلك أنّ

(*) من كتاب «حيّ بن يقظان» (تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، دمشق، ١٩٣٩) ص ٩١ - ٩٨ (وتحقيق أحمد أمين، القاهرة، ١٩٥٩) ص ٧٤ - ٧٨.

(١) الظبية التي أرضعت حيّ بن يقظان وربته.

(٢) فاضت نفسه أو فاظت بمعنى مات.

جميع ما لها من الادراكات والأفعال، قد تكون لها عوائقُ تعوقها، فإذا أُزيلت تلك العوائق، عادت الأفعال.

فلما نظر إلى جميع أعضائها الظاهرة ولم يَرَ فيها آفةً ظاهرة - وكان يرى مع ذلك العُطْلَةَ قد شملتها ولم يختصَّ بها عضو دون عضو - وقع في خاطره أن الآفة التي نزلت بها إنّما هي في عضو غائب عن العيان، مستكنّ[١] في باطن الجسد، وأن ذلك العضو لا يُغني عنه في فعله شيء من هذه الأعضاء الظاهرة. فلمّا نزلت به الآفة عمّت المضرةُ وشَمِلَتِ العطلةُ، وطمع لو أنّه عثر على ذلك العضو وأزال عنه ما نزل به، لاستقامت أحواله وفاضَ على سائر البدن نفعه، وعادت الأفعال إلى ما كانت عليه.

وكان قد شاهد قبل ذلك في الأشباح[٢] الميتة من الوحوش وسواها أن جميع أعضائها مُصْمَتَة[٣] لا تجويفَ فيها إلا القِحْفَ[٤] والصدر والبطن، فوقع في نفسه أن العضو الذي بتلك الصفة لن يعدوَ أحد هذه المواضع الثلاثة، وكان يغلب على ظنّه غلبةً قويةً أنّه إنّما هو في الموضع المتوسط من هذه المواضع الثلاثة؛ إذ كان قد استقر في نفسه أن جميع الأعضاء محتاجةٌ إليه، وأنّ الواجب بحسب ذلك أن يكون مسكنه في الوسط. وكان أيضاً إذا رجع إلى ذاته، شعر بمثل هذا العضو في صدره، لأنّه كان يعترضُ سائرَ أعضائه، كاليد والرجل والأذن والأنف والعين والرأس ويقدّر مفارقتها، فيتأتى له أنه كان يستغني عنها، وكان يقدّر في رأسه مثل ذلك ويظنّ أنّه يستغني عنه، فإذا فكّر في الشيء الذي يجده في صدره، لم يتأتَّ له الاستغناء عنه

(١) مستكن: مختفٍ.

(٢) الأشباح: الأجساد.

(٣) المصمت: الذي لا جوف له.

(٤) القحف: تجويف الرأس.

طُرْفَةَ عَيْن. وكذلك كان عند محاربته الوحوش أكثر ما كان يتّقي من صياصيهم[1] على صدره، لشعوره بالشيء الذي فيه.

فلما جزم الحكمَ بأن العضو الذي نزلت به الآفةُ إنّما هو في صدرها، أجمع على البحث عليه والتنقير عنه، لعلّه يظفر به، ويرى آفته فيزيلها. ثمّ إنّه خاف أن يكون نفسُ فعله هذا أعظمَ من الآفة التي نزلت بها أولاً فيكون سعيه عليها.

ثمّ إنّه تفكّر: هل رأى من الوحوش وسواها، من صار في مثل تلك الحال، ثمّ عاد إلى مثل حاله الأول؟ فلم يجد شيئاً! فحصل له من ذلك اليأس من رجوعها إلى حالها الأوّل إن هو تركها، وبقي له بعضُ رجاء في رجوعها إلى تلك الحال إن هو وجد ذلك العضو وأزال الآفة عنه. فعزم على شقّ صدرها وتفتيش ما فيه، فاتخذ من كسور الأحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة أشباهَ السكاكين، وشقّ بها بين أضلاعها حتى قَطَعَ اللحمَ بين الأضلاع، وأفضى إلى الحجاب المستبطِن للأضلاع، فرآه قوياً، فقويَ ظنّه بأنّ مثل ذلك الحجاب لا يكون إلاّ لمثل ذلك العضو، وطمع بأنّه إذا تجاوزه ألفى مطلوبه؛ فحاول شَقَّهَ، فصعب عليه لعدم الآلات، ولأنها لم تكن إلاّ من الحجارة والقصب، فاستجدّها ثانية واستحدّها، وتلطّف في خرق الحجاب حتى انخرق له، فأفضى إلى الرئة فظن أولاً أنها مطلوبُه؛ فما زال يقلّبها ويطلب موضع الآفة بها.

وكان أولاً إنّما وجد منها نصفها الذي هو في الجانب الواحد، فلما رآها مائلة إلى جهة واحدة، وكان قد اعتقد أن ذلك العضو لا يكون إلاّ في الوسط في عرض البدن، كما هو في الوسط في طوله، فما زال يفتّش وسط الصدر حتى ألفى «القلب» وهو مجلّل بغشاء في

(1) الصياصي: القرون.

غاية القوة، مربوط بمعاليق[1] في غاية الوثاقة، والرئةُ مُطيفةٌ[2] به من الجهة التي بدأ بالشق منها، فقال في نفسه: إن كان لهذا العضو من الجهة الأخرى مثلُ ما لهُ من هذه الجهة، فهو في حقيقة الوسط، ولا محالة أنه مطلوبي، لا سيما مع ما أرى له من حسن الوضع، وجمال الشكل، وقلّة التشتّت، وقوّة اللحم، وأنه محجوب بمثل هذا الحجاب الذي لم أرَ مثلَه لشيء من الأعضاء.

فبحث عن الجانب الآخر من الصدر، فوجد فيه الحجاب المستبطِن للأضلاع، ووجد الرئة على ما وجده من هذه الجهة. فحكم بأنّ ذلك العضو هو مطلوبه، فحاول هَتْكَ حجابِه وشقَّ شغافِه[3]؛ فَبِكَدٍّ واستكراهٍ ما قدر على ذلك، بعد استفراغ مجهوده.

وجرَّد القلبَ فرآه مُصْمَتاً من كلّ جهة، فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة؟ فلم يرَ فيه شيئاً؛ فشدّ عليه يده، فتبين له أن فيه تجويفاً؛ فقال: لعلّ مطلوبي الأقصى إنّما هو في داخل هذا العضو، وأنا حتى الآن لم أصل إليه. فشقّ عليه، فألفى فيه تجويفين اثنين: أحدهما من الجهة اليمنى، والآخر من الجهة اليسرى، والذي من الجهة اليمنى مملوء بعَلَق منعقد، والذي من الجهة اليسرى خالٍ لا شيء فيه. فقال: لن يعدوَ مطلبي أن يكون مسكنُه أحدَ هذين البيتين. ثمّ قال: أمّا هذا البيت الأيمن، فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد. ولا شكّ أنّه لم ينعقد حتى صار الجسد كلّه إلى هذا الحال، إذ كان قد شاهد أنّ الدماء كلّها متى سالت وخرجت، انعقدت وجمدت، ولم يكن هذا إلاّ دماً كسائر الدماء، وأنا أرى أن هذا الدم موجود في سائر الأعضاء لا يختصّ به عضو دون آخر وأنا ليس مطلوبي شيئاً

(1) المعاليق جمع معلاق وهو ما يعلق الشيء به.
(2) مطيفة: دائرة.
(3) الشغاف: غشاء القلب.

بهذه الصفة؛ إنّما مطلوبي الشيء الذي يختصّ به هذا الموضع الذي أجدني لا أستغني عنه طرفة عين، وإليه كان انبعاثي من أوّل. وأمّا هذا الدم فكم مرّة جَرَحَتْني الوحوشُ والحجارة فسال مني كثير منه فما ضرّني ذلك ولا أفقدني شيئاً من أفعالي، فهذا بيتٌ ليس فيه مطلوبي. وأمّا هذا البيت الأيسر فأراه خالياً لا شيء فيه، وما أرى ذلك لباطل، فإني رأيت كل عضو من الأعضاء إنّما هو لفعل يختص به، فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شَرفه باطلاً؟ ما أرى إلاّ أنّ مطلوبي كان فيه! فارتحل عنه وأخلاه، وعند ذلك، طرأ على هذا الجسد من العطلة ما طرأ: ففقد الإدراك وعدم الحراك.

فلما رأى أنّ الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه، وتركه وهو بحاله، تحقق أنّه أحرى أن لا يعود إليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث. فصار عنده الجسدُ كلُّه خسيساً لا قدرَ له بالإضافة إلى ذلك الشيء الذي اعتقد في نفسه أنّه يسكنه مدّة ويرحل عنه بعد ذلك. فاقتصر على الفكرة في ذلك الشيء ما هو؟ وما الذي ربطه بهذا الجسد؟ وإلى أين صار؟ ومن أيِّ الأبواب خرج عند خروجه من الجسد؟ وما السبب الذي أزعجه إن كان خرج كارهاً؟ وما السبب الذي كرَّه إليه الجسد، حتى فارقه إن كان خرج مختاراً؟

وتشتّتَ فِكْرُهُ في ذلك كلّه، وسلا عن ذلك الجسد، وطرحه، وعلم أن أمّه التي عطفت عليه وأرضعته، إنّما كانت ذلك الشئ المرتحل، وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلُّها، لا هذا الجسد العاطل؛ وأنّ هذا الجسد بجملته، إنّما هو كالآلة لذلك وبمنزلة العصا التي اتخّذها هو لقتال الوحوش. فانتقلت علاقته عن الجسد إلى صاحب الجسد ومحرّكه، ولم يبقَ له شوقٌ إلاّ إليه.

مناقشات وتمرينات

١ - رغم أنّ الاستقراء الذي يسير فيه حيّ قد يكون مبنيًّا على خطأ أو وهم إلاّ أنّه جميل في تدرجه:

٢ - لماذا اختصر حيّ الطريق فلم يفتّش عن العضو الغائب في القحف أو البطن أو فيهما كليهما؟

٣ - ما هي النقلة التي مرّ بها حيّ من تجربة الموت؟

٤ - إلى أين - فيما تقدّر - سيتّجه حيّ بعد هذه الخطوة ولماذا؟

-٥٥-

علاقة ما بين الشريعة والفلسفة
لابن رشد *

١ - أمّا أنّ الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلّب معرفتها به، فذلك بيِّن في غير ما آية من كتاب الله، تبارك وتعالى، مثل قوله تعالى ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ وهذا نصّ على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معاً. ومثل قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ ينظروا في ملكوتِ السّمواتِ والأرض وما خَلَقَ الله من شيء﴾ وهذا نصّ بالحثّ على النظر في جميع الموجودات.

واعلم أن ممّن خصّه الله تعالى بهذا العلم وشرّفه به، إبراهيم عليه السلام. فقال تعالى: ﴿وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرض﴾ الآية. - وقال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رُفعت﴾ - وقال: ﴿ويتفكّرون في خَلْقِ السّمواتِ والأرض﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي لا تُحصى كثرةً.

٢ - وإذا تقرّر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباطِ المجهول من المعلوم واستخراجه منه، وهذا هو القياس أو بالقياس، فواجبٌ أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي، وبيّن أن هذا النحو من

(*) من كتاب «فصل المقال» (تحقيق البير نصري نادر، بيروت، ١٩٦١) ص ٢٨-٣٥.

النظر الذي دعا إليه الشرع وحثّ عليه، هو أتمّ أنواع النظر بأتمّ أنواع القياس - وهو المسمّى «برهاناً» - وإذا كان الشرع قد حثّ على معرفة الله تعالى وسائر موجوداته بالبرهان، وكان من الأفضل - أو الأمر الضروري - لمن أراد أن يعلمَ الله تبارك وتعالى، وسائرَ الموجودات بالبرهان، أن يتقدّم أولاً فيعلمَ أنواع البراهين وشروطَها، وبما يخالف القياس البرهاني القياس الجدلي، والقياس الخطابي، والقياس المُغالطيّ، وكان لا يمكن ذلك دون أن يتقدّم فيعرفَ قبل ذلك ما هو القياسُ المطلق، وكم أنواعُهُ، وما منه قياس، وما منه ليس بقياس. وذلك لا يمكن أيضاً إلّا ويتقدّم فيعرف قبل ذلك أجزاء القياس التي منها تُرَكّب - أعني المقدّمات وأنواعها - فقد يجب على المؤمن بالشرع الممتثل أمره بالنظر في الموجودات أن يتقدّم قبل النظر فيعرف هذه الأشياء التي تتنزّل من النظر منزلة الآلات من العمل.

٣ - فإنّه كما أن الفقيه يستنبط من الأمر بالتفقّه في الأحكام وجوبَ معرفة المقاييس الفقهية على أنواعها، وما منها قياس وما منها ليس بقياس، كذلك يجب على العارف أن يستنبط من الأمر بالنظر في الموجودات وجوبَ معرفة القياس العقلي وأنواعه، بل هو أحرى بذلك، لأنّه إذا كان الفقيه يستنبط من قوله تعالى ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ وجوبَ معرفة القياس الفقهي فكم بالحري والأولى أن يستنبط من ذلك العارفُ بالله وجوبَ معرفة القياس العقلي.

٤ - وليس لقائل أن يقول: «إنّ هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعةٌ، إذ لم يكن في الصدر الأول». فإنّ النظر أيضاً في القياس الفقهي وأنواعِه هو شيء استُنبط بعد الصدر الأوّل، وليس يُرى أنّه بدعة. فكذلك يجب أن نعتقد في النظر في القياس العَقلي. . .

٥ - وإذا تقرّر أنّه يجب بالشرع النظرُ في القياس العقلي

وأنواعه، كما يجب النظر في القياس الفقهي، فبيِّنٌ أنه إن كان لم يتقدّم أحدٌ ممَّن قَبْلَنا بفحصٍ عن القياس العقلي وأنواعه، أنه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه، وأن يستعين في ذلك المتأخرُ بالمتقدّم، حتى تكمل المعرفة به. فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحدٌ من الناس تِلقائه وابتداءً على جميع ما يحتاج إليه من ذلك، كما أنّه عسير أن يستنبط واحدٌ جميع ما يُحْتاجُ إليه من معرفة أنواع القياس الفقهي، بل معرفة القياس العقلي أحرى بذلك، وإن كان غيرُنا قد فحص عن ذلك؛ فبيِّنٌ أنّه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدّمنا في ذلك، وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملّة.. وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملّة الإسلام. وإذا كان الأمر هكذا، وكان كلّ ما يُحْتاجُ إليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتمَّ فحص، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم، فننظرَ فيما قالوه من ذلك: فإن كان كلّه صواباً قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصوابٍ نبّهنا عليه.

٦ - فإذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلتْ عندنا الآلاتُ التي بها نقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالةِ الصنعة فيها، فإنّ من لا يعرفُ الصنعةَ لا يعرف المصنوع، ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانعَ، فقد يجب أن نَشْرَعَ في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية. وبيّن أيضاً أن هذا الغرضَ إنّما يتمّ لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحداً بعد واحد، وأن يستعين في ذلك المتأخّر بالمتقدّم، على مثال ما عرض في علوم التعاليم[1]. فإنّه لو فرضنا صناعةَ الهندسة في وقتنا هذا معدومةً، وكذلك صناعةَ علم الهيئة، ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدركَ مقادير الأجرام السماوية وأشكالَها وأبعادَ بعضها

(١) علوم التعاليم هي ما يسمى علوم الأوائل كالهندسة وعلم الهيئة (الفلك).. الخ.

عن بعض، لما أمكنه ذلك، مثل أن يعرف قَدْرَ الشمس من الأرض، وغير ذلك من مقادير الكواكب، ولو كان أذكى الناس طبعاً، إلّا بوحيٍ أو شيء يشبه الوحي. بل لو قيل له إنّ الشمسَ أعظمُ من الأرض بنحو مائةٍ وخمسينَ ضعفاً، أو ستين، لعدَّ هذا القول جنوناً من قائله. وهذا شيء قد قام عليه البرهان في علم الهيئة قياماً لا يَشُكّ فيه من هو من أصحاب ذلك العلم.

وأمّا الذي أحوجَ في هذا إلى التمثيل بصناعة التعاليم، فهذه صناعة أصول الفقه والفقه نفسه، لم يكمل النظر فيها إلّا في زمن طويل. ولو رام إنسان اليوم من تلقاء نفسه أن يقف على جميع الحُجج التي استنبطها النُظّار من أهل المذاهب في مسائل الخلاف التي وقعتِ المناظرةُ فيها بينهم في معظم بلاد الإسلام - ما عدا المغرب - لكان أهلاً أن يُضْحَكَ منه، لكون ذلك ممتنعاً في حقّه مع وجود ذلك مفروغاً منه. وهذا أمر بيِّن بنفسه، ليس في الصنائع العلميّة فقط، بل وفي العمليّة. فإنّه ليس منها صناعة يقدر أن يُنشئها واحد بعينه، فكيف بصناعة الصنائع، وهي الحكمة؟

وإذا كان هذا هكذا، فقد يجب علينا إن ألفينا لمن تقدّمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائطُ البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم: فما كان منها موافقاً للحقّ قبلناه منهم وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافقٍ للحقّ نبّهنا عليه وحذّرنا منه وعذرناهم.

٧ - فقد تبيّن من هذا أنّ النظر في كتب القدماء واجبٌ بالشرع، إذ كان مغزاهم في كتبهم ومقصِدهم هو المقصد الذي حثّنا الشرع عليه، وإنّ مَن نهى عن النظر فيها من كان أهلاً للنظر فيها - وهو الذي جمع أمرين أحدهما ذكاء الفطرة، والثاني العدالة الشرعية والفضيلة الخلقية - فقد صدَّ الناس عن الباب الذي دعا

الشرعُ منه الناس الى معرفة الله، وهو بابُ النظر المؤدّي الى معرفته حقّ المعرفة. وذلك غايةُ الجهل والبعد عن الله تعالى. وليس يلزم من أنّه إن غوى غاوٍ بالنظر فيها، وزلّ زالٌّ، إمّا من قِبَل نقص فطرته، وإمّا من قِبَل سوء ترتيب نظره فيها، أو من قبل غَلَبةِ شهواته عليه، أو انه لم يجد معلّمًا يُرشده الى فَهْمِ ما فيها، أو من قِبَل اجتماع هذه الأسباب فيه، أو أكثر من واحد منها، أن نمنعها عن الذي هو أهل للنظر فيها. فإنّ هذا النحو من الضرر الداخل قِبَلها هو شيء لِحَقها بالعَرَض لا بالذات. وليس يجب فيما كان نافعاً بطباعه وذاته ان يُتْرَك بمَكان مضرّةٍ موجودة فيه بالعَرَض. بل نقول إنّ مَثَلَ من منع النظر في كتب الحكمة من هو أهلٌ لها، من أجل ان قوماً من أراذل الناس قد يُظَنُّ بهم أنّهم ضلّوا من قِبَل نظرهم فيها، مَثَلُ من منع العطشانَ شربَ الماء البارد العذب حتى مات من العطش، لأنّ قوماً شرقوا به فماتوا. فإنّ الموت عن الماء بالشرق أمر عارض، وعن العَطَش أمر ذاتي وضروري.

وهذا الذي عرض لهذه القناعة هو شيء عارض لسائر الصنائع. فكم من فقيه كان الفقهُ سبباً لقلّة تورّعه وخوضه في الدنيا، بل أكثر الفقهاء كذلك تجدهم، وصناعتهم إنّما تقتضي بالذات الفضيلةَ العملية. فإذاً لا يبعد أن يعرض في الصناعة التي تقتضي الفضيلة العلمية ما عَرَضَ في الصناعة التي تقتضي الفضيلة العملية.

٨ – وإذا تقرّر هذا كلّهُ وكنّا نعتقد – معشرَ المسلمين – أن شريعتناهذه الإلهيةَ حق وأنها التي نبّهتْ على هذه السعادة، ودعتْ إليها، التي هي المعرفة بالله عزّ وجلّ وبمخلوقاته، فإنّ ذلك متقرّر عند كلّ مسلم من الطريق الذي اقتضته جبلّته وطبيعته من التصديق: فمنهم من يصدّق بالبرهان، ومنهم من يصدّق بالأقاويل الجدلية تصديقَ صاحب البرهان بالبرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم

من يصدّق بالأقاويل الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية.

وذلك أنه لما كانت شريعتنا هذه الإلهيةُ قد دعت الناسَ من هذه الطرق الثلاث عمّ التصديق بها كلّ إنسان، إلاّ من جحدها عناداً بلسانه، أو لم تتقرّر عنده طرقُ الدعاء فيها إلى الله تعالى لإغفاله ذلك من نفسه. ولذلك خُصَّ عليه السلام بالبعث إلى «الأحمر والأسود»، أعني لتضمّن شريعته طرقَ الدعاء إلى الله تعالى. وذلك صريح في قوله تعالى ﴿ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

وإذا كانت هذه الشريعة حقًّا وداعيةً إلى النظر المؤدّي إلى معرفة الحقّ، فإنّا معشرَ المسلمين نعلم على القطع أنّه لا يؤدّي النظرُ البرهانيُّ إلى مخالفة ما ورد به الشرع. فإنّ الحق لا يضادُّ الحقَّ، بل يوافقه ويشهدُ له.

٩ – وإذا كان هذا هكذا، فإن أدّى النظر البرهاني إلى نحوٍ ما من المعرفة بموجودٍ ما، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكونَ قد سُكِتَ عنه في الشرع أو عُرِف به. فإن كان مما قد سُكِتَ عنه فلا تعارضَ هنالك، وهو بمنزلة ما سُكِتَ عنه من الأحكام، فاستنبطها الفقيهُ بالقياس الشرعي. وإن كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهرُ النطق أن يكون موافقًا لما أدّى إليه البرهانُ فيه أو مخالفاً. فإن كان موافقاً، فلا قولَ هنالك. وإن كان مخالفاً، طُلِبَ هنالك تأويله. ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ الحقيقية إلى الدلالة المجازية – من غير أن يخلّ في ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز – من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عُدِّدت في تعريف أصناف الكلام المجازيّ.

مناقشـــات وتمرينـــات

١ - كيف برهن ابن رشد على أن معرفة المنطق أمر واجب عن طريق الشرع؟

٢ - لو قال قائل: إنّ النظر في القياس العقلي بدعة فكيف يكون الردّ عليه؟ (هل تجد منطق ابن رشد هنا مقنعاً؟ لماذا؟)

٣ - هـل الاختلاف في الملّة مانع من الافادة من أعمال المتقدّمين؟ ما العلّة في ذلك؟

٤ - بعد تحصيل الآلات (المنطقية) يأتي تحصيل العلوم: لمَ يرى ابن رشد أن يستعين فيها المتأخّر بالمتقدّم (هل هذا طريق للتقدّم العلمي في النهاية؟)

٥ - من هو المؤهّل للنظر في كتب القدماء؟ هل يجوز منع النظر فيها إن كان بعض من نظر فيها قد وقع في الزلل؟ لِمَ يحاول ابن رشد هنا الإقناع بالتمثيل؟

٦ - كيف يفسّر ابن رشد «بعثت إلى الأحمر والأسود» تفسيراً فلسفياً؟

٧ - متى تكون الحاجة إلى التأويل ضرورية؟

-٥٦-

نحو فلسفة عربية
لزكي نجيب محمود *

أحسبُ أن لو تعمّقنا ضمائرَنا، لوجدنا هناك مبدأ راسخاً، عنه انبعثت - ومـا تزال تنبعث - سـائر أحكـامنا في مختلف الميـادين، هو مبدأ، لو عرضته على الناس في لغة واضحة صريحة، لما وجدت منهم أحداً يحتجّ أو يعارض، وأعني به مبدأ الثنائية التي تشطر الوجودَ شطرين، لا يكونان من رتبةٍ واحدة ولا وجهَ للمساواة بينهما، هما الخالق والمخلوق، الروح والمادة، والعقل والجسم، المطلق والمتغيّر، الأزلي والحادث، أو قل هما السماء والأرض، إن جاز هذا التعبير.

ولكي نضع هذه النـظرة الثنائيـة وضعها المفهـوم، نقول إن الفلاسفة - على مرّ العصور، وفي مختلف الثقافات - حين أرادوا أن يضمّوا أشتات المعارف والقيم في مبدأ واحد يجمع شملها، كانوا في ذلك على أربعة أوجه رئيسية: فمنهم من جعل الوجود كلّه كائنا متجانساً جميعَه في أنّه روح صرف، فإذا وجدنا فيه كائناتٍ نظن أنها مادية، وجب أن نترجم حقيقتها إلى لغة تجعلها روحيةً في جوهرها. ومنهم من جعل الوجود كلّه كائناً واحداً متجانساً جميعه كذلك، ولكنّه متجانس في أنّه مادة صرف، فإذا وجدنا فيه كائناتٍ روحية، وجب أن

(*) من كتاب «تجديد الفكر العربي»، (دار الشروق، بيروت، ١٩٧١) ص٢٧٤-٢٨٢.

نترجم حقيقتها إلى لغة تجعلها مادية في جوهرها. ومنهم من شَطَرَ الوجودَ شطرين، كلٌّ منهما متجانس لكنّه مستقلّ عن الآخر، وذلك بأنْ شطره إلى روح ومادة معاً، لكنّ هؤلاء الثنائيين قد يجعلون هذين الشطرين على مستوىً واحدٍ من الأصالة والأولويّة، فلا الروحُ خلقت المادة ولا المادةُ سبقت الروح، بل هما أزليان معاً، يتلاقيان في الكائنات كما نراها. ومن الفلاسفة فريق رابع يردُّ الوجود إلى كثرةٍ من عناصر، لا داعيَ لتجميعها تحت مبدأ واحد أو مبدأين. وأمّا نحن، فأحسب أننا أَمْيَلُ بفكرنا إلى الثنائية - كما ذكرتُ - غير أنها لا تسوّي بين الشطرين، بل تجعل للشطر الروحاني الأولوية على الشطر المادي، فهو الذي أوجده، وهو الذي يسيّره، وهو الذي يحدّد له الأهداف.

وقد يُقال هنا: ألم تكن الفلسفة الأفلاطونية - وما جرى مجراها - ضرباً من الثنائية التي تجعل الأولويّة للمطلق المجرد على الأفراد والجزئيّات؟ فنقول: نعم، ولكنّ أفلاطون قد بلغ في ذلك حدّاً ألغى معه وجود الأفراد الجزئية وجوداً حقيقياً بما في ذلك أفرادُ الإنسان أنفسُهم، فليس للفرد الإنساني الواحد من حقيقة عنده إلّا بمقدار ما يشارك في الإنسانية بمعناها المجرّد؛ ولا أظنّ أنّ مثل هذا الإلغاء لحقائق الأفراد، متّفقٌ مع عقيدتنا التي تُلقي على أفراد الناس تَبِعَاتٍ خُلقيةً عما يعملون أفراداً، لا أنواعاً وأجناساً وجماعاتٍ، فهذا معناه اعترافُنا الصريح بالوجود الحقيقي لهؤلاء الأفراد في حياتهم الدنيا، وفي حياتهم الأخرة على حدّ سواء. وإذن فالنظرة الثنائية التي تناسبنا هي نظرة متميّزة فريدة، تجعل الكائن الإلهي الواحد المطلق في جهة، وتجعل الأفراد الجزئية في جهة أخرى، ثم تقسمُ عالمَ الأفراد هذا، إلى كثرة من عناصر بالنسبة إلى أفراد الناس - على الأقل - لأنها نظرة تأبى أن ينطمس الفرد الإنساني الحرّ المسؤول في عجينة واحدة مع سائر مفردات العالم الطبيعي، فكأنّما هي نظرة تجمع بين الثنائية

والكثرة: الثنائية بالنسبة إلى الله الخالق والكون المخلوق، والكثرة بالنسبة إلى أفراد الناس الداخلين في حدود هذا الكون المخلوق، لتضمن نوعين من التفرقة والتمييز: إحداهما تفرقة تمييز الخالق من مخلوقاته بشراً كانت تلك المخلوقات أم غير بشر، ثم تفرقة أخرى تميز - في عالم المخلوقات - بين البشر وسائر الكائنات، وذلك لتجعل الانسان - دون سائر الكائنات - ضرباً من الإرادة الحرّة المسؤولة، التي لا تخضع للقوانين الطبيعية كلَّ الخضوع، لكنها في مقابل هذه الحرّية، كان عليها أن تحمل عبء الأمانة - أمانةِ الحريّة - في شجاعة وإقدام، فهي أمانة عُرضت على الجبال، فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان.

ومن هنا ترانا لا نطمئنُّ بالاً حين يُقال عن الإنسان إنّه ظاهرة تخضع كلُّها للتقنين العلمي، ونحرص على أن نُبقي منه جانباً يستعصي على ذلك التقنين، لأنّه جانبٌ مُريد خلّاق، مسؤولٌ عن خلقه وإرادته، يبتكر الفعل ابتكاراً، قد يغيّر به تسلسل الأسباب والمسببات كما يتصوّره العلم الطبيعي.

ومن هنا كذلك كان من غير المقبول عندنا، أن يقال إن الأخلاق مدارُها - في نهاية الأمر - منفعةٌ تعودُ على الناس، لأنّنا نرى أن الفضيلة هي جزاء نفسها، أرادها لنا الله، وعقلناها، فالفعل عندنا يُعدُّ فاضلاً في ذاته بغض النظر عن نتائجه، أهي ضارة بصاحب الفعل أم نافعة له، وبعبارة أخرى، فإنّنا نُقيم الأخلاق على أساس الواجب، لا على أساس الفائدة، وهذا لا ينفي أن الواجب قد يجيء مصحوباً كذلك بنتائجَ نافعةٍ، فوق كونها واجباً، لكنّه واجب يؤدّى قبل أن نفكر فيما يترتب عليه من ضرّ ونفع.

تلك هي الوقفة الخلقية التي نقفها - نتيجة مباشرة للصورة الكونية التي تصورناها: إله خالق وعالم مخلوق، وفي هذا العالم إنسان

متميّز دون سائر المخلوقات بالإرادة الحرّة المسؤولة، التي تتصرف في إطار التشريع الذي أوحي به من الله، لكنّه مع ذلك تصرّف فيه حرّية الاختيار، التي من شأنها أن تجعل تبعةَ الفعل واقعةً على فاعله، فإذا لم يكن للإنسان اختيار الواجب المفروض بحكم الشريعة، فهو كامل الحرية في اختياره داخل هذا الإطار. وذلك شبيه بموقف الكاتب، يجد أمامه لغة حاضرة جاهزة، لم يكن له دخل في وضع مفرداتها وقواعد تركيبها، لكنه بعد ذلك حرّ فيما يأخذه منها وهو يكتب، فتكون عليه التبعة فيما يكتبه، خيراً بخير وشرّاً بشرّ.

وكما أن الصورة الكونية التي تصورناها، قد نتج عنها نظامٌ خلقيّ نسير بمقتضاه، فكذلك ينتج عنها موقف خاصّ يتعلّق بمعايير الجمال في الفنون والآداب. فجمال الفن عند غيرنا هو في تشكيل اللون أو تشكيل الصوت أو تشكيل الحجر؛ تشكيلات تمتع الحواسَّ أولاً وقبل أي شيء آخر، بصراً كانت الحاسة النشوانة (وذلك في حالة التصوير والنحت) أم سَمْعاً (في حالة الموسيقى)، وأمّا الفن عندنا فهو في هندسة تشكيلاته، هندسة يطرب لها الذهن من وراء الحاسة المدركة. انظرْ إلى الفن العربي في زخارفه ورسومه، تجدْ أساسَه البناء الهندسيّ، بناء تتماثل فيه المربعات والدوائر والمثلّثات وغيرها من أشكال الهندسة، بحيث يُراعى في ذلك البناء، أنه إذا ما امتدّت عين الرائي إلى أحد أطرافه، أحسّ الرائي أنّه يستطيع أن يمدّ - بذهنه وخياله - تلك التشكيلات الهندسية إلى غير نهاية. وفي هذه الانطلاقة الذهنية، من الجزئيّ الذي أمامنا، إلى المطلق الذي ندركه بحواسنا، في هذه الانطلاقة من المحسوس إلى المعقول، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، من الطبيعة إلى ما وراءها، يكمن جوهر الروح العربية فيما أرى.

وهل نعدو الصوابَ كثيراً، إذا قلنا إنّ الأدب العربي، في شتى صوره وأشكاله، كان مداره الحكمةَ العامةَ الموجزة المركّزة في حيّزٍ

ضئيل من اللفظ؟ الحكمة العامة التي لا يتقيّد صوابها بمكان معلوم وزمان محدود، لأنها تصدق على كل مكان وزمان. لقد تفرّد الأدب العربي بهذا الإطلاق للقول إطلاقاً يرتكز على اللمح الوامض كأنّه لمعات البرق، على حين أن غيره من الآداب قد عُني أول ما عُني، بالخبرة الذاتية التي تختلج بها نفس واحدة مفردة، هي نفس الأديب المعيّن، في لحظة معيّنة وفي موقف بذاته. ولذلك وجدت تلك الآداب أن القصّة والمسرحية هما خير وسيلتين للتعبير، لأنهما تقيّدان الخبرات الإنسانية في أشخاص بذواتهم، وفي حوار يدور حول أشياء ومواقفَ فريدةٍ لا تتكرر. نعم، إنّ هذه الآداب الأخرى، تبتغي الوصول إلى ما هو عامٌ عن طريق ما هو فرديٌ خاصٌ، وأمّا الأدب العربي الأصيل، فقد كان يستهدف العام بخطوة واحدة مباشرة، وحتى الشعر، الذي يفرض فيه أن يكون إعراباً عن ذات الشاعر - والشاعر بالطبع فرد واحد فريد - أقول إنه حتى الشعر عند العرب، كان مرماه البعيد أن يرسم النماذج المطلقة المثلى، ولم يكن أن يصوّر هذه الحالة الواحدة المعيّنة أو تلك، من الحالات الجزئية التي يزخر بها تيّار الحياة الواقعة. فإذا وصف الشاعر العربيُّ جواداً، أو ناقة، أو ما شاء أن يصف، وصفه كما ينبغي له أن يكون لا كما هو كائن بالفعل، بكلّ ما فيه من شائبة ونقص، وهذا ما يؤيّد ما أزعمه هنا، من أن الروح العربية الأصيلة، وإن غاصت في تفصيلات العالم الأرضي بمواقفه وحادثاته، فهي مشرئبّة دائمًا إلى الثابت الدائم الذي لا يتغيّر مع الأيّام ولا يزول.

إنّ نظرتنا إلى الكون في صميمها، تفرّق تفرقةً واضحة بين عالمين: عالم الكائنات المتناهية - أعني الكائنات المقيّدة في وجودها بمكان وزمان معيّنين، وعالم اللامتناهي، الذي يتعالى عن أية صفة تحدّد له مكاناً أو زماناً. هذه التفرقة الحادة الواضحة بين العالمين، لا تجدها في أية ثقافة أخرى بمثل الوضوح الناصع الذي تجدها به

عندنا. إنّ الأرض - عندنا - أرض، والسماء سماء. ولا اختلاط بينهما ولا خلط، وكلّ ما بينهما من صلة، هو أن السماء تهدي والأرض تهتدي. وأمّا الثقافات الأخرى، من الشرق الأقصى إلى أوروبا قديمها وحديثها، فتُسيغ ضروباً أخرى من العلاقات بين الجانبين، كأن ترى اليونان الأقدمين - مثلاً - يُسيغون أن تنزل الآلهة إلى الأرض لتلهوَ مع البشر حيناً، ثم تعود إلى عليائها من جديد.

نعم لقد كان لنا في تاريخنا الفكريّ متصوّفة، أقلقهم هذا الفصل الحاد بين الله والإنسان، فطفقوا يلتمسون وصلاً بينهما، على مذاهب مختلفة، ففريق يُحِلُّ لله في الكون وفي الذات الإنسانية، بحيث يجوز للإنسان عندئذٍ أن يقول «أنا الحقُّ»، وفريق يصعد بالذات الإنسانية لتشهد الحقَّ أو لتتّحد به. فهذه كلّها محاولات أراد بها أصحابها إلغاء المسافة المفارقة بين المتناهي واللامتناهي، لتصبح الحقيقة واحدة. لكنَّ أمثالَ هذه الوقفات الصوفية - على رفعة قدرها وسموّ شأنها - لا تعبّر - فيما أعتقد - عن النظرة العربية في عمومها وصميمها.

ومن النظرة الثنائية إلى الكون، بالصورة التي قدّمناها، نستطيع أن نستخلص لنا نظريةً خاصة في تحليل المعرفة الانسانية. فهذا التحليل للمعرفة - كما يكاد يُجمع على ذلك مؤرخو الفلسفة جميعاً - هو أهم ما تصدّت له البحوث الفلسفية في الثلاثة قرون الأخيرة في أوروبا وأمريكا، وهي القرون التي تكوّن مرحلة التاريخ الحديث. ذلك أنّك إذا تصوّرت العالم والإنسان طرفين، فلا بدّ أن تسأل نفسك: تُرى كيف يتاح للإنسان أن يعرف العالم الذي حوله، معرفة يركن إلى صوابها؟ وهنا ترى الفلاسفة على اختلاف شديد في التحليل، وهو اختلاف كثيراً ما يكون له أبلغ الأثر في الحياة العلمية نفسها. فهنالك المثاليون الذين يظنّون أن المعرفة الجديرة بهذه التسمية، هي ما يبلغ حدَّ اليقين. ولمّا كان اليقين لا يتوافر إلاّ للرياضة أو ما في حكمها من معرفة استنباطية، وجب أن تُعالَج

الظواهرُ الطبيعية على أسس الرياضة ومنهاجها. وهنالك التجريبيّون الذين يذهبون إلى أنّ المعرفة العلمية محالٌ أن تنبثق من الذهن وحدَه، وبالمنهج الرياضي وحده، بل لا بدّ من تجربة نمارسها، بالملاحظة أحياناً وبإجراء التجارب العملية أحياناً، حتى نخلص إلى قوانين الطبيعة في شتى ظواهرها.

وإني لأتساءل - على أساس نظريتنا الثنائية المقترحة - لماذا لا يكون للمعرفة نطاقان، لكلّ منهما وسيلة خاصة به؟ فإذا كان الأمر أمرَ الحقيقة المطلقة، جاءتنا المعرفة عن طريق، وإذا كان الأمر أمر الطبيعة وكائناتها، جاءت المعرفة عن طريق آخر، ولا يجوز لأيّ من النطاقين أن يزاحم الآخر في وسائله. ولكم نشبتْ معاركُ بين أناس أرادوا تطبيق وسيلة العالم الأول على العالم الثاني، أو وسيلة العالم الثاني على العالم الأول، فكانوا يعانون من هذا الخلط شرّ ما يُعاني من تشتّتٍ وبلبلة ولَبْسٍ وغموض.

مناقشات وتمرينات

١ - الفلاسفة في النظر إلى الوجود على أربعة وجوه: ميّز تلك الوجوه.

٢ - ما الفرق بين الثنائية التي يراها الكاتب لدى العرب وثنائية أفلاطون؟

٣ - ما أثر هذه الثنائية لدينا في نظرتنا إلى:

(أ) الإنسان

(ب) الأخلاق

(ج) الفن

(د) الأدب.

٤ - ألا تعتقد أن الكاتب يفسّر بعض الظواهر السابقة لتخضع - إجمالاً - للقانون الذي وضعه؟ (هل يمكن أن تستنتج

من كلامه أننا أخفقنا في المسرحية والقصّة وتطوير الشعر. . . إلخ).

٥ - كيف تخلّص الكاتب من وقفة المتصوّفة التي تناقض نظريته؟

٦ - كيف تصبح نظريتنا في المعرفة على أساس من الثنائية التي هي محور تفكيرنا وحياتنا؟

-٥٧-

إنكار قدرة العقل
لفؤاد زكريّا *

في مجال الفن والشعر والأدب يهيب الانسان بقوىً أخرى غير العقل، قد يسمّيها الخيالَ أو الحدس ويؤمن - عن حق - بأن هذه القوى هي التي توجّهه في هذا المجال، لأنّ المنطقَ العقليَّ الدقيق يَعْجزُ عن الأخذ بيدنا حينها نكون بصدد إبداع عملٍ فنيّ أو أدبي. ولكن المشكلة هي أن بعض المفكّرين يعتقدون أن أمثالَ هذه القوى تصلح مرشداً لنا في ميدان المعرفة ذاته، وينكرون قدرةَ العقل في هذا الميدان، أو يجعلون له مكانة ثانوية. ومثل هذا التفكير كان ولا يزال، عقبةً في طريق تقدّم العلم.

ولقد كانت أشهرَ هذه القوى التي حورب بها العقل، في عصور مختلفة وعلى أنحاء متباينة، هي قوّةُ الحدس. وكلمة الحدس قد تفهم، في استخدامها العربي العاديّ، بمعنىً مشابهٍ لمعنى التخمين أو التكهّن، ولكنها يمكن أن تتّضح في أذهاننا إذا ما حدّدنا المجالات المختلفة التي يُستخدم فيها هذا اللفظ استخداماً فنيّا دقيقا. وسوف نلاحظ أن معاني اللفظ، في كلّ هذه المجالات، تشترك جميعها في سِمةٍ أساسية، يكون فيها الحدسُ معرفةً «مباشرة»، تتمّ بلا وسائط ولا خطوات متدرّجة:

(*) من كتاب «التفكير العلمي» (سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨) ص ٩٣ - ٩٧.

١ – فهناك حدس حسّيّ، نقصد به إدراكنا العادي بحواسنا. فحين أدرك الآن أنّ الحائط الذي أراه أمامي أبيض اللون، يكون ذلك حدساً، حسب المصطلح الفنّي، لأنّني أدرك هذا الحائط إدراكاً مباشراً. فأنا لم «أستنتج» أنّه أبيض، ولم يقل لي أحد إنّه كذلك، وإنّما أراه بحواسي مباشرةً.

٢ – وهناك حدس في المجال العقلي، نقصد به وصول العقل مباشرة إلى النتيجة المطلوبة. وكلُّ من درس مقرّراً بسيطاً في الهندسة يعلم أنّ هناك طريقتين لحلّ تمرين هندسيّ: الأولى هي أن يفكّر المرء في «معطيات» التمرين ويحلّلها واحداً واحداً، ويسير بخطوات متدرّجة حتى يهتديَ أخيراً إلى الحلّ. والثانية هي أن تأتي فكرةُ الحلّ أو تهبطَ على العقل من أوّل لمحة، بلا تحليل وبغير تدرّج، ولا تستخدم الخطوات المتدرّجة إلاّ في طريقة «تدوينه» لهذا الحلّ المباشر فحسب. فهنا يكون الحدس نوعاً من المعرفة التي لا نحتاج فيها إلى استدلال أو استنباط، بل تأتي مرّة واحدة وبصورة مكتملة تغنينا عن أيّة خطوات وسطى.

٣ – وهناك حدس في المجال العاطفي، وذلك حين يشعر المرء بالتعاطف أو التنافر مع أشخاص معيّنين من النظرة الأولى، دون أن يكون قد عرفهم أو سمع عنهم شيئاً. ومثل هذا الحدس، الذي يشبه ما يسمّونه «بالحاسة السادسة» عند المرأة، قد يكون صواباً أو خطأً، وقد تؤيّده الخبرةُ والتجربة فيما بعد أو تكذّبه، ولكن الذي يهمنا أنّه، بدوره، شعور أو عاطفة مباشرة، يصدر الحكمُ فيها على الفور، دون خطوات متدرّجة.

٤ – وهناك حدس في المجال الصوفي، وذلك حين يؤكّد المتصوّف أن لديه معرفةً بالله تختلف عن تلك المعرفة الاستدلالية المتدرّجة التي نصل إليها عن طريق «البراهين» العقلية. فهو يشعر

«بحضور» الله مباشرة فيه، وهو يصل إلى الفناء في الذات الإلهية في تلك اللحظات القليلة التي يستحيل وصفها بلغة الكلام، والتي لا يُحسّ بها إلاّ من مرّ بالتجربة ذاتها. وهنا أيضاً نجد نوعاً من المعرفة المباشرة التي لا تستخدم براهينَ أو استدلالاتٍ، والتي توصلنا إلى الهدف مباشرة بطريق مخالف للطريق العقلي المتدرّج.

٥ – وأخيراً، فهناك ذلك الحدس الفنيّ الذي تحدّثنا عنه في البداية، والذي يُطلق عليه اسم «الإنهام»، وأهمّ ما يميّزه هو الظهور المفاجىء والمباشر لفكرة العمل الفنيّ أو لموضوعه في ذهن الفنّان.

هذه المعاني كلّها تشترك في ثلاثة عناصر رئيسية يتميّز بها الحدس، من حيث هو طريقة في معرفة الأشياء، عن غيره من طرق المعرفة:

(أ) فهو معرفة «مباشرة»، لا تحتاج إلى وسائط ولا تسير بالتدريج من خطوة إلى أخرى.

(ب) وهو ينقلنا مباشرة إلى «لب» الموضوع الذي نريد أن نعرفه أو إلى جوهره الباطن، بدلاً من أن يكتفيَ بتقديم أوصافٍ خارجية أو سطحية لهذا الموضوع، أو يقتصرَ على معرفته من خلال مقارنته بغيره.

(ج) وهو في جوهره معرفة «فردية»، أي أنه يُتاح لشخص بعينه، لا لأي شخص آخر. وهو يتطلب «تجربة» من نوع خاص، يصعبُ نقلُها عن طريق الوصف إلى الآخرين (حتى في حالة الإدراك الحسّيّ يستحيل نقل ما تراه العين إلى غير المبصر نقلاً أميناً وكافياً)، ويصعب تلقينها أو تعليمها لهم، ويستحيل أن «نعمّمها» على الجميع.

على هذا الأساس كان هناك دائمًا من يتصور أن طريقةَ المعرفة المثلى لدى الإنسان ليست هي طريقةَ استخدام البراهين أو الأدلة العقلية، بل هي الحدسُ المباشر الذي يوصلنا إلى اللبِّ الباطن للموضوع الذي نريد

معرفته. ذلك لأن العقل، في نظر هؤلاء، يعيبه أنّه يسير دائماً بخطوات متدرّجة، ولا يستطيع أن يتقدّم خطوة إلّا بعد التأكّد - بالبرهان - من صحّة الخطوة السابقة. وهو فضلاً عن ذلك «عامّ»، أي أنّه لا يعطينا معرفةً إلّا بالصفات المشتركة بين الأشياء، وهي تلك الصفات التي يستطيع «الجميع» أن يدركوها. وهو يلجأ دائمًا إلى المقارنة وكشف العلاقات بين الظواهر. ومعنى ذلك - في رأي أصحاب هذا الاتجاه - أنه لا يكشف لنا إلّا عن علاقات سطحية، ولا ينفذُ بنا إلى الجوهر الباطن للأشياء.

وحين يصبح الحدس - عند أصحاب هذا الاتجاه - قوّةً مضادّة «للعقل»، فهنا ينبغي علينا أن ننبّه إلى الخطأ الذي يقعون فيه. ولكن من حسن الحظ أنهم ليسوا جميعاً من خصوم العقل. فهناك مفكّرون يدافعون عن الحدس من حيث هو قوّة «مكملة» للعقل، لا تتعارضُ معه بل تتوّج جهوده وتوصلها إلى نتائجها القصوى. وهذه نظرة إلى الحدس لا تشكّل أيّة عقبة في طريق التفكير العلمي، ومن ثمّ فلن نركّز عليها حديثنا الآن.

أمّا العقبة الحقيقية فتتمثّل في أولئك الذين ينكرون دور العقل، أو يقلّلون من أهميته ويضيّقون المجالَ الذي ينطبقُ عليه، وذلك لحساب تلك القوّة الأخرى التي قد يسمونها بالحدس أو «الغريزة» أو «سَوْرَة الحياة» أو غير ذلك من الأسماء. ولقد وُجدَتْ أمثلة لهؤلاء المفكرين في مختلف عصور التاريخ، وكان رأيهم يختلف، في جزئيّاته، تبعاً للعصر الذي يعيشون فيه، وتبعاً للدور الذي يؤدّيه العقل - خصمهم الأول - في ذلك العصر. وما زلنا نجد لهم أمثلةً في حياتنا المعاصرة، في كتابات أولئك الذين لا همّ لهم إلّا أن يحطّوا من شأن العقل ويقلّلوا من قيمة نتائجه، ولا هدف لهم إلّا أن يثبتوا قصورَ المعرفة البشرية وعجزَ العلم ذاتِه عن الوصول إلى حقيقة الأشياء.

ويتبع خصومُ العقل هؤلاء أسلوباً متشابهاً: فهم يبدأون من مقدّمة صحيحة، ثم يستنتجون منها نتيجة باطلة. أمّا المقدّمة الصحيحة فهي أنّ العقل ما زال عاجزاً عن كشف كثير من أسرار الكون، وأن هناك مشكلاتٍ كثيرةً يعجز العقل عن حلها، ويتّضح لنا فيها أن قدرته محدودة. وأمّا النتيجة الباطلة، التي يستنتجونها ممّا سبق، فهي أن العقل «بطبيعته» عاجز، وأنّه سيظلّ إلى الأبد قوّةً محدودة قاصرة، ومن ثمّ فلا بد من الاعتماد على قوّة أخرى غيره.

هذا الأسلوب الخادع في مهاجمة العقل ينطلي، للأسف، على الكثيرين، لأنهم حين يجدون المقدّمة صحيحة - والشواهد تؤيدها بالفعل - يتصوّرون أن النتيجة مترتّبة عليها حقّاً، ولا بدّ أن تكون بدورها صحيحة، ومن ثمّ فإنهم يفقدون ثقتهم بالعقل من حيث هو أداة لاكتساب المعرفة وبلوغ الحقيقة. ولكن الواقع أن الاستنتاج باطل من أساسه، وأنّ ما نَلْمَسُهُ حولنا من عجز العقل عن حلّ مشكلات كثيرة لا يُثبتُ على الإطلاق أن العقل «في ذاته» قاصر.

ذلك لأن أصحاب هذه الحجّة الباطلة ينكرون تماماً دور التاريخ، سواء في الماضي أو في المستقبل. فلو قارنّا حالة المعرفة البشرية منذ خمسمائة عام مثلاً، بما هي عليه الآن، لاتّضح لنا أن العقل قد حقّق إنجازات رائعةً بحقّ. ولو قارنّا نمطَ الحياة البشرية منذ مائة عام فقط، بحالتها الراهنة، لتبيّن لنا أنّ العقل قد غيّر وَجْهَ حياتنا تغييراً تاماً في هذه الفترة التي تُعدُّ - بالمقاييس التاريخيّة - فترة قصيرة. ومن المؤكّد أن مراجعة سجل الانجازات العقلية في الماضي تُثبت لنا أن العقل حقق أشياء ضخمة بحق، وأنّه ليس على الاطلاق تلك القوة المحدودة القاصرة التي يصوّره بها الكثيرون. أما بالنسبة إلى المستقبل، فإنّ الأمل في اتّساع قدرة العقل هو أمل لا حدود له. فلو تخيّلنا ما سيكون عليه العالم بعد خمسمائة سنة أخرى، مع عمل حساب التزايد المطّرد في معدّل نموّ الإنجازات العقلية العلمية، فإنّ

الصورة التي سنكوّنها عندئذ أبعدُ ما تكون عن صورة ذلك العقل العاجز الذي يتحدّثون عنه. صحيح أن العقل ما زال يجهل الكثير، وما زال يعجز عن الكثير ولكنّه أفضل أداة نملكها لكي نعرفَ عالمنا ونسيطر على مشاكلنا. وبفضل هذه الأداة حقَّقنا حتى الآن أشياءَ رائعة، وتغلّبنا على مشكلات كنّا نتصور في الماضي أنها لا تُحلّ إلّا بالسحر أو الخيال (بساط الريح، أو الصندوق المتكلم من أقصى أطراف الأرض، على سبيل المثال). وهو يواصل سيره، فيخطىء حيناً ويُصيب حيناً، ولكن الحصيلة العامة، لمسيرته تمثّل انتصاراً رائعاً للإنسان. وحسبنا أن نقارن بين القرون الأربعة التي استخدم فيها الإنسان عقله أداة لبلوغ المعرفة (من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين) وبين القرون السبعة عشر التي سبقت ذلك، والتي كانت اداة المعرفة المستخدمة فيها واحدة من تلك التي يدعو إليها خصوم العقل - حسبنا أن نُجري هذه المقارنة لكي نُدرك أن قضيّة إنكار قدرة العقل، لمجرد كونه لم يتوصّل حتى الآن إلى «كل شيء»، هي في صميمها قضية خاسرة.

مناقشات وتمرينات

١ - عدّد أنواع الحدس، واذكر الخصائص المشتركة بينها (أيّ هذه الأنواع يقف مناهضاً للعلم؟ ألا ترى أن النوع الثاني يخطو بالعلم خطوات سريعة؟ النوع الثالث ما علاقته بالعلم؟ والنوع الخامس: ألا يمثل عالماً مستقلاً قد لا يتعارض مع دنيا العلم؟)

٢ - متى يصبح الحدس خطراً على العلم؟

٣ - خصوم العلم الذين يقولون «إن العقل ما زال عاجزاً»: هل هم جميعاً ينطلقون عن الإيمان بقوة الحدس؟ أو ينبعثون من منطلقات أخرى؟ أشر إلى بعض هذه المنطلقات.

٤ - هل كان التقدم البطيء للعلم في القرون السبعة عشر ناشئاً فقط

عن الايمان بالحدس؟ أما كانت هناك عوامل أخرى؟ هل بطل القول بالحدس في القرون الأربعة الأخيرة التي أحرز فيها العلم تقدّماً هائلاً؟ أين المشكلة إذن؟

-٣-

أفق الــروح

-٥٨-

إرم ذات العماد *

حكى عبد الله بن قلابةَ أنه خرج في إبلٍ له شَرَدَتْ، فبينما هو في صحارَى عَدَن أَبْيَنَ والشِّحْر(١) يطلب إبله في تلك الفَلَوات إذ وقـع على مـدينة عليهـا حصنٌ، حول ذلـك الحصن قصورٌ كثيـرة وأعلامٌ(٢) طوال، فلما دنا منها ظنّ أنّ فيها أحداً يسأله عن إبله، فإذا لا خارجَ يخرجُ من باب حصنها ولا داخلَ يدخل منه. فلما رأى ذلك نزل عن ناقته وَعَقَلها(٣) ثمّ استلّ سيفَه ودخل من باب الحصن؛ فلما خلّف الحصن بشيء إذا هو ببابين عظيمين لم يرَ في الدنيا أعظم منهما ولا أطول، وإذا خشبهما مِجْمَرٌ يعني عوداً، وفي ذينك البابين نجوم من ياقوتٍ أبيضَ وياقوت أحمر، يضيء ذانك البابان فيما بين الحصن والمدينة، فلمّا رأى ذلك الرجلُ أعجبه وتعاظم الأمر، ففتح أحد البابين ودخل، فإذا هو بمدينة لم يرَ الراؤون مثلها قطّ، وإذا هي قصور كلُّ قصرٍ معلّقٌ تحته أعمدةٌ من زبرجد وياقوت، ومن فوق كل

(*) من كتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار» لابن عبد المنعم الحميري (تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، بيروت، ١٩٧٥) ص ٢٢-٢٤.

(١) هي عدن المعروفة وتضاف إلى أبين للتفرقة بينها وبين عدن لاعة وهي قرية قريبة من صنعاء؛ والشحر منطقة ساحلية تحاذي عمان من الجنوب الغربي.

(٢) الأعلام: الجبال، ولعله يعني الحصون.

(٣) عقلَها: ربطها.

قصر منها غُرفٌ. وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضّة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وكلّ مصاريع تلك القصور وتلك الغرف مثل مصراعي باب المدينة، كلها مفصّصٌ بالياقوت الأبيض والياقوت الأحمر مقابلة بعضها ببعض، يُنوّر بعضها من بعض، مفروشة تلك القصور وتلك الغرف كلّها باللؤلؤ وبنادق من مسك وزعفران. فلما عاين الرجلُ ما عاين ولم يَر فيها أحداً هالَهُ ذلك وأفزعه، ثم نظر إلى الأزقّة فإذا هو بالشجر في كل زقاق منها قد أثمرت تلك الأشجار كلّها، وإذا تحت تلك الأشجار أنهار مطّردة يجري ماؤها في قنوات من فضّة، كلُّ قناة منها أشدُّ بياضاً من الشمس، تجري تلك القنواتُ تحت الأشجار، فداخل الرجلَ العجبُ مما رأى وقال: والذي بَعَثَ محمداً بالحق ما خَلَقَ الله عز وجلّ مثلَ هذه الدنيا وإنّ هذه لَلْجَنَّةُ التي وصفها تقدّستْ أسماؤه، ما بقي ممّا وصف الله العزيز شيء إلّا وهو في هذه المدينة، هذه الجنة، الحمد لله الذي أدخلَناها؛ فبينما هو يُؤامِرَ نفسَه[1] ويتدبّر رأيَه إذ دعته نفسه أن يأخذ من لؤلؤها وياقوتها وزبرجدها ثم يخرجَ حتى يأتي بلاده ثم يرجع إليها، ففعل، فحمل معه من اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها شيئاً ولا من ياقوتها لأنه مثبتٌ في أبوابها، وكان ذلك اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثوراً في تلك القصور والغرف كلّها، فأخذ ما أراد وخرج، حتى أتى ناقته وحلّ عقالها وركبها ثمّ سار راجعاً يقفو أثرَ ناقته حتّى رجع إلى اليمن، فأظهر ما كان معه، وأعلم الناسَ أمرَه وما كان من قصّته، وباع بعضَ اللؤلؤ، وكان ذلك اللؤلؤ قد اصفرّ وتغيرّ من طول كرور[2] الأيّام والليالي عليه.

فلم يزل أمر ذلك الرجل ينمي[3] ويخرج حتى بلغ معاويةَ بن

---

(١) يؤامر نفسه: يناجيها ويتحدث إليها في الأمر.

(٢) كرور: مرور.

(٣) ينمي: يزيد.

أبي سفيان رضي الله عنهما، فأرسل رسولاً وكتب إلى صاحب صنعاء يأمره بالبَعْثَةِ بالرجل إليه يسأله عما كان من أمره، فخرج به رسولُ معاويةَ من اليمن حتى قدم به الشام، فأمر صاحبُ صنعاء الرجلَ أن يخرج معه ببعضِ ما جاء به من متاع تلك المدينة، فسار الرجل ورسولُ معاوية معه حتى قدم على معاوية، فخلا به معاوية وساءله عما رأى وعاين فقصّ عليه أمرَ المدينة وما رأى فيها شيئاً فشيئاً، فأعظم ذلك معاويةُ وأنكر ما حدّثه به وقال: ما أظنُّ ما قلتَه حقّاً، فقال الرجل: عندي من متاعها الذي (هو) مفروش في قصورها وغرفها وبيوتها، قال: ما هو ؟ قال: لؤلؤ وبنادق المسك والزعفران، فقال له معاوية: هاتِ حتى أراه، فأراه لؤلؤاً أصفَر من أعظم ما يكون من اللؤلؤ، وأراه تلك البنادقَ فشمّه معاوية فلم يجد له ريحاً، فدقّ بُنْدقةً من تلك البنادق فسطع ريحها مسكاً وزعفراناً، فصدّقه معاوية عند ذلك، وقال: كيف لي أن أعلم ما اسمُ هذه المدينة ومن بناها ولمن كانت، فوالله ما أُعطيَ أحدٌ مثلَ ما أُعطي سليمانُ بن داود عليهما الصلاة والسلام، وما مَلَكَ سليمانُ مثلَ هذه المدينة، فقال بعض جلساء معاوية: إنك لن تجدَ خبر هذه المدينة عند أحدٍ من أهل الدنيا في زماننا هذا إلّا عند كعب الأحبار، فإن رأيت أن تبعث إليه وتأمر أن يغيب هذا الرجل عنه فإنّه سيخبر بأمرها وأمر هذا الرجل إن كان دخلها، لأنّ مثل هذه المدينة على مثل هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولها إلّا أن يكون قد سبق في الكتاب دخولُه إيّاها، فابعث إلى كعب فإنّه لم يخلقِ الله عزّ وجلّ أحداً على ظهر الأرض أعلمَ منه، ولا شيء مضى منَ الدهر ولا يكونُ بعد اليوم إلّا وهو في التوراة مفسّراً منصوباً معروفاً مكانُه، فليبعث إليه أمير المؤمنين فإنّه سيجد خبرَها عنده.

قال: فأرسل إلى كعب الأحبار فأتاه، فلما أتاه قال له معاوية: يأبا إسحاقَ إني دعوتك لأمر رجوتُ أن يكون علمُه عندك، قال

كعب: على الخبير سقطت فَسَلْني عما بدا لك، قال: أخبِرْني يا أبا إسحاقَ هل بلغك أنّ في الدنيا مدينةً مبنية بالذهب والفضّة وعُمُدُها زبرجد وياقوت، وحصباء قصورها وغرفها لؤلؤ، فيها جنّاتُها، وأنهارُها في الأزقّة تجري تحت الأشجار؟ قال كعب: والذي نفسي بيده لقد ظننت أني لأتوسّدُ يميني[١] قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولمن هي، ولكنْ أُخبرك بها ولمن هي ومن بناها. أما تلك المدينة فهي حقٌّ على ما بلغك ووُصِفَ لك، وأمّا صاحبها الذي بناها فشدّاد ابن عاد، وأما المدينة فَإِرَمُ ذاتُ العِمَاد التي وصف الله عزّ وجلّ في كتابه المنزل على محمّد صلى الله عليه وسلّم ﴿التي لم يُخلق مثلها في البلاد﴾ (الفجر ٧-٨)، وهي كما وصف لك لم يُبنَ مثلُها في البلاد.

قال معاوية: يا أبا اسحاق حدّثني حديثَها يرحمُك الله، قال: أُخبرُكَ أن عاداً الأولى - ليس عادٌ قومُ هود ولكن عادُ الأولى - إنّما هودٌ وقومُ هودٍ ولدٌ لذلك، فكان عاد له ابنان أحدهما شديد والأخر شدّاد، فهلك عاد فبغيا وتجبّرا، وملكا فقهرا البلادَ وأخذا أهلَها عنوةً[٢] وقهراً حتى دان[٣] لهما جميعُ الناس، ولم يبقَ أحدٌ من الناس في زمانهما إلاّ وهو في طاعتهما لا في مشرق الأرض ولا في مغربها، وأنّه لمّا صفا لهما ذلك وقرّ قرارُهما مات شديد بن عاد وبقي شدّاد وحدَه لم ينازِعْهُ أحد، ودانت له الدنيا كلُّها بأجمعها، وكان مُوْلَعاً بقراءة الكتب الأُول، وكلّما مرّ فيها بذكر الجنة وما يسمع ما هو فيها من البنيان والياقوت واللؤلؤ دعته نفسه إلى أن يفعل تلك الصفة. فلما قرّ ذلك في لبّه أمر بصنعة تلك المدينة وأمّر على صنعتها مائةَ قهرمان[٤] مع كل قهرمان ألفٌ من الأعوان، ثمّ قال: انطلقوا إلى

(١) توسد يمينه: توفي (لأن الميت يضجع في قبره على الجانب الأيمن).
(٢) عنوة: بالقوة.
(٣) دان: خضع.
(٤) القهرمان: الموكل بتصريف الأعمال.

أطيب بلاد الأرض وأوسعها فاعملوا لي فيها مدينةً من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ، تحت تلك المدينة أعمدةٌ من زبرجد، وعلى المدينة قصور، ومن فوق تلك القصور غرف، واغرسوا تحت القصور في أزقّتها أصنافَ الثمار كلّها، وأجْرُوا فيها الأنهار حتى تكون تحت الأشجار، فإني أستمع في الكتاب صفةَ الجنّة فأحبّ أن أجعل مثالها في الدنيا، أتعجَّل سكناها، فقال له قهارمته وكانوا مائة قهرمان: كيف لنا أن نقدر على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللّؤلؤ والذهب والفضّة لنبني منه مدينة من المدائن كما وصفتَ لنا، ومتى نقدر على هذا الذهب كلّه وهذه الفضة؟ فقال لهم شدّاد: أليس تعلمون أن مُلكَ الدنيا كلَّه بيدي؟ قالوا: بلى، قال: فانطلقوا إلى كلّ مَعْدِن من معادن الزبرجد والياقوت أو بحرٍ فيه لؤلؤ أو معدنُ ذهبٍ أو معدن فضّة، وابعثوا إلى كلّ قوم رجلاً يُخْرِجُ لكم ما كان من كلّ معدن في تلك البلاد، ثمّ انظروا إلى ما كان في أيدي الناس فخذوه سوى ما يأتيكم به أصحاب المعادن.

قال: فانطلقَ أولئك القهارمة فبعثوا إلى كلّ ملكٍ من الملوك بكتاب في أخذ الفَعَلَة في طلبهم له موضعاً كما أراد ووصفه لهم من البساتين وإجراء الأنهار وغرسهم الأشجار، وعملوا في ذلك عشر سنين، فقال معاوية: وكم عدد الملوك الذين كانوا تحت يده؟ قال: مائتان وستّون ملكاً قسمها بينهم كلّ ملك على حدة وما عليه من الخراج.

قال: فخرج القهارمة فشدّوا في الصحراء ليجدوا ما يوافقه، فلم يجدوا ذلك حتى وقعوا على صحراءَ عظيمةٍ نقيّة من التلال والجبال، فإذا هم بعيون مطّردة، فقالوا: هذه صفة إرَمَ التي أمرنا بها، فأخذوا بقدر الذي أمرهم من العرض والطول ثم جعلوا ذلك حدوداً محدودة ثم عمدوا إلى مواضع الأزقّة التي فيها الحدود فأجْرَوا فيها قَنواتٍ لتلك الأنهار، ثمّ وضعوا الأساس من صخور الجزع اليماني،

وصبّوا طينَ ذلك الأساس من مرّ ولبان ومحلب، فلمّا فرغوا ممّا وضعوا من الأساس وأجروا القنوات أرسلت إليهم الملوك بالزبرجد والياقوت والذهب والفضّة واللؤلؤ والجوهر، كلّ ملك قد عمل ما كان في معدنه، فمنهم من بعث بالعُمُد مفروغاً منها، ومنهم من بعث بالذهب والفضّة مفروغاً منها مصنوعاً، فدفعوه إلى أولئك القهارمة والوزراء، فأقاموا فيها حتّى فرغوا من بنائها وهي على تلك العمد، وهي قصور وفوق القصور غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة والزبرجد والياقوت، وأقاموا في بنائها إلى أن فرغوا منها ثلثمائة سنة، وكان عمر شدّاد تسعمائة سنة.

قال كعب: فلما أخبروه بفراغهم منها قال: انطلقوا فاجعلوا عليها حصناً. واجعلوا حول الحصن ألفَ قصر يكونُ في كلّ قصر وزيرٌ من وزرائي وألف ناطور. قال: فخرجوا فعملوا تلكَ الحصون والقصور ثمّ أخبروه بالفراغ ممّا أمرهم به. قال: فأمر ألف وزير من خاصته أن يتهيئوا للنقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر لتلك الأعلام برجال يسكنونها وأمر لهم بالعطاء والأرزاق والجهاز إلى تلك القصور، فأقاموا في جهازهم إليها عشر سنين، فسار الملك فيمن أراد وخلف من قومه في عدن أبين والشحر أكثر ممن سار، فلما صار منها على مقربة من يوم وليلة بعث الله تعالى العظيم عليه وعلى من كان معه صيحةً من السماء فأهلكهم جميعاً ولم يبقَ منهم أحد، ولم يدخل ذات العماد منهم أحد، ولم يقدر على دخولها أحدٌ منهم حتى الساعة، فهذه صفة ذات العماد. وسيدخلها رجلٌ من المسلمين في زمانك هذا ويرى ما فيها ويحدّث بذلك فلا يُصَدَّق. قال له معاوية: يا أبا إسحاق هل تصفه لنا؟ قال: نعم، رجل أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال، يخرج ذلك الرجل في طلب إبل له في تلك الصحارى فيقع على ذات العماد، فيدخلها ويحمل ممّا فيها (والرجُلُ جالس عنده) فالتفت كعب فرأى الرجل فقال: هذا ذلك الرجل قد دخلها فسله عما

حدّثتك به. فقال معاوية: يا أبا إسحاق إنّ هذا من خدمي، قال: فقد دخلها وإلاّ فسيدخلها، ويدخلها أهلُ هذا الدينِ في آخر الزمان.

مناقشات وتمرينات

١ - كيف تفسّر الشغف بأنواع الأحجار الكريمة في هذه الحكاية؟
٢ - هل تعتقد أن الآية (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) كانت حافزاً لهذا النوع من التخيّل؟
٣ - لِمَ يحدث الكشف عن إرم في زمن معاوية؟ ولِمَ يقوم كعب الأحبار بهذا الدور الفذّ؟
٤ - إذا علمت أن كعب الأحبار كان يهوديّاً وأسلم (وأنّه شُهر بوضع الحكايات) فأيّ ضوء تلقيه هذه الحقيقة على القصّة؟
٥ - ما الذنب الذي من أجله عوقب شدّاد (بحسب ما توحي به القصّة؟)
٦ - إذا كانت هذه الحكاية نوعاً من «الحلم» فما هي الغايات المتعدّدة التي يحقّقها هذا الحلم؟

-٥٩-

الغريب
لأبي حيّان التوحيدي *

سألتني - رَفق الله بك، وعطّف عليَّ قلبَك - أن أذكر لك الغريب ومِحَنه، وأصف لك الغربة وعجائبها، وأمرَّ في أضعاف ذلك بأسرار لطيفة، ومعانٍ شريفة، إمّا مُعَرّضاً، وإمّا مُصَرّحاً، وإمّا مُبعَداً وإمّا مُقرّباً. فكنتُ على أن أُجيبَك إلى ذلك، ثمّ إني وجدت في حالي شاغلاً عنك، وحائلاً دونَك، ومُفَرّقاً بيني وبينك. وكيف أخفض الكلام الآن وأرفع، وما الذي أقول وأصنع، وبماذا أصبر، وعلى ماذا أجزع؟ وعلى العلات التي وصفتُها والعوراتِ التي سترتها أقول:

إنّ الغريبَ بحيث ما ... حطّت ركائبُه ذليلُ
ويدُ الغريب قصيرةٌ ... ولسانُه أبداً كليلُ
والناس ينصر بعضُهم ... بعضاً، وناصرُه قليلُ

وقال آخر:

وماجزَعا من خَشْيَةِ البَينْ أخْضَلَتْ(١) دموعي، ولكنَّ الغريبَ غريبُ

(*) من كتاب «الاشارات الإلهية» (تحقيق الدكتورة وداد القاضي، بيروت، ١٩٧٤) ص ٨٠-٨٣.

(١) أخضل: فعل متعدٍ بمعنى بلّ تقول: أخضلت دموعه لحيته؛ ويستعمل لازماً كما هو هنا بمعنى: نَدِيَ.

يا هذا: هذا وصفُ غريب نأى عن وطن بُني بالماء والطين، وبَعُدَ عن ألّافٍ له، عهدُهم الخشونة واللّين، ولعلّه عاقرهم الكأسَ بين الغدران والرياض، واجتلى بعينه محاسنَ الحَدَق المِراض(١)، ثمّ كان عاقبة ذلك كلّه إلى الذهاب والانقراض؛ فأين أنت عن غريب قد طالت غربته في وطنه، وقلّ حظّه ونصيبه من حبيبه وسَكَنِه؟ وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان؟ قد علاه الشحوب وهو في كِنّ(٢)، وغلبه الحزنُ حتى صار كأنّه شَنّ(٣): إنْ نَطَقَ نطق حَزْيَانَ منقطعاً، وإن سكت سكت حَيْرَانَ مرتدعاً؛ وإن قرب قرب خاضعاً، وإن بعد بعد خاشعاً؛ وإن ظهر ظهر ذليلاً، وإن توارى توارى عليلاً؛ وإن طلب طَلَبَ واليأس غالبٌ عليه، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصدٌ إليه؛ وإن أصبح أصبح حائلَ اللون من وساوس الفكْر، وإن أمسى أمسى مُنْتَهَبَ السرِّ من هَواتِك السّتر؛ وإن قال قال هائباً، وإن سكت سكت خائباً؛ قد أكله الخمول، ومَصّه الذبول، وحالفه النحول؛ لا يتمنى إلّا على بعض بني جنسه، حتى يُفضيَ إليه بكامنات نفسه، ويتعلّل برؤية طلعته، ويتذكّر بمشاهدته قديمَ لوعته، فينثر الدموع على صحن خدّه، طالباً للراحة من كدّه.

وقد قيل: الغريب من جفاه الحبيب، وأنا أقول: بل الغريب من وَاصَلَه الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حاباه الشريب، بل الغريب من نُودي من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من ليس له من الحقّ نصيب. فإن كان هذا صحيحاً، فتعال حتى نبكيَ على حالٍ أحدثتْ هذه الهَفْوَة، وأورثتْ هذه الجَفْوَة:

(١) توصف العين بالمرَض استحساناً لما فيها من فتور.

(٢) الكِنّ: كلّ ما يستر الإنسان من بيت أو غيره.

(٣) الشَنّ: الجلد المتغضن.

لعل انحدارَ الدّمعِ يُعْقِبُ راحةً
من الوجْدِ أو يَشْفي نَجيّ البلابلِ(1)

يا هذا: الغريبُ من غرَبَتْ شمسُ جمالِه، واغترب عن حبيبه وعُذّاله، وأغرب في أقواله وأفعاله، وغرّب في إدباره وإقباله، واستغرب في طِمره[2] وسِرْباله.

يا هذا: الغريبُ من نطق وَصْفُهُ بالمحنة بعد المحنة، ودلّ عنوانه على الفتنة عُقيب الفتنة، وبانت حقيقته فيه في الفينة حَدَّ الفينة. الغريب من إن حضر كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً. الغريب من إن رأيتَه لم تعرفه، وإن لم تَرَهُ لم تستعرفه. أما سمعت القائلَ حين قال:

بِمَ التعلّلُ لا أهلٌ ولا وطنُ   ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ[3]

هذا وَصْفُ رجلٍ لحقته الغربة، فتمنى أهلاً يأنَسُ بهم، ووطناً يأوي إليه، ونديماً يَحُلُّ عُقَدَ سرّه معه، وكأساً ينتشي منها، وسَكَناً يتوادع[4] عندَه. فأمّا وصف الغريب الذي اكتنفته الأحزان من كلّ جانب، واشتملت عليه الأشجان من كلّ حاضر وغائب، وتحكّمت فيه الأيام من كل جاءٍ وذاهب، واستغرقته الحسَرَات على كلّ فائتٍ وآيب، وشتّته الزمانُ والمكان بين كلّ ثِقَةٍ وَرائِب[5]، - وفي الجملة: أتت عليه أحكام المصائب والنوائب، وحطّته بأيدي العواتب عن المراتب - فَوَصْفٌ يخفى دونه القلم، ويفنى من ورائه القرطاس،

(1) نجيّ البلابل: خفيّ الهموم؛ والبيت لذي الرمة من قصيدة له مطلعها:
خليلي عوجا من صدور الرواحل   بجمهور حزوى فابكيا في المنازل
(2) الطِّمْر: الثوب الخلق.
(3) مطلع قصيدة للمتنبي، قالها يشكو حاله وهو في مصر بعد فراق سيف الدولة، وكان قد بلغه أن الناس تحدثوا في مجلس سيف الدولة بنعيه (قالوا إنه مات).
(4) يتوادع ويتودّع: يجد السكون والدّعة.
(5) الرائب: المتّهم بالريبة.

ويُشَلُّ عن تحبيره اللفظ، لأنّه وصف الغريب الذي لا اسم له فيُذكر، ولا رسم له فيُشْهَر، ولا طيّ له فينشر، ولا عُذْرَ له فيعذر، ولا ذنب له فيغفر، ولا عَيْبَ عنده فيُسْتَرَ.

هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه، ولم يتزعزع عن مَهَبّ أنفاسه. وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محلّ قربه، لأنّ غاية المجهود أن يَسْلُوَ عن الموجود، ويُغمِض عن المشهود، ويُغضي عن المعهود، ليجد من يُغنيه عن هذا كلّه بعطاء ممدود، ورِفْدٍ مرفود، وركن موطود[1]، وحدٍّ غير محدود.

يا هذا: الغريب من إذا ذكر الحقَّ هُجر، وإذا دعا إلى الحق زُجر. الغريب من إذا أَسْنَدَ كُذِّب، وإذا تظاهر عُذِّب. الغريب من إذا امْتَارَ لم يُمَرْ[2] وإذا قَعَدَ لم يُزَرْ. يا رحمتا للغريب: طال سفره من غير قدوم، وطال بلاؤه من غير ذنب، واشتدّ ضرره من غير تقصير، وعم عناؤه من غير جدوى.

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله. الغريب من إذا تنفّس أحرقه الأسى والأسف، وإن كتم أكمده الحزن واللّهَف. الغريب من إذا أقبل لم يُوَسَّع له، وإذا أعرض لم يُسْأل عنه. الغريب من إن سأل لم يُعْطَ، وإن سكت لم يُبْدَأ. الغريب من إذا عطس لم يُشَمَّت[3]، وإن مَرِض لم يُتَفَقَّد. الغريب من إن زار أُغْلِقَ دونَه البابُ، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب. الغريب من إذا نادى لم يُجَبْ، وإن هادى لم يُحَبّ.

(1) موطود: ثابت الأسس، راسخ.
(2) امْتار طلب الميرَة، ولم يُمر: أي مُنِعَهَا.
(3) تشميت العاطس أن يقال له: يرحمُك الله.

مناقشـــات وتمرينـــات

١ - تحدّث أبو حيّان هنا عن ضروب من الغربة: غربة الظاعن. غربة الفقير. غربة الصوفي. حدّد كلّ نوع بحدوده كما ترتسم في هذه القطعة.

٢ - اكتب بحثاً عن الأسباب التي تؤدي إلى الشعور بالغربة.

٣ - هنالك غربة وجودية (إنسانية)، وغربة المفكّر أو الفنّان الذي لا يفهمه قومه (أو هو يتصوّر ذلك)...الخ. كيف يعبّر الأدب الحديث (عربياً أو غير عربي) عن مثل هذه الغربة؟ اختر نموذجاً واحداً وحلّله.

٤ - ما هي أهمّ سِمَات أسلوب التوحيدي هنا: بأيّ شيء افترق أسلوبه هنا عن أسلوبه في القطعة رقم: ٢؟

٥ - لماذا تعتقد أن هذه القطعة يمكن أن تُدرس في نطاق «الأفق الروحي»؟

-٦٠-

تجليّ الخضر *

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن بنتَ ملِك مدينةِ الأحجار قالت: يا عبد الله إنّ أبي كان عنده من الأموال والذخائر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكان يقهر الملوك ويُبيد الأبطالَ والشجعان في الحرب وحومةِ الميدان، وتخشاه الجبابرة وتخضع له الأكاسرة، ومع ذلك كان كافراً مشركاً بالله يعبد الصنم دون مولاه، وجميعُ عساكره كفّارٌ يعبدون الأصنام دون الملك العلاّم.

فاتّفق أنّه كان يوماً من الأيّام جالساً على كرسي مملكته وحوله أكابر دولته، فلم يشعر إلاّ وقد دخل عليه شخص فأضاء الديوان من نور وجهه، فنظر إليه أبي فرآه لابساً حُلَّةً خضراءَ، وهو طويلُ القامة ويداه نازلتان إلى تحت ركبتيه، وعليه هيبة ووقار، والنورُ يلوحُ من وجهه، فقال لأبي: يا باغي يا مفتري إلى متى وأنت مغرور بعبادة الأصنام، وتترك عبادة الملك العلاّم؟! قل أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وأَسْلِمْ أنت وقومك، ودع عنك عبادةَ الأصنام فإنها لا تنفع ولا تشفع، ولا يُعْبد بحقّ إلاّ الله رافع السموات بغير عماد، وباسط الأَرَضِين رحمةً للعباد. فقال له: من أنت أيها الرجل الجاحد لعبادة الأصنام حتى تتكلّم بهذا الكلام؟ أما

(*) من «ألف ليلة وليلة» (الليلة الثالثة والثمانون بعد التسعمائة، الجزء الثاني، بولاق، مصر، ١٢٥٢هـ) ص ٥٨٤-٥٨٦.

تخشى أن تغضب عليك الأصنام؟ فقال له: إنّ الأصنام أحجار لا يضرّني غضبها ولا ينفعني رضاها، فَأَحْضِرْ لي صنمك الذي أنت تعبده وَأْمُر كلَّ واحد من قومك أن يُحْضِرَ صنمه، فإذا حضر جميعُ أصنامكم فادعوهم ليغضبوا عليَّ، وأنا أدعو ربّي أن يغضب عليهم، وتنظرون غضب الخالق من غضب المخلوق، فإنّ أصنامكم قد صنعتموها أنتم وتلبّست بها الشياطينُ، وهم الذين يكلمونكم من داخل بطون الأصنام، فأصنامكم مصنوعةٌ وإلهي صانع، ولا يُعجزه شيء، فإن ظهر لكم الحق فاتبعوه وإن ظهر لكم الباطل فاتركوه. فقالوا له: آئتِنا ببرهان ربّك حتى نراه، فقال: آئتوني ببراهين أربابكم، فأمر الملك كلَّ من كان يعبد ربّاً من الأصنام أن يأتي به، فأحضر جميع العساكر أصنامهم في الديوان.

هذا ما كان من أمرهم، وأمّا ما كان من أمري فإني كنت جالسة في داخل ستارة تُشْرِفُ على ديوان أبي، وكان لي صنم من زمرّدة خضراء، جسمُهُ قدرُ جسم ابن آدم، فطلبه أبي فأرسلته إليه في الديوان، فوضعوه في جانب صنم أبي من الياقوت وصنم الوزير من جوهر الألماس، وأمّا أكابر العساكر والرعيّة فبعض أصنامهم من البلخش[1] وبعضها من العقيق، وبعضها من المرجان، وبعضها من العود القماري[2] وبعضها من الأبنوس، وبعضها من الفضّة، وبعضها من الذهب، وكلّ واحد منهم له صنم على قدر ما تسمح به نفسه. وأمّا رعاع العساكر والرعية فبعض أصنامهم من الصوّان، وبعضها من الخشب، وبعضها من الفخّار، وبعضها من الطين، وكلّ الأصنام مختلفة الألوان ما بين أصفرَ وأحمرَ وأخضرَ وأسودَ وأبيض.

ثمّ قال ذلك الشخص لأبي: ادع صنمك وهؤلاء الأصنام

(١) البلخش: نوع من الأحجار يشبه الياقوت.

(٢) العود القماري: عود طيّب الرائحة ينسب إلى قمار (وقيل إنها ببلاد الهند).

تغضب عليّ، فصفّوا تلك الأصنام ديواناً وجعلوا صنم أبي على كرسيّ من الذهب، وصنمي إلى جانبه في الصدر، ثم رتّبوا الأصنام: كلّ منها في مرتبةِ صاحبه الذي يعبده، وقام أبي وسجد لصنمه وقال له: يا إلهي أنت الربّ الكريم وليس في الأصنام أكبر منك، وأنت تعلم أنّ هذا الشخص أتاني طاعناً في ربوبيّتك مستهزئاً بك، ويزعم أنّ له إلهاً أقوى منك، ويأمرنا أن نتركَ عبادتَكَ ونعبدَ إلهه، فاغضب عليه ياإلهي. وصار يطلب من الصنم والصنم لا يردّ عليه جواباً ولا يخاطبه بخطاب، فقال له: يا إلهي ما هذه عادتك لأنّك كنت تكلّمني إذا كلّمتك، فمالي أراكَ ساكتاً لا تتكلّم؛ هل أنت غافل أو نائم، فانتبه وانصرني وكلّمني، ثمّ هزّه بيده فلم يتكلّم ولم يتحرّك من مكانه. فقال ذلك الشخص لأبي: ما لي أرى صنمك لا يتكلّم؟ قال له: أظنّ أنّه غافل أو نائم، فقال له: يا عدوّ الله كيف تعبدُ إلهاً لا ينطقُ وليس له قدرة على شيء ولا تعبد إلهي الذي هو قريبٌ مجيب وحاضر لا يغيب، ولا يغفل ولا ينام ولا تدركه الأوهام، يرى ولا يُرى وهو على كلّ شيء قدير، وإلهك عاجز لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه، وقد كان متلبّساً به شيطان رجيم يُضِلُّكَ ويغويك، وقد ذهب الآن شيطانه، فاعبد الله واشهد أنّه لا إله إلّا هو ولا معبودَ سواه وأنه لا يستحقّ العبادة غيره، ولا خير إلا خيره، وأمّا إلهك هذا فإنه لا يقدر على دفع الشرّ عن نفسه، فكيف يقدر على دفعه عنك؟ فانظر بعينك عجزه. ثمّ تقدّم وصار يصكُّهُ على رقبته حتى وقع على الأرض، فغضب الملك وقال للحاضرين: إنّ هذا الجاحد قد صكّ إلهي فاقتلوه، فأرادوا القيام ليضربوه فلم يقدر أحد منهم أن يقوم من مكانه، فعرض عليهم الإسلامَ فلم يُسلموا فقال: أريكم غضب ربّي؟ فقالوا: أرنا، فبسط يديه وقال: إلهي وسيّدي أنت ثقتي ورجائي فاستجبْ دعائي على هؤلاء القوم الفجّار الذين يأكلون خيرك ويعبدون غيرك، يا حقُّ يا جبّارُ يا خالقَ الليلِ والنهار، أسألك أن تقلبَ هؤلاء القومَ أحجاراً فإنّك قادر ولا يُعجزك شيء وأنت على

كل شيء قدير. فمسخ الله أهل المدينة أحجاراً وأمّا أنا فإنّي حين رأيت برهانه أسلمت وجهيَ لله فسلمتُ ممّا أصابهم.

ثمّ إنّ ذلك الشخصَ دنا مني وقال: سَبَقَتْ لكِ من الله السعادة، ولله في ذلك إرادة، وصار يعلّمني وأخذت عليه العهدَ والميثاق، وكان عمري سبعَ سنين في ذلك الوقت، وفي هذا الوقت صار عمري ثلاثين عاماً، ثمّ إني قلت له: يا سيّدي جميعُ ما في المدينة وجميع أهلها صاروا أحجاراً بدعوتك الصالحة، وقد نجوتُ أنا حين أسلمتُ على يديك، فأنت شيخي فأخبرني باسمك ومدَّني بمددك وتصرَّفْ لي في شيء أقتات منه، فقال لي: اسمي أبو العبّاس الخضر، ثمّ غرس لي شجرةً من الرمّان بيده، فكبرت وأورقت وأزهرت وأثمرت رمّانة واحدة في الحال فقال: كلي ممّا رزقك الله تعالى واعبديه حقَّ عبادته، ثمّ علّمني شروطَ الإسلام وشروط الصلاة وطريقَ العبادة وعلّمني تلاوة القرآن وصار لي ثلاثة وعشرون عاماً وأنا أعبد الله في هذا المكان، وفي كلّ يوم تَطْرَحُ لي هذه الشجرة رمّانة فآكلها وأقتات بها من الوقت إلى الوقت والخضر عليه السلام يأتيني كلّ جمعة، وهو الذي عرّفني باسمك وبشّرني بأنّك سوف تأتيني في هذا المكان، وقد قال لي: إذا أتاك فأكرميه، وأطيعي أمره ولا تخالفيه، وكوني له أهلاً ويكون لك بعلاً، واذهبي معه حيث شاء، فلما رأيتك عرفتك، وهذا هو خبر هذه المدينة وأهلها والسلام.

ثمّ إنها أرتني شجرة الرمّان وفيها رمّانة فأكلتُ نصفها وأطعمتني نصفها، فما رأيت أحلى ولا أزكى ولا أطعمَ من تلك الرمّانة. ثم قلت لها: هل رضيتِ بما أمرك به شيخُك الخضرُ عليه السلام بأن تكوني لي أهلاً وأكونَ لك بعلاً، وتذهبي معي إلى بلادي وأمكثَ بك في مدينة البصرة؟ فقالت: نعم إن شاء الله تعالى فإني سميعةٌ لقولك مطيعة لأمرك من غير خلاف. ثمّ إني أخذتُ عليها العهدَ الوثيق وأدخلتني إلى خزانة أبيها وأخذنا منها على قدر ما استطعنا حمله، وخرجنا من

تلك المدينة ومشينا حتى وصلنا إلى أخويّ فرأيتهما يفتّشان عليّ، فقالا لي: أين كنت فإنك أبطأتَ علينا، وَقَلْبُنا مشغول بك، وأمّا رئيس المركب فإنه قال لي: يا تاجرُ عبدَ الله إنّ الريحَ طاب[1] لنا من مدّة وأنت عوّقتنا عن السفر، فقلت له: لا ضرر في ذلك ولعلّ التأخير خير، لأنّ غيابي لم يكن فيه غيرُ الإصلاح وقد حصل لي فيه بلوغ الآمال.

مناقشــات وتمرينــات

١ - كيف تفسّر اعتماد الخيال الشعبي على أن يجعل العبادة (وقيم الأصنام) على أساس طبقي؟

٢ - من الواضح أنّ الخيال الشعبي هنا يتّخذ طريقَ طرحِ قضية (قائمة على المفارقة) - التحدّي - انتصار الحقّ: فما معنى استثناء شخص واحد من مدينة كاملة؟

٣ - محاولة القصّة أن تبلغ هدف اللّقاء الموعود قد جعلها تضحّي بالعبرة المستمدّة من حدوث المعجزة: (وهي تحوّل عبدة الأصنام بطريق المعجزة إلى الإسلام) لماذا اختارت القصّة هذه الطريق؟

٤ - «لعلّ التأخير خير» هل تنبىء هذه العبارة بأنّ الحكاية ستصاب بنوع من التحوّل في سياقها؟

٥ - لِمَ اختارت الحكاية أن يكون صنم بنت الملك من زمرّدة خضراء؟ ما البديل عند التخلّي عن تلك الزمرّدة؟

٦ - ما الرمز في تصوير الخضر وله يدان نازلتان إلى ما تحت ركبتيه؟

(١) الأصوب «طابت» لأن الريح مؤنثة.

-٦١-

البشير

لطه حسين *

أقبلن مع ضوء النهار يسعَين سَعْيَ النسيم يسبقهنّ عَرْف المسك ونَشْر[١] القَرَنْفُل، ويحملن من ندى الأزهار وشهيّ الثمار، ومن رَطْب الأغصان وَجَنيّ الريحان، ما يصوّر الطبيعة وقد أيقظها بـردُ السَّحر ومسُّ الندى وغناء الطير، فجرت فيها رعدةُ الحياة، ثمّ استقبلت ضوء الصبح باسمةً له مُقْدِمةً عليه، ثمّ منغَمسة فيه تريد أن تعبر ما بين ساحليه من مطلع الشمس إلى مغيبها. وكنّ قـاصراتِ الـطرف[٢] فاترات اللحظ ساحرات العيون، وكنّ مشرقات الوجـوه باسمـات الثغور، وكنّ أسيلات[٣] الخدود جميلات القدود نحيلات الخصور. وكنّ عِذَاب الأصوات مِلاحَ الألفاظ فاتناتِ الألحان. وكنّ يتغنّين في يونانيّتهنّ الحلوة أغنيةَ الصباح، تلك التي تعوّدن أن يحملن بها تحيّة النهار إلى سيّدهنّ الشاب الفتى المترف كيمون بن أركيتاس.

وكنّ يقلن له في أغنيتهن الرقيقة الظريفـة: «أفق أيها الفتى المترف! تنبّه أيها الفتى السعيد! قم أيها الفتى المجدود[٤]، أفق كيمون!

(*) من كتاب «على هامش السيرة»(مصر،١٩٦٠) ١: ٩٣ - ٩٧، ١٠٤ - ١٠٧.

(١) العرف والنشر: الرائحة.

(٢) قاصرات الطرف: فيهنّ حياء وقناعة وعدم طَمَاحٍ بأنظارهنّ

(٣) الأسيل: الطويل الليّن المستوي.

(٤) المجدود: المحظوظ.

فقد وفت لك آلهة الليل بعهدها فرعتك وحفظتك، ويسّرت لك نوماً هادئاً وأحلاماً حساناً، ثمّ انصرفت عنك وقد أسلمتك إلى آلهة النهار لِتَفِيَ لك بعهدها كما تعوّدت أن تفيَ لك به منذ ذقتَ الحياة! أفق فلن ترى من هذا اليوم إلّا ابتساماً أجملَ وأعـذبَ من ذلك الابتسام الذي رأيته أمس والذي رأيته أوّل من أمس والذي تعوّدته منذ عرفت الحياة! أَفِقْ فستلقى مودّة وحبّاً، وستلقى توفيقاً ونُجْحاً، وسيزورك الأصدقاء مسرعين إليك، مقبلين عليك وقد اتخذوا على رؤوسهم أكاليلَ من الـزهر، وسيتّخـذ رأسُكَ إكليـلاً كأكـاليلهم. وستفرحون وتمرحون، وستجدّون وتمزحون. أفق أيها الفتى السعيد! تنبه أيها الفتى المترف! قم أيها الفتى المجدود!»

ولكنهن بلغن الغرفة التي كان يأوي إليهاكيمون إذا جَنَّهُ[١] الليلُ وانصرف عنه الرفاق، فلم يرين سيّدهنّ كما تعوّدن أن يَرَيْنَه كـلّ صباح مغرقاً في النوم أو متعلقاً بأسباب اليَقَظَة يريد أن ينجو بها من بحر الرقاد، إنّما رأينه قائمًا يذهب في غرفته ويجيء متعباً مكدوداً، مُظلِمَ الوجهِ كأنّه قد أنفق ليله مُسَهّداً[٢] لم يذق النعاس. فلما رأينه هممن أن يسألنه. ولمّا رآهن أنكرهنّ. ولكنّه منحهنّ ابتسامةً فيها عطفٌ عليهنّ حزين، ورفقٌ بهنَّ لا يخلو من ألم، وانصرافٌ عنهنّ يشوبه شيء من التبرّم[٣] وإحساسِ الشقـاء. ثمّ أشار إليهنّ فلم يسعْهن إلّا أن يَعُدْنَ من حيث أتين، صامتات كئيبات قد سُقط في أيديهنّ[٤] كأنمّا أتين من الأمر شيئاً عظيمًا.

وكان الفتى في حقيقة الأمر يُنكر نفسه أشدَّ الإنكار، ويضيقُ بما حوله كلَّ الضيق، بعد تلك الليلة الطويلة الثقيلة التي أنفقها وحيداً

---

(١) جَنَّهُ: ستره.

(٢) المسهد: السهران من القلق.

(٣) التبرّم: الضيق والملل.

(٤) سُقط في أيديهنّ: أخفقن وشعرن بالخذلان.

محزوناً يفكّر في تلك الدماء التي كانت تجري قريباً من داره كأنها السيل، وفي تلك الأشلاء[١] التي كانت منتشرة من حول داره آخر النهار، وفي تلك الأصوات التي كانت ترتفع بالصلاة والدعاء قويةً رائعةً مبتهجة بالموت، حتى يسعى الموت إلى أصحابها فيخرّون صرعى، وتستحيل تلك الأصوات القوية الرائعة المبتهجة إلى حشرجة فظيعة مروّعة. ويرى تلك الوجوهَ التي كانت تستقبل الموتَ وعليها ابتسامة حلوة فيها جَلَدٌ وثقة، وفيها يقين وأمن، وفيها أمل وإيمان، فما تزال هذه الوجوه تدنو من الموت باسمة له، وما يزال الموت يدنو منها عابساً لها، حتى يكونَ اللّقاء المنكر الشنيع، فإذا عبوسُ الموت قد استحال إلى ابتسام حين مسّ هذه الوجوه الباسمة. وكانت المدينة قد شهدت يوماً من أعظم أيّامها شرّاً وأشدّ أيامها نُكْراً: يوماً من أيّام الاضطهاد، جُمع فيه النصارى من كلّ وجه وأخذوا من كلّ مكان، فيهم الرجال والنساء، وفيهم الشباب والشيب، وكلّهم من ضعفاء الناس وذوي المنازل الخاملة فيهم: أُخذوا من الدور حيث كانوا آمنين وأخذوا من الحقول حيث كانوا يعملون، وأخذوا من البِيع[٢] التي أقاموها في الأنفاق حيث كانون يجتمعون للصلاة والدعاء. فلّما حُشِدَ منهم المئاتُ امتحنوا في دينهم امتحاناً يسيراً قصيراً، فلم يكن منهم من أجاب إلى وثنية الامبراطورية الرومانية، ولم يكن منهم من أظهر العبادة لقيصر أو الخضوع لدين روما. هناك أمرَ بهم الحاكم فقتّلوا تقتيلاً، ونُكّل بهم أشدّ التنكيل، وعبثت بهم السيوف والخناجر، ولعبت فيهم السهام والحراب، وأشرافُ المدينة المقيمون على دين الدولة، وعامةُ المدينة المتعصبون لدين الدولة ينظرون إلى ذلك فرحين به، مستمتعين بجماله البشع الفظيع. وكان كيمون بين الأشراف في الصفّ الأول من النظّارة سمع ورأى، فأنكرت نفسه ما سمع

(١) الأشلاء: أعضاء الإنسان حين تتفرّق.
(٢) البيع: جمع بِيعَة وهي الكنيسة.

وما رأى، ولكنّ صوته لم يستطع إلاّ أن يصيح صيحات الرضا، ولكنّ يديه لم تستطيعا إلاّ ان تصفّقا تصفيق الإعجاب. حتى إذا انتهت المجزرة وتفرّق الناس سكارى لكثرة ما رأوا وشمّوا من منظر الدم وريحه، عاد الفتى إلى قصره ذاهلاً واجماً كئيباً حزيناً. ثمّ خلا إلى نفسه فقضى في غرفته بقيّة النهار وسوادَ الليل، ورأى في هذه العزلة الطويلة أهوالاً وأوجالاً[١] لم يكن تعود أن يراها. وأنّى له ذلك ولم يشهد قط ما شهد أمس من الاضطهاد! وأنّى له ذلك ولم يشترك قطّ في حرب ولم ير قطّ نزالاً ولا قتالاً. على أنّه لم يستطع البقاء في غرفته بعد أن انصرف عنه الإماء[٢]، فخرج من داره لا يدري إلى أين يقصد، ولا يعرف إلى أين يريد. ومضى أمامه لا يلوي[٣] على شيء ولا ينظر إلى شيء، ولم ينتبه إلاّ وهو يستأذن على صديقه نكياس.

فلما أذن له دخل على صاحبه، فلم ير في وجهه إشراقاً ولا ابتساماً، ولم يُحسَّ منه ابتهاجاً ولا نشاطاً، وإنّما رأى وجهاً عابساً مظلمّا، وشخصاً كَئيباً فاتراً! فابتدر صديقه قائلاً: إنّ أمرك لعجيب! أفتراني قد حملت اليك حزني وبؤسي، ونقلت إليك كآبتي وشقائي؟! قال نكياس: أمحزون أنت؟ أمّا أنا فلم أذق النوم! قال كيمون: ولم أذقه أنا أيضاً... وكيف يذوق النوم من رأى مثلَ ما رأينا، أو سمع مثل ما سمعنا، أو شهد مثل ما شاهدنا من كيد الناس للناس، ومكر الناس بالناس، وقسوة الناس على الناس! قال نكياس: هوّن عليك! لقد نام أهل المدينة ملء جفونهم آمنين مطمئنّين. وما يمنعهم أن يناموا وأن يأمنوا وأن يطمئنّوا وقد كانوا يخافون هؤلاء النصارى على أمن الدولة ودينها، وعلى نظام الدولة وسلطانها، فقد أراحتهم سيوف الجند ورماحُ الشرطة وسهامُ الرّماة من هؤلاء النصارى، فأُخْلِتْ منهم الدار

(١) الأوجال: المخاوف.
(٢) الإماء: جمع أمة، وهي المرأة من الرقيق.
(٣) لا يلوي على شيء: لا يلتفت إليه.

وعَفَتْ منهم الآثار، وقدّمتهم ضحايا دامية إلى «جوبيتر»[1] إله روما العظيم! قال كيمون: إنّ عجبي من هؤلاء النصارى لا ينقضي! كلّهم كان ضعيفاً ذليلاً، وكلّهم كان فقيراً مُعدِماً، وكلّهم كان بائساً محروماً، وكلّهم كان قد تعوّد الطاعةَ وأَلِفَ الخضوع، فكيف قويت قلوبهم بعد ضعف، وكيف عزّت نفوسهم بعد ذلّة، وكيف اجترأوا على أن يَعْصُوا سادتهم وقادتهم ويخالفوا عن أمر الحاكم والأمبراطور؟! ما هذا السِّحْر الذي غيّرهم هذا التغيير، وبدّلهم هذا التبديلَ، ومنحهم هذه الشجاعة والعِزّة، وهذا الصبرَ والبأسَ وكلَّ هذه الخصال التي لم تكن تُعرف إلّا للأشراف؟! قال نكياس: وما يُدهشك من هذا؟ إنّما هو الإيمان خليقٌ أن يحوّل الأشياء إلى أضدادها، والنفوسَ إلى نقيضها. أو تظن أن أمر هؤلاء الناس هو وحده الذي يثير هذا الدَّهَشَ ويدعو إلى العجب! أليس كلُّ شيء الآن يتغير ويتبدّل؟! ألست تُحسّ من حولك إنكاراً لكلّ شيء، وضيقاً بكلّ شيء، وسُخْطاً على كلّ شيء، واستعداداً لثورة عنيفة توشك أن تشب فتقلب الأشياء كلّها على عَقِب؟! إنّك تعجب من الناس، فماذا تقول إن أنبأتك بأني أعجبُ من الآلهة!...

بعد أن عاد كيمون إلى قصره عرف أن بقاءه في المدينة أمر لا سبيلَ إليه، وأنّ الموت آثرُ عندَه وأحبُّ إليه من هذه الحياةِ الحمراء اللاغطةِ الممزّقة التي لا يرى فيها إلّا دماء وأشلاء، ولا يسمع فيها إلا صلاة ودعاء وحشرجة ونداء، فلمّا جَنّه الليل وهدأ من حوله كلُّ شيء وكلُّ إنسان، خرج من القصر ينسابُ كأنه الحيّة، وينسلّ كأنّه اللص، وأخذ يمضي في طرق المدينة متنقّلاً من طريق إلى طريق حتى جاوز أسوارها وأرباضها[2]، ودفع إلى الفضاء الواسع[3]، وإلى هذا الريف

(1) Jupiter: هو كبير الآلهة لدى الرومان، وهو إله السموات، ويتمثل خاصة في الظواهر الطبيعية الجوية، ويسمى أيضاً: Jove، ويقابله لدى اليونان الاله زوس (Zeus).

(2) الأرباض: الضواحي.

(3) دفع إلى الفضاء: انتهى إليه.

الذي تسكن فيه الطبيعة إذا تقدّم الليل سكوناً رهيباً، ولا يكاد يحسّ الانسان فيه إلّا هذه الأصوات الضئيلة التي تنبعث من حين إلى حين، عن بعض الحشرات المنبثّة[1] في ثنايا العشب والزرع، وعن بعض الطير المستقرّة على الأغصان، حين يمرّ بها طائفُ الحلم فتهمّ بالغناء والتغريد، ثمّ يقطع عليها النومُ غناءها وتغريدَها، وإلّا هذه الأصوات الخفية التي لا تسمعها الأذن وإنّما تسمعها النفس، لأنها أدقّ من السمع، وألطف من الحسّ، وهي نجوى الهواء حين تتحدّث أجزاؤه وطبقاته بعضها إلى بعض إذا سكن الليل وأطبق الظلام، كأنّما يقصّ بعضها على بعض أحاديث الطبيعة في حياتها وحركتها قبل أن تنام وقبل أن يضطرها الليل إلى السكون. ومع أنّ هذا الهدوء الرهيبَ، وهذا الصمت المهيب، يروّعان أهلَ المدن إذا دُفعوا إليهما دفعاً على غير تعوّد لهما، فإنهما لم يبعثا في نفس الفتى رَوْعاً[2]، ولم يُدْخِلا في قلبه رُعباً، لأنّ نفسه كانت مشغولة حتى عن هذا الرعب وذلك الروع بما كان يزدحم فيها من الخواطر والأحاديث. وكان الفتى يمضي أمامه لا يعنيه أمهْتَدٍ هو قصدَ السبيل أم جائر[3] هو عن هذا القصد؛ لأنه لم يكن في حقيقة الأمر يعرف إلى أين يريد، ولم يكن قد رسم لنفسه طريقاً يسلكها أو غايةً ينتهي إليها، إنّما كان همُّه أن يفرَّ من هذه المدينة التي جرت فيها الدماء أنهاراً، وانتثرت فيها الأشلاء انتثاراً، وجنى فيها بعضُ الناس على بعضٍ هذه الجرائمَ والآثامَ. وكان حديث الآلهة قد ملأ نفسه دَهَشاً وعَجَباً. واضْطُرَّ إلى أن يسألَ نفسه من حين إلى حين: إلى أين ذهب الآلهة؟ وأيَّ طريق سلكوا، وفي أيّ مكانٍ من الأرض أو من السماء أقاموا قصورهم الخالدة؟ وكيف هان على زُوس[4]

(1) المنبثّة: المنتشرة.

(2) الروع: الخوف.

(3) جائر: حائد.

(4) Zeus: هو كبير الآلهة لدى اليونان القدماء.

أن يَدَعَ أولمب(١) وما كان فيه من حياة فيه الجدُّ الرائع والعبث اللذيذ ؟! وكيف هان على أبلون(٢) أن يترك معبده الخالد في « دلف »(٣) ؟ وكيف استطاعت أتينا(٤) أن تتعزّى عن الأكروبول(٥)؟ وأين يجد آريس(٦) مدناً تقتتلُ وتحتربُ كما كانت مدن اليونان تقتتل وتحترب؟ وكان يسأل نفسه عن سلطان هؤلاء الآلهة الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا لعدوان الإنسان على الإنسان، فضلاً عن أن يَمْحُوا هذا العدوان ويبطِشوا بالمعتدين. وكان يسأل نفسه عن هذا الدِّين الجديد الذي يؤثره أصحابه على الحياة ولذّتها وآلامها، وعن هذا الإله الجديد الذي أخذ يغزو العالَم اليونانيَّ الروماني، فيحبّب إلى أهله الألم والصبر والتضحية، ويُزهّد أهله في الثروة والغنى، ويزيّن في قلوبهم حبّ الفقر والإعدام، وينشّئهم تنشيئاً جديداً لا صلةَ بينه وبين ما أَلِف الناسُ منذ أنشدوا شعر هوميروس(٧)، وتغنوا شعر سافو(٨) وبندار(٩)، واستمتعوا بشعر سوفوكل(١٠) وأرستوفان(١١)، وتفكّروا في فلسفة سقراط وأرسطاليس. . . ، وكان يسأل نفسه وهو يمضي في طريقه لا يلوي

---

(١) جبل أولمب: هو مقرّ الآلهة لدى اليونان القدماء.

(٢) Apollo : اله النور والشفاء والموسيقى والشعر والنبوءة لدى اليونان القدماء.

(٣) Delphi : مدينة يونانية قديمة، وكانت مركزاً لنبوءة الاله ابولو.

(٤) Athene, Athena : إلاهة الحكمة والفنون والصنائع لدى اليونان القدماء ويقابلها لدى الرومان الالهة منرفا (Minerva).

(٥) Acropolis : قلعة أثينا.

(٦) Arius : قسيس مسيحي من الاسكندرية، توفي سنة ٣٣٦ ميلادية.

(٧) Homer : شاعر ملحمي يوناني، صاحب الالياذة والاوذيسة، كان في حدود القرن العاشر قبل الميلاد.

(٨) Sappho : شاعرة غنائية يونانية من جزيرة لسبوس (Lesbos)، عاشت في حدود سنة ٦٠٠ قبل الميلاد.

(٩) Pindar : شاعر غنائي يوناني، عاش بين سنتي ٥٢٢ و ٤٤٣ تقريباً قبل الميلاد.

(١٠) Sophocles : شاعر ومسرحي يوناني عاش بين ٤٩٦ و٤٠٥ تقريباً قبل الميلاد من اهم اعماله: انتيغوني وأوديب الملك واليكترا.

(١١) Aristophanes : شاعر ومسرحي يوناني، عاش بين سنتي ٤٤٨ و٣٨٥ تقريبا قبل الميلاد.

على شيء، والليلُ من حوله مُطبق قد غمر بظلمتة المخيفة كلَّ شيء: أماضٍ هو في أثر الآلهة الذين ارتحلوا ليلحق بهم ويقيم معهم، لأنّه لا يستطيعُ أن يعيش من دونهم، أم ساعٍ هو إلى دارِ هذا الإله الجديد لعلّه يلقى من كهّانه وقساوسته من يعلّمه أسرار دينه؛ فقد سئم حياةَ اليونان، وتمنى لو ظفر بلون من الحياة جديد؟! وكان الفتى يمضي، وكانت هذه الخواطر تزدحم على نفسه وتضطرب فيها؛ وكان الليل يمضي هو أيضاً في طريقه دون أن يتبيّن الفتى أكان سريعاً في سيره أم بطيئاً. وإنّه لكذلك يسير ويسير، ويفكّر ويفكّر، قد نسي نفسه ونسي الليل، وإذا هو يثوب إلى نفسه لحظةً فيقف ويرفع رأسه، وإذا الضوء قد غمره وغمر الأرض من حوله، وإذا هو ينظر أمامه فلا يرى إلّا سهلاً مُشْرقاً، وينظر وراءه فلا يرى إلّا سهلاً مشرقاً، وينظر من يمين وشمال فلا يرى إلّا سهلاً مشرقاً، وإذا هو لا يدري من أين جاء ولا إلى أين يريد، ينظر وراءه فلا يرى للعمران أثراً، وينظر من كلّ ناحية فلا يرى للعمران أثراً، قد انقطعت الصّلات والأسباب بينه وبين مدينته التي خرج منها أمس حين أظلم الليل، فكأنّه لم يعرف هذه المدينة ولم يعشْ فيها ولم يقاسمْ أهلها ما نعموا به من لذّات وما ابتأسوا به من آلام، وكأنّه لم يشهدْ فيها ما شهد، ولم يُنكر من أهلها ما أنكر، وكأنه شيء فذٌّ لا صلةَ بينه وبين شيء، وكأنّه شيء ضائع بين هذه الأرض التي لا حدّ لها، وهذه السماء التي لا حدّ لها، وهذا الضوء الذي يضطرب بينهما إلى غير حدّ. هنالك أحسّ الفتى راحةً لم يحُسها قطّ كأنّه قد ألقى عن نفسه أعباء الحياة كلّها، هذه الأعباء التي لا تختصر حياةَ الفرد وما لقي من شرٍّ وخير فحسب، وإنّما تختصر معها أيضاً حياة هذه الأجيال التي سبقته وأورثته الحضارة أثقالها. أحسّ الفتى راحة قلّما نستطيع نحن أن نتصورها، وأحس هدوءاً ونشاطاً قلّما نستطيع نحن أن نتذوّقهما، ووقف يستمتع بهذه الراحة ويستلذّ هذا النشاط، وحاول أن يدعوَ إليه تلك الخواطر التي كانت تزدحم على

نفسه في ظلمة الليل، فلم يستجبْ له منها خاطر واحد، كأنما طردها هذا الضوء المشرق مع ذلك الليل المظلم الكثيف.

ما أجمل هذا الشعورَ الذي امتلأت به نفس كيمون حين أحسّ أنّه قد خُلِقَ جديداً! لقد امتزجت نفسه الجديدة بهذا النور الجديد. ولقد نسي الآلهة الذين كان يمضي في أثرهم، ونسي الإله الجديد الذي كان يسعى ليعلم علمه. وماله ولهذا الإله الجديد ولأولئك الآلهة القدماء، وقد استيقن أنّه قد وجد في هذه الطبيعة المطلقة الحرّة، التي لا تُحصر ولا تُحَدّ آيةً أرشدته إلى إله ليس كما تعوّد أن يرى الآلهة؛ لا سبيل إلى أن يحصَرَ ولا إلى أن يُحَدَّ، ولا مطمع في أن يرقى إليه العقل، أو يتناوله الفكر بالدرس والبحث والتحليل. إنّما هو قوّة يُكبرها ولا يفهمها، يجُلّها ولا يُحيط بها، يشعر أنها تأخذه من كلّ مكان وتأخذ كلّ ما حوله.

مناقشات وتمرينات

١ – تتراوح هذه القطعة بين «بقع» مضيئة وأخرى مظلمة. أعدْ رسمها على هذا الأساس، وبيّن قدرة الكاتب على التركيز بين أجزاء هذه المراوحة.

٢ – عاود بناء القطعة مرّة اخرى على أساس سلسلة من المفاجأة والكشف.

٣ – ما معنى رحيل الآلهة في هذا النص؟

٤ – كيف يستخدم الكاتب عناصر: الجمال الانساني – القلق النفسي – الإيمان – الطبيعة، في خدمة غرضه في هذا التصوير؟

٥ – لقد اعطى المؤلف هنا درساً في الثقافة اليونانية موجزاً: اعمد إلى استخراج عناصره، وحاول تطويرها.

٦ – إلى أيّ حدّ استطاعت النبرة الموسيقية في هذه القطعة على جعلها «حلقات غنائية»: هل يصلح مثل هذا الأسلوب لمواقف إنسانية أخرى؟

-٦٢-

رغيف وإبريق ماء

لميخائيل نعيمة *

جاءني منذ أيّام شاب قدّرت له من العمر نحوَ الخمس والثلاثين، عربيُّ الاسم واللّسان، فرنجيُّ الزّيِّ والهندام، وسيمُ المُحَيَّا، ذابلُ الجفن، تائه البصر، خفيف الظلّ، عصبيّ الحركة، لطيف الصوت. وما إن حيّاني وجلس حتى بادرني بقوله:

«سمعت أنّك مؤمن، فجئت لآخذ عنك الإيمان».

قلت: ولكن المؤمنين في الأرض أكثُر من أن يحصرَهُمْ عدٌّ.. فلماذا اخترتني دون كلّ المؤمنين؟

قال: هكذا أُلهِمْتُ. أليس إلهك غيرَ آلهة الناس، وإيمانُك غير إيمانهم؟

قلت: أمّا أني مؤمن فصحيح، وأمّا أنّ إلهي غير آلهة الناس، وإيماني غير إيمانهم، فأمر ليس في مستطاعي نفيُهُ ولا إثباتُهُ. إذ إنني ما بلوتُ[1] آلهة الناس كلّهم ولا إيمانهم.

فأجابني بشيء من الحدّة: أمّا أنا فقد بلوتهم جميعَهم. فما وجدت بينهم إلهاً جديراً بإيماني. لذلك جئت أطلب إلهك وإيمانك.

(*) من كتاب «البيادر» (مؤسسة نوفل للطباعة، بيروت) ص ١٨٧-١٩٣.

(١) بلوت: اختبرت.

قلت وقد أدهشتني لهجة الشاب، وخامرتني ريبةٌ(١) خفيفةٌ في صحة عقله: ما دمتَ قد بلوت آلهة الناس كلّهم فأنت لا شكّ واسعُ الاطلاع وقد حصّلت من الدرس الشيءَ الكثير.

فأجابني بلهجة فيها التأفّف وفيها الاشمئزاز: درستُ كثيراً، ونقّبتُ كثيراً، وحفظت كثيراً. ولديّ لقبُ دكتور في الفلسفة، ودكتور في اللاهوت، ودكتور في الطب من جامعاتِ كَيْتَ وكَيْتَ وكَيْتَ. ولكنني من كل ما درستُ ونقّبت وحفظت ما حظيت بإله أؤمن به. ومتى كانت كثرة الدرس والتنقيب والحفظ سبيلاً إلى الله؟ ألا ليتني ما درست ولا نقّبت ولا حفظت.

قلت: يا للعجب! أأنفقت من عمرك ما أنفقت في الدرس وما هدتك المدرسة إلى المحور الذي تدور عليه – أو الذي يجب أن تدور عليه – حياتُك؟

قال: هدتني إلى محاورَ كثيرةٍ إلاّ ذلك المحور. لذلك جئتك طالباً أن تدلّني عليه. فأنا اليوم قُفل بغير مِفتاح. وبيت بغير باب. ومسافر بغير هدف.

وسكت محدّثي وأطرق طويلاً ثمّ استطرد فقال:

لي أخٌ أبلهُ يملك في ما يملك صندوقاً قديماً من الخشب المطوّق بالحديد. وهو يحرصُ على ذلك الصندوق حرصَه على حياته وأكثر. وقد خبّأه في قبو مظلم في البيت. ومرّاتٍ في كلّ يوم يُنير سراجاً وينحدر إلى القبو حيث يصرفُ ساعاتٍ في تفقد صندوقه ومحتوياته. أمّا مفتاح الصندوق فقد علقه بخيط حول عنقه.

وذات يوم، استفزّني تكتّم أخي المفرطُ في أمر صندوقه: فاجأته في القبو، وإذا به قد أخرج كلّ ما في الصندوق ونثره حواليه وراح

(١) خامرتني ريبة: داخلني شك.

يتفحّص كلّ قطعة تفحّص البخيل لدنانيره. ولكنّه ما إن شعر بوجودي حتى انتفض كالملسوع وأطفأ السراجَ في الحال وراح يصرخ بأعلى صوته: «اخرج من هنا. انقذف عنّي يا شيطان. ابتعد يا ملعون». إلاّ أنني بعد أخذٍ وردٍّ وجدال طويل، وتوسُّلات حارة، وأقسام ووعود، تمكنت من إقناعه بأنّني لا أريد سوءاً به وبصندوقه، فاستردّ رُوعَه ورضي بأن يُنير السراج من جديد وأن يسمح لي أن أسرّح بصري في محتوياته.

وماذا تظنّني رأيت؟ رأيت فيما رأيت نعلَ فرس، وقفلاً صدئاً بدون مفتاح، وقبقاباً، وقطعة حبل مهترىء، وَحَفْنةً من الأصداف الصغيرة، وخمسَ خرزات زرق، ومكّوكاً، وطُربوشاً قديماً بغير شَرّابة، وقبضةً من المسامير المختلفة الأشكال، ومطرقة خشب مكسورة، وجراباً فارغاً، وبوق فونوغراف محطّم، ومظلّة بلا غطاء، وعدداً من البَكرات المتفاوتة الحجم ولا خيطان عليها، وقلب نارجيلة معه نربيج ممزّق، وغيرَها من الأشياء التي على شاكلتها.

رأيت كلّ ذلك فما تمالكتُ من الابتسام، وسألتُ أخي عن قصده من جمعها وحفظها في ذلك الصندوق والتكتّم في أمرها إلى ذلك الحدّ.

فأجابني بلهجة الفيلسوف:

«ما دام الإنسان حيّاً على وجه هذه الأرض دام في حاجة إلى كلّ شيء على الأرض. ومن يدري، فقد تمرّ بي ظروف أحتاج فيها إلى هذه الأشياء كلّها».

فقلت له: ولكنّك قد تجاوزت الخمسين من عمرك وحتى اليوم ما احتجتَ إلى شيء منها. أتعرف ماذا ينقصك بعد يا أخي؟ قال: ماذا؟ قلت: رغيف وإبريق ماء. فقد تجوعُ يوماً أو تعطش فتنقذ حياتك بالرغيف والماء. أمّا هذه الأشياء كلّها فلا تسدّ جوعاً ولا تروي عطشاً.

فأجابني ببساطة متناهية: الحقُّ معك يا أخي. فلا بدّ من رغيف وإبريق ماء.

انتهى الشاب في حديثه إلى هذا الحدّ وتوقّف عن الكلام وأطرق من جديد. فما قطعتُ عليه سكوتَهُ إذ كنتُ أفكّر في حكايته عن أخيه الأبله وصندوقه وعن قصده من سردها لي.

ولكنّه ما طال أن عاد إلى الحديث فقال:

«تأمّلني ملياً[1] يا سيدي. تأمّل رأسي».

قلت: إنّه لرأس جميل.

قال: وصندوق أخي لجميل كذلك.

قلت: أتعني أن رأسك شبيه بصندوق أخيك؟ فأين وجه الشبه؟

قال: بل إنّ رأسي وصندوقَ أخي لَصنوان في كلّ شيء ما عدا الشكلَ والحجم. ففي رأسي، مثلما في صندوق أخي، نعال وقباقيب ومسامير وبكر وقلوب نارجيلات وألف صنف وصنف من الأشياء التي لا روابط بينها ولا تجانس، والتي لا نفع منها إلّا للنار. أما الرغيف المغذّي والماء المحيي فلا وجود لهما في صندوقي على الإطلاق. لذلك جئتك أطلب غذاء وريّاً.

قلت: أتلومني أم تلومُ الناسَ أم تلوم نفسك على ما أنت فيه؟

قال: لا ألومك ولا ألوم الناس بل ألـوم نفسي. ولكن إلى حدّ. فقد خدعتني هذه المدنية الزانية وابنتها المتبرّجة.

قلت: ومن هي ابنتها؟

قال: أما تعرف ابنةَ الزانية؟ أما تعرف المتبرّجة الكبرى؟ هي المدرسة يا سيّدي. أجل، هي المدرسة التي أبرزتها لنا أمّها الزانية في أبهى صورة وأروع جلباب، فزيّنتها لنا يَنبوعاً صافياً للحكمة الصافية، والمعرفة الحقّة، والحرّية الكاملة. تلك هي التي استغوتني فاستسلمتُ لها بكلّ قلبي وكلّ فكري وكلّ جسدي. فما كان منها إلّا أن خدّرتني بسحرها ثم راحت تحشو رأسي بكلّ شاردة وواردة نظيرَ ما يحشو أخي صندوقه. ففي رأسي من كلّ فنّ من فنونها خبرٌ بل أخبارٌ: فيه الأدب والفن وفيه اللاهوت وفيه الطبّ مع الكثير من التاريخ وأخبار النجوم وآثار الأرض، فيه كلُّ ذلك مموّهاً بالبهرجة والادّعاء والكبرياء. ولكن ليس فيه حكمة ولا معرفة ولا حريّة. ليس فيه خبز وماء: ليس فيه ما يجعل لكلّ تلك الأمور معنًى جميلاً وقيمة أبديّة؛ ليس فيه هدف لا تجرفه تيّارات النوائب، ولا تبتلعه لجج الثواني والساعات، ليس فيه إيمان وإله حريٌّ بالإيمان. لذلك جئتك طالباً حقّي. فأعطني إلهك وإيمانك.

قلت وعلى شفتيَّ بسمة فيها الشفقة وفيها الدهشة: إنّ طلبـك يا صاحبي لغريب في بابه. أتظنّ أنّ إلهي ساعةٌ في جيبي وإيماني خاتم في خِنصري لأقدّمها إليك؟

فانتفض انتفاضة عصبيّة وقال بحدّة فيها الغضب وفيها المرارة:

ما أنا بالأبله يا سيّدي، وإن يكن لي أخ أبله. إنني أعرف ماذا أطلب وأعرف أنّ في مستطاعك أن تعطيني ما أطلب. بي جوع إلى خبزك وظمأٌ إلى مائك. وبعدُ فاعلمْ أنّك إن رددتني خائباً انهار كلّ ما بنيته حتى اليوم وكانت حياتك كلّها خيبة هائلة، وكان إلهك شبحاً وإيمانك وهماً، وكنتَ أمكر الماكرين.

عندئذ وقعت في حَيْرة من أمره وأمري، فما عدت أعرف بماذا أجيبه وكيف أقنعه بأنّ الله يُحَسّ ولا يُعْطَى، والإيمان إشعاع لطيفٌ ينبثق من الحسّ بالله فيتغلغل في زوايا النفس ويغمرها بفيضٍ من السلام والطمأنينة. إلّا أنّه من غير أن ينتظر جوابي عاد إلى الكلام فقال:

لست بجاهلٍ أن هذا الصندوق (وأشار إلى رأسه) لا يتّسع الآن لرغيفك وإبريقك لكثرة ما فيه من غرائب الأمور. ولكن ارْفَعْ في

[1] ملياً: طويلاً.

الأقلّ يدَ ابنة الزانية عنه لينفكّ من سحرها، ويُتَاحَ لي تفريغُه من كلّ ما فيه من حشو خبيث.

قلت وقد انفتح لي باب فرج: أمّا يدها فسأرفعها عن رأسك بإذن الله، وأمّا تفريغ رأسك ممّا فيه من حشو خبيث فأمر منوطٌ بك دون سواك. فانطلق الآن بسلام. ومتى أفرغت «صندوقك» عد إليّ تجدْ رغيفي وإبريقي في انتظارك.

فنهض وقد سُرِّي عنه، وودّعني ببشاشة متناهية قائلا: سأعود قريباً إن شاء الله.

فردّدت كلماته «إن شاء الله». وما أزال في انتظار عودته حتى اليوم.

مناقشات وتمرينات

١ - حدّد الكاتب لرمز «الصندوق» معنىً واحداً. إلى أيّ شيء يمكن أن يرمز الصندوق أيضاً؟

٢ - اتخذ الكاتب رمز «الخبز والماء» للحاجة الروحية؛ لو كانت غاية الكاتب مختلفة عما تعمد إليه حكايته، فإلى ماذا يمكن أن يتّجه هذا الرمز؟

٣ - ما معنى حملة نعيمة على المدرسة؟ هل تجده محقاً في خلق التقابل بين حشو الرأس بالمعلومات وبين الإيمان؟ هل هناك تقابل أولى من هذا التقابل بالتأمل؟

٤ - هل تكفّل الكاتب بحلّ المشكلة التي أثارها؟

٥ - المدنيّة الأمّ والمدرسة ابنتها: هل ولدت تلك الأم بنات فاضلات؟ وهل ولدت من هنّ أشدّ تهتكا من المدرسة؟

٦ - لو لم يحصر كاتب المقالة اهتمامه بفكرة محورية (على خطأها وقصورها): هل كان في إمكانه أن يكتب مقاله؟

-٦٣-

دومة ودّ حامد

للطيّب صالح *

تقول من زرع الدومة؟

ما من أحد زرعها يابُنَيَّ. وهل الأرض التي نبتت فيها أرضٌ زراعية؟ ألم ترَ أنها حجريةٌ مسطّحةٌ مرتفعة ارتفاعاً بيّناً عن ضفّة النهر كأنها قاعدةُ تمثال، والنهرُ يتلوّى تحتها كأنّه ثعبانٌ مقدّس من آلهة المصريين القديمة؟ لا يا بني، ما من أحد زرعها. اشرب الشاي يا بنيّ، فأنت محتاج إليه... أغلب الظنّ أنها نمت وحدها. ولكن ما من أحدٍ يذكر أنّه رآها على غير حالتها التي رأيتَها عليها الآن. أبناؤنا فتحوا أعينهم فوجدوها تُشْرفُ على البلد. ونحن حين ترتدّ بنا ذكرياتُ الطفولة إلى الوراء، إلى ذلكَ الحدِّ الفاصِل الذي لا تذكر بعده شيئاً، نجد دومةً عملاقة تقفُ على شطّ في عقولنا، كلُّ ما بعده طلاسمُ فكأنها الحدُّ بين الليل والنهار. كأنها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر ولكنّه يسبقُ طلوع الفجر. أتراك يا بنيَّ تتابع ما أقول؟ هل تلمس هذا الشعور الذي أُحسُّه في ذهني ولا أقوى على التعبير عنه؟ كلُّ جيل يجيء يجدُ الدومةَ كأنّما وُلِدَتْ مع مولده ونَمَتْ معه. اجلسِ إلى أهل هذا البلد واستمع إليهم يقصّون أحلامهم. يصحو الرجلُ

(*) من مجموعة له بهذا الاسم (دار العودة، بيروت، ١٩٦٩) ص ٣٨-٥٢.

من نومه فيقصُّ على جاره أنه رأى نفسَه في أرض رمليَّة واسعة رملُها أبيضُ كَلُجَيْن الفضَّة. مشى فيها فكانت رجلاه تغوصان فيقتلعهما بصعوبة. ومشى ومشى حتى لحقه الظمأ وبلغ منه الجوع، والرملُ لا ينتهي عند حدّ. ثمَّ صعد تلاً، فلما بلغ قمَّته رأى غابةً كَثَّةً من الدوم في وسطها دومة - دومة طويلة، بقيَّة الدوم بالنسبة إليها كقطيع الماعز بينهنَّ بعير. وانحدر الرجل من التلّ وبعدها وجد كأنَّ الأرض تُطوى له. فما هي إلا خطوةٌ وخطوة وخطوة، حتى وجد نفسه تحت دومة ودّ حامد. ووجد إناء فيه لبن رغوته معقودة عليه كأنَّه حُلِبَ لساعته، فشرب منه حتى ارتوى ولم ينقصْ منه شيء. فيقول له جاره: «أبشر بالفرج بعد الشدَّة».

وتسمع المرأةَ منهنَّ تحكي لصاحبتها: كأنَّني في مركب سائر في مضيق البحر، فإذا مددتُ يدي مسستُ الشاطىء من كلا الجانبين. وكنت أرى نفسي على قمَّةِ موجةٍ هوجاء تحملني حتى أكاد أمسُّ السحابَ، ثمَّ تهوي بي في قاعٍ سحيق مظلم. فخفتُ وأخذتُ أصرخ وكأنَّ صوتي قد انحبس في حلقي. وفجأةً وجدت مجرى الماء يتسع قليلاً. ونظرت فإذا على الشاطئَين شجرٌ أسودُ خالٍ من الورق له شوكٌ ذو رؤوس كأنها رؤوس الصقور. ورأيت الشاطئَين ينسدَّان عليَّ وهذا الشجرُ كأنَّه يمشي نحوي، فتملَّكني الذعرُ وصحت بأعلى صوتي: «يا ودّ حامد». ونظرت فإذا رجلٍ صبوح الوجه له لحية بيضاء غزيرة قد غطَّتْ صدره، رداؤه أبيضُ ناصع، وفي يده سبحة من الكهرمان. فوضع يده على جبهتي وقال: «لا تخافي». فهدأ روعي. ونظرت فإذا الشاطىء يتَّسع والماء يسيلُ هادئاً، ونظرت إلى يميني فإذا حقولُ قمحٍ ناضجة، وسواقٍ[1] دائرة، وبقر يرعى. ورأيت على الشاطىء دومة ودِّ حامد. ووقف القارب تحت الدومة، وخرج منه

(١) السواقي: جمع ساقية وهي كالناعورة.

الرجل قبلي، فربط القارب ومدَّ يده فأخرجني. ثمَّ ضربني برفقٍ بسبحته على كتفي، والتقط من الأرض دومةً وضعها في يدي. والتفت فلم أجده. وتقول لها صاحبتها: «هذا ودّ حامد.. تمرضين مرضاً تُشْرفين منه على الموت. لكنَّك تَشْفين منه. تلزمك الكرامة[1] لودَ حامَد، تحت الدومة».

وهكذا يا بنيَّ. ما من رجل أو امرأة، طفلٍ أو شيخ، يحلم في ليلة إلاّ ويرى دومة ودّ حامد في موضع ما من حلمه.

تسألني لم سميّت بدومة ودّ حامد؟ صبراً يا بنيَّ... هاك كوباً آخرَ من الشاي.

في أول العهد الوطني جاءنا موظّف في الحكومة، وقال لنا إن الحكومة تنوي أن تنشيء لنا محطّةً تقفُ عندها الباخرة. وقال لنا إنّ الحكومة الوطنية تحبّ أن تساعدنا وتطوّرنا، وكان متحمّساً يتحدّث ووجهه متهلّل. ونظر فإذا الوجوه التي حوله لا تستجيب لشيء ممّا يقول. نحن يا بنيَّ لا نسافر كثيراً، ولكنّنا إذا أردنا السفر لأمر مهمّ - كتسجيل أرض أو النظر في قضية طلاق - فإنّنا نركب حميرنا ضحىً كاملاً، ثمّ نأخذ الباخرةَ من المحطّة في البلدة المجاورة. لقد اعتدنا يا بنيَّ على ذلك، بل نحن من أجل هذا نربّي الحمير. فلا غرو أن الموظف لم يرَ على وجوه القوم ما يدلّ على أنهم سعدوا للنبأ. وفتر حماسُ الموظف وأسقط في يديه وتلعثم في كلامه. وبعد فترة من الصمت سأله أحدهم: «أين تكون المحطة»؟ وقال الموظف إنه لا يوجد غيرُ مكان واحد يصلح محطةً - عند الدومة. ولو أنك في تلك اللحظة جئت بامرأة وأوقفتها عارية كما ولدتها أمها وسط أولئك الرجال، لما أثرت دهشتهم أكثر مما فعلتْ تلك الجملة. وسارع أحدهم فقال للموظف: «الباخرة تمرُّ عادة هنا يوم الأربعاء. فإذا

(١) الكرامة: التقدمة كالضحية أو ما أشبه.

عملتم محطةً هنا فإنها ستقف عندنا عصر الأربعاء». فقال الموظف إنّ الموعد الذي سيحدَّدُ لوقوف الباخرة في محطّتهم سيكون في الرابعة بعد الظهر من يوم الأربعاء. فرد عليه الرجل: «لكن هذا هو الوقت الذي نزور فيه ضريح ودّ حامد عند الدومة، ونأخذ نساءنا وأطفالنا، ونذبح نذورنا - نفعل ذلك كل أسبوع». فردَّ الموظف ضاحكا: «إذاً غيّروا يوم الزيارة». ولو أنّ ذلك الموظف قال لأولئك الرجال في تلك اللحظة إن كلاًّ منهم ابن حرام، لما أغضبهم كما أغضبتهم عبارته تلك. فهبّوا لتوّهم هبّة رجل واحد، وعصفوا بالرجل وكادوا يفتكون به، لولا أني تدخلت فانتزعته من براثنهم، وأركبته حماراً وقلت له انجُ بنفسك. وهكذا ظلَّتِ الباخرةُ لا تقف عندنا. وما نزال إذا حزبنا[1] الأمر وأردنا السفر، نركب حميرنا ضحىً كاملاً ونأخذ الباخرة من البلدة المجاورة، لكن حَسْبُنَا أننا نزورُ ضريحَ ودّ حامد ومعنا نساؤنا وأطفالنا، نذبح نذورنا كلّ يوم أربعاء، كما فعل آباؤنا وآباء آبائنا من قبلنا.

امهلني يا بنيَّ ريثما أصلي صلاة المغرب... يقولون إنّ المغرب غريب، إذا لم تدركه في وقته فاتك... «عباد الله الصالحين... أشهد ألاّ إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله... السلام عليكم ورحمة الله... السلام عليكم ورحمة الله».

وي. وي. هذا الظهر يُوجعني منذ أسبوع. ماذا تظنّه يا بنيَّ؟ ولكنّي أعرف أنّه الكبر... ألا ليت الشباب... كنت في شبابي آكل نصف الخروف في إفطاري، وأتعشّى بلبن خمس بقرات، وأرفع كيسَ التمر بيد واحدة. وكذّابٌ من قال إنّه صارعني فصرعني. كانوا يسمّونني «التمساح». مرّة عمت في النيل أدفع بصدري مركباً موسوقة[2] قمحاً إلى الشاطىء الآخر... ليلاً. وكان على الشاطىء

(١) حَزَبَنا أمر: نزل بنا أو أصابنا.

(٢) موسوقة: معبأة.

الآخر رجال على سواقيهم. فلما رأوني أدفع المركب نحوهم ألقوا ثيابهم وفزعوا وفروا. فناديتهم: «يا قوم ما لكم قبّحكم الله؟ ألا تعرفونني؟ أنا التمساح. أنتم والله الشياطينَ تخافُ من خلقتكم القبيحة».

هل قلتَ لي يا بنيَّ ماذا نفعلُ حين نمرض؟

إنّني أضحك لأنني أعلم ما يدور في رأسك... أنتم من البنادر[1] تسارعون إلى المستشفيات لأدنى سبب. إذا جُرحَ إصبعُ الواحدِ منكم هُرع به إلى «الحكيم»، فلفّه في عصابة وعلّقه على رقبته أيّاماً، وهو مع هذا لا يطيب[2]. مرّة كنت أعمل في حقلي فعضّ شيء إصبعي، هذا الإصبع الخنصر. فانتصبتُ قائماً وتلفّتُّ أبحث عن العشب. فإذا ثعبان لابدّ. أحلف لك إنّه في طول ذراعي هذا. فمسكته من رأسه وسحقته بين إصبعي. ثمّ عضضت إصبعي الملدوغ ومصصت منه الدم، وأخذت حَفْنَةً من التراب فدلّكته بها!

بيد أن مثلَ هذا أمرٌ طفيف. ماذا نفعل في الملمّات؟

جارتنا هذه... ذات مرّة تورّم حلقها فأقعدها طريحةَ الفراش شهرين. وذات ليلة تكاثرت عليها الحمّى، فنهضتْ من فراشها سَحَرًا وتحاملت على نفسها حتى أتت... أجل يا بني... أتت دومة ود حامد. وتروي المرأة ما حدث فتقول: وقفتُ تحت الدومة وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف. وناديتُ بأعلى صوتي: «يا ودّ حامد - جئتك مستجيرةً وبك لائذة.. سأرقد هنا عند ضريحك، وتحت دومتك، فإما أمتّني وإمّا أحييتني. ولن أبْرَحَ مكاني هذا إلاّ على إحدى الحالتين». وتستمرّ المرأة في قصّتها فتقول: وتقلّصت على نفسي وأنا أستشعر الخوف، وسرعان ما أخذتني النومة. وبينما أنا بين النائمة واليَقِظَة، إذا أصواتٌ تُرتّل القرآن، وإذا نورٌ حادّ كأنّه شَفرةُ السكّين قد سطع حتى

(١) البنادر: جمع بندر ويعني بها المدينة.

(٢) لا يطيب: لا يشفى.

عقد بين الشاطئين، فرأيت الدومة وقد خرّت ساجدة. وهلع قلبي ووجب[١] وجيباً حتّى ظننته سيخرج من فمي. ورأيت شيخاً مَهيباً أبيض اللحية ناصع الرداء، يتقدّم نحوي وعلى وجهه ابتسامة. وضربني بسبحته على رأسي وانتهرني قائلاً: «قومي». وقسمًا إنني قمت وما أدري أنني قمت، وجئت إلى بيتي ولا أعلم كيف جئت. ووصلت عند الفجر، فأيقظت زوجي وولدي وبناتي وقلت لزوجي أوقد النار وضع عليها وعاء الشاي. وقلت لبناتي زغردن. فانكبّت علينا البلد. وقَسَماً ما خفت بعدها ولا مرضت بعدها.

نعم يا بنيّ، نحن قوم لا نعرف دروبَ المستشفيات: في الأمور الصغيرة، كلدغات العقارب والحمى والفكّ والكسر، نلزم الأسِرّة حتى نشفى. وفي المعضلات نذهب إلى الدومة.

هل أقصّ عليك يا بني قصة ودّ حامد؟ أم أنك تريد أن تنام؟ أهلُ البندر لا ينامون إلا في أُخْرَيَاتِ الليل - وذلك أعلمه عنهم. أما نحن فننام حين يسكن الطير، ويمتنع الذبابُ عن مشاكسة البقر، وتستقرُّ أوراق الشجر على حال واحد، وتضمّ الدجاج أجنحتها على صغارها، وترقد الماعز على جنوبها تجترّ ما جمعته في يومها من علف. نحن وحيواناتنا سواء بسواء نصحو حين تصحو وننام حين تنام، وأنفاسنا جميعاً تتصاعد بتدبير واحد.

حدّثني أبي نقلا عن جدي قال: كان ود حامد في الزمن السالف مملوكاً لرجل فاسق، وكان من أولياء الله الصالحين، يتكتّم إيمانَه ولا يجرؤ على الصلاة جهاراً حتى لا يفتكَ به سيّدُه الفاسق. ولمّا ضاق ذرعاً بحياته مع ذلك الكافر، دعا الله أن ينقذه منه. فهتف به هاتفٌ أن افْرِشْ مصلاّتَكَ على الماء، فاذا وقفتْ بك على الشاطىء فانزل. وقفت به المصلاة عند موضع الدومة الآن، وكان مكاناً خراباً. فأقام

(١) وجب: خفق.

الرجل وحده يصلّي نهارَه، فإذا جاء الليل أتاه امرؤ ما بِصِحَاف الطعام، فيأكل ويواصل العبادة حتى يطلع عليه الفجر. كان هذا قبل أن يعمر البلد. وكأنّما هذه البلدة بأهلها وسواقيها وعمارها قد انشقت عنها الأرض. كذّاب من يقول لك إنّه يعرف تاريخ نشأتها. البلاد الأخرى تبدأ صغيرة ثم تكبر. ولكنّ بلدنا هذا قام دفعة واحدة. أهله لا يزيد عددهم ولا ينقص، وهيأته لا تتغير. ومنذ كانت بلدتنا، كانت دومة ود حامد. إنّ أحداً لا يذكر كيف قامت ونمت، كذلك لا يذكر أحد كيف نمت الدومة في أرض حجرية ترتفع على الشاطىء، وتقوم فوقه كالديدبان[١].

حين أخذتك لزيارتها، هل تذكر يا بنيّ السورَ الحديديَّ حولها وهل تذكر اللوحَ الرخامي القائم على نُصْبٍ من الحجر، وقد كتب عليه «دومة ود حامد»؟ وهل تذكر القبّة ذاتَ الأهلّة المُذْهَبَة فوق الضريح؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي جَدَّ على بلدنا منذ أن أنبتها الله. وقصة ذلك كلّه أقصّها عليك الآن.

حين ترحل عنّا غداً - وأنت لا شكّ راحل: متورّمَ الوجه، متوهّجَ العينين - فأحرى بك يا بني ألاّ تلعننا، بل ظُنَّ بنا خيراً وفكّر فيما قصصته عليك الليلة، فلعلّك واجدٌ أن زيارتك لنا لم تكن شرّاً كلّها.

أنت تذكر أنه كان لنا قبل أعوام نوّاب وأحزاب، وضوضاء كبيرة ما كنّا نعرف أولها من آخرها. كانت الدروبُ تسوقُ إلينا أحياناً غرباء تُلقيهم على أبوابنا، كما يُلقي موجُ البحر بالحشائش الغريبة. ما منهم أحدٌ زاد على ليلة واحدة عندنا: ولكنهم كانوا ينقلون إلينا أنباء الضجة الكبيرة في العاصمة. حدّثونا يومها أن الحكومة التي طردت الاستعمار قد استبدلت بحكومة أخرى أكثر ضجةً ونواباً. وكنا

(١) الدَّيْدَبَان: الحارس.

نسألهم: «من الذي غيّرها؟» فلا يردّون علينا جواباً، ونحن منذ أبَينا أن تقوم المحطة عند الدومة، لم يعد يعكّر علينا صفونَا أحد. وانقضى عامان ونحن لا نعرف شكل الحكومة، سوداء هي أو بيضاء، ورسلها يمرّون ببلدنا ولا يقفون فيه، ونحن نحمد الله أنه كفانا مؤونة استقبالهم. حتى كان قبل أربعة أعوام، حين حلّتْ حكومةٌ جديدةٌ محلَّ الحكومة الأولى - وكأن هذه السلطة الجديدة شاءت أن تُشعرنا بوجودها. صحونا ذاتَ يومٍ فإذا موظّف ذو قبّعة ضخمة ورأس صغير ومعه جنديان، وهم عند الدومة يقيسون ويحسبون. سألناهم ما الخبر، فقالوا إنّ الحكومة تريد أن تبني محطة تقف عندها الباخرة تحت الدومة. قلنا لهم: «ولكننا رددنا عليكم ذلك من قبل، فلماذا تظنّون أننا سنقبله اليوم؟» قالوا: «الحكومة التي سكتت عنكم كانت حكومةً ضعيفة، ولكن الحالَ قد تغير الآن». ولا أطيل عليك فقد أخذنا بنواصيهم وألقيناهم في الماء وانصرفنا إلى أعمالنا. وما هو إلّا أسبوع حتى أتتنا كوكبة[1] من الجند، وعلى رأسهم ذلك الموظف الصغير الرأس ذو القبعة الكبيرة فنادى بهم أن خذوا هذا وخذوا هذا، وخذوا هذا، حتى أخذوا عشرين رجلاً منّا كنتُ أنا بينهم. وحملونا إلى السجن. ومضى علينا شهر. وذات يوم جاء الجند أنفسهم الذين سجنونا ففتحوا علينا الأبواب. وسألناهم ما الخبر. فلم يكلّمنا أحد. ولكنّنا وجدنا حشداً كبيراً خارج السجن - أول ما رأونا هتفوا ونادَوا وعانقَنا أناسٌ نظيفو الثياب، تلمع على معاصمهم ساعاتٌ مذهبة وتفوحُ نواصيهم برائحة العطر. وحملونا في موكب كبير إلى أن أتينا أهلنا، فوجدنا خلقاً كبيراً لا أوّل له ولا آخر، وعرباتٍ واقفة وخيولاً وجمالاً. وقال بعضنا لبعض: «إن ضوضاء العاصمة قد وصلت عندنا». وأوقفونا نحن الرجالَ العشرين صفّاً يمرُّ علينا الناسُ يصافحون أيدينا... رئيس الوزراء... رئيس مجلس النواب...

(1) كوكبة: مجموعة.

رئيس مجلس الشيوخ... نائب دائرة كذا. نائب دائرة كذا... ونظر بعضنا إلى بعض دون أن نفهم ما يدور حولنا، إلّا أن سواعدنا كلّت من طول ما صافحتْ من أولئك الرؤساء والنواب، ثم أخذونا في حشد عظيم إلى حيث الدومة والضريح. ووضع رئيسُ الوزراء الحجرَ الأساسي للنصب الذي رأيتَه، والقبة التي رأيتها، والسور الذي رأيته. وكما يهبُّ الإعصار برهة ثم يذهب، اختفى ذلك الحشدُ كما جاء فلم يبتْ ليلةً عندنا... وأحسبه ذباب البقر، فقد كان عامها سميناً بدينا يطنّ ويزنّ...

وقد روى لنا أحد هؤلاء الغرباء الذي تلقيهم الدروب عندنا قصّة تلك الضجة فيما بعد فقال: لم يكن الناسُ راضين عن تلك الحكومة منذ أن جاءت، وهم يعلمون أنها لم تأتِ إلّا بشراء عدد من النواب. وظلّوا يتربّصون لها الفرص. كانت المعارضةُ تبحث عن شرارةٍ توقد بها النار. فلما حدث حادثُ الدومة معكم وأخذوكم فألقوا بكم في السجن، نشرت الصحفُ النبأ، وخطب رئيسُ الحكومة المُقَالة في البرلمان خطبةً ناريّة قال فيها: «لقد بلغ طغيان هذه الحكومة أنها أصبحت تَتدخّل في معتقدات الناس، في أقدس الأشياء المقدسة عندهم». ووقف الخطيب وقفةً ذاتَ أثر، ثم قال وصوته يتهدّج بالعاطفة: «اسألوا رئيس وزرائنا الموقّر عن دومة ود حامد. اسألوه كيف أباح لنفسه أن يرسل جنده وأعوانه فيدنّسوا ذلك المكان الطاهر المقدس؟» وحمل الناسُ الصيحةَ، واستجابت أفئدةُ الناس في سائر القطر لحادث الدومة كما لم تستجب لحادث من قبل. لعلَّ السبب أن في كلّ بلدٍ من بلدان هذا القطر عَلَمًا كدومة ود حامد، يراه الناس في أحلامهم. وبعد شهر من الضوضاء والصراخ والشعور الملتهب، اضطُرَّ خمسون من نواب الحكومة أن يسحبوا تأييدهم منها. فقد أنذرتهم دوائرهم أنهم إما أن يعلنوا ذلك، وإلّا فهذه الدوائر التي انتخبتهم تنفض أيديها منهم. وهكذا سقطت الحكومة وعادت الحكومة

الأولى إلى الحكم، وكتبت الصحيفة الأولى في القطر تقول: «إن دومة ود حامد أصبحت رمزاً ليقظة الشعب».

ومن يومها ونحن لا نحسّ للحكومة الجديدة وجوداً. من يومها لم يزرنا أحد من القوم الكبار العمالقة الذين زارونا. وحمدنا الله أنه كفانا مشقة مصافحتهم. عادت حياتنا إلى سيرتها الأولى، لا مَكنَةَ ماء، ولا مشروع زراعة، ولا محطةَ باخرة. وبقيتْ لنا دومتنا تلقي ظلّها على الشاطىء القِبْلي عصراً، ويمتد ظلّها وقتَ الضحى فوق الحقول والبيوت حتى يصل إلى المقبرة. والنهر يجري تحتها كأنه أفعى مقدسة من أفاعي الأساطير. بيد أن بلدنا قد زاد نصباً رخامياً وسوراً حديدياً وقبة ذات أهِلَّة مذهبة.

ولما فرغ الرجل من كلامه، نظر إليّ وعلى وجهه ابتسامة غامضة ترفرف على جانبي فمه كضوء المصباح الخافت. فقلت له: «ومتى تقيمون طلمبة الماء والمشروع الزراعيَّ ومحطةَ الباخرة؟» فأطرق برهة ثم أجابني: «حين ينام الناس فلا يرون الدومة في أحلامهم». قلت له: «ومتى يكون هذا؟» فقال: «ذكرت لك أن ابني في البندر يدرس في مدرسة. إنني لم أُلحِقْهُ بها. ولكنه هرب. سعى إليها بنفسه. إنني أدعو أن يبقى حيث هو فلا يعود. حين يتخرّج ابن ابني من المدرسة ويكثر بيننا الفتيان الغرباء الروح، فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي... لعلّ الباخرة حينئذ تقف عندنا... تحت دومة ود حامد».

فقلت له: «وهل تظن أن الدومة ستقطع يوماً؟» فنظر إلي مليًّا، وكأنه يريد أن ينقل إليّ خلالَ عينيه المتعبتين الباهتتين ما لا تقوى على نقله الكلمات: «لن تكون ثمة ضرورةٌ لقطع الدومة. ليس ثمة داع لإزالة الضريح. الأمر الذي فات على هؤلاء الناس جميعا أن المكان يتسع لكلِّ هذه الأشياء - يتسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة الباخرة». وبعد أن صمت برهة نظر إليّ نظرة

لا أدري كيف أصفها، ولكنها أثارت في نفسي شعوراً بالحزن - الحزنِ على أمر مبهم لم أستطع تحديدَهُ. ثم قال: «أنت لا شكَّ راحل عنا غداً. فإذا وصلتَ إلى حيثُ تقصد، فاذكرنا بالخير ولا تقسُ في حكمك علينا».

مناقشات وتمرينات

١ - يلاحظ أن عنصر الحوار غير أساسي في القصة. ما البديل - أو البدائل - التي استعملها الكاتب بالنيابة عنه لتخفيف الوتيرة الواحدة في السّرد؟

٢ - ما قيمة إدخال العنصر السياسي في القصة؟

٣ - «هل تظن أن الدومة ستقطع قريباً؟» هل تعتقد أن هذا السؤال كان ضرورياً؟

٤ - هل كانت الحاجة ماسّة في القصة إلى تصوير شقاء القرويين وما يعانونه؟ ولماذا؟

٥ - أقم مقارنة بين هذه القصة هنا وما قرأته من قصة «قنديل أم هاشم».

٦ - «إن في كل بلد من بلدان هذا القطر علمًا كدومة ود حامد يراه الناس في أحلامهم». علّق على هذه العبارة.

-٤-

أفق الفن

-٦٤-

علاقة الشعر بالصدق والكذب
لحازم القرطاجَنّي *

١ - إضاءة: للشعر مواطنُ لا يصلح فيها إلّا استعمالُ الأقاويلِ الصادقةِ، ومواطن لا يصلح فيها إلّا استعمال الأقاويل الكاذبة، ومواطن يصلح فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال الصادقة أكثر وأحسن، ومواطن يحسن فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال الكاذبة أكثر وأحسن، ومواطن تستعمل فيها كلتاهما من غير ترجّح. فهي خمسة مواطن، لكلّ مقام منها مقال.

وقد بَيَّنَ أبو علي ابن سينا كونَ التخييلِ لا يناقضُ اليقينَ، وكون القول الصادق في مواطنَ كثيرةٍ أنجحَ منَ الكاذب. فقال: «والمخيّل هو الكلام الذي تُذْعِنُ له النفس فتنبسط لأمور أو تنقبض عن أمور من غير رويّة وفكر واختيار. وبالجملة تنفعل له انفعالاً نفسانياً غير فكريّ، سواء كان المقول مُصدَّقاً به أو غير مصدّق به. فإنّ كونه مصدّقاً به غير كونه مُخيَّلاً أو غير مخيّل. فإنّه قد يُصَدَّق بقول من الأقوال ولا يُنْفَعَلُ عنه؛ فإن قيل مرّة أخرى أو على هيئة أخرى، انفعلت النفس عنه طاعةً للتخيُّل لا للتصديق...» وقد قال أبو نصر[1]

(*) من كتاب: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» (تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، ١٩٦٦) ص ٨٥-٨٨.

(١) أبو نصر: هو الفارابي الفيلسوف.

في كتاب الشعر: «الغرضِ المقصود بالأقاويل المُخَيِّلَةِ أن ينهض السامع نحو فعل الشيء الذي خُيِّلَ له فيه أمرٌ ما من طلب له أو هرب عنه». ثمّ قال: «سواء صدّق بما يخيّل إليه من ذلك أم لا، كان الأمر في الحقيقة على ما خيّل له أو لم يكن».

فأنت ترى هذين الرجلين كيف جعلا التخييل قد يكون بما هو حقيقةٌ في الشيء، وقد يكون بما لا حقيقةَ له.

٢ - تنوير: وإنّما غلط في هذا - فظنَّ أنّ الأقاويلَ الشعرية لا تكون إلّا كاذبة - قومٌ من المتكلّمين لم يكن لهم علم بالشعر، لا من جهة مزاولته ولا من جهة الطرق الموصلة إلى معرفته. ولا مُعَرَّج على ما يقوله في الشيء من لا يعرفه، ولا التفات إلى رأيه فيه، فإنّما يُطْلَب الشيء من أهله. وإنّما يُقبَل رأيُ المرء فيما يعرفه. وليس هذا جرحة[1] للمتكلّمين ولا قدْحاً في صناعتهم، فإنّ تكليفهم أن يعلموا من طريقتهم ما ليس منها شَطَط[2]. والذي يورّطهم في هذا أنهم يحتاجون إلى الكلام في إعجاز القرآن، فيحتاجون إلى معرفة ماهيّة الفصاحة والبلاغة من غير أن يتقدَّم لهم علمٌ بذلك، فيفزعون إلى مطالعة ما تيسّر لهم من كتب هذه الصناعة. فإذا فرّق أحدهم بين التجنيس والترديد، ومَازَ الاستعارة من الإرداف، ظَنَّ أنّه قد حصّل على شيء من هذا العلم، فأخذ يتكلّم في الفصاحة بما هو محضُ الجهل بها. ومَثَلُهم في هذا مَثَلُ رجلٍ شاهدتُ له هذه القصّة التي أذكرها بمرسية[3]، وذلك أنّه مرض له صاحبٌ كان يعزّ عليه ويرى في حياته حياتَه، ولم يكن له علم بالطبّ ولا تَقَدَّمَ أن نَظَرَ فيه. ففزع في الحين إلى استعارة كتب الطبّ والنظر فيها ليعالج صاحبَه المريض. فانسلخت عنه ليلةٌ وهو يتعاطى في غدها من المعالجة الطبّية ما لم يكن

(١) جرحة: طعن.

(٢) الشطط: الخروج عن الحدّ.

(٣) Murcia : مدينة في شرق الأندلس.

يتعاطاه في أمسه، إذ كان قد ظنّ أنّه قد اكتسب معرفةَ صناعةِ الطب من ليلته. ثمّ شرع من صبيحته في معالجة صاحبه المريض، فقضى عليه في اليوم الثاني بثريدةٍ أطعمها إيّاه رأى أنها تصلح لـــه.

فكما أنّ هذا الرجل أصبح جالينوسَ[1] من ليلته كذلك يريد المتكلّم في الفصاحة من المتكلّمين أن يصبح من ليلته جاحظاً وقُدَامةَ[2] إن شاء.

وإنّ كلامَ المرءِ ما لم تَكُنْ له حصاةٌ على عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ[3]

٣ - إضاءة: وكيف يظنُّ إنسان أنّ صناعةَ البلاغة يتأتّى تحصيلُها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحدٌ إلى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها! وإنّما يبلغ الإنسان منها ما في قوّته أن يبلغه. ألا ترى أنّ كثيراً من العلوم قد نفذ فيها قومٌ في أزمنة لا تستغرق إلّا جزءاً يسيراً من العمر؟! وهذا أبو الطيّب المتنبّي، وهو إمامٌ في الشعر، لم يستقمْ شعره إلّا من مزاولة الصناعة عشرين سنة، ثمّ زاولها بعد ذلك زمناً طويلاً، وتوفي وهو يصيب فيها ويخطىء. وهذا ليس مختصّاً به وحدَه، بل كلُّ إمامٍ ناظم أو ناثر هذه غايته، إذ كانت هذه الصناعة تتشعّب وجوهُ النظر فيها إلى ما لا يُحْصى كثرةً. فقلّما يتأتّى تحصيلها بأسرها والعلمُ بجميع قوانينها لذلك. وسائرها من العلوم ممكنٌ أن يتحصّل كلُّه أو جُلّه. وليس هذا تفضيلاً لصناعة البلاغة على غيرها من العلوم، إذ ليس يلزم إذا كان علمٌ أشدَّ تشعّباً من علم آخر ان يكون أفضل منه، بل المفاضلةُ بين العلوم من جهات أخر. وعلى ما ذكرته، فلو قدّرنا أن إنساناً ذكيّاً ينظر في علم من العلوم شهراً أو عاماً لتحصّلت له من ذلك العلم مسائلُ محقّقة، ولا يحصل له في هذا القدر من الزمان من هذه الصناعة شيء يعتدّ به، إذ

(١) جالينوس (Galen) طبيب يوناني مشهور.

(٢) قدامة بن جعفر: ناقد كبير من مؤلفاته كتاب «نقد الشعر».

(٣) الحصَاة: الرزانة والعقل، العورات: العيوب.

أكثر ما يُسْتَحْسَنُ ويُستقْبَح في علم البلاغة له اعتبارات شتى بحسب المواضع. فقد يحسن في موضع ما يقبح في موضع، ويقبح في موضع ما يحسن في موضع، ولا يقف الإنسان على تلك المواضع إلّا بطول المزاولة. ولا يُشرفُ الإنسانُ على جُمَلٍ من تلك المواضع يمكنه أن يستنبط بها أحكام ما سواها إلّا بكثرة الفحص والتنقيب عما يجبُ اعتماده في جميع أحوال الصناعة من إيثار ما يجب أن يُؤْثر وترجيح ما يجب أن يُرجَّح بالنظر إلى الشيء في نفسه أو النظر إلى ما يقترن به أو إلى ما هو خارج عن ذلك.

مناقشات وتمرينات

١ - أعد قراءة ما قاله ابن سينا بدقّة: اشرحه وبيّن إن كان يصلح أن يكون قاعدة عامّة للفنون.

٢ - لماذا تورّط المتكلّمون - في رأي حازم - فظنّوا أنّ الأقاويل الشعريّة لا تكون إلّا كاذبة؟

٣ - ما الفرق بين العلم والشعر، حسبما يرى حازم؟ ما الفروق الأخرى بينهما مما لم يذكره؟

٤ - هل تعتقد أنّ قضيّة الصدق والكذب - في مجال الفن - ما تزال مطروحة حتى اليوم؟ ولماذا؟ (هل هي قائمة على اعتبار أخلاقي؟)

-٦٥-

مستقبل اللغة العربية

لجبران خليل جبران *

١ - ما هو مستقبل اللغة العربية؟

إنّما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة، أو ذاتها العامة، فإذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والاندثار.

إذاً فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن - أو غير الكائن - في مجموع الأمم التي تتكلم اللغة العربية. فإن كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيمًا كماضيها، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية.

وما هذه القوة التي ندعوها بقوة الابتكار؟

هي في الأمة عزم دافع إلى الأمام. هي في قلبها جوع وعطش وشوق إلى غير المعروف، وفي روحها سلسلة أحلام تسعى إلى تحقيقها ليلاً ونهاراً ولكنها لا تحقق حلقة من أحد طرفيها إلّا أضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر. هي في الأفراد النبوغ وفي الجماعة

(*) من المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران (دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٩) ص ٥٤٤-٥٥٢.

الحماسة، وما النبوغ في الأفراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفية في أشكال ظاهرة محسوسة.

ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لأن العرب كانوا في حالة التأهب. وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النمو والتمدد. وكان يتشعب أيام المولدين لأن الأمة الاسلامية كانت في حالة التشعب. وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلوّن فيظهر آناً كفيلسوف، وآونة كطبيب، وأخرى كفلكي، حتى راود النعاس قوة الابتكار في اللغة العربية فنامت، وبنومها تحول الشعراء إلى ناظمين والفلاسفة إلى كلاميين والأطباء إلى دجالين والفلكيون إلى منجمين.

إذا صحّ ما تقدّم كان مستقبل اللغة العربية رهْنَ قوة الابتكار في مجموع الأمم التي تتكلمها، فإن كان لتلك الأمم ذاتٌ خاصة أو وحدة معنوية وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيمًا كماضيها، وإلاّ فلا.

٢ - وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربية فيها؟

إنما التأثير شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها فتمضغه وتبتلعه وتحول الصالح منه إلى كيانها الحي كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار. ولكن إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم، فالطعام يذهب سدى بل ينقلب سمًّا قاتلاً. وكم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظل فإذا ما نقلت إلى نور الشمس ذبلت وماتت. وقد جاء: من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه.

وأما الروح الغربية فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته. وحياة الانسان موكب هائل يسير دائمًا إلى الأمام، ومن

ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب. فالأمم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة، والمبتكر مؤثّر؛ والأمم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة، والمقلد يتأثر، فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدنيتنا التأثير العظيم في لغاتهم، وها قد أصبحوا هم السابقين وأمسينا نحن اللاحقين فصارت مدنيتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم في لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا.

بيد أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول إلى كيانهم بل يحولهم إلى شبه غربيين، وهي حالة أخشاها وأتبرم منها لأنها تبيّن لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطورا كطفل بدون أضراس!

إن روح الغرب صديق وعدو لنا. صديق إذا تمكنا منه وعدوّ إذا تمكن منا. صديق إذا فتحنا له قلوبنا وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا. صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه.

٣ - وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الأقطار العربية؟

قد أجمع الكتّاب المفكرون في الغرب والشرق على أن الأقطار العربية في حالة من التشويش السياسي والإداري والنفسي. ولقد اتفق أكثرهم على أن التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال.

أما أنا فأسأل: هل هو تشويش أم مَلل؟

إن كان مللاً فالملل نهاية كل أمة وخاتمة كل شعب - الملل هو الاحتضار في صورة النعاس، والموت في شكل النوم.

وإن كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائمًا لأنه يبيّن ما كان خافيا في روح الامة ويبدل نشوتها بالصحو وغيبوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهزّ بعـزمها الأشجـار لا لتقلعها بـل لتكسرَ أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء. وإذا ما ظهر التشويش في أمة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجـود قوة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها. إنما السديم أول كلمة من كتاب الحياة وليس بآخر كلمة منها، وما السديم سوى حياة مشوَّشة.

إذا فتأثير التطور السياسي سيحوِّل ما في الأقطار العربية من التشويش إلى نظام، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وألفة، ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرهـا بالحمـاسة. ان الخزّاف يستطيع أن يصنع من الطين جرة للخمر أو للخل، ولكنـه لا يقدر أن يصنع شيئاً من الرمل والحصى.

٤ - هل يعمّ انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتُعلّم بها جميع العلوم؟

لا يعمّ انتشار اللغة في المدارس العاليـة وغير العـالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة - ولن تعلّم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيـدي الجمعيات الخيـرية واللجـان الطائفيـة والبعثات الدينية إلى أيدي الحكومات المحلية.

ففي سـوريا[1] مثـلاً كان التعليم يـأتينا من الغـرب بشكـل الصدقة، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضوِّرون، ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا. أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلاً، وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنـا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات

(١) يعني بسوريا هنا معظم سوريا ولبنان وفلسطين، اي سورياالطبيعية - وكانت وحدة من وحدات الدولة العثمانية عندما كتب جبران هذا المقال.

صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها. فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة اميركية قد تحـوّل بالطبع إلى معتمد أميركي، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسيّا، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا... إلى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء. وأعظم دليل على ما تقدم اختلافُ الآراء وتباين المنازع في الـوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي. فالذين درسـوا بعض العلوم باللغة الانكليزية يريدون أميركا أو انكلترا وصية على بلادهم؛ والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فـرنسا أن تتـولى أمرهم، والـذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أدنى إلى معارفهم وأقرب إلى مداركهم.

وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً؟

إن المحسنين الحقيقيين وأصحاب الأريحية في الغرب لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به إلينا، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا. ولكن كيف تولد ذلك الشوك ومن أين أتى ذلك الحسك؟ هذا بحث آخر أتركه إلى فرصة أخرى.

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم فتتوحّد ميولنا السياسية وتتبلور منازعنا القومية، لأن في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسة تتجوهر المنازع،

ولكن لا يتم هذا حتى يصير بإمكاننا تعليم الناشئة على نفقة الأمة. لا يتم هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه. لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأن المتسوّل المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي. ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب، فالموهوب مسيَّر دائمًا والواهب مخيَّر أبداً.

٥ – وهل تتغلب (اللغة العربية الفصحى) على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها؟

إن اللهجات العامية تتحوَّر وتتهذب ويدلك الخشن فيها فيلين ولكنها لا ولن تغلب – ويجب الاّ تغلب – لأنها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعدّه بليغاً من البيان.

إن اللغات تتبع مثل كل شيء آخر سنّة بقاء الأنسب، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب الذي سيبقى لأنه أقرب إلى فكرة الأمة وأدنى إلى مرامي ذاتها العامة. قلت أنه سيبقى وأعني بذلك أنه سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزءاً من مجموعها.

لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامية. ولتلك اللهجات مظاهر أدبية وفنية لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر، بل في أوروبا وأميركا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكنوا من التوفيق بين العامي والفصيح في قصائدهم وموشحاتهم فجاءت بليغة ومؤثرة. وعندي أن في «الموال» «والزجل» و«العتابا» «والمعنّى» من الكتابات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب، أو كسرب من الصبايا الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة.

لقد كانت اللغة الايطالية الحديثة لهجة عامية في القرون المتوسطة، وكان الخاصة يدعونها بلغة «الهمج»، ولكن لما نظم بها دانتي وبتراك وكامونس وفرنسيس دسيزي قصائدهم وموشحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة ايطاليا الفصحى وصارت اللاتينية بعد ذلك هيكلاً يسير ولكن في نعش على أكتاف الرجعيين... وليست اللهجات العامية في مصر وسوريا والعراق أبعد عن لغة المعرّي والمتنبي من لهجة «الهمج» الايطالية عن لغة أوفيدي وفرجيل. فإذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم ووضع كتاباً عظيمًا في إحدى تلك اللهجات تحولت هذه إلى لغة فصحى. بيد أني أستبعد حدوث ذلك في الأقطار العربية لأن الشرقيين أشدّ ميلاً إلى الماضي منهم إلى الحاضر أو المستقبل، فهم المحافظون، على معرفة منهم أو على غير معرفة، فإن قام كبير بينهم لزم في إظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الأقدمون، وما سبل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده.

٦ – وما هي خير الوسائل لإحياء اللغة العربية؟

إن خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين.

الشاعر أبو اللغة وأمها، تسير حيثما يسير وتربض أينما يربض، وإذا ما قضى، جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمر بها شاعر آخر ويأخذ بيدها.

وإذا كان الشعر أبا اللغة وأمها فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها.

أعني بالشاعر كل مخترع كبيراً كان أو صغيراً، وكل مكتشف قويّاً كان أو ضعيفا، وكل مختلق عظيما كان أو حقيرا، وكل محب للحياة

المجردة إماماً كان أو صعلوكاً، وكل من يقف متهيباً أمام الأيام والليالي فيلسوفا كان أو ناطورا للكروم.

أما المقلد فهو الذي لا يكتشف شيئاً ولا يختلق أمراً بل يستمد حياته النفسية من معاصريه ويصنع أثوابه المعنوية من رقع يجزها من أثواب من تقدمه.

أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن أبيه، فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد؛ وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم من يدعو نسيجه هذا باسم جديد. أعني بالشاعر الملّاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً، والبنّاء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة، والصبّاغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله فيستخرج لونا جديدا، فيأتي بعد الملاح والبنّاء والصباغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة، فيضيف بذلك شراعاً إلى سفينة اللغة ونافذة إلى بيت اللغة ولونا إلى ثوب اللغة.

أما المقلد فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها ألف جيل وجيل فتظل حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظل ضئيل لحقيقة قصيّة لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد أن يعرف.

أعني بالشاعر ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً

فرحاً نادباً مهللاً مصغياً مناجياً ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم وأنواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة فيضيف بعمله هذا وتراً فضياً إلى قيثارة اللغة وعوداً طيباً إلى موقدها.

أما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهال المبتهلين بدون إرادة ولا عاطفة، فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية.

أعني بالشاعر ذاك الذي إن أحب امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر لتُلبس أحلامها أجساداً من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الأودية ثم عادت لتضفر من اختباراتها إكليلاً لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة.

أما المقلد فمقلد حتى في حبه وغزله وتشبيبه، فإن ذكر وجه حبيبته وعنقها قال: بدر وغزال. وإن خطر على باله شَعرها وقدّها ولحظها قال: ليل وغصن بان وسهام. وإن شكا قال: جفن ساهر وفجر بعيد وعذول قريب. وإن شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال: حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعض على عناب أناملها ببرد أسنانها. يترنم صاحبنا الببغاء بهذه الأغنية العتيقة وهو لا يدري أنه يسمم ببلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها.

قد تكلمت عن المستنبط ونفعه والعقيم وضرره ولم أذكر أولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطوَّلات وتشكيل المجامع اللغوية- لم أقل كلمة عن هؤلاء لاعتقادي بأنهم كالشاطىء بين مدّ اللغة وجَزرها وأن وظيفتهم لا تتعدى حدّ الغربلة - والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون إذا كانت قوة الابتكار في

الأمة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد إلّا الهشيم ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب؟

أقول ثانية إن حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكل ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر. فهل عندنا شعراء؟

نعم عندنا شعراء، وكل شرقي يستطيع أن يكون شاعراً في حقله وفي بستانه وأمام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته. كل شرقي يستطيع أن يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج إلى نور الشمس فيسير في موكب الحياة. كل شرقي يستطيع أن يستسلم إلى قوة الابتكار المختبئة في روحه، تلك القوة الأزلية الأبدية التي تقيم من الحجارة أبناء الله.

أما أولئك المنصرفون إلى نظم مواهبهم ونثرها فلهم أقول: ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانع عن اقتفاء أثر المتقدمين، فخير لكم وللغة العربية أن تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضيعة من أن تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة. ليكن لكم من عزة نفوسكم زاجر عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة، فخير لكم وللغة العربية أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخورا أمام الأنصاب والأصنام. ليكن لكم من حماستكم القومية دافع إلى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الألم وعجائب الفرح، فخير لكم وللغة العربية أن تتناولوا أبسط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من أن تعرّبوا أجلّ وأجمل ما كتبه الغربيون.

مناقشات وتمرينات

١ - على أي شيء يتوقف تطور اللغة-بشكل عام - أو جمودها في نظر جبران؟

٢ - متى يكون تأثير التمدين الغربي في اللغة العربية والواقع العربي الحديث مفيداً للعرب فائدة حقيقية في رأي جبران؟

٣ - ما الفرق بين «التشويش» و«الملل»؟ وأيهما في ظن جبران حال المجتمعات العربية الحديثة؟ ما رأيك أنت في هذا الموضوع؟

٤ - هل ترى رأي جبران في أن الحل الوحيد لانتشار اللغة العربية يكمن في انتقال المؤسسات التعليمية من ايدي الفئات إلى أيدي الحكومات؟

٥ - اشرح موقف جبران من قضية الفصحى والعامية ثم أعط رأيك في هذا الموضوع.

٦ - فسر بوضوح ما يعنيه جبران بالمقارنة بين الشاعر والمقلّد. هل ترى - مثله - أن إحياء اللغة العربية يتم على يد الشاعر لا المقلد؟ لماذا؟

-٦٦-

الأدب كما يفهمه الجيل

للعقاد *

لماذا نقرأ فنون الأدب؟ إن كنّا لا نقرأها لنلهو ولا لنُزجيَ بها ساعاتِ الفراغ المُضيَّعة فقد يخطر لسائل أن يسأل: ولماذا يقرأ المرء الأدبَ إذن؟ وجوابنا على هذا السؤال أنّه يقرأها ليحيا وليوسع على نفسه من الحياة - وليست الحياةُ لهواً ولا تزجيةَ فراغ.

ما الحياة وما الأدب!! شيئان كِلاَ نَسْجَيْهما من مادة واحدة. فالحياة هي شعور تتملاّه في نفسك وتتأمل آثاره في الكون وفي نفوس غيرك. والأدب هو ذلك مُتَمثّلاً في القالب الذي يلائمه من الكلام. وما احتاج الناس من قبل إلى من يثبت لهم أن الأدب لا يكون بغير حياة؛ ولكنهم يحسبون أنهم بحاجة إلى من يثبت لهم أن الحياة لا تكون بغير أدب. مع أنّ الأمرين بمنزلة واحدة من الحقيقة. فإنه لكلّ حياةٍ أدبٌ ولكلّ أدبٍ حياة. والمقياس الذي يقاس به كلاهما واحد لا يختلف في دلائله، وإن كان يختلف في وسائله.

أترى الحياة توجد بغير عطف! أترى العطفَ يوجد بغير تعبير! أترى يستوي التعبير الصادق الجميل والتعبير الكاذب الشائه! أسئلة لها جواب واحد بدهيّ معلوم. وذلك الجواب مرادف لقولك إن الحياة لا تكون بغير أدب يلائمها، وإن مقياسَ الأدب كما قلنا الحياة.

(*) من كتاب «مطالعات في الكتب» (القاهرة، ١٩٢٤) ص ٥ - ٩.

مَثّلْ لنفسك أمةً كَمُلَتْ عليها نعمةُ الحياة العالية وظَفِرت منها بأوفر ثروةٍ من الشعور النبيل المجيد. فيها مَنْ تعتلج بنفوسهم الحياةُ فتدفعهم الى طِلاَب العِزّة والسيادة؛ وفيها من تروعه مظاهرُ الكون فيتعمّق في أسرار الفلسفة والعلوم؛ وفيها من تُطَوِّحُ به الرغبةُ والإقدام إلى مجاهل الأرض واطراف البحار، وفيها من تشوقه فتنةُ الطبيعة فينبض قلبه على نبض قلبها ويَتْرعُ نفسَهُ من نشوة خمرها، وفيها مَنْ يجيد العملَ ومن يجيد القولَ، ومن لا يُقصّر عن الغاية من مَنْزِع من منازع العيش، ومن يستحقُّ في كلِّ مَيْدَانٍ من ميادين السعي إكليلِ الغار الذي يستحقه المجاهد الظافر في ميدان التضحية والفَخَار - مَثِّلْ لنفسك أمةً يتّسع أفق حياتها لجميع هذه العظائم ثم انظر كيف يَسَعُكَ أن تتخيّل هذا العالَم المُكْتَظَّ بالشعور الدافق والسرائر المتيقظة ضائعاً بغير تعبير؛ أو كيف يكونُ تعبيره لَغْواً لا يَصْلُح إلا لمسايرة البطالة وتسهيل قضاء الفراغ؟ ألا ترى أنك لا يسعك أن تتخيّل لهذه الأمة أدباً غير الأدبِ الذي تبعثه الحياة العالية وتَتَخلَّلهُ وتَدبُّ في ألفاظه ومعانيه؟ وانَّ أدباً كهذا ليَتَناوَلهُ القارىء وكأنّما يتناول قِطَعاً من الحياةيُجْريها في أجزاء نفسِه كما يجري الماء والشمس في عروق الشجر وجذوره؟

وكثيراً ما رأينا أناساً يظنون أنهم فهموا طبيعة الرُّقيِّ في الأمم وعرفوا مواضعَ الداء منها فتسمعهم يقولون: ما للأمم وللأحاديث والأحلام؟ إن الأمم تحتاج إلى العلوم والصناعات ولا حاجة بها إلى الآداب ولا الفنون. وهم لا يقولون ذلك إلاّ لأنَّ غاية ما علموه عن الآداب والفنون أنها أحاديثُ وأحلامٌ، وأن الأمم بالبداهة لا ترْقَى بالأحاديث والأحلام!! فخليق بهؤلاء أن يتدبروا ما قدّمناه ويفقهوه ويعلموا أن حظَّ الأمة من الشعر والغناء والأدب ومن الأحاديث والأحلام أيضاً إنما يكون على قَدْر حظّها من الحياة؛ وأننا قد نستطيع أن نتخيل أمّة قويةً مجيدة بغير علوم ولا صناعات، ولكننا لا نستطيع

أن نتخيَّل أمةً قويةَ الطباع والأخلاق بغير آداب؛ وأنه لا فَلاحَ لأمّة لا تُصَحِّحُ فيها مقاييس الآداب ولا يُنْظَر فيها إليها النَظَرَ الصائبَ القويم؛ لأنَّ الأمم التي تضلُّ مقاييس آدابها تضلّ مقاييس حياتها والأممَ التي لا تعرفُ الشعورَ مكتوباً مصوراً لا تعرفه محسوساً عاملاً؛ وأن ليس قُصارك[1] إذا صحَّحت للأمة مقياس كتابتها وشعرها أن تهبها كلمات وأوراقا، وإنما أنت في الحقيقة تهبها شعوراً قويماً ومجداً صميماً. تهبها دماً في عروقها ونوراً في ضمائرها ونفوسها.

وربما سمعنا من هؤلاء ومن غيرهم من يَنعَى على الأدب اختلاف ضوابطه وتشعُّب مقاييسه وأنه لا حدودَ له كحدود العلم المقررة تُميِّز في كلّ حالة من الحالات تمييزاً قاطعاً بين صحيحه وفاسده وبين جيِّده ورديئه؛ فقد تجتمع صفةُ الجودةِ والبلاغة لألف قصيدة في موضوع واحد ثم لا يكون بينها من التشابه شيء كثير، بل قد يكون فيها تناقض محسوس في أشياء عدّة - وهذا صحيح - فإن مقاييسَ الأدب من السعة بحيث تَأْذَنُ لكثير من الاختلاف والتشعّب. ولكنّ هذا الذي يَنْعَوْنَه عليها هو مَزِيَّتُها لا عيبُها، وفضيلتها لا نقيصتُها؛ لأنه آت من اتّساع مجالها وتجدّدِ حقائقها ومشابهتها للحياة في أنها ناميةٌ متحركة مضطربة متحوّلة، فلا تثبت على وصف ولا تنحصر في حدّ؛ وما كانت مقاييس العلم مضبوطة مقرّرة إلا لأنها محصورة مجرّدة من اللحم والدم. فإذا عَرَفْتَ القضية الهندسية مرّة فقد عرفتها على حقيقتها الأخيرة المقيَّدة التي لا تتغير أبداً، وأحطْت بجميع جوانبها، لأن جوانبها قابلة لأن يحاط بها. أمّا الحقائق النفسية فليست على هذا النَّمط لأنها قد تتراءى لك في كل مرة بلون جديد وصورة متغيّرة. وإليك غريزةَ الحب مثلاً؛ أليست هي من الغرائز المركّبة في كل نفس؟؟ بلى! ولكن كم ذا بينها من التغاير في القوى والدوافع والأغراض والأطوار والمعاني التي لا يُسْبَرُ غَوْرُها ولا يُسْتَقْصَى آخرُ

(١) قصارك: مبلغ جهدك.

مداها!! فمن ذلك أن الناسَ لا يتساوون في حبّهم لأحبائهم، وأن الإنسان الفرد لا يكون على حالٍ سواء في حبه لجميع الأحبّاء؛ وهو مع ذلك لا يكون في حبّه للحبيب الواحد على حال سواء في جميع الأوقات. وليس هذا نهايةَ ما هنالك من أسباب الاختلاف الشاسع في تصوير غريزة الحب، كلّا، فإنه بعد ذلك كلّه يبقى اختلافُ الناس في اللغات واللهجات والأساليب وطرائق التفكير وهي اختلافات لا نهاية لتقلباتها وألوانها في القائلين والسامعين، ومن أين لحقيقة تُلِمُّ بها وتتداولها كلُّ هذه الأدوار والغِيرَ أن تنحصرَ في وضع واحد كأوضاع القوالب المصنوعة والحقائق الآلية؟؟...

ولسنا نريد أن نقف هنا: نريد أن نقول ما هو أكثر من ذلك. وهو أن في الآداب عنصراً أسمى من عنصر هذه الحياة الطبيعية المحدودة - فيها عنصر الخلود الذي لا يُتَاح للفرد في وجوده القصير - وبيان ذلك أن كل حياة تُخلَقُ على هذه الأرض تؤتمن على قوّتين عظيمتين: إحداهما تحفظها، والأخرى تعلو بها عن نفسها، وقد نقول بعبارة أخرى إنّ إحدى هاتين القوّتين ماديّة تتمشّى مع (الضرورة) وتخضع لها، والثانية روحية تتكبّر على الضرورة وتنزع إلى «الحرية». ومناطُ هذه القوة الأخيرة في النفس هو الأشواق المجهولة وآمال الخيالِ والمُثُل العليا التي لا تظهر في شيء ممّا يعالجه الناسُ ظهورَها في مبتكرات الآداب والفنون. فالآداب بهذا العنصر فيها تشرف وتسمو على تلك العلوم والصناعات التي تقوم للضرورة المادية مَقَامَ الخَدَمِ المطيعةِ والعبيدِ المُسَخَّرة؛ إذ إنه ما زال في فطرة الناس أن يخجَلوا من تحكّم الضرورة فيهم ولو كانت شائعة بين جميع المخلوقات، ويجاهدوا بما في طوقهم من قوّة للتغلّب عليها والتباهي بالإفلات من قيودها. ومن شواهد ذلك عدُّ أقوامٍ من أهل الفطرة أكْلَ الطعام عَوْرَةً تُسْتَر، وهربُ الناس جميعها من الفَقْر وميلُهم إلى مُدَاراتهِ أو الاستخفاف بأحكامه. وكَراهتهم أن يُفَاجَأوا في أثناء خضوعهم لشهوة من

الشهوات الاضطرارية المُسلَّطة على المخلوقات عامة. ومن شواهده أنهم من الناحية الأخرى يهلّلون تهليل الطَّرَب والابتهاج لما يقرأونه في الشعر والقَصص من وقائع البطولة التي يتمرّد فيها جبابرة الخيال على سلطان الأقدار وَيَهْزَأون من آصَار[1] الطبيعة وقوانينها القاهرة، وتراهم يبتهجون ويغتبطون بما يشهدونه على المسارح من الروايات التي تتغلب فيها السَّجَايَا المُنزَّهةُ على المطامع الضيّقة الخسيسة التي تَدِينُ بالتسليم لأقرب أوامر الضرورة ونواهيها، ويستريحون إلى ما تترجّاه قرائحُ الشعراء والحالمين من عصور العدل والفضيلة والكمال والانطلاق من رِبْقَةِ الحاجات المعيشية - يهلّلونَ لهذه الأمور ويُعْجَبُون بها مع علمهم أنها لا تكونُ كما يَرْجُون في عالم الوقائع الملموسة. غير أنهم قد أيقنوا بالإلهام أنها هي قائدُ الإنسانية الذي صَحِبَها خُطْوَةً بعدَ خطوةٍ في معارج[2] الحياة فتقدّمت وراءه من حَمْأَةِ[3] الحَشَرات المُسْتَقْذَرَة إلى هذا الأَوْجِ المتسامي صُعُداً إلى السماء، وجعلت الحياة فَنّاً يُخيَّلُ إلى الإنسانَ أنه يخلقه باختياره كما يخلق بدائع الصور، والكَوْنَ مُتْحفاً أبديّاً يُقاس بمقاييس الحرية والجمال، بعد أن كانت الحياةُ قضاء محتوماً، وكان الكون سِجْناً لا فَكَاكَ لأسيره من أغلاله وحُرّاسه.

ففي الأدب كلُّ ما في الحياة من حاضر ومُغَيَّب، ومن فرائضَ وآمال، ومن شعور بالضرورة في الطبيعة، إلى تَطَلُّعٍ لحريةِ المُثُلِ العليا. وواجبٌ على الذين يفهمون عَظَمَةَ الحياةِ من أبناء هذا الجيل أن يحسِنوا فَهْمَ هذه الحقيقة، ليعلموا أن الأمم التي تَصْلُح للحياة وللحريّة لا يجوز في العقل أن يكون لها غيرُ أدبٍ واحدٍ وهو الأدب الذي يُنَمّي في النفس الشعورَ بالحياة والحرية.

(١) آصَار: جمع إِصْر: أي القيد.
(٢) معارج: مراق. درج.
(٣) الحمأة: الطين.

مناقشات وتمرينات

١ - هل صحيح أن الحياة والأدب شيئان «كلا نَسْجَيْهما من مادة واحدة»؟ وهل القول بأن الحياة لا تكون بغير أدب مُشْبِهٌ في الدلالة للقول «لكلّ حياةٍ أدبٌ ولكلّ أدبٍ حياة»؟

٢ - لماذا يُقيم الكاتبُ صنماً ليهاجمه؟ من قال إن التعبير الأدبي «لا يَصْلُح إلّا لمسايرة البطالة وتسهيل قضاء الفراغ»؟ ماذا تسمّي مثل هذا المنطلق في محاكمة الأمور؟

٣ - هل حقّاً نستطيع أن نتصوّر أمّة قوية مجيدة بغير علومٍ ولا صناعات؟ أليست المقارنة الصحيحة إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه دون التَّهْوين من شأن أحد الطرفين (العلم × الأدب)؟

٤ - كيفَ يعلّل الكاتب اختلاف ضوابط الأدب ومقاييسه؟

٥ - هل توافق الكاتب على وصله الآداب بالقوة الروحية ووصله العلوم بالضرورة المادية، وعلى إيجاد المفاضلة - من ثَمّ - بينهما؟

٦ - أليس مجرّد ارتباط الآداب بالقوة الروحية ارتفاعا بها عن الحياة وعن أن تكون وإيّاها شيئاً واحداً؟ ألم يقل الكاتب إن «الخلود» فرق أساسي بينهما؟

٧ - أعِد النظر في المقالة على أساس أن الحياة هي مادة الأدب، ثم ارصُد النتائجَ المترتّبة على ذلك.

٨ - يفلسف الكاتب هنا ضرورة الآداب لكل أمة، ويدافع السكاكيني عن الاتجاه إلى الآداب والعلوم الإنسانية (انظر القطعة رقم: ١٢). ارصد مواقع اللقاء والمفارقة بين الموقفين.

-٦٧-

تقدير الجمال

لأحمد أمين *

عجب بعض الناس إذ ذكرتُ أن الشيخ رفاعة الطهطاوي - الرجلَ الأزهريَّ الصالح - تَغَزَّلَ في صوت النواقيس حينما رست سفينته على «نابولي»؛ وعجب صديقي الدكتور (. . .) إذ سمع مني لأول مرّة إعجابي بجمال عيون سيّدة كانت تعلّمني، ونقدني بعض إخواني أن أذكرَ مثلَ هذا في بيئة أَكْثَرَ فيها الخلعاء من ذكر الجمال وصور الجمال، حتى استُهْتِرَ الشبابُ وانغمسوا في اللهو، وأفرطوا في التهتّك. قال: فالواجب يقضي أن نصدّهم عن هذا التيّار، ولا نُجَارِيَهم في هذا الميدان، ولا يأتي ذكر الجمالِ على لساننا، فإنهم إذا اتجهوا للجمال لم يقفوا عند حدّ، وجرفهم التيار حتى يُغرقَهم. ورأى أنه يجب ألاّ يُفْتَحَ هذا البابُ؛ وكأنّ الفضيلة عنده أن يكون الإنسان حجراً لا يأنسُ بجمال، ولا يَنْفرُ من قبح، وكأنّ من يُقَدِّرُهُ يرتكب جريمةً يجب أن يَتَسَتّر منها. وفي رأيي أن شرور العالم كلَّها تنشأ من سوء تقدير الجمال لا من حسن تقديره، والذين يُسْتَهْتَرون ويُفْرطون في اللهو إنّما أتاهم ذلك من قصر نظر إلى الجمال، لا من سَعَةِ نظر فيه، ومن انحطاطٍ في فهمه، لا من سُمُوّ في إدراكه - ومن الخطأ أنْ نَعُدَّ الجمال من كماليّات الحياة فإنه من ضرورياتها، وأن نَعُدَّه مُتْعَةً

(*) من كتاب «فيض الخاطر» (القاهرة، ١٩٤٨) ٥: ١١٤ - ١١٩.

من مُتَع ساعات الكسل والفراغ فإنّه لا بدّ أن يملأ حياتنا؛ ومن قِصَرِ النظر أنَ نقْصُره على أنواع من الزينة وعلى ضروب من الأشكال، وعلى أنماط من المظاهر، فمداه أَوْسَعُ من أن يحدَّه حدٌّ، وهو أعمق من أن يُكْتَفَى فيه بالسطح، وهو أقوم من أن يكون ملهىً في لحظات من الحياة.

ما الدنيا إذا فقدت الجمال، وفقدنا شعورنا بالجمال؟! إنها - إذن - لا تستحقّ الحياةَ فيها ساعةً، فما يُقوِّمها ويجعلها تستحق البقاء إلا أن كلَّ شيء فيها مُزِجَ قَصْدَ النفعِ منه بقصد التجميل: ﴿ولكم فيها جَمَالٌ حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالِغيهِ إلاّ بِشِقِّ الأنفس إن ربّكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لاتعلمون﴾ (النحل: ٦-٨).

لولا الجمالُ والشعور به لبقيت الكهوفُ والمغارات هي مساكنَ الإنسان الآن كما كانت مساكن الإنسان الأول، ففيها كلُّ الغَنَاء في أنها تقي الحرَّ والبرد، وتسدُّ الحاجةَ، وما طوّرها هذا التطورَ البديع إلا القَصْدُ إلى التجميل، وعن هذا نشأ فَنُّ المِعمَار وهندسة البناء والمدن. ولولا الجمالُ لكانت البيوت حجارة مرصوصةً في غير نظامٍ ولا ترتيب، ولا فرق بين أعظم المدن وأحقر بيوت الفلاحين إلاّ الجمالُ والشعور به والقصد إليه.

ولولا الجمالُ ما كانت الحدائقُ والبساتينُ، ولا كان حبُّ الأشجار والأزهار، ولا كان هناك فرقٌ بين رائحة البنزين ورائحة الياسمين، فما فرّق بينهما إلاّ الشعورُ بالجمال؛ بل ولا كان فرق بين لون الجراد والقنفذ، ولون الطاووس والفَرَاش، ولانعدمت تماماً مملكةُ الألوان بما فيها من زينة وإبداع.

ولولا الجمال لاختفى كلُّ فَنّ، فلا أدب ولا تصوير، ولا نقش ولا موسيقى، ولاختفى كل أسماء الفنانين، ولَمَا كان أبو نواسٍ

والمتنبي، والجاحظ والحريريّ، وشكسبير وموليير وجوته، ولا إسحاق المَوْصِليّ وبيتهوفن،ولا رفائيل، إلا أسماء ميتة،ولكانت أصوات سوق النحاسين كموسيقى أشهر الموسيقيين، ولكانت أصواتُ البوم والغربان كأصواتِ البلبل والكَرَوَان؛ ولا كانت كتبٌ إلا كتباً في التجارة والحياة العملية؛ بل وما كان الإنسان إلا آلة حقيرة، يعمل ويُنتجُ ويستهلك كآلة النسيج أو آلة الطباعة، على شرطِ ألاّ يكون في نتاجها أثرٌ من آثار الزينة والجمال.

ولولا الشعورُ بالجمال ما كان في كلِّ ما حولنا من مناظرَ طبيعيةٍ جمالٌ: فشروقُ الشمس وغروبها، وبريقُ النجوم ولمعانها، والبحارُ وأمواجُها، والسماء وزرقتها، لا قيمةَ لها في نظرِ فاقدِ الشعورِ بالجمال، كما لا قيمة لها في نَظَر العميان.

دَقّق النظَر فيما شئتَ من مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك، تَرَ أنَّ الاحتفاء فيها بالجمال أضعافُ الاحتفاء فيها بالمنفعة، ولولا ذلك لَقَنِعَ المرء من مأكله ببرْشَامَةٍ، ومن ملبسه بما يقيه الحرَّ والبردَ من أي صنف ولون، وعلى أيِ وضع، وهكذا.

فإن أنت انتقلت من الحِسِّيَّاتِ إلى المعنويات، رأيت جمالاً سامياً، وحُسْناً فائقاً، فللعدل جمالُه، وللتضحية جمالُها، وللشجاعة جمالُها؛ ولو أنت قَدَّرْتَ كلَّ ذلك بميزانِ المنفعةِ وحدَها لضاع منها أكبرُ قيمتِها، وكنتَ كمن يُقدِّر الوردةَ الجميلةَ بثمنها، والشجرةَ الجميلةَ بغَلَّتِها.

إنّ تقدّم الأنسانية في المدنية والحضارة، والدين والعلم والاختراع والخَلْق، يدين للشعور بالجمال أكثرَ من أيّ شيء آخر، فلولاه ما تحرّر الإنسان من سيطرة الطبيعة عليه، ذلك أنه لما استيقظ في نفسه الشعور بالجمال نظر إلى العالم حولَه نظرة عَجَبٍ وإعجاب، فكان هذا مِفْتاحَ بحثه، ومفتاحَ علمه، ومفتاحَ فكِّ القيود التي قيّدته

بها الطبيعة، بل ومفتاح تحرره من القيود الثقيلة التي قيّده بها النظامُ الاجتماعي من استبداد وظلم واعتساف. لقد تنبه شعور الإنسانِ بالجمال رويداً رويداً، فرأى وجه الظلم قبيحاً فنفر منه، ووجه الرقِّ ذميمًا فاشمأزَّ منه، بقدر ما استجمل العدل والحرية والإخاء والمساواة، فهانت عليه التضحية في سبيل جمالها، ولولا شعوره بهذا الجمال لكان هو والحيوان سواء. فلئن كانت السلطات المختلفة - دائمًا - تنسج حبالَ الأغلال، فالشعور بالجمال يعمل - دائمًا - على نَقْضِ ما أَبْرَمتْ، وفَكّ ما غَلّتْ.

والفرق بين أمّة راقية وأمّة منحطة هو الشعور بالجمال، هو ينظفها، وهو يمدّنها، وهو ينظّم مدنها، وهو يرقّي عقلها، وهو الذي يحقق العدل فيها، وهو الذي يُحَسِّنُ العَلاقَة بين أفرادها، وبين أفرادها وحكوماتها؛ فامنحني الشعور بالجمال تمنحْني كلَّ شيء، واحرمنيه أُحْرَمْ كلَّ شيء - ولو أنصف رجال التربية لملأوا برامجَ المدارس بما يربّي الشعور بالجمال، كما ملأوه بما يربّي العقل - في زعمهم - ورحم الله مربّيتي الإنجليزية، فقد كان أكبر همها أن تزيّن حجرتها بالأزهار الجميلة والصور البديعة، ومن حين لآخر تغير أوضاعها حتى تجدّد ذوقها، فإذا دخلتُ الحجرةَ ولم ألحظ ذلك التغيير، ولم أبدأ الحديث بتحبيذه أو نقده، صرخت فيّ قائلة: «يجب أن يكون لك عين فنيّة، وأذن موسيقية».

قد يُفْسِدُ الدينَ رجالُ الدين، فيضطهدون العلماء، ويعذّبون الفلاسفة، ويُقيمون محاكم التفتيش، ويُشعلون نارَ الحروب الصليبية، ويتعصّبون تعصّباً زريّاً، ولا يُنْقِذُ الإنسانية من هذا كلّه إلاّ الشعور بالجمال: يستقبح العصبية، ويستجمل التسامح، ويسمو بالدين عن السفاسف.

لقد تأسست الأديان - فيما تأسست - على شعور الإنسان بالجمال، فالكنائسُ الفخمة البديعة بما فيها من فنٍّ ونقش وتصوير وموسيقى، والكتب السماوية - بما فيها من شعر وفنّ - كانت عاملاً كبيراً من عوامل الاستجابة للدين. والإسلام - مع بُعده عن التصاوير والتماثيل ومحاربته لها - استخدم الشعور بالجمال من وادٍ آخر، فقد لفت النظر إلى مناظر الطبيعة الجميلة على أنها آية من آيات قدرة الله وعظمته وجلاله وجماله؛ ﴿ألم تَرَ إلى الإبل كيف خُلِقَتْ، وإلى السماء كيف رُفِعَتْ، وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ﴾ ﴿والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جَلّاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفسٍ وما سوّاها﴾ ﴿إنّ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناسَ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وَبَثَّ فيها من كلّ دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ الخ.

ومعجزة الإسلام الكبرى تتوقّف على الشعور بجمال أسلوب القرآن، وفنّه في أداء أغراضه وحسن تصويره لمعانيه، وقصده مع هذا إلى جمال البساطة؛ وكم للبساطة من جمال!

ولمّا تقدم المسلمون في الحضارة غذّوا شعورهم بالجمال من الناحية الدينية أيضاً، فجمّلوا المساجد، وأدْخلوا الموسيقى في الأذان وقراءة القرآن.

ثمّ الصوفية من كل دين جعلوا أسمى أغراضِهم الفَناء في الحبّ. وهل هناك حبٌّ إلّالجمال؟ إذا رَقِيَ الشعورُ بالجمال في أمة ثارت على كلّ قبيح في مادة أو معنى، ولم تقنع إلاّ أن يُحيط بها الجمالُ في نفسها وفي بيتها وفي قوانينها وفي نظام حكومتها، وفي كلّ شيء حولها.

وإذا سَماَ الشعورُ بالجمالِ في إنسان أدرك أنّ الفضيلةَ فضيلةٌ لجمالها، لا لأي صفة أخرى. فالجمال انسجام، والقبح نَشَاز؛ جمال الأدب في انسجام لفظه مع معناه، وانسجامِ ذلك كلّه مع الكاتب والقارىء، وجمال الموسيقى في انسجام الأصوات، وانسجامِ الأصواتِ مع النفس. والشعور المرهف بالجمال يرى الفضيلة إنّما كانت فضيلة لجمالها، وجمالُها أتى من انسجامها مع المجتمع، وسيرها معه في طريق الرقيّ.

وقد تصدر الفضيلة عن عرف وعادة، فتكون عُرْضَةً للخطأ والفساد، ككلّ عُرْف وعادة؛ وقد تصدر عن عقل فيحسب العقل ما في العمل من خير وشرّ، ولذّة وألم، ومنفعة ومضرّة، فيكون شأنها شأنَ كلّ أحكام العقل، فاترةً جامدةً، عُرْضةً لأن يلعب بها المنطق الذي يستطيعُ أن يبرهنَ على الشيء ونقيضه؛ إنّما القيمة الحقّة للفضيلة في أنها تصدر عن عِشق وهُيَام، ولا عشق ولا هيام إلا عن شعور بالجمال - أمثال هؤلاء هم الذين ضحّوا بأموالهم وأنفسهم لعقيدتهم وفضيلتهم وحرّيتهم، ولولا العشقُ ما كانت التضحيةُ، ولولا الجمالُ ما كان العشقُ.

أفبعد هذا كلّه - يا أخي - تُنْكِرُ عليَّ شعوري بالجمال، وتنصحني بستره؟!

مناقشات وتمرينات

١ - يَلْمَح أحمد أمين التناوبَ بين الجمال والمنفعة ولكنّه في حماسته للجمال يقلّل من قيمة المنفعة، فهل ترى رأيَه؟ وهو في حماسته للجمال يُهمل دور التطوّر الفكريّ الذي ارتقى بالهندسة، والعلم والاختراع وفتحَ مجالاتٍ جديدةً للجمال: ما الموقف السليم في مثل هذه الأمور؟

٢ - قد يبدو لأول وهلة أن مقالة أحمد أمين خواطرُ مُرْسَلة حول

الجمال ولكن عند التدقيق يظهر غير ذلك، فهي تقوم على:

(١)- مقدّمة تبيّن سبب الإقدام على كتابة المقال

(٢)- الجمال في الكون عامة:

(أ) في الحِسِّيَّات: هندسة، حدائق، فنون، طبيعة، مأكل ومشرب...،

(ب) في المعنويات: الفضائل - المدنيّة والحضارة - الدين.

(٣) - تحديد معنى الجمال في الفنون - والفضائل.

٣ - إذا كانت المقالة كما تبيّن في الملاحظة (رقم: ٢) فمن أيّة الطرق تستطيع أن تنفذ إلى نقدها؟

٤ - اقرن بين هذه المقالة، والقطعة المقتبسة من ترجمة أحمد أمين (رقم: ٦ فيما تقدّم).

-٦٨-

سكون الحسن

لعمر فاخوري*

يغلُبُ على الرأي أن أبا الطيّب، بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناسَ خلالَ عَشْرَةِ قرون كاملة، سَيُجَشِّم[1] عصرنا أيضاً ما لا طاقة له به، فلن يفتأ يطرحُ عليه ضروبا من الأحاجي[2]، وليس ثمّة ما يُؤْذِنُ بأن لهذا الأمر نهاية. وكأني بالمتنبّي لم يكتفِ بالنُّحاة والصرفيين، وعلماء اللغة والبيانيين، يُغِيرون على ديوانه متزاحمين بالمناكب، ليُمْعِنوا فيه شرحاً أو تشريحاً، كأن شعره مومياء عجيبة وقعت في أيدي أثريين غِلَاظِ الأكباد[3]، لا يَقَرُّ لهم قرارٌ حتى يكشفوا عن سرّ خلودها وبقاء روعتها على الأيام، فقد أصبح شعر المتنبّي في هذا الزمن يتطلّب، على ما نرى، طبقةً جديدة من أهل الاختصاص.

كان أبو الطيب دونَ الخامسةِ والعشرين من عمره لما اتصل في مدينة منبج من أعمال حلب، بأميرين من آل بُحْتُر، لا يذكرهما التاريخ بخير أو شرّ، لو لم يُنْعِمِ الشاعرُ عليهما، وهو يسأل نَوَالاً[4]،

(*) من كتاب «الفصول الأربعة» (دار الثقافة، بيروت) ص ٨٧-٩٢.

(١) يجشّم: يكلّف، يكبّد.

(٢) الأحاجي: الألغاز.

(٣) غلظ الكبد: كناية عن القسوة.

(٤) النوال: العطاء.

بثلاث قصائدَ في المديح ليست من عيون شعره، رغم انطباعها بذلك الطابَع الخاصّ الذي لا يغيب عنّا ولا يَشْتَبِهُ علينا، كيفما قلّبْنا الطَّرْفَ في ديوانه. ومطلع احدى القصائد الثلاث:

أريقــك، أم مـاء الغمــامـة، أم خمــر؟

ولا يَعْنِينَا من أبياتها إلّا بيتٌ واحد، بل شطر من بيت، يصف فيه المتنبّي محبوبته «النَّظَرِيَةَ» التي يقضي العرف الشعري أن يتغزّل بها في فاتحة القصيدة، وهو قوله:

تناهى سكونُ الحسن في حركاتها...

فهنا أحجية من الأحاجي، لا يجدينا في حلّها نحوُ النحاة أو بيانُ البيانيين أو فقه اللغويين، لأنها في غنى عن هؤلاء جميعاً. ومن الانصاف أن نبادر إلى القول إن واحداً منهم لم يجرِّبْ حَلّ هذا اللغز من المنظوم، بغير تحويله إلى جملة نثرية، فمرّوا به مرَّ الكرام، حين لم تستوقفهم فيه نادرةٌ نحوية أو لغوية، ولا مسألةٌ صرفية أو بيانية، مما جرت العادة أن يُعيروه نظراً واهتماماً، حتى ولا لفظة غريبة يتكلّفون مشقةَ إبدالها بلفظة أخرى، تكون أقربَ تناولاً وأكثر تداولاً: لقد أعياهم هذا المعنى بساطةً ووضوحاً، فكأنّه بيت من الشعر لا يُكْرِمُ نفسَه.

قال الواحدي: حركاتها كيفما تحرّكت حسنة، وسكون الحسن فيها قد بلغ الغاية .

قال العكبري: هي حسنة في السكون، وسكون الحركة فيها قد بلغ النهاية .

قال اليازجي : إنها كيفما تحرّكت لحظاتها، فالحسن ساكن في حركاتها، بالغ نهايته في ذلك .

لن نقف عند الاختلاف بين «سكون الحسن » في كلام الواحدي وبين «سكون الحركة» في كلام العكبري، كما أننا لن نكترث «لحركة الألحاظ» في شرح اليازجي الذي يَرُدّ المعنى إلى البيت السابق:

رَأيْــنَ الــتــي لــلسّــحْــر، في لَــحَــظَاتِــهَــا
سيــوفُ ظُبَــاهَــا مِنْ دَمِي، أبَــداً، حُمْــرُ.

لن نقف عند هذا أو ذاك، فليست القضية هنا أو هناك. وإذا كان لا بدّ من التسليم بأمر ما ، فهو أن هؤلاء الأئمةَ، في تفسيرهم البيت، لم يُضيفوا إلى لفظه شيئاً، كما أنهم لم يزيدوا معناه وضوحاً، بل الأَصَحُّ أن يقال إنهم لم يجيئونا بشرح أو تفسير. وليس ما يبعث الأمل في أن نَظْفَرَ بحاجتنا، عند غيرهم من شرّاح الديوان أو نَقَدَةِ الشعر، على الوجه الأعم.

يقول الحكيم الفرنسي آلن في كتابه «نظام الفنون الجميلة» ما ترجمته: إنّ الوجهَ المليحَ - أو الحسَنَ - ينبىء عن طمأنينة - أو سكون - الأشياء جميعاً، حتى في حالة الاختلال - أو الحركة - العارضة. وهو يبني على هذه النظرية، وما يَتّصِلُ بها أو يتفرّع عنها، من آراء في الجمال وعلاقته بالحركة والسكون، في الهيئات والأجسام الطبيعية، ثم في فَنّي الرسم والنقش اللذين يمثّلان الأجسام والهيئات، كلٍّ فَنٍ منهما بمادته وأداته، فصولا مسهبة تُفْسِحُ للنظر آفاقاً مترامية الأطرافَ. هنا أيضاً حديثٌ، والحديثُ شجونٌ، عن «سكون الحسن في الحركات وتناهيه فيها» على نحو ما نراه في نظم المتنبّي. فلم يك من قبيل التَّحَذْلُق إذن ادّعاؤ نا، باديء ذي بدْء، أن ذلك الشعر أصبح، في هذا الزمن، يتطلّب صِنْفاً آخرَ من ذوي الاختصاص، ونحن نعني فريقاً من أهل الدراية، غير علماء اللغة وأصحاب البيان الذين وَفَّوْهُ، من هذه الناحية، في العصور الخالية، قِسْطَهُ وزيادة. وَنَحْسَبُ أنْ قد آن للشعر أن يُفْصَلَ عن علوم اللغة - أَلَمَّا يَبْلُغِ الفِطَامَ؟ - لِيُنْظَم نهائياً في سلك الفنون الجميلة، من الرسم إلى الرقص فالموسيقى، بين أهله الأدْنَيْنَ. أو لِيُؤْذَن لنا، على الأقل، أن نستضيء في دراسة الشعر، مَنْشئِهِ وجوهره وغايتِه، بأنوار تلك

الفنون، فلن نلبثَ طويلاً حتى نرى أنه ليس منها في الصميم فحسب، بل هو - فوق ذلك - أشرفُها مُقاماً، وأصعبُها مِراساً، وأبعدُها وأقربها، في وقتٍ معاً، من الكمال.

وَلَرُبَّ معترضٍ يقول، مُقْسِمًا بكل عزيز لديه: إن المتنبي لم تخطر له هذه المعاني البعيدة أو النظريات الغريبة ببال، وإنه كان أنعم حالاً وأطيب خاطراً في شروح الواحدي والعكبري واليازجي، منه في «نظام الفنون الجميلة» مع هذا الشارح الفرنسي من الطِّرازِ الأحدث! ثم يظهر عجبه، كيف، وقد طرحنا أُحْجيَةَ المتنبي القائل:

تناهى سكون الحسن في حركاتها..

لم نتقدّم إلى حلّ عويصها، إلا بأحجية من نوع جديد، عدا أنها مترجمة عن لغة أجنبية، فهي أجدر بالشرح والتفسير.

مناقشات وتمرينات

١ - هل من الضروري أن يكون الشاعر عارفاً بالمرامي التي قد يحمّلها الناقد لشعره؟

٢ - ها هنا يقف الكاتب موازناً بين الشرح اللغوي للشعر والكشف النقدي عن أسراره: هل هناك من تعارض بين الاتجاهين؟

٣ - هل تستطيع أن تقول إنّ التضادّ بين السكون والحركة هو الذي ألهم المتنبّي هذا التصوّر للجمال؟

٤ - تابع تاريخ الاهتمام بديوان المتنبي، واذكر محاولات أخرى غير التي ذكرها الكاتب.

-٦٩-
الحوار
لتوفيق الحكيم *

إذا ذُكِرَتِ المسرحية ذُكِرَتْ معها كلمةُ الحوار، ذلك أن الحوار هو أداة المسرحية، فهو الذي يعرض الحوادث، ويخلق الأشخاص، ويُقِيمُ المسرحية من مبدئها إلى ختامها. والحوار في أغلب ظنّي كالشعر، مَلَكَةٌ تُولَدُ أكثر مما هو شيء يُكْتَسَبُ، وإن كان طول الممارسة والمَرَانَةِ له بالطبع أثرٌ كبير في الوصول به إلى الجودة والإتقان.

والرأي في أن الحوار مَلَكَةٌ، راجعٌ إلى صفته الضرورية له، وهي: التركيز والإيجاز، والإشارة التي تُفصح عن الطبائع، واللّمحة التي تُوضح المواقف. هذه الصفة لا تناسب كل الناس، ولا تُلاصق كلَّ الأدباء؛ فمنهم من خُلِقَ للإفاضة والتحليل والإسهاب، فإذا طلبتَ إليه أن يُوْجِزَ أحسَّ الضيقَ، وشعر كأنك قد حبستَه أو حبستَ قلمَه الفياضَ، وكتمتَ بيانه المسترسل، وحُلْتَ بينه وبين سليقته الميالة إلى العرض والسَّرْد!...

على عكس ذلك الأديب المسرحي: فهو يضيق بالإفاضة والوصف والاسترسال، ويحبّ إصابة الهدف بكلمة، أو رسم

(*) من كتاب «فن الأدب» (المطبعة النموذجية، القاهرة) ص ١٤٨-١٥٢.

الشخصيةِ في إجابة، أو الإحاطةَ بالمعنى في عبارة؛ كذلك الشاعر له تلك الطبيعة التي يستطيع بها أن يُضِيءَ الكونَ بشطر بيت، ولو أعطيته الصفحات لينثر فيها هذا المعنى الذي وضعه في ذلك الشطر، لتعثر أسلوبه وضعُف نثرُه وشحُب معناه وبدا عليه العِيُّ وغلبَتْ عليه الركاكة.

الحوار إذن كالشعر: استعداد طبيعي يميل إليه أولئك الذين يميلون إلى الاقتضاب. ذلك أن ألَدَّ أعداء الحوار الإطالةُ والحشو، فهو هنا أيضا كالشعر لا مكانَ فيه للكلمة الزائدة والمعنى المكرّر؛ لأن كلَّ كلمةٍ تُلْقَى لها حَيِّزٌ مرقوم، ووقت معلوم. هذه الصلة بين الشعر والمسرحية ليست مما يقال على سبيل التشبيه، وإنّما هي صلة حقيقية، نبتتْ في الآداب القديمة؛ فقد كان كتّاب المسرحية في عهد الإغريق شعراء، وظلّ الأمر كذلك إلى العصور الحديثة، ولا تزال بعض الآداب الأوروبية تسمّي المؤلف المسرحي «شاعراً»، حتى إن كان في كلّ مسرحياته «ناثراً».

والحوار باعتباره أداةَ المسرحية تقع عليه أعباء كثيرة، بل عليه وحدَه تقع كلُّ الأعباء، فمنه نعرف قصة المسرحية، وما انطوت عليه من حوادث ومواقفَ، وهو لا يقصّها علينا حكايةً وقعت في الماضي، ولكنّه يُقيمُها أمامَ أعيننا في الحاضر حَيَّةً نابضة تتحرّك، فالحوار هو الحاضر، هو ما يحدث في اللحظة التي نحن فيها – حاضر أبديّ لا يمكن أن يكون ماضياً أبداً. اقرأ مسرحيةً لـ «سوفوكليس» أو «شكسبير» أو «موليير» – اليوم وغداً – كما قرأها قبلك بأجيال وقرون أناسٌ كثيرون، فإنّ الحوار يُبرز أشخاصها ماثلين حاضرين، يتكلّمون ويتحرّكون في حاضر دائم.

فَمُهِمَّةُ الحوار إذن، ليست أن يروي ما حدث لأشخاص، ولكن مُهِمَّته أن يجعلهم يعيشون حوادثَهم، أمامنا مباشرةً، دون وسيط

أو تَرْجُمان، فإذا قام الحوار بهذه المهمة فإن واجبه لم ينته بعدُ؛ فنحن لا يكفينا منه في المسرحية أن يكشف لنا عن حوادثَ ومواقفَ، بل عليه – فوق ذلك – أن يُلَوِّنَ لنا هذه الحوادث وهذه المواقف، باللون الموافق لنوع المسرحية؛ فإن كانت مأساةً تخيَّر من الألفاظ ما يُثير في نفوسنا الرَّهْبَةَ والجَزَعَ والجلال والخشوع، وإن كانت ملهاةً انتقى من العبارات ما يُشيع في قلوبنا روحَ الفُكاهَةِ والمَرَحِ والسُّخْرية والعِبْرَةِ. فالحوار في يد المؤلف المسرحي كالريشة في يد المصوِّر، وهي المَنُوطُ بها الرسمُ والتلوينُ والتكوينُ وكلّ ما يوضع على اللوحة من فنّ.

ولا تقف مهمة الحوار عند رسم الحوادث وتلوين المواقف؛ بل هو الذي يُعَوَّلُ عليه أيضا في تكوين الشخصيات؛ فلا بدّ لنا أن نعرف من طريقه طبائع الاشخاص، ودخائلَ نفوسِهم، فهو الذي يجب أن يُظْهِرَنَا على ما ظهر منهم وما خَفِيَ، ما يفعلون أمامنا، وما ينْوُون أن يفعلوا، ما يقولون لغيرهم من الأشخاص، وما يُضْمِرُون لهم في أعماق النفوس.

فإذا قام بهذا كلّه كان عليه واجبٌ آخرُ، هو خلق جوّ المسرحية، وهو عمل دقيق، لا يبوح لنا الحوار بسرّه، وليس هو بالعمل المنظور ولكنّه من عجائب الحوار أحياناً: فهذا الجو الشعريّ السحريّ، الذي يُبْعَثُ من مسرحية «العاصفة» لـ «شكسبير»، ما سرُّه؟ وكيف استطاع الحوار أن يُبَاعِدَ بينه وبين جوّ آخر لقصة أخرى للمؤلف نفسه هي «عُطَيْل»... ثم هذا الجوّ المخَيِّمُ على مسرحية «دون جوان» لموليير، ما أبعده عن جوّ مسرحية «الطبيب رغم أنفه»! وهذا الجوّ المسيطر على «فاوست» لجوته، ما أبعده عن الجوّ المحيط بمسرحيته «إيجمونت»!... فالحوار هو الحوار، والمؤلف هو المؤلف ولكن الحوار ينسج لكل مسرحية الجوّ الذي يلائمها.

العجيب في الحوار أنه يؤدّي الأغراضَ المختلفةَ بمفرده، بل

العجيب أنه يؤدّيها كلّها في الوقت عينه، فقد يرسل العبارة من عباراته إرسالاً على لسان شخص من أشخاص المسرحية، فإذا هذه العبارة محمّلة بمختلف المهامّ؛ ففيها إخبار بحادثة، وفيها تكوين لشخصية، وفيها خَلْقٌ لجو، وفيها تلوين لروح مُظْلم أو مُفْرح – مَثَلُها كَمَثَل العبارة الموسيقية التي تنطلق محمّلة بالنغم، الذي يروي ويلوّن ويكوّن، ويُثير كلّ هذا في لحظة؛ وكشأن البيت في القصيدة الشعرية، ينطلق حاملاً إلى النفس عذوبةً ووزناً وفكراً ومعنًى وصوراً، كلّ هذا في آن.

هذا الكلام مُنْصَبٌّ على الحوار بوجه عام، باعتباره أداة المسرحية. ولكن هذا الحوار لو نظرنا إليه بوجه خاص – وهو في أيدي أقطابه – لوجدنا في أساليب ممارسته من العجائب ما يحتاجُ إلى كلام طويل، ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الملاحظات العابرة: من ذلكَ ما قد يراه المتأمل في أسلوب الحوار عند «شكسبير» في بعض مآسيه، وفي أسلوب الحوار عند «موليير» في بعض ملاهيه: إن المتأمل في حوار «هاملت»، مثلاً، أو حوار «مكبث»، يلاحظ أن طريقة الحديث فيهما – بين الأشخاص – لا تجري على منطق الحديث الواقعي – بين الناس – في الحياة، إنّما هو حوارٌ يجري على منطق الشعر؛ فهو لا يتسلسل بنظامه الطبيعي في الحياة الواقعية، ولكنه يتسلسل بنظامه الطبيعي في حياة المعاني النفسية، فهو يقفزُ قَفَزاتٍ، ويعبر فَجَواتٍ، ويستعينُ بالكلمات المضيئة، والحِكَم البليغة والصور اللامعة، ليصل في صفحاتٍ قليلة إلى أغوار النفوس الإنسانية، وأسرار الطبائع البشرية! «شكسبير» مؤلف واقعيُّ الهدف، شاعريُّ الأسلوب، لقد احتفظ بطبيعة الشاعر وطريقته في معالجته لأدقِّ شؤون الحياة والبشر، وشعره وإن كان مرسلاً، أي أقربَ ما يكون إلى النثر، فإن روحه لم تزل أرْفَعَ ما يكون الشعر، في حين أن «موليير» كتب بعض ملاهيه بالشعر المقيَّدِ الموزون، ولكنّ حواره يتسلسل دائمًا بنظامه الواقعيّ في

الحياة، ويجري الحديثُ بين أشخاصه كما يجري في الحياة العادية، لا يَعُوقُهُ إلاّ النَّظْمُ الذي يَضِيقُ به السامع أو القارىء أحياناً، ولا يدري فِيمَ الالتجاء إليه، وكل شيء بدونه، وعلى الرغم منه، غارق في دنيا الواقع. «موليير» مؤلّف واقعيّ الهدف واقعيّ الأسلوب، على الرغم من شعره المقيَّدِ المنظوم.

هذان لونان من الحوار وُضعا شعراً، كلاهما يَخْلُقُ من الأشخاص الحيَّة، ويُبرز من خفايا النفوس البشرية، ما اعتبره التاريخ من مفاخر الفكر الإنساني، وهما مع ذلك مختلفان في الأسلوب، أحدهما يجري الحوارَ بروح الشعر – وإن اقترب من النثر – والآخر يُجْري الحوارَ بروح النثر – وإن تقيّد بالنظم.

هناك لونٌ ثالث من الحوار، لشاعر أيضاً، كتب بعضَ مسرحياته بالشعر، وهو «إبسن»: تجد أن الحديث الذي يُجريه على لسان أشخاصه، يتسلسل بنظامه الواقعيّ، على طريقة «موليير»، ولكننا نَشُمُّ مع ذلك عِطْراً غريباً ينبعث من بين حواره يذكرنا بذلك العطر الشعري الذي ينبعث من خلال كلمات «شكسبير»، فهو مؤلف واقعيُّ الأسلوب، شاعريُّ الجوّ.

هنالك أيضا لون رابع من الحوار لشاعر في قصة شعرية هو «جوته» في «فاوست». هنا نجد الواقعَ ليس هو شاغلَ المؤلف، فهو لا يَعْنِيهِ أن يُظهر أشخاصاً إنسانيةً تعيشُ في محيطها الإنساني، ولا تهمُّه مآسي البشر، ولا ملاهيها، ولا مجتمعاتُهم وحياتُهم ومشاغلُهم في ذاتها، ولا من حيث هي: إنما الذي يهمّه في قصته هذه هو عَلاقة الإنسان بما هو أعلى. هنا إذن مجال الفكر والشعر؛ وهنا نجد أسلوب الحوار عند «جوته» لا يتسلسل طبعاً بنظام واقعيّ، ولكنه يجري محمولاً على أكتاف الفكر مرة وعلى أجنحة الشعر مرّة أخرى؛ فهو هنا مؤلف فكريُّ الهدفِ شاعريُّ الأسلوب.

هـذه ملاحـظات خاطفـة على بعض أساليب الحـوار، تـدلّنـا على أن أداةَ المسرحية وإن كانت واحدةً لا تتغير، لأنه ما من مسرحية تقوم إلاّ بها، فـإنه - أي الحـوار - يختلف لونـه وطبيعته وروحـه وطريقته، باختلاف طبيعة الفنّان وطبيعة العمل الفنيّ.

مناقشات وتمرينات

١ - ما الصفات المشتركة بين الحوار والشعر.

٢ - ما هي المهمات التي يقوم الحوار بتأديتها في المسرحية؟

٣ - اذكر أنواعاً من الحوار وبيّن الأسباب الكامنة وراء تباينها.

٤ - إذا وزنتَ مقالة توفيق الحكيم بالأصول التي يجب أن يقوم عليها الحوار فهل ترى فيها إعادة وتَكْراراً وحشواً؟

٥ - ما دام الحوار يتبع طبيعة الفنان وطبيعة العمل الفني، فهل يمكن ردُّه إلى نمـاذج محدّدة؟ ومـا دام هو كـذلك: أليس من قلب الحقائق أن يقال إن الحوار فعل كذا ورسم كذا؟

-٥-
سيـاق التَّعـلُّم

-٧٠-

المبادىء الضرورية

لابن حزم*

١ - حَدُّ تَعَلُّم القراءةِ أن يمهَرَ الطالبُ في القراءة لكلّ كتاب يخرج من يده بلغته التي يخاطب بها صُقْعَه، وينفُذَ فيه، ويحفَظَ مع ذلك القرآن فإنّه يجمع بذلك وجوهاً كثيرة عظيمة. أحدُها التدرّبُ في القراءة له وتمرينُ اللسان على تِلَاوَتِهِ فيحصلُ من ذلك حدّاً، إلى ما يحصل عنده من عهوده الفاضلة ووصاياه الكريمة، ليجدها عدة عنده مدّخرة لديه قبل حاجته إليها يومَ حاجته إليها.

٢ - فإذا نفذ في الكتابة والقراءة، فلْيَنْتَقِلْ إلى علم النحو واللغة معاً. ومعنى النحو: هو معرفةُ تنقُّلِ هجَاء اللفظِ وتنقُّلِ حركاتِه الذي يدلّ كل ذلك على اختلاف المعاني كرفع الفاعل ونصب المفعـول، وخفض المضاف وجزم الأمر والنهي، وكالياء في التثنية والجمع، في النصب وخفضها، وكالألف في رفع التثنية، والواو في رفع الجمع وما أشبه ذلك. فإن جَهِلَ هذا العلمَ عَسُرَ عليه علمُ ما يقرأ من العلم.

٣ - واللغة: هي ألفاظ يعبّر بها عن المعاني فيقتضي من علم النحو كلّ ما يتصرّف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة، ويقتضي من

(*) من رسالة «مراتب العلوم» (رسائل ابن حزم، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، القاهرة، ١٩٥٤) ص ٦٤ - ٦٨.

اللغة المستعملَ الكثير التصرّف. وأقل ما يجزىء من النحو «كتاب الواضح» للزبيدي[1] أو ما نحا نحوه «كالموجز» لابن السَّرّاج[2]، وما أشبه هذه الأوضاع الحقيقية، وأمّا التعمّق في علم النحو ففضول لا منفعةَ بها بل هي مَشْغَلَةٌ عن الأوْكد، وَمَقْطَعَةٌ دون الأوْجَب والأهمّ، وإنّما هي تكاذيب فما وجه الشغل بما هذه صفته؟ وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط. فمن يزيد في هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه فحسن، إلاّ أنّ الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل، لأنّه لا منفعة للتزيد على المقدار الذي ذكرنا إلاّ لمن أراد أن يجعله معاشاً فهذا وجه فاضلٌ لأنه باب من العلم على كل حال.

والذي يجزىء من علم اللغة كتابان: أحدهما «الغريب المُصَنَّف» لأبي عُبَيْد[3]، والثاني «مُختَصر العين» للزُّبيديّ، ليقف على المستعمل بها. ويكون ما عدا المستعملَ منها عُدَّةً لحاجة إن عَنَّتْ يوماً ما في لفظ مستغلق فيما يقرأ من الكتب. فإن أوغل في علوم اللغة حتى يحكم «خلق الانسان» لثابت[4] و«الفرق» له، و «المذكر والمؤنث» لابن الأنباري و«الممدود والمقصور والمهموز» لأبي علي القالي[5] و «النبات» لأبي حنيفة أحمد بن داود الدِّينَوَري[6]، وما أشبه ذلك فحسنٌ بخلاف ما قلنا في علل النحو، لأنّ اللغة كلّها حقيقة وذات أوضاع صِحاح

(١) محمد بن الحسن الزبيديّ: نَحْويٌّ أندلسيّ (- ٣٧٩ / ٩٨٩).
(٢) محمد بن السريّ: نَحْويّ بغداديّ (- ٣١٦ / ٩٢٨).
(٣) أبو عُبَيْد القاسم بن سَلّام: عالم لُغَوِيٌّ جليل(-٢٢٤ / ٨٣٨)وكتابه «الغريب المصنّف» مشهور.
(٤) ثابت بن أبي ثابت أبو محمد اللغوِي: من أصحاب أبي عُبيدِ القاسم بن سلاّم(إنباه الرواة ١ : ٢٦١).
(٥) أبو علي القالي: لُغَويّ مَشْرِقِيّ هاجر إلى الأندلس (- ٣٥٦ / ٩٦٦).
(٦) أبو حنيفة الدينوري: لغوي مؤرّخ جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب (- ٢٨٢ / ٨٩٥).

وعبارات عن المعاني. ولو كانت اللغةُ أوسعَ حتى يكونَ لكلّ معنى في العالم اسم مختصّ به، لكان أبلغَ للفهم وأجلى للشك وأقرب للبيان، إلا أن الاقتصار على المقدار الجاري مما ذكرنا، والانصراف إلى الأهمّ والأوكد من سائر العلوم أولى.

٤ - وإن كان مع ما ذكرنا روايةُ شيء من الشعر فلا يكنْ إلا من الأشعار التي فيها الحِكَمُ والخير كشعر حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحَة رضي الله عنهم[1]، وكشعر صالح بن عبد القُدُّوس[2] ونحو ذلك، فإنها نِعْمَ العَوْنُ على تنبيه النفس. وينبغي أن يُتَجَنَّبَ من الشعر أربعة أضرب:

أحدها: الأَغْزَال والرقيق، فإنها تحثّ على الصَّبَابَة وتدعو إلى الفتنة، وتحضّ على الفُتُوَّة وتصرفُ النفس إلى الخلاعة واللذات، وتُسهِّل الانهماك في الشَّطارة والعِشق، وتَنْهَى عن الحقائق، حتى ربما أدّى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلاق العِرضْ وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات. . .

والضرب الثاني: الأشعار المَقُولَة في التَّصَعْلُك وذكر الحروب كشعر عنترةَ وعروة بن الوَرْد[3] وسعدِ بن نَاشِب[4] وما هنالك، فإن هذه أشعارٌ تُثير النفوسَ وتَهيجُ الطبيعة وتُسهِّل على المرء موارد التَّلف في غير حقّ، وربّما أدّته الى هلاك نفسه في غير حقّ، وإلى خسارة الآخرة. . .

والضرب الثالث: أشعار التغرُّب، وصفات المَفَاوِز والبيد المَهَامِهِ، فإنها تُسهّل التَّحَوُّل والتغرب وتُنْشِبُ المرء فيما ربّما صَعُب عليه التخلّصُ منه بلا معنى.

(١) هؤلاء الشعراء الثلاثة أيّدوا الرسول ودافعوا عنه.
(٢) صالح بن عبد القُدُّوس (حوالى ١٦٠/٧٧٧): شاعر حكيم اتُّهم بالزَّنْدَقَة.
(٣) عُرْوَةَ بنُ الوَرِدِ: شاعر جاهلي من الصعَاليك.
(٤) سعد بن ناشب: شاعر من الفُتَّاك في العصر الأمَوي (حوالى ١١٠/٧٢٨).

والضرب الرابع: الهجاء. فإنّ هذا الضرب أفْسَدُ الضروب لطالبه، فإنّه يهوّن على المرء الكونَ في حالة أهل السَّفَهِ...

ثمّ صنفان من الشعر لا يُنْهَى عنهما نَهْياً تامّاً ولا يُحَضُّ عليهما، بل هما عندنا من المُباح المكروه وهما: المدح والرثاء. فأمّا إباحتهما فلأنّ فيهما ذكر فضائلِ الموت والممدوح وهذا يقتضي للراوي ذلك الشعرَ الرغبةَ في مثل ذلك الحال، وأمّا كراهتنا لهما فإنّ أكثر ما في هذين النوعين الكذب، ولا خير في الكذب...

٥ - فإذا بلغ المرء من النحو واللغة إلى الحد الذي ذكرنا فلينتقل إلى علم العدد، فَلْيُحْكم الضربَ والقَسْمَ والجمع والطرح والتسمية، وليأخذ طَرفاً من المساحة، وليُشْرف على الأرثماطيقي - وهو علم طبيعة العدد - وليقرأ كتاب أقليدس قراءةَ متفهّم له، واقف على أغراضه، عارف بمعانيه، فإنه علم رفيع، به يُتَوَصَّل إلى معرفة نُصْبَة الأرض ومِسَاحتِها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها، والوقوف على براهين كلّ ذلك وعلى دوران الكواكب وقطعها في البروج، فهذا علم رفيع جدّاً يقف به المرء على حقيقة تناهي جرمِ العالم، وعلى آثار صَنْعَةِ الباري في العالم... وبمطالعته كتاب المَجِسْطي يعرف الكسوفات وعروضَ البلاد وأطوالَها والأوقاتَ وزيادةَ الليل والنهار والمدَّ والجزرَ ومنازلَ الشمس والقمر والدَّرَاريّ. وأمّا الإيغال في المِسَاحة فمنفعته في جلب المياه ورفع الأثقال وهندسة البناء وإقامة الآلات الحكمية.

٦ - وأمّا الاشتغال بأحكام النجوم فلا معنى له، ولا يخلو من أن يكون ما يحكمون من قضاياها حقاً أو باطلاً، إذ لا سبيلَ إلى قسم ثالث، فإنْ كانت حقّاً فما لها فائدة إلّا استعجال الهمِّ والغمّ والبؤس والنَّكَدَ، لِتَوقُّع المرض والنكبات وموتِ الأحبّة وانقطاع كمّية العمر ومعرفة فساد المولد...

مناقشات وتمرينات

١ - ينقسم منهج ابن حزم في قسمين أ - إتقان علوم العرب ب - إتقان علوم الأوائل: هل الترتيب هنا مقصود ولماذا؟

٢ - ما هي الحدود الأوّليّة التي يوقف عندها في كلّ علم؟

٣ - ما رأيك في موقف ابن حزم من الشعر؟ تتبع هذا المنزع الأخلاقي في النظرة إلى الشعر عند آخرين غير ابن حزم.

٤ - يُعَد منهج ابن حزم «ثورياً» في زمنه من غير وجه. وضح ذلك.

٥ - لماذا لم يُوجد ابن حزم في منهجه مجالاً للفلسفة والمنطق وهو الذي ألّف في المنطق ودرّس الفلسفة واستهدف هجوماً حادّاً بسبب ذلك من معاصريه؟

-٧١-

نصائح موجهة إلى المُريد
للغزالي *

أيها الولد، إني أنصحك أن تدع أربعة أشياء:

فأحدها: ألاّ تناظرَ أحداً في مسألة ما استطعت، لأنّ فيها آفات كثيرة. فإثمُهَا أكبرُ من نفعها، إذ هي منبعُ كلِّ خُلُقٍ ذميم كالرِّياء والحسد والكِبْر وَالحقد والعدواة والمُباهاة وغيرها. نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص أو قوم، وكانت إرادتك فيها أن يَظْهَرَ الحقُّ ولا يضيع، جاز البحث لكنْ لتلك الارادة علامتان:

إحداهما ألاّ تُفرقَ بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك.

والثانية ان يكون البحث في الخلاء أحبَّ اليك من أن يكون في الملأ. واسمع إني أذكر لك ها هنا فائدة: اعلم أنّ السؤال عن المشكلات عَرْضُ مرض القلب إلى الطبيب... والعالم الكامل لا يعالج كلَّ مريض، بل يعَالج من يرجو قَبولَ المعالجة والصَّلاح، وإذا كانت العلّة مُزْمِنةً أو عقيمًا لا تقبل العلاج، فحذاقةُ الطبيب فيه أن يقول: هذا لا يقبل العلاج، فلا يشتغلُ فيه بمداواته لأنّ فيه تضييعَ العمر.

ثمّ اعلم أنّ مرض الجهل على أربعة أنواع:

(*) من رسالة «أيها الولد» (بيروت، ١٩٥٩) ص ٤٥ - ٥٩.

أحدها يقبل العلاج والباقي لا يقبل. أمّا الذي لا يقبل العلاج فأحدها من كان سؤاله واعتراضه عن حَسَدٍ وبغْضَةٍ، فكلّما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه، فلا يزيده ذلك إلاّ بغضاً وعداوة وحسداً. فالطريق ألاّ تشتغل بجوابه...

والثاني أن تكون علّته من الحماقة وهو أيضاً لا يقبل العلاج، كما قال عيسى، عليه السّلام: «إني ما عَجَزْتُ عن إحياء الموتى وقد عَجَزْتُ عن معالجة الأحمق». وذلك رجلٌ يشتغل بطلب العلم زمناً قليلاً ويتعلّم شيئاً من العلم العقليّ والشرعيّ فيسأل ويعترض من حماقته على العالم الكبير الذي أمضى عمره في العلوم العقليّة والشّرعية، وهذا الأحمق لا يعلم ويظنّ أنّ ما أشكل عليه هو أيضاً مُشْكِلٌ على العالم الكبير. فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة. فينبغي ألاّ تشتغل بجوابه.

والثالث أن يكون مسترشِداً، وكلّ ما لا يَفْهَمُ من كلام الأكابر يُحْمَلُ على قصور فهمه، وكان سؤاله للاستفادة، لكن يكون بليداً لا يدرك الحقائق، فلا ينبغي الاشتغال بجوابه أيضاً...

وأمّا المرض الذي يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشِداً عاقلاً فَهِمًا، لا يكون مغلوباً بالحسد والغضب وحبّ الشهوة والجاه والمال. ويكون طالبَ الطريق المستقيم؛ ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وَتَعَنُّتٍ وامتحان.....

والثاني ممّا تَدَعُ: هو أن تحذر من أن تكون واعظاً ومذكّراً لأنّ فيه آفةً كثيرة. إلاّ أن تعمل بما تقول أوّلاً ثمّ تعظ به النّاس. فتفكّر فيما قيل لعيسى عليه السّلام: «يا ابن مريَم عِظْ نفسَك فإن اتّعَظْتَ فَعِظ النّاسَ وإلاّ فَاستَحِ من ربّك»...

والثالث ممّا تدع: ألاّ تخالطَ الأمراء والسلاطين ولا تراهم، لأنّ رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة، وإن ابتليتَ بها فدعْ عنك

مدحَهم وثناءهم، لأنّ الله تعالى يغضب إذا مُدحَ الفاسق والظّالم. ومن دعَا لطول بقائهم فقد أحبّ أنْ يُعصى الله في أرضه.

والرابع مما تدع: ألاّ تقبلَ شيئاً من عطاء الأمراء وهداياهم، وإن علمت أنها من الحلال. لأنّ الطّمع منهم يُفْسِدُ الدّين، لأنّه يتولد منه المداهنة، ومراعاةُ جانبهم والموافقة في ظُلْمِهم. وهذا كلّه فَسَادٌ في الدين، وأقَلُّ مضرّته أنّك إذا قَبلتَ عطاياهم وانتفعت من دنياهم أحببتَهم، ومن أحبَّ أحداً يحبُّ طولَ عمره وبقاءه بالضّرورة، وفي محبة بقاء الظّالم إرادةُ في الظلم على عباد الله تعالى، وإرادة خراب العالم. فأيُّ شيء يكونُ أضرَّ من هذا للدّين والعاقبة؟ وإيّاك إيّاك أنَ يخدعك استهواء الشياطين، أو قولُ بعض الناس لك بأنّ الأفضل والأولى أن تأخذ الدّينارَ والدرهمَ منهم وتُفرِّقَهما بين الفقراء والمساكين فإنهّم يُنْفِقُون في الفِسْقِ والمعصية، وإنفاقُك على ضعفاء النّاس خير من إنفاقهِم...

مناقشات وتمرينات

١ - حدّد بإيجاز الأمور الأربعة التي ينصح الغزالي بتجنّبها.

٢ - ما هو تحديد «الاحمق»؟

٣ - هل تنفع نصائح الغزالي كلَّ طالب؟ ما الذي يستطيع أن يُفيده منها الطالبُ في أيّامنا هذه؟

-٧٢-

مشكلة الامتحانات

لطه حسين *

وهناك مشكلةٌ عسيرةٌ إلى أبعدِ حدود العُسر، سخيفةٌ إلى أقصى غاياتِ السَّخَف، يتأثّر بها تعليمنا كلُّه على اختلاف أنواعه وألوانه أشدَّ التأثر، فيفسدُ بها أعظمَ الفساد، وهي لا تُفسد التعليم وحده ولكنها تُفسدُ معه الأخلاق وتكاد تجعل بعضاً لبعض عدوّاً. وهي لا تفسد التعليمَ والأخلاقَ فحسبُ ولكنها تفسد السياسةَ أيضا، وتكاد تجعل التعليمَ خطراً على النظام الاجتماعي نفسه. وأظنك قد عرفت هذه المشكلة، ولم تَحْتَجْ إلى أن أسميَها لك، فهي مشكلة الامتحان.

وكلّ ما أرجوه منك ألاّ تظن بي الغُلُوَّ والإسراف، وأن تفكّر معي بأن مشكلةَ الامتحان قد أصبحت خطراً على التعليم وعلى الأخلاق وعلى السياسة، وعلى أشياء أخرى قد تستبين أثناء هذا الحديث.

الأصلُ في الامتحان أنه وسيلةٌ لا غاية، وأنه مقياسٌ تعتمدُ عليه الدولة لتُجيزَ للشاب أن ينتقل من طور إلى طور من أطوار التعليم، وهو مستعدّ لهذا الانتقال استعداداً صحيحاً أو مقارباً، هذا هو الأصل. ولكن أخلاقنا التعليمية جرت على ما يناقض هذا أشدّ

(*) من كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» (القاهرة، ١٩٣٨) ١: ٢٠٥-٢١٢.

المناقضة، فَفَهِمْنا الامتحانَ على أنّه غايةٌ لا وسيلة، وأجرينا أمور التعليم كلَّها على هذا الفهم الخاطىء السخيف، وأذعنا ذلك في نفوس الصبية والشباب، وفي نفوس الأُسَر، حتى أصبح ذلك جزءاً من عقليتنا، وأصلاً من أصول تصوّرنا للأشياء وحكمنا عليها. فالأسرةُ حين ترسل ابنها إلى المدرسة تفكر في تعليمه من غير شكّ، ولكنها لا تفهم هذا التعليم إلّا مقرونا بالامتحان الذي يدل على انتفاع الصبي به ونجاحه فيه. وهي من أجل ذلك تعيش معلّقةً بآخر العام، وبهذه الورقة التي ستأتيها من المدرسة أو من الوزارة لتُنْبِئَهَا بأن الصبي أو الفتى قد جاز الامتحان فنجح أو أخفق فيه.

ولا يكاد الصبي يبلغ المدرسةَ ويستقرُّ فيها أيّاماً حتى يشعرَ بأنّ أمامه غايةً يجبُ أن يبلغها، وهي أن يؤدي الامتحان وينجح فيه؛ يشعر بهذا في المدرسة من معلّمه ومن أتْرَابِهِ. ويشعر بهذا في البيت من أبويه اللذين قد يجهلان من أمور التعليم كلّ شيء إلّا أنّه ينتهي إلى الامتحان.

وإذن فالصبيّ منذ يدخل المدرسة موجّه إلى الامتحان أكثر مما هو موجّه إلى العلم، مهيّأ للامتحان أكثر مما هو مُهَيَّأ للتعلّم، وإذن فليس المهم عند الصبيّ أن ينتفع بالدرس، وأن يجد فيه اللّذة والمُتْعَة، وأن يستزيد منها، وإنّما المهم أن يستعد للامتحان وللنجاح فيه ليتفوق على أترابه أو ليحتفظ بمكانته بينهم، وليُرْضِيَ أبويه ويسرَّهما ويحقّق ما يعقدان به من أمل، وَيَنُوطَانِ من رجاء، وليظفر بما يمنّيانه من مكافأة وجزاء.

والصبي ليس مبالِغاً في شيء من هذا، وإنّما هو صورة لرأي الأسرة ورأي المعلمين ورأي وزارة المعارف بنوع خاص. وإذن فقد استحالتِ المدرسةُ إلى مصنعٍ بغيض يُهيِّىء التلاميذ للامتحان ليس غير. وقد يجوز أن يجني التلاميذ من هذا المصنع شيئاً آخرَ غيرَ

الاستعداد للامتحان، ولكنّي أؤكد لك أنّ هذا ليس من عمل المدرسة وإنّما هو نتيجةٌ لطبيعة الأشياء، فطبيعة العقل الانساني والمَلَكَات الإنسانية كلّها أنها تتأثر بما تزاول من الأشياء، وطبيعة العلم، مهما يكن ممسوخاً جافًّا مشوّهاً، أنّه يُفيد المَلَكَاتِ الإنسانيةَ إذا اتّصل بها.

فالتلاميذ يتعلّمون في المدرسة أحياناً ولكنهم يتعلمون برغمهم وبرغم المدرسة وبرغم المعلّمين.

وعلى هذا النحو تمضي حياة التلميذ منذ يدخل المدرسة الابتدائية إلى أن يخرج من المدرسة الثانوية...

وأظنّك توافقني على أنّ هذا كلّه شيء وأنّ التعليم شيء آخر، وأظنّك توافقني أيضاً على أنّ تَصَوُّرَ الامتحان على هذا النحو قَلْبٌ للأوضاع، وجَعْلُ التعليمِ وسيلةً بعد أن كان غاية، وجعلُ الامتحان غايةً بعد أن كان وسيلة. وحسبك بهذا فساداً للتعليم، ولكن هذا لا يُفْسِدُ التعليمَ وحدَه كما قلت، بل هو يُفسد العقل والخُلُقَ أيضاً. وما رأيك في الصبي الذي ينشأ على اعتبار الوسائلِ غاياتٍ والغاياتِ وسائلَ، فيفهم الأشياء فهمًا مقلوباً، ويحكم عليها حكمًا معكوساً!؟ أتظنّه يستطيع أن يفهم أموره الدراسية هذا الفهم المقلوب ويحكم عليها هذا الحكم المعكوس ثم يفهم أمور الحياة فهمًا صحيحاً ويحكم عليها حكمًا مستقيمًا!؟ كلاّ، لأنّ الله لم يجعل لرجل قلبين في جوفه، ولا عقلين في رأسه، وإنّما جعل له قلباً واحداً وعقلاً واحداً. فإذا أفْسَدَتِ المدرسةُ هذا العقل وذلك القلب فقد أفسدت التلميذ كله وقضت عليه بأن يفكّر تفكيراً مُعْوَجّاً وأن يشعر شعوراً مختلطاً وأن يسير في الحياة سيرة ملائمة لهذا الاختلاط وذلك الاعوجاج.

ومن هنا لا ينبغي أن نُنْكِر ما نراه من عناية شبابنا بالتافه من الأمر، وإكبارهم للسخيف، وإعراضهم عن عظائم الأمور، بل عجزهم عن الشعور بعظائم الأمور والأشياء ذات الخطر. لا ينبغي أن

نُنْكِرَ ذلك، لأنّ هؤلاء الشباب ينشأون على العناية بالامتحان وهو تافه، وعلى إكبار الشهادة وهي سخيفة، وعلى الإعراض عن العلم وهو لُبُّ الحياة وخُلاصتُها.

ثمّ لا يقف الأمر عند هذا الحدّ، فما دام الامتحان غايةً فالنجاحُ فيه هو غايةُ الغايات. إذن فموسم الامتحانات هو من أهمّ المواسم الوطنية أثراً في حياتنا وتغلغلاً في أعماق هذه الحياة. وهو من هذه الناحية يمسّ السياسة من قريب جدّا فأين الحكومة التي لا تحفلُ بإرضاء الجمهور ولا تسلُك إلى هذه الغاية كلَّ سبيل؟ وأين الحكومة التي لا تتجنّب إسْخاطَ الجمهور ولا تبتغي إلى ذلك ما وَسِعَها من الوسائل؟ فإذا ظهرت نتيجة الامتحان رديئةً غير مرضية لكثرة التلاميذ وكثرة الأسر بالطبع، شاع السخط وعمّت الشكوى واشتدّ الضغط على الحكومة، واضطرت الحكومة إلى أن تفكّر في الأمر وتلتمسَ له علاجاً، وعلاجاً ديماجوجياً يتملّق شهوة الأُسَر في نجاح أبنائها بالحق وبغير الحق. وأنواع العلاج كثيرة، منها المقبولُ المحتمل، ومنها الذي يُقْبَل على كُرْهٍ وبشيء من المَضَضِ، ومنها الذي لا يُطاق.

أنواع العلاج كثيرة، فقد يجوز أن يعاد الامتحان في أول العام الدراسي المقبل للذين رسبوا في آخر هذا العام حتى لا تضيع عليهم سنة من حياتهم.

وقد يجوز أن يعاد الامتحان للراسبين في بعض الموادّ دون بعضها الآخر: في الموادّ التي رسبوا فيها مثلاً أو في الموادّ التي يختارونها إن كانوا قد رسبوا في المجموع، ولم يرسُبُوا في مادة بعينها. وهناك طريقة أخرى أيسر وأهون وأحبّ إلى التلاميذ والأسر وهي تخفيض الدرجات التي ينجح بها الطلاب في الامتحان. وهناك طريقة أخرى أيْسَرُ وأهْوَنُ من هذه وأحب إلى التلاميذ والأُسَر أيضاً وهي تخفيض

درجات النجاح بعد أن يتم الامتحان بحيث ينجَح الراسبون بأمر من الحكومة لا بقرار من لَجْنَةِ الامتحان. وكلّ هذه الطرق قد جرّبناه وبلونا حُلْوَهُ وَمُرَّهُ وَعَرَفْنَا نتائجه في قيمة التعليم والتربية، وفي الأخلاق، وفيما يكون بين المعلّمين من صلة ثمّ في السياسة والنظام آخر الأمر.

والغريب - بل لا غرابة في ذلك - أننا أخذنا نجرّب هذه الطرقَ الخطرة على التعليم والأخلاق والسياسة منذ مَنَّ الله علينا بالنظام الديمقراطي وبالحياة النيابية التي نُحِبّها ونفتديها بالمُهَج والنفوس! وتعليل ذلك يسير. فالسياسة في الحياة الديمقراطية محتاجةٌ إلى الجمهور، وهي مضطرة إلى أن تُرْضِيَه، فإذا كانت حاجتها إلى الشباب، وإلى الشباب الذي يختلف إلى المدارس بنوع خاص، كان الأمر أظْهَرَ من أن يحتاج إلى بيان. ولكن ذلك لا يمنعه أن يكون شنيعاً مُنْكَراً، مُفْسِداً للتعليم، مُفْسِداً للأخلاق، مُفْسِداً للسياسة، مُسيئاً للسُّمْعَةِ الوطنية في الخارج أيضاً.

وكلّ هذا يأتي من أننا أكبرْنَا الامتحانَ أكثر مما ينبغي، وجعلناه غاية، وَحَقُّه أن يكون وسيلةً، وسيلةً هيّنةً ضئيلةَ الشأن.

ليس هذا كلُّ ما في الامتحان من شرّ. فللامتحان آثارٌ سيئة تصل إلى الأخلاق من طريق قريبة يسيرة جداً، أظْهَرُها الغِشُّ الذي يأتي من حِرْصِ التلميذ على أن ينجح بأيّ حال من الأحوال.

وليس الغِشُّ هو الذي يُقْتَرَفُ ويُضْبَطُ أثناء الامتحان فحسب، بل هناك غِش آخرُ لعلّه أشدّ من هذا خطراً، غِش خفيّ نُحِسّهُ ولا نكاد نَدُلُّ عليه، ولعلّ أخلاقنا الدراسية أن تُبيحه أحياناً. غِش يشترك فيه المعلّمون والمتعلّمون حين يُهيِّئ المعلمون تلاميذهم تَهْيِئَةً خاصة لأداء الامتحان، وحين يقفون بهم فيطيلون الوقوف عند هذا الجزء أو ذاك من أجزاء البَرْنامج، وحين يعيدون معهم المقرّر فيلحّون عليهم

في استذكار هذه المسألة أو تلك، وحين يُخْضِعونهم لامتحان التجربة أو الامتحان الأبيض كما يقول الفرنسيون قبل الامتحان النهائي. وحين ينشرون لهم الكتب التي تشتمل على نماذج للأسئلة التي يمكن أن تُعْرَض في الامتحان.

كلّ هذا غش يختلف قوّة وضعفاً، ولكنه مُفْسِدٌ للتعليم، ومُفْسِدٌ للأخلاق أيضاً.

وأنا أعلم أن الامتحان شرّ لا بدّ منه، ولكن الغريب أننا لا نَتَخَفَّفُ من هذا الشرّ ولا نكتفي منه بأقلّ قَدْرٍ ممكن. وإنّما نتزيّد منه ونُثْقِلُ به المعلمين والمتعلمين، فَنضْطَرُّهم إلى الشرّ ما وَسِعَنا ذلك.

مناقشات وتمرينات

١ - كيف يكون الامتحان سبباً في:
(أ) فساد التعليم
(ب) فساد الأخلاق
(ج) فساد السياسة.
٢ - لماذا أصبحت الامتحانات - في نظر الكاتب - على هذا النحو من التأثير السلبي؟
٣ - إذا قلت إنّ «الامتحان شرّ لا بدّ منه» - كما يقول الكاتب - فهل يعني هذا عجز الإنسانية عن استحداث نظام آخر؟
٤ - كيف تكون وسائل الإصلاح للوضع التعليمي في نظرك؟

-٧٣-

الدواء في الثُّكْنَة
لمارون عبّود *

عندما دخل عليَّ المقدمَ زَيْنُ الدين ومعه طبيب مصلحةِ التدريب الدكتور فؤاد أبو حمزة تهلّلتُ لَمَّا عَرَفْتُ أنهما قادمان بمهمة تربوية علمية، وهي التدريب العسكري في المدارس الثانوية. إنَّ ما كان حِبْراً على ورق جاء من يُصَيِّرُهُ عملاً نافعاً مفيداً.

وعادت بي الذكرى إلى ما كتبت في نقاش حول التربية الوطنية، فقلت حينذاك: إنّ دواء الداء الذي نحن فيه ليس في المدرسة، إنّه في الثُّكْنَة العسكرية، فهي البُوْتَقة التي تطبع أبناء الوطن على غرارٍ واحد، فينسون نعَرَاتهم وعَنْعَنَاتهم.

ثمّ مرت الأيام، وأخيراً أُقِرَّ التدريبُ العسكري في المدارس، فَشَكَرْنا وانتظرنا ساعةَ التنفيذ لنرى طلائع التجنيد الذي يُرْعِبُ اسمُه الكثيرين منّا، كأنه الغُول الذي خوَّفونا به صغاراً.

كان عهد ومضى، كان ذلك يومَ كان سيفُ اللبناني مِخَدَّته، يومَ كان يقول، ككلّ عربي: «أيقتلني والمَشرفيُّ[1] مُضَاجِعِي» «ولا يُنْكِرُونَ القولَ حينَ يقول».

(*) من كتاب «سبل ومناهج» (بيروت، ١٩٥٥) ص ١٥٤ - ١٥٨.
(١) المشرفي: السيف.

كان عهدٌ ومضى، عهدُ الرجال القَشْمَريِّينَ[1] والأبطال المشمرين، وجاء دور بنطلون الشرلستون، عرض ساقه أربعون سنتمتراً، يلفّ سيقان الفتيان المُرَهْرَهَة[2]، فوق مَرْمَر المَقاصِف[3]. كانت الشراويل الخشنة تمر بالقندول المعجرم[4] مرّ الكرام، وصارت بَذْلاتُ السموكن تترحّم على طَيْلسان ابن حرب[5]...

رَحِمَ الله عهدَ اللُّبَّادَة والكوبران[6]، والصِّدْريَّةِ المزرّرة كأنها الدرع، وزُنّار الكَشْمير والعباءةِ المُخَطَّطَةِ.

ليس فيما أقولُ حِطَّةٌ من قدر النفوس والهِمَم، فالبلاد لا تزال تنجب الغَطَاريفَ [7] ولكن تربيتنا وأنظمتنا تُخْمدُ الهمم وتميتُ الإباء والشَّمَمَ.

شاءت دول أوروبا السبعُ أن تُسْبغ ثوبَ حمايتها على لبنان فوضعت له ذلك النظام المُخَنَّث المشلول، النظام الذي خنق الرجولة في صدور اللبنانيين فأصبحوا يرتعدون إذا صَجَّت الخيلُ والبارود. كان اللبناني يستقبل المنايا كالحاتِ ولا يُلاقي الهَوانَ[8]، فصار يُؤْثِرُ العافية. اتكل على (الدول السبع) فعاش يأتيه رزْقُه رَغَداً، ولم يرحل لبغية المكارم، ولماذا لا يَقْعُدُ الزِّبْرقان وهو الطَاعِمُ الكَاسي[9].

---

(١) يريدَ ذَوي الحمية والصلابة، وليست اللفظة من «قاشمر» التركية التي تعني المُضحك او المُهرّج.

(٢) المُرَهْرَهَة: البَضّة الناعمة.

(٣) مرمر المقاصف: المرمر هو الرُّخام، والمَقاصف: أماكن اللهو، يعني «مربعات الرقص».

(٤) القندول: شجر شائك ذو زهر أصفر، المُعَجْرَم: الكثير العقد.

(٥) طيلسان ابن حرب: مَضْربُ المَثَل لكثرة ما قيل فيه من شعر، أهداه محمد بن حرب إلى الحمدوي الشاعر، وكانَ الطَّيْلسَان خلِقاً، ولكن الكاتب هنا يشير إلى الشُّهرة فقط.

(٦) الكوبران (أو الكبران) نوع من الملبوس يكون فوق الصدرية.

(٧) الغَطاريف: جمع غِطريف وهو السيد الشريف السخيّ.

(٨) من قوْل المتنبي:

غيرَ أنّ الفتى يُلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يُلاقي الهوانا

(٩) الزِّبْرقانُ بن بَدر، وفيه إشارة الى قول الحُطَيْئَةِ يهجو الزبرقان:

دَعِ المكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها وَاقْعُدْ فإنّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي.

كثيراً ما سمعتُ: هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان. إنّ هذا المرقد الذي تغنى به الشعراء قد صيَّر اللبنانيين أعنزاً ونعاجاً. قَتَلَ الإباء وأخْمَدَ المُروءات فأصبحنا نُغْلِقُ البابَ ونَعْيَا عن ردّ الجواب. وهل يعزّ وطن بلا جنود؟

أمَّا شَرُّ العدوّ الطارق فَتَحادينا مِلَلاً ونِحَلاً وأُسَراً وبيوتاً، وتقسَّمَتْ مدُننا وقَصَباتُنا حارات وأحياء، فَصَح فينا اليومَ ما قاله شاعرُنا في الأمس:

وَأَحْيَاناً على بَكْرٍ أخِينا إذا ما لَمْ نَجِدْ إلّا أخانا

رَحِمَ الله عهداً كان فيه اللبنانيُّ فلاحاً ومُحارباً في وقت معاً. يَنْحتُ صخورَ جبله مسالماً، ويَهُبّ للذَّودِ عن حَوْزَتِهِ مهاجماً.

كان يسوق ثيرانه إلى الحقل ليحرثَ أرضَ آبائه وأجداده. يعاونه بنوه وزوجُه، كلُّهم عمالٌ يدهم واحدة، حتى إذا دَاعٍ دعا وَسَمِعَ الصوتَ في الحقل لم يرجع إلى بيته. يُلْقي عن بقراته النِّير، ويسوقها إلى مَراحها ابنُه الصغير، وتمضي الأم لإعداد الزاد.

ها هو يستبدل المَسَّاسَ[1] بالطَّبْنْجَةِ والسيفِ، والغِدارة والقرابينة[2]، وجراب البذار يصبح كِنَانة[3] الفلاح البطل. وإلى أين؟ هو يُلَبِّي صوتَ الداعي ولا يدري. يَمْضي مسرعاً ووجهَتُه الصوْبُ الذي طَرحَ منه الصوتَ. لا يعنيه ماذا. كذا نشأ وتعوّد، وهكذا عاش كريماً ومات عزيزاً.

اطْرَحِ الصوتَ يا صَبيُّ، هكذا يخاطب ابنَه ورفيقَه إلى المُعْمَعَة. لعلّ أحداً لم يسمع الصوت فيعتب علينا. نَادِ فيسمعوا

---

(١) المساس: المنخس الذي يستعمله الحزاث لحث البقر.

(٢) الطبخة والغدارة والقرابينة: أسماء اسلحة بارودية.

(٣) الكنانة: جعبة السهام.

ويجيئوا معنا. نادِ يا ابني نَادِ، لا يبقى في بيته إلاّ الجبان والعاجز. أسْرِعْ يا ابني، عجّل قبلما يفوت الفَوْتُ.

في ذلك الزمان كان لبنان أشَمَّ، وذلك العهد يعود إن عادت إليه الجندية ماحقةً النعرات الطائفية. فلا يَمَّحي تبلبُلنا القومي ما لم تُصْهَرْ نُفوس ابنائنا في بوتقة واحدة هي بوتقة الجندية. وإلاّ بقينا نماذجَ وأشكالاً تزدريها الأمم وتحتقرها الشعوب.

لا يُرجى من المدارس أن تخلقَ للوطن رجالاً. فمدارسنا كما هي حالها، لا تُخَرِّج إلاّ كلَّ مُخَنَّثٍ رخو. إنها مضطربةُ الميول، متعدّدة النزعات والأنظمة. في مناهجها سُمٌّ ودَسَم. إنّ (ولدنا) عُرْضَةٌ لعوامل شتى مُفْسِدةٍ، أهمّها البيت المُسْتَضعَفُ والمدرسة المُسْتَرخِية.

أصبحت المدارس لتخاذلها ولتنافسها، ولسقوط سلطةِ الآباء عن بنيهم تراعي طلاّبها، فانفرج بركانُ الحريّة المدرسية عن دائرة واسعة خطرة. بات النظام مهدداً وخرج الشبـان أقربَ إلى الفوضى منهم إلى النظام، ولم يتأصّل فيهم شيء من العادات القومية لأنهم مَسُوقُون بِسياط التقليد.

العادة تُكَوّنُ الأخلاق التي يحتاج إليها المواطن، والمدرسة عاجزة عن توطيد هذه الأخلاق في معظم الدول العريقة في القدم، فكيف تطلبها من مدارسنا البابلية(١)؟

بالتكرار تستقر فينا الأخلاق التي تحتاج إليها الأمّة، ومدارسنا تريد ذلك ولا تقدر عليه لتباين أهدافها وتنوّع أغراضها ومراميها. إنها تُعَلِّمُ ولكنّها لا تربّي الخُلُقَ القوميَّ الذي لا وطن بدونه. هذا الخلق لا يستقرّ في أبنائنا إن لم يصبح من عاداتهم الراسخة. والعادة لا ترسخ وتصبح خلقا إلاّ بالتكرار. ولذلك قالوا: من شبّ على شيء شاب عليه. العادة تكوّن الرجل تكويناً يقتضيه الزمان والمكان،

(١) البابلية: المختلفة اللغات (أي النزعات والثقافات ... الخ).

ومدراسنا جميعها عاجزة عنه لأنّ لكلّ مدرسة منها نَزْعَةً وغرضاً.

فلا رجاء لنا ولا أمل إلاّ بالجندية الواجب فرضُها على كلّ مواطن، ليُخْلَقَ فينا بالتكرار والعادة ما يسمّيهِ علماء الأخلاق، بالوَازع الباطني. إنّ الوَازعَ الباطني مفقودٌ عندنا، ولا أثر له في أكثر شخصياتنا المنحلّة. كلّنا يرجو الثواب، كلّنا يأبى الدَّنِيَّةَ - إن أباها - لا لأنها دَنِيَّةٌ بل لِمَآربَ أخرى. فالمأمور لا يُتِمّ عمله إلاّ خوفاً من أن يتقلقل تحتَه كرسيُّه أو خوفاً من الفضيحة. أمّا إباء العَارِ لأنّه عار فلا بدّ له من وازع باطنّي نَامٍ في الصدور.

(نظام عسكريّ) كلمة كثيراً ما سمعتها من إخواني القرويين. إذا وصفوا رجلاً دقيقاً مثابراً على عمله، لا يتوانى ولا يتكاسل، ولا يتأخّر ولا يُبطىء، أثْنوا على عمله وهمّته قائلين: نظام عسكري.

أجل، إن المدرّب العسكري هو المربي الأكبر لا نحن، والثُكْنَةُ العسكريّة هي مدرسة الوطن. عند عتبتها ينسى الطالب مِلّته، وتحت سقفها يصافح ابن بلده غير ناظر إلى ملّته ودينه.

لا وطن بـلا حدود، وحـدود الوطن تُخُومُهُ الصحيحـة مخيّم جنوده. وهنا يَطِيْبُ لي أن أوجّه إلى الجندي اللبناني الذي له في نفسي أسمى الاحترام:

إنّ يدك الكَلّةَ يا أخي الجندي، لَنَقِيّةٌ شريفة طاهرة فلا تَمُدَّها إلى مواطنيك إلاّ مضطراً.

إنّ ثوبك الخشن لأرخم من البرفير والأرجوان، فاحفظه من الوسخ والتلطيخ. لست أعني لَطَخَاتِ الزيت والدُّهْن، بل الـذي لا يمحوه الغسل فافهم عني.

إنّ سيفك مُغْمَدٌ إلى حين، فلا تَدَعْهُ يصدأ.

إنّ بندقيّتك مِجَنُّ الوطن، فتفقّدها كلَّ يوم.

إنّ الجندي مُحْتَرَمٌ ونبيـل ومسؤول، فَلْيَرْعَ احتـرامك صـدق

طَويّتك وصُنْ نُبْلَكَ بجمال خُلُقِكَ، وعزّزِ المسؤولية بالحقّ والعدل.

احفظِ القانونَ يَحْفَظْكَ ويحفظْنا.

كن شجاعاً، فالشجاعة أُسُّ الفضائل - حتىّ عند الرُّهبان - فكيف بها عند الجنديّ.

لا تَظُنَّ عملك يدوياً وسيرك آلياً. أنت مسؤول عن عِلْمَيْنْ: عِلْمٍ عامّ، وعِلْمٍ عسكريّ. فَازْدَدْ منهما ما استطعت كلَّ يومٍ، بل كلَّ ساعة.

لا تَرْجُ المهابةَ عند يد التهويل والتنكيل والعدوان، فالوعورة والخشونة تُذهب الهَيْبَةَ والوَقار.

إنّ يد القانون طويلة فلا تُقَصِّرها بَمدِّها. إنّ خير شعار لـك يا أخي الجندي، كلمة زميلك زيادِ ابنِ أبيه: شدّة في غير عنف، وَلِينٌ في غير ضعف.

اعرفِ القانون وَطَبِّقْهُ، تَعْرِف قدرَك وتحفظْ هيبتك.

مناقشات وتمرينات

١ - لماذا يعبّر الكاتب عن يأسه من دور المدرسة؟ لو عالجت المشكلةَ من زاوية «المدرسة» فكيف يكون العلاج؟
٢ - ما هي الغايات التي يهدف إليها الكاتب من مقاله هذا؟
٣ - ما العيوب الاجتماعية التي يكشف عنها الكاتب؟
٤ - هل توافق الكاتب على أنّ عنصر الانقاذ للوضع المتردي لن يكون سوى عنصر واحد؟
٥ - ما رأيك في النصائح التي يقدّمها الكاتب للجنديّ؟
٦ - علّق على أسلوب مارون عبود وبيّن أهمّ مميزاته.

-٧٤-

أمطـــار

لرفيقة الطبيعة *

- قليلاً من الصمت...
- من فضلكِ، سأقرأ يا سيّدتي.
- لا. اصمت أنت قليلاً. «عزيز» اقرأ أنت.

الأمطار تغسِل الزجاج، وتُعيد غَسْلَه، لذلك لم تسمع ما كانت تتراشقه شفتا «عزيز». إن الأمطار المجنونة تُقْحِمُ نفسَها إقحاماً في الأعين المحدّقة بها، المحتجبة عنها بالزجاج، أيُّ شيء تريد غَسْلَه هذه الأمطار؟ منذ يومين تهطل، تهطل.

إنّ الآثامَ أشدّ قَتَامةً في النفوس من أن تتأثّر بصَفَعاتٍ مائية، والأوساخ في الضمائر محتمية بالسقوف، وَخَلْفَ الأبواب الكبيرة تَكْمُنُ الأوساخ، وهي من الانتشار بحيث عجز خدّام (البلدية) عن إزاحتها مرّة واحدة.

- لقد قرأ «عزيز» منذ لَحَظَاتٍ يا سيّدتي.
- ولكني لم أسمع شيئاً.

في الصيف الماضي طاف بذهنها أن تنتقل من مدرستهـا إلى

(*) من مجموعتها القصصية «رجل وامرأة» (الدار البيضاء، ١٩٦٩) ص ١٨-٢٧.

مدرسة بنات قريبة من حيّها، فقيل لها: هناك مفتّشة جديدة، يا لله. أهناك امرأة ستقتحم عليها الفصلَ الدراسيّ، لماذا؟ أمن أجل أن تستعرض معلوماتِها وثيابها، أم طريقتَها في الكلام؟...

- انتبهوا جيّداً أيها الأولاد، لقد أصبح الفصل مزبلة ملحقة بِبِرْكَةٍ وَحْل!

- نعم يا سيّدتي، إنهم يغوصون بأحذيتهم في الأوحال، ويلعبون الكرة في الحُفَر. ثم يأتون القِسْمَ.

- وأنت؟ ألا تفعل مثلَهم؟ انظر إلى قدميك.

- أنا يا سيّدتي أَقْطُنُ كوخاً بعيداً، قرب ساقية فاسدة لا تَكُفُّ عن السَّيَلَان.

- أنت تتمرّن على الكذبِ معي، فمن حولنا لا توجد أكواخ للسُّكْنى.

- مَعْذِرَةً يا سيّدتي. إنه صادق في قوله، فنحن نسكن كوخين متجاورين في ناحية (قطع ولد عايشة).

- لكن هذه الناحية بعيدة جدّاً عن المدرسة. فكيف تأتيان كلّ يوم؟

- نحن نستيقظ عادة في الخامسة والنصف صباحاً ونحمل طعامنا في مناديلَ لعدم تمكننا من تناول الغذاء في كوخينا. ولذلك رجوتُكِ يا سيّدتي أن تطلبي من مدير المدرسة إبدالَ وقتِ دخولي وهو السابعة والنصف صباحاً، وَجَعْلَه في العاشرة حتى أستطيعَ أن أنامَ الليلَ كلّه، لا كما تنام الديوك.

- إنّ المدير يرفض إبدال أوقات التلاميذ لأنه عَمَلٌ يُخِلُّ بنظام الفوجين معاً.

- المدير عنده سيّارة يا سيّدتي.

- أجل، فماذا يعني ذلك؟

- أنا أريد فقط أن أقول، إنّ أولاد المدير يروحون إلى مدارسهم في سيّارة، ولو كان المدير دون سيّارة لأعاد النظر في طلبي.

- يكفي هذا، «عزيز» إنني لم أسمعْك تقرأ، قِفْ، اقرأ.

وضاع منها مرّة أخرى انتباهها إلى عزيز.. هناك ثُغْرَةٌ في الحياة الحاليّة.. ثُغْرَةٌ ما تنفذ منها ريح «السَّمُوم» ولا شيء، البَتَّةَ على ما يرام.. ففي السنة الأولى لالتحاقها بالمهنة صادفت مشكلات معيّنة، نفس المشْكِلاتِ التي ما زالت معلّقةً بعد مرور تسع سنوات من العمل نفسه.. بل تضخّمت قليلاً حتى إنها ما انفكت تجادل معلّمة اللغة الفرنسية من أجل الشيء نفسه: «اختلاف تربيتهما معاً للتلميذ الواحد».

الفرنسية تصرّ على تعليق صورة لنهر السين.. صورة لبرج التورفيل، وهي ترفض داخلياً، وتفضّل تعليق صورة لأبي رقراق، لأم الربيع[1].. والأطلس.. و.. و.. الفصل دائمًا مسرح لجدالهما المُزْمِنِ الأناني.

- انتبه أنت.. اترك القلم من فمك.

- إنّه يدخّن يا سيّدتي «جوازاً وليس وجوباً» فهو لا يكاد يصبر على فراق السجائر.. ابحثي في جيوبه يا سيّدتي لتتأكّدي.. لقد طلب أمسِ من معلّمة اللغة الفرنسية سيجارةً كاملة عندما رآها تدخّن في الاستراحة.

- أنا لم أسألك عنه، أفهمت؟ هيه. إبراهيم، ماذا تخبّيء في

(١) أبو رقراق وأم الربيع نهران في المغرب.

جيبك بسرعة مُريبة.. كُفَّ عن حركاتك، ألم أقلْ لك من قبلُ إن وجودك في هذا القسم غلطةٌ فادحة؟!

- لستُ مسؤولاً عن ذلك يا سيّدتي.. لقد أخذوا مني رقمي الناجح.

- هل ستحاضرني يا إبراهيم مرّة أخرى في نفس الموضوع؟ ثمّ.. لنفرض، ولنسلّم بأنهم أخذوا رقمك الناجح تلك السنة... فلماذا رسبت في الدخول إلى السادسة في السنة الماضية؟

- لقد أخبرتك يا سيّدتي أن معلمة اللغة الفرنسية مرضت.. وأخذتْ رخصةً طبّية، وذهبتْ للاستشفاء في فرنسا.. وتركتنا موزّعين بين الفصول الدراسية الأخرى.

- أصحيح يا سيّدتي أننا سنرسب هذه السنة أيضاً؟

ما زال المطر يهطل بعنف.. هل تجيب عن سؤال مرهون بالظروف؟

..وهؤلاء الفِتْيَةُ.. ما مَبْلَغُ قوّةِ الأملِ التي يتمتّعون بها؟ الأمل الذي أوجد عندهم الإصرار الكافي - بعد رسوبهم مرّتين في الانتقال إلى الطور الثانوي - ليُقْبِلُوا على القسم الخامس.. نفسه.. نفسه.. نفسه.

- «عزيز» هل قرأت القطعة كلّها؟

- سيّدتي، إنّه نائم، لقد أكل كميةً كبيرةً من الحشيش!

- حشيش؟! هل نسيتم أنكم الآن في فصل مدرسي؟

- والله العظيم يا سيّدتي، إنني صادق، اسأليه.. فإنّ أباه يتعاطى الحشيش ويبيعه بأثمان ضئيلة.

- إنّه يفتري عليّ يا سيّدتي.. ما العيب في أن يقصّ أبي

الحشيش ويبيعه؟ إنّه رجل مُقْعَد... لا شغل له.. ثم أليس أكلُ الحشيشِ أحسنَ بكثير من إعادة قراءة هذا الكتاب الدراسيّ مرّتين.. خلال سنتين..؟ أليس ذلك أقلّ ألماً من تكراره عامين كاملين..؟ وهذه السنة الثالثة قد انتصفت.. إنني لم أعد أرى الحروف فيه جيّداً يا سيّدتي.. إنها حروف قديمة.. وأرجو أن يتركني هؤلاء الخنازير في هدوء حتى..

- حتى يُمْكِنك متابعةُ نومك؟ هه؟ استيقظ، قفْ.. وانزل إلى المرحاض لتغسل وجهك.. وشعر رأسك.

- دعيه يا سيّدتي، إن الأمطار تهطل.. وقد يسقط تحتها.

- الأمطار تهطل إذن؟ اذهب معه أنت الآخر، حتى لا يسقط تحتها وحدَه. اذهب قلت لك..

لماذا كلُّ هذه الأمطار؟ كأنها لم تعدْ أمطاراً مغربية.. تحمل طابع الرفق والاتزان.. وهي تسأل نفسها كلّما ازداد المطر غزارة: ما جَدْوَى مجهوداتٍ تُبْذَل لنفوس يَئِسَتْ من النتيجة قبل إعلان النتيجة؟

- تَقَيَّأ يا سيّدتي، إن «إدريس» قد تَقَيأ.

- شيء لطيف جدّاً يا السّي إدريس..

- مَعَاذَ الله يا سيّدتي.. كلّ ما هناك أنني شربت في مطعم المدرسة حِسَاء بارداً.. لم يُعْجِبْني.

- ما دام لم يعجبك، فلماذا شربته؟

- كنت جائعاً يا سيّدتي.. ومُلْزَماً كذلك بشرب الحِسَاء حتى لا يقول عني الطبّاخ للمدير إن هذا (...) لم يأكل وجبة غذائه، فينتزع منيّ المدير ورقة المطعم.

- كان بودّك أن تصبر قليلاً.. حتى المساء، فتأكل في بيتكم.

- بيتنا؟ أين هو؟ إنني أنام الليل في مقهىً مُقابِلَ خمسةِ فرنكات في الليلة الواحدة، فقد طلّق أبي أمّي.. وأصبح شغلهما أن يتنازعا من أجلي.. ويضرباني في كلّ مناسبة انتقاماً من بعضهما،فهربت منهما معاً. ولُذْتُ بالمقهى.

- يكفي هذا.. انهض لتغسل يديك. «عزيز» هل قرأت؟

- «عزيز» يا سيّدتي لا يحلو له أن يقرأ إلّا في كتابي، ولقد انتزعته منه.

- أين كتابك يا «عزيز»؟

- لا كتاب لي يا سيّدتي.. لقد رفض أبي أن يشتريَه لي..

- أين كنت تطالع خلال السنتين الماضيتين؟

- كنت أقترض كتب زملائي.

- حسناً. اجمع أدواتك، واذهب إلى المدير، وقل له هذا.. أَسْرِعْ..

- أرجوكِ يا سيّدتي.. دعيني جالساً هنا. فلا فائدة من طردي ثلاثة أيام من الدراسة.. فإنّ أبي عاطل، لو كانت لديه نقود لشراء كتاب مدرسي، لما سكتّ عنه أنا.

- نعم، إنّ «عزيز» يا سيّدتي لا يملك أداةً واحدة من أدوات القِسْم.

- بل إنّه يتحرّش بي يا سيّدتي، في الماضي كنت أشتري الأدواتِ كاملةً حتى طُردَ أبي من عمله.. فهل أسرقُ نقوداً لأشتريَ كتاباً، وأتعلّم في هذا الكتاب شيئاً تعلّمته فيه عامينَ كاملين ولم أنجح فيه؟

- كفى ثرثرة.. وأنتم كُفُّوا عن حركاتِكم المزعجة. من منكم كتب اليوم في الدفتر الدَّوْريّ؟ آه.. ما هذا؟

- إنّه الجرس يا سيّدتي.. لقد دُقَّ جرسُ الخروج. ولكن المطر ما يزال يهطل.. وأنا لا أملك مِعْطَفاً، ولا حتى قميصاً سليمًا.

- اجمعوا أدواتكم.. لا تَنْسَوا أن تُنْجِزُوا التمارين المنزلية.. وتُراجعوا ترجمة الشاعر (أ. ع. م.) وآخِرَ درسٍ في مادة التاريخ.

- من فضلك، دعيني أُنْجِز التمارينَ المنزليةَ هنا، فإني سأصاب بالحمّى لا محالة إذ ما وصلت إلىَ بيتنا تحت وابل هذه الأمطار.

- أنا كذلك لا رغبة لي في الخروج وقد أُصَابُ بمرض السُّلّ إذا ما جازفتُ بالخروج إلى هذا الطُّوفان، ثم إنَّ أمّي تشتغل عند (أجنبية) ولا تأتي إلّا بعد الثامنة مساء، وليس لي مِعْطَفٌ ضدّ المطر ولا مِظَلّة.

- تستطيعان البقاء هنا حتى يَكُفَّ المطرُ، ويبدو أنني أنا الأخرى في حاجة إلى وقت إضافي لتصحيح دفاتر الاختبارات.. لكن ما الذي تفعله يا مصطفى هناك؟

-لا شيء يا سيّدتي.. لا شيء..

- ولكنّك تفعل شيئاً بكلّ تأكيد..

- إنّني فقط آخذ حِبْراً من قنينة القِسْم، فقد رفضت أمّي أن تشتري لي حِبْراً أُنْجِزُ به التمارينَ في البيت!

مناقشات وتمرينات

١ - ما هي لجوانب التي تنتقدها القصّة في وضع المدرسة؟في أوضاع المجتمع؟

٢ - كيف تبدو لك شخصية المدرّسة من خلال هذه القصّة؟

٣ - هل تعتقد أن القصة أنجح الوسائل لمعالجة العيوب؟ إذن ما القصد من كتابتها؟

تعليقــات

المقدمة - توفيق الحكيم: (١٨٩٨-)

هو أحد أكبر كتَّاب المسرح العربي في مصر، ولد في الاسكندرية لأب مصري على شيء من الثراء وأم تركية. وبعد تخرجه في مدرسة الحقوق سافر إلى فرنسا ليتابع دراسة القانون، ولكنه كان أكثر اهتماماً بالفن والأدب منه بالقانون. وعندما عاد من فرنسا شغل عدة وظائف إدارية كتابية في الدولة إلى ان عُيِّن عضواً متفرغاً بالمجلس الأعلى للفنون والآداب. بدأ إنتاجه الأدبي في أوائل العقد الثالث من هذا القرن بمسرحيات مُثِّلَتْ أيامها، إلَّا أن إنتاجه الكبير لم يظهر إلَّا بعد عودته من باريس بسنوات، فظهر في تتابع سريع في صورة سلسلة أعمال ناضجة، جعلته يعد أكبر كتَّاب المسرح في العربية، وكاتباً كبيراً من كتَّاب الرواية العربية. أشهر مسرحياته «أهل الكهف» (١٩٣٣)، و «شهرزاد» (١٩٣٤)، ومن رواياته المشهورة «عودة الروح» (١٩٣٣). تُرجم عدد كبير من مؤلفاته إلى الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والروسية وغيرها، ومُثِّلت بعض مسرحياته في باريس وبوخارست. ويجد الدارس عدداً من آرائه النقدية في كتابه «فن الأدب».

* * *

١ - ابن سينا: (- ١٠٣٧/٤٢٨)

هو أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا، الفيلسوف المشهور. ولد سنة ٩٨٠/٣٧٠، ونشأ وتعلَّم في بخارى، وطاف في البلاد، وناظر العلماء، وتقلَّد الوزارة في همذان، إلى أن ثار عليه عسكرها، فتوارى عن العيون، ثم صار إلى اصفهان، وبها كان تصنيفه أكثر كتبه، وفي أواخر أيامه عاد إلى همذان، فمرض في الطريق ومات بها. وقد كان ذا ثقافة متنوعة تشمل الفقه واللغة، على أن تميُّزه كان في علوم الأوائل وخاصة منها الفلسفة والطب والمنطق.

ومن أشهر كتبه في الفلسفة كتاب «الشفاء»، وفي الطب كتاب «القانون»، ذلك الكتاب الذي ظل المرجع المعوّل عليه في أوروبا لمدة ستة قرون. وتبلغ مؤلفات ابن سينا نحواً من مائة مصنَّف.

* * *

٢ - أبو حيَّان التوحيدي: (-٤١٤/١٠٢٤)

اسمه علي بن محمد بن العباس، أحد أكبر كتَّاب النثر العربي. ولد في شيراز أو في نيسابور، وقيل بل في بغداد، وفي بغداد قضى القسم الأكبر من حياته، وبها درس مختلف العلوم من الفقه واللغة والأدب والفلسفة. إلا أنه أكثر من التنقل في البلاد، طالباً للعلم، وممتهناً للوراقة، وعمل ورَّاقاً بالري لدى كبار وزراء البويهيين فيها: أبي الفضل ابن العميد وابنه أبي الفتح والصاحب ابن عبَّاد، ثم عمل منادماً لوزير آخر من وزراء البويهيين ببغداد هو الوزير أبو عبد الله العارض المعروف بابن سعدان. وكانت وفاته بشيراز، وبها دُفن، بعد أن انتهى إلى التصوُّف. كتب أبو حيَّان كتباً كثيرةً، كلّها في مجمله يعبِّر عما وصفه به ياقوت الحموي من أنه «أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء»، وأشهرها كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، وكتاب «البصائر والذخائر»، وكتاب «المقابسات»، وكتاب «أخلاق الوزيرين»؛ ومن رسائله: «رسالة السقيفة»، «رسالة في العلوم»، «رسالة في الكتابة».

* * *

٣ - الغزالي: (- ٥٠٥/١١١١)

هو أبو حامد حجَّة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الطوسي، أحد كبار فقهاء الشافعيَّة ومتصوفي الإسلام. ولد في إحدى قرى طوس سنة ٤٥٠/١٠٥٨، ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلده وبها توفي. نسبته إلى صناعة الغَزْل (عند من يقول اسمه بتشديد الزاي) أو إلى غَزَالة، إحدى قرى طوس (عند من يقوله بالتخفيف). وقد كان صاحب الدور الأكبر في جعل التصوُّف المعتدل مقبولاً لدى أهل السنَّة، وقد ظلَّ حتى آخر حياته من أشد المعادين للفلسفة والفلاسفة. ومن أشهر كتبه في الفقه كتاب «المستصفى»، وفي التصوف كتاب «إحياء علوم الدين»، وكتاب «كيمياء السعادة» (بالفارسية)، ويمثِّل كتابه «تهافت الفلاسفة» ذروة هجومه على الفلسفة والآخذين بها.

* * *

٤ - ابن خلدون: (- ٨٠٨/١٤٠٦)

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي، المؤرِّخ الفيلسوف العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية وولد سنة ٧٣٢/١٣٣٢ بتونس، وبها نشأ. رحل إلى فاس وتلمسان وغرناطة وغيرها من أعمال الأندلس، وتولى أعمالاً كتابيةً في المغرب والأندلس معاً، إلا أن الوشايات والدسائس اعترضته، فاعتزل الناس في قلعة ابن سلامة جنوب وهران وبها ابتدأ كتابة تاريخه المشهور، وأكمل بعض أجزاء هذا التاريخ بتونس. ثم حفزه تجدد الوشايات الى ترك المغرب، فتوجه إلى مصر، فأكرمه سلطانها المملوكي الظاهر برقوق وولاه قضاء المالكية بها، ثم عُزل من هذا المنصب، وأُعيد إليه غير مرة. وحدثت وفاته فجأة بالقاهرة. أشهر كتبه تاريخه المشار إليه والمسمى «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر»، في سبعة أجزاء، أوَّلها هو الجزء المشهور المسمى بـ «المقدمة»، وهو الجزء الذي وضع فيه خلاصة تصوُّره لفلسفة التاريخ على أساس فهمه للمجتمع الانساني بحيث كان أول باحث وضع أسس علم الاجتماع.

* * *

٥ - طه حسين: (١٨٨٩-١٩٧٣)

واحد من أكبر الأدباء العرب في مصر. ولد في مغاغة من صعيد مصر وتلقى دراسته في الأزهر بين سنتي ١٩٠٥ و ١٩٠٨ ثم التحق بالجامعة المصرية المؤسسة حديثاً آنذاك وتخرَّج منها بدرجة الدكتوراه في الأدب سنة ١٩١٤، فكانت تلك أول دكتوراه منحتها الجامعة المصرية. وعلى أثر ذلك تقرر إيفاده في بعثة على نفقة الجامعة إلى مونبلييه في فرنسا لمدة سنة واحدة، لكنه عاد إلى باريس مرة أخرى في آخر سنة ١٩١٥، ونال من جامعتها شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩١٨ ودبلوم الدراسات العليا في القانون سنة ١٩١٩. وبعد ذلك عاد إلى مصر، وعُيِّن فوراً أستاذاً بالجامعة المصرية، وتنقل في العديد من المناصب الوزارية فضلاً عن الجامعية، وكان عضواً فاعلاً في مجمع اللغة العربية بمصر. وكان له أثر كبير على الدراسات الأدبية بالجامعة المصرية، وأثر لا ينكر على السياسة التعليمية في مصر، وأثر أكبر بكثير على الأدب العربي الحديث. ولقد أثارت مقالاته وكتبه العديد من المناقشات، ومن أشهرها كتاب

«تجديد ذكرى أبي العلاء» (رسالته في الدكتوراه) وكتاب «في الأدب الجاهلي» وكتاب «حديث الأربعاء». ومن رواياته المشهورة «دعاء الكروان».

* * *

٦ - أحمد أمين: (١٨٨٧-١٩٥٤)

أحد كبار الأدباء والباحثين العرب في مصر. ولد بالقاهرة، ودرس في الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي، وتولى القضاء الشرعي مدة، ثم انتقل إلى التدريس في كلية الآداب بالجامعة المصرية، ثم انتخب عميداً لها، وعُيِّن عضواً في مجمع اللغة العربية بمصر. اتجه أولاً إلى الفلسفة فكتب كتابه «الأخلاق» (سنة ١٩٢٣) ثم عُني بدراسة الحياة العقلية في الإسلام فأصدر أهم كتبه: «فَجْر الإسلام»، و «ضُحَى الإسلام» (ثلاثة أجزاء)، و «ظُهْر الإسلام» (أربعة أجزاء)، نشر مقالات أدبية كثيرة في مجلتي الرسالة والثقافة، وجمعها في كتاب «فيض الخاطر» الذي ظهر في أجزاء متتابعة قبيل وفاته؛ وقد كتب سيرة حياته في كتاب عنونه بـ «حياتي».

* * *

٧ - ميخائيل نعيمة: (١٨٨٩-)

أحد كبار الأدباء والمفكرين والشعراء العرب في لبنان. ولد ونشأ في لبنان، وتعلم في مدرسة المعلمين الروسية بالناصرة، وأُوفد في بعثة إلى روسيا، فدرس في معهد بولتافا خمس سنين، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية، حيث أقام قرابة عشرين سنة. وفي الحرب العالمية الثانية جُنِّد فسافر إلى فرنسا، ثم عاد إلى لبنان حيث ما يزال مقيماً به، في بلدته بسكنتا، وقد أقيم له في لبنان مهرجان عالمي سنة ١٩٧٨ بمناسبة عيد ميلاده التسعين. كان من مؤسسي الرابطة القلميَّة في نيويورك، وشارك في تحرير «الفنون» و«السائح» وغيرها من صحف المهجر. ويعتبر كتابه «الغربال» (١٩٢٣)، وهو مجموعة مقالات نقدية، من أهم الكتب التي أرسَت دعائم التجديد في الشعر العربي الحديث. وله أيضاً كتاب «همس الجفون» وكتاب «كرم على درب» (من الشعر المنظوم والمنثور) وكتاب «كان ما كان»، وهو مجموعة صور وقصص قصيرة استمدَّ بعضها من تجاربه في الحرب العالمية، وكتاب «جبران خليل جبران» وهو سيرة لصديقه الشاعر المهجري الكبير.

* * *

٨ - عبد المجيد بنجلّون: (١٩١٩-)

أديب مغربي معاصر، ولد بالدار البيضاء بالمغرب سنة ١٩١٩ وحصل على الليسانس في الآداب من جامعة القاهرة، وأسهم في الكفاح الوطني، وصار عضواً في حزب الاستقلال، وتقلَّب في مناصب عدَّة إلى أن صار سفيراً لبلاده في الباكستان وهو ما زال الآن في وزارة الخارجية المغربية، ويكتب باستمرار في جريدة العَلَم. ألَّف وترجم عدَّة كتب منها «هذه مراكش» و «سلطان مراكش»، وأشهر مجموعاته القصصية «وادي الدماء»، وقد كتب سيرته الذاتية بعنوان «في الطفولة» في جزئين. وهو يقرض الشعر أيضاً.

* * *

٩ - مالك بن نبي: (١٩٠٥-١٩٧٣)

مفكِّر جزائري؛ ولد في مدينة قسنطينة في شرق الجزائر من أبوين جزائريين مسلمين، ثم استقرَّت العائلة في مدينة تِبِسَّة، فأتمَّ مالك دراسته الثانوية فيها، وكان في تلك المرحلة شديد الشغف بالمطالعة. وبعد أن أنهى دراسته الثانوية، غادر الجزائر إلى باريس، ودخل كلية الهندسة في جامعتها، وتخرَّج منها مهندساً كهربائياً. ولما أراد أن يرجع إلى الجزائر، وجد الأبواب مغلقةً في وجهه لا لشيء إلا لأنه جزائري، والجزائر ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي بمختلف أشكاله. إذ ذاك تحوَّل مالك بن نبي إلى ميدان الفكر ليدرس الأسباب التي جعلت مجتمعه فريسة للاستعمار، وكتب المؤلفات العديدة في هذا المجال، وكانت معظم كتاباته بالفرنسية، إذ انه سلخ في فرنسا معظم أيام حياته، وإن كان قد تجوّل في البلاد، واستقر فترة في مصر، فاتحاً بيته لاستقبال المفكِّرين والأدباء المقيمين بالقاهرة يوم الجمعة من كل أسبوع للتداول في شؤون البلاد العربية والإسلامية. وقد ترجم معظم كتبه إلى العربية. من هذه الكتب: «الظاهرة القرآنية» (١٩٤٧)، «شروط النهضة الجزائرية» (١٩٤٨)، «وجهة العالم الإسلامي» (١٩٥٤)، «مشكلة الثقافة» (١٩٥٧)، «في مهب المعركة» (١٩٦٠)، «مولد المجتمع» (١٩٦١).

* * *

١٠ - عبد الحميد الكاتب: (- ١٣٢ / ٧٥٠)

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري المعروف بالكاتب: من أئمة كتَّاب النثر الفني العربي في عصوره الأولى. أصله من قيسارية وسكن الشام،

واختصَّ بمروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية في المشرق، وعلى يديه تتلمذ في الكتابة يعقوب بن داود وزير المهدي العباسي. وبعبد الحميد يُضرب المثل في البلاغة، وعنه أخذ المترسِّلون. له رسائل، بعضها مطبوع، وبعضها ما يزال مخطوطاً، وبعضها قد ضاع فيما يبدو. وهو أول من أطال الرسائل في النثر واستعمل التحميدات في فصول الكتب. وعندما دالت دولة بني أمية، وشعر مروان بن محمد بزوال ملكه، نصح عبد الحميد بأن يتركه وينجو، إلا أن عبد الحميد أبى أن يفارقه وقتلا معاً وهما هاربان أمام جيش العباسيين في بوصير، من أعمال مصر.

* * *

١١ - ابن عبدكان: (- ٢٧٠ / ٨٨٣)

هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مودود المعروف بابن عبد كان: كاتب من كبار المنشئين. ولي البريد بدمشق وحمص في أول أمره، ثم كان على المكاتبات والترسل منذ أيام أحمد ابن طولون إلى آخر أيام أبي الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون. ورسائله مدوَّنة في عشر مجلدات، وله شعر محفوظ في المصادر.

* * *

١٢ - خليل سكاكيني: (١٨٧٨-١٩٥٣)

لغوي ومعلم وكاتب؛ ولد في القدس وتعلم بها، وسافر إلى إنجلترا وأميركا. أنشأ عدة مدارس في فلسطين، وجدد في طريقة التعليم، فأدخل طريقة «الكلمة» في تعليم المبتدئين بكتابه «الجديد» سنة ١٩٢٤، كما دعا إلى التجديد في لغة الكتابة بسلسلة من المقالات والمحاضرات جمعها في كتاب «مطالعات في اللغة والأدب» عام ١٩٢٥، وتقوم دعوته على إيثار الوضوح والسهولة والاقتصاد. ومن كتبه: «فلسطين بعد الحرب»، ونشرت ابنته سنة ١٩٥٥ مذكرات شخصية بقلمه تحت عنوان «كذا أنا يا دنيا». وكان عضواً في المجمع اللغوي بالقاهرة والمجمع العلمي بدمشق.

* * *

١٣ - أنيس فريحة: (١٩٠٢-)

كاتب لبناني معاصر؛ ولد في قرية رأس المتن، ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت، ومنها نال شهادة البكالوريوس في الأدب، ثم درس في

جامعة شيكاغو، وفيها تخرَّج حاملاً شهادة الدكتوراه في الفلسفة، وكان تخصصه في اللغات الساميّة. وقد درَّس اللغات السامية في الجامعة الأميركية في بيروت بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٣ وبين سنتي ١٩٤١ و ١٩٦٧، حين بلغ سن التقاعد. له عدد من المؤلفات، منها كتاب «معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية» وكتاب «نحو عربية ميسَّرة» (١٩٥٥) وكتاب «اسمع يا رضا» (١٩٥٦) (وقد ترجم إلى الإسبانية) وكتاب «أسماء القرى والمدن اللبنانية وتفسير معانيها» (١٩٥٦) وكتاب «حضارة في طريق الزوال» (١٩٥٧) وكتاب «أحيقار، حكيم من الشرق الأدنى القديم» (١٩٦٢) وكتاب «ملاحم وأساطير من أوغاريت» (١٩٦٦) ومن آخر كتبه سيرته الذاتية بعنوان «قبل ان أنسى... سيرة حياتي» (١٩٧٩). وله فضلاً عن ذلك عدد من المقالات في الجرائد والمجلات، وقد ترجم بعض الكتب الإنجليزية إلى اللغة العربية.

* * *

١٤ - ابن حزم الأندلسي: (- ١٠٦٤/٤٥٦)

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري الأندلسي، عالم الأندلس في عصره وأحد أئمة الإسلام. ولد بقرطبة سنة ٩٩٤/٣٨٤ في بيت علم ورياسة، وقد ولي مثل أبيه من قبله وزارة الأندلس وتدبير الأمور بها، إلا أن الفتنة البربرية التي نشبت في الأندلس في أواخر القرن الرابع / العاشر، وانهيار وحدة الأندلس على أثرها، زهَّده في السياسة، فانصرف إلى العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين، فقيهاً حافظاً، يستنبط الأحكام من الكتاب والسُنَّة، على مذهب داود الظاهري. وكان حادّ اللسان، بعيداً عن المصانعة، وانتقَدَ كثيراً من العلماء والفقهاء، فتمالأوا عليه ونفَّروا رؤساء الأندلس منه، فأقصوه وطاردوه، فرحل إلى بادية لبلة بالأندلس وبها توفي.

كان ابن حزم غزير الكتابة، بلغ ما كتبه نحواً من أربعمائة مجلَّد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وأشهر مصنفاته كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» في خمسة أجزاء وكتاب «المحلى في الفقه» في أحد عشر جزءاً و«الإحكام لأصول الأحكام» في الأصول في ثماني مجلدات وكتاب «جمهرة أنساب العرب».

* * *

١٥ - مصطفى صادق الرافعي: (- ١٣٥٦ / ١٩٣٧)

من كبار الكتّاب والشعراء في مصر. أصله من طرابلس الشام، وولد في طنطا بمصر سنة١٢٩٧/١٨٨٠،وبها كانت وفاته. وفي حياته أصيب بالصمم، فكان يُكتب له ما يُراد مخاطبته به. شعره كلاسيكي على جفاف في بعضه، ونثره متين السبك ناصع قوي وفكره حاد ونزعته سلفية. من كتبه «تاريخ آداب العرب» في ٣ أجزاء وكتاب «إعجاز القرآن» وكتاب «تحت راية القرآن» (في الرد على طه حسين) وديوان شعر في ثلاثة أجزاء. نشر العديد من المقالات في مجلة الرسالة ثم جمعت في ثلاثة أجزاء باسم: «وحي القلم»، وقد نشرت مجموعة من رسائله الخاصة والرسائل التي كانت ترسل إليه تحت عنوان: «رسائل الرافعي»، اشتملت على الكثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما.

* * *

١٦ - مي زيادة: (- ١٣٦٠ / ١٩٤١)

اسمها ماري الياس زيادة، وعرفت بمي: كاتبة أديبة لبنانية. كان والدها من أهل كسروان بلبنان، وأقام مدة في الناصرة بفلسطين، وبها ولدت ماري، وتعلمت في إحدى مدارسها الابتدائية، ثم تعلمت بمدرسة عينطورة بلبنان. وفيما بعد انتقلت مع والديها إلى مصر، وأخذت تكتب المقالات في جريدة «المحروسة» وفي مجلة «الزهور». وكانت تحسن من اللغات الأجنبية: الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية. وفي مصر ظهرت نصيرةً للأدب، وكانت تعقد للأدباء في دارها مجلساً أسبوعياً، تدور فيه الأحاديث المفيدة. أشهر كتبها «باحثة البادية» و «ظلمات وأشعة». ولها شعر بالفرنسية. وقد توفيت على أثر مرض طويل بالقاهرة وبها دفنت.

* * *

١٧ - سهيل ادريس: (١٩٢٣ -)

أديب لبناني معاصر، ولد في بيروت، ودرس بالكلية الشرعية فيها أول الأمر، ثم ترك حقل الدراسات الدينية ليعنى بالدراسة الأدبية، واستمر بها حتى نال شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس. أسَّس داراً للنشر في بيروت، اسمها دار الآداب، عُنيت بنشر الكتب الأدبية، وخاصة منها الكتب المترجمة عن اللغة الفرنسية، وعن الدار نفسها أصدر سنة ١٩٥٣ مجلته التي

ما تزال تظهر حتى اليوم: «مجلة الآداب». وقد كتب عدداً من الروايات، أشهرها «الخندق الغميق» (١٩٥٨)، و «الحي اللاتيني» (١٩٧٧)؛ ومن أشهر مجموعاته في القصص القصيرة «رحماك يا دمشق» (١٩٦٥)؛ وله كتاب محاضرات عن القصة في لبنان نشر بالقاهرة سنة ١٩٥٧.

* * *

١٨ - الطاهر وطّار: (١٩٣٦ -)

كاتب جزائري معاصر. ولد سنة ١٩٣٦ في سدراته بشرق الجزائر، من عائلة بربرية. تعلم النطق باللغة العربية الدارجة وهو في الرابعة عشرة من عمره. درس في معهد ابن باديس بالجزائر، ثم في جامع الزيتونة بتونس، وانقطع عن الدراسة بسبب التحاقه بالنضال المسلّح. شارك في الثورة المسلّحة لتحرير الجزائر وكان لها الفضل الأول في تفتحه الأدبي كما يقول هو نفسه. وهو مؤسس «الأحرار»، أول جريدة عربية بالجزائر بعد الاستقلال. مؤلفاته: «دخان من قلبي» (تونس، ١٩٦٢)، «الطعنات» (الجزائر، ١٩٧٢)، «الشهداء يعودون هذا الأسبوع» (العراق، ١٩٧٤) وهي مجموعات قصصية؛ وله من المسرحيات: «الهارب» (تونس، ١٩٦٠)، «على الضفة الاخرى» (تونس، ١٩٥٨). أما من الروايات فله: «اللاز» (الجزائر، ١٩٧٤)؛ «الزلزال» (بيروت، ١٩٧٤)؛ «الحوات والقصر» (الجزائر، ١٩٧٥)؛ «عرس بغل» (بيروت، ١٩٧٨)؛ «جميلة اللاز»؛ «العشق والموت في الزمن الحراشي» (بيروت، ١٩٨٠).

* * *

١٩ - جوته (- ١٨٣٢) وأحمد حسن الزيّات: (- ١٣٨٨/١٩٦٨)

جوته (Johann Wolfgang von Goethe): أديب ألماني، وأحد عمالقة الأدب العالمي اليوم، ولد بفرانكفورت سنة ١٧٤٩ ومات بفايمار سنة ١٨٣٢. كان ناقداً وصحفياً ورسّاماً ومسرحياً وسياسياً وروائياً ومنظّراً تربوياً وشاعراً وعالماً وفيلسوفاً طبيعياً. وكان تأليفه لآلام فيرثر (Die Leiden des jungen Werthers) سنة ١٧٧٤.

وأحمد حسن الزيات هو أديب من كبار أدباء مصر، ولد سنة ١٨٨٥ في قرية كفر دميرة ودخل الأزهر قبل الثالثة عشرة، وفصل قبل إتمام دراسته، وعمل في التدريس الأهلي. فعلّم العربية في مدرسة «الفرير» نحو سبع

سنوات. وتعلّم مدة في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة. ودرّس الأدب العربي في المدرسة الأميركية بالقاهرة (١٩٢٢) ثم في دار المعلمين العليا ببغداد (١٩٢٩) وأقام ثلاث سنوات صنّف فيها كتابه «العراق كما عرفته» واحترق الكتاب قبل نشره. وعاد إلى القاهرة، فأصدر مجلة «الرسالة» سنة (١٩٣٣-١٩٥٣) ثم إلى جانبها «الرواية». وانتُخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وعُيِّن في المجلس الأعلى للآداب والفنون. وكان قبل ذلك من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ونال جائزة الدولة التقديرية (سنة ٦٢) ثم أعاد «الرسالة» (سنة ٦٣) بعد احتجابها لمدة فلم تكن لها مكانتها الأولى، فاحتجبت مرة اخرى وانقطع إلى تحرير «مجلة الأزهر» سنة ١٣٧٢-٧٤هـ، وتوفي بالقاهرة.

وأوّل ما عَلَت به شهرته، كتاب «تاريخ الأدب العربي» ثم كان من كتبه المطبوعة «دفاع عن البلاغة» و«وحي الرسالة» (أربعة أجزاء)، و«في أصول الأدب» و«في ضوء الرسالة». وترجم عن الفرنسية «آلام فرتر» لجوته و«روفائيل» للامارتين. وكان من أنصع كتّاب العربية ديباجةً وأسلوباً.

* * *

٢٠ - مسكويه: (- ٤٢١ / ١٠٣٠)

أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، أبو علي، مؤرِّخ بحَّاثة متفلسف، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها. اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء. وكان قيِّماً على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب لعضد الدولة ابن بويه، فلقب بالخازن، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم شأنه عنده. قال أبو حيان التوحيدي في جملة وصفه: «لطيف الألفاظ، سهل المأخذ، مشهور المعاني شديد التوقي، ضعيف الترقي، يتطاول جهده ثم يقصر، وله مآخذ وغرائب من الكذب - كذا - وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء». ألّف كتباً نافعة، منها «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» في التاريخ، انتهى به إلى السنة التي مات فيها عضد الدولة (٣٧٢هـ) و«تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» و«طهارة النفس» و«آداب العرب والفرس» و«الفوز الأصغر» في علم النفس، و«ترتيب السعادات» في الأخلاق، و«رسالة في ماهية العدل» و«نديم الأحباب وجليس الأصحاب» و«الحكمة

الخالدة، جاويدان خرد» وبعض كتبه هذه مخطوطة لم تنشر بعد، وقد مات مسكويه كبيراً في السن.

* * *

٢١ - انظر التعليق على الرقم ٢.

* * *

٢٢ - أبو العلاء المعري: (- ٤٤٩ / ١٠٥٧)

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، الشاعر المتفلسف المشهور. ولد سنة ٣٦٣/٩٧٣ في معرَّة النعمان. كان نحيل الجسم، أصيب بالجدري وهو صغير، فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هجرية، إلا أنه عاد إلى المعرَّة وملؤه الحنين إليها، وبها ظلّ حتى وفاته. وكان ذا مكانة رفيعة في بلده، من بيت علم كبير فيها، ولما مات وقف على قبره نيِّف وثمانون شاعراً يرثونه. أشهر مجموعاته الشعرية ديوانه المسمى «سَقْط الزند»، ويمثل المرحلة الأولى من اتجاهه الشعري، وديوانه الآخر «لزوم ما لا يلزم»، أو «اللزوميات»، ويمثل المرحلة الثانية في اتجاهه الشعري. وهو صاحب الرسالة المشهورة المسماة «رسالة الغفران»، وصاحب «معجز أحمد» في شرح ديوان المتنبي.

* * *

٢٣ - ابن شدَّاد: (- ٦٣٢/١٢٣٤)

هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الموصلي، المؤرخ المشهور أحد كبار القضاة في عصره. ولد بالموصل سنة ٥٣٩/١١٤٥، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ عند أخواله بني شدَّاد، وشدَّاد جده لأمه، فنسب إليهم. تفقه بالموصل ثم ببغداد، وعمل معيداً في النظامية نحو أربع سنين، وعاد إلى الموصل فدرَّس وصنّف وسافر إلى حلب فحدَّث بها وبدمشق وغيرهما. ولما دخل دمشق، استدعاه السلطان صلاح الدين الأيوبي وولاَّه قضاء العسكر وبيت المقدس والنظر على أوقافه، واستصحبه معه في بعض غزواته، فدوَّن وقائعه وكثيراً من أخباره. وبعد وفاة صلاح الدين، عمل ابن شداد على جمع كلمة

أولاده، وتولى قضاء حلب ووقوفها منذ سنة ٥٩١ هجرية حتى وفاته. له عدد غير قليل من الكتب -إلى جانب سيرة صلاح الدين - كلها ما زال مخطوطاً، مثل كتاب «دلائل الأحكام» وكتاب «فضل الجهاد».

* * *

٢٤ - جبران خليل جبران: (- ١٣٤٩ / ١٩٣١)

أحد كبار كتَّاب المهجر الأميركي، أصل أسرته من دمشق، ونزح أحد أجداده إلى بعلبك ثم إلى قرية بشعلا في لبنان، وانتقل جده يوسف جبران إلى قرية بشرِّي، وفيها ولد جبران صاحب الترجمة سنة ١٣٠٠/١٨٨٣. تعلَّم في بيروت، وأقام أشهراً في باريس، ورحل إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٥ مع بعض أفراد أسرته، فقطن بوسطن. وعاد إلى بيروت فتثقَّف بالعربية أربع سنوات، وسافر إلى باريس سنة ١٩٠٨ فمكث فيها ثلاث سنوات حاز في آخرها على إجازة التصوير في الفنون. وتوجه إلى أميركا، فأقام في نيويورك وبقي فيها إلى أن توفي، ونقلت رفاته إلى مسقط رأسه بشرِّي. امتاز جبران بسعة في خياله وعمق في تفكيره، وقبلت رسومه في المعرض الدولي الرسمي بفرنسا واختير عضو شرف في جمعية المصوِّرين الإنجليزية. وكتب كتاباته بالعربية والإنجليزية. من أهم كتبه العربية «دمعة وابتسامة» و «الأرواح المتمردة» و«العواصف»، وبالإنجليزية كتاب «النبي» وكتاب «المجنون».

* * *

٢٥ - زكريا تامر: (١٩٢٧-   )

كاتب سوري معاصر من أبرز كتَّاب القصة القصيرة وقصص الأطفال في وقتنا الحاضر، ولد بحماة سنة ١٩٢٧، ونال الشهادة الابتدائية ولم يتابع الدراسة بعدها، وإنما عمل حدَّاداً وصانع أقفال. بدأ بالنشر في مجلة «النقاد» السورية عام ١٩٥٥ وطبع مجموعته القصصية الأولى «صهيل الجواد الأبيض» ببيروت سنة ١٩٦٠. عمل في وزارة الثقافة السورية منذ عام ١٩٥٩، وتنقَّل بعدها في مختلف الحقول الإعلامية. وهو عضو مؤسِّس في اتحاد الكتَّاب العرب في سوريا، وفي عام ١٩٦٨ كان عضواً في المكتب التنفيذي للاتحاد ونائباً لرئيسه متفرِّغاً لشؤون الاتحاد حتى عام ١٩٧٦، كذلك عمل في هيئة تحرير مجلة «الموقف الأدبي» ثم أصبح رئيسا لتحريرها. وقد تسلَّم عام ١٩٧٨ رئاسة تحرير مجلة «المعرفة» السورية. ومن مجموعاته القصصية

الأخرى «ربيع في رماد» (١٩٦٣) و «الرعد» (١٩٧٠) و «دمشق الحرائق» (١٩٧٢).

* * *

٢٦ - الجاحظ: (- ٢٥٥/٨٦٩)

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الشهير بالجاحظ، أحد أكبر كتَّاب النثر العربي. ولد في البصرة في حدود سنة ١٦٣/٧٨٠، وبها كانت وفاته وكانت إقامته معظم حياته في البصرة. لقب بالجاحظ لبروز في عينيه، ولم يكن ذلك بالأمر الذي يقلقه، فإنه كان ساخراً في حياته، ساخراً في أدبه في آن واحد. عرضت عليه الكتابة في الديوان فلم يستطع أن يستقر به طويلاً، وفضَّل أن تظلّ له حريته الشخصية والفكرية مقتصراً على اتصاله بالخلفاء والوزراء والأكابر. وكان الجاحظ معتزلياً وله في الاعتزال آراء تميز بها، وكان مَنْ يتبعون آراءه يسمون بالجاحظية. ومن أهمّ مؤلفاته كتاب «الحيوان» في سبعة أجزاء، وكتاب «البيان والتبيين» في أربعة، وكتاب «البخلاء»، وله عدد كبير من الرسائل طبع معظمها في أربعة أجزاء، أشهرها «رسالة التربيع والتدوير»، و «رسالة المعاش والمعاد»، و «رسالة في النابتة» و«رسالة في ذمّ أخلاق الكتَّاب»، و «رسالة في فضل السودان على البيضان»، وغير ذلك كثير.

* * *

٢٧ - بديع الزمان الهمذاني: (- ٣٩٨/١٠٠٧)

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين، الأديب المشهور الذي يُنسب إليه اختراع فنّ المقامات. ولد بهمذان وبها نشأ، وتعلم العلوم باللغتين العربية والفارسية، وكان يتقنهما إتقاناً متساوياً. رحل إلى الوزير الصاحب بن عباد، وزير البويهيين، في مدينة الري، فاستفاد منه، وقصد جرجان، وأقام في كنف الإسماعيلية المسيطرين عليها آنذاك. وفي سنة ٣٨٢ يمَّم نيسابور، فتجلَّت فيها عبقريته وبها أملى أربعين مقامة. ثم تصدّى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي، حامل لواء الأدب في عصره، فظهر عليه، فطار صيته في الآفاق. ثم ألقى عصا الترحال بهراة (في أفغانستان الآن) وعاش بها حتى وفاته سنة ٣٩٨. كان نادرة في الذكاء وسرعة الخاطر وحضور البديهة وقوّة الحفظ، وكان يترجم أبيات الشعر بأبيات شعرية من الفارسية إلى العربية وبالعكس. غير أن قدرته الكبرى

تجلّت في ميدان النثر، يسعفه على ذلك رسوخ في اللغة، وقدرة قصصية جيِّدة، وخيال ممتع مسلٍّ، فكان يأتي في الإنشاء ببدائع ونوادر. وقد اعترف له الحريري في مقدمة مقاماته بالسبق في إنشاء المقامات.

* * *

٢٨ - ابن منقذ: (- ٥٨٤ / ١١٨٨)

هو أبو المظفَّر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد الكناني الكلبي الشَّيْزَري، أحد كبار أمراء بني منقذ، أصحاب قلعة شَيْزَر، ومن العلماء الشجعان. ولد في شيزر سنة ١٩٥/٤٨٨، وسكن دمشق، وانتقل إلى مصر سنة ٥٤٠ هجرية، وقاد عدة حملات على الصليبيين في فلسطين وعاد إلى دمشق، ثم غادر دمشق إلى حصن كيفا، أقام إلى أن ملك السلطان صلاح الدين الأيوبي دمشق، فدعاه السلطان إليه، فأجابه وقد تجاوز الثمانين، فمات في دمشق، وكان مقرَّباً من الملوك والسلاطين. له مؤلفات عديدة في التاريخ والأدب أشهرها - بعد سيرته المسماة بكتاب «الاعتبار» - كتاب «لباب الآداب»، وكتاب «البديع في نقد الشعر»، وكتاب «المنازل والديار» ومعظم كتبه ما يزال مخطوطاً. وقد تُرجم كتابه «الاعتبار» إلى الفرنسية والألمانية.

* * *

٢٩ - ابن بطوطة: (- ٧٧٩ / ١٣٧٧)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي الرحالة المشهور. ولد سنة ١٣٠٤/٧٠٣ في طنجة من المغرب الأقصى، وبهانشأ، ومنها خرج سنة ٧٢٥ هجرية فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط افريقية. واتصل بعدد غير قليل من الملوك والأمراء، ومدحهم بشعره، واستعان بهباتهم على أسفاره. ولما عاد إلى المغرب الأقصى انقطع إلى السلطان أبي عنان المريني، وهناك أملى أخبار رحلته على العلامة محمد بن جُزَيّ الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٦٥ هجرية، وسمَّاها «تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». وقد تُرجمت هذه الرحلة إلى لغات عديدة منها البرتغالية والفرنسية والإنجليزية. وكان ابن بطوطة يحسن الفارسية والتركية، وقد استغرقت رحلته مدة ٢٧ سنة. وكانت وفاته بمراكش.

* * *

٣٠ - انظر التعليق على المقدمة.

* * *

٣١ - يحيى حقّي: (١٩٠٥-)

أديب مصري معاصر، من أسرة تركية الأصل، ولد بالقاهرة في بيت متواضع خلف مقام السيدة زينب، من أملاك وزارة الأوقاف، فكانت نشأته في بيئة متديِّنة. تعلَّم في كُتَّاب السيدة زينب ثم في مدرسة والده المجّانية التابعة للأوقاف، ثم دخل المدرسة الابتدائية وقضى فيها خمس سنوات حصل بعدها على شهادة إتمام الدروس الابتدائية، وبعد ذلك التحق بالمدرسة الإلهامية، فحصل منها على شهادة الكفاءة ثم بالمدرسة السعيدية فالخديوية، ومنها حصل على البكالوريا سنة ١٩٢١. درس الحقوق في مدرسة الحقوق العليا وتخرج منها سنة ١٩٢٧، وعمل لمدة سنتين معاوناً للإدارة بمركز مَنْفَلوط، ثم بدأ ينشر قصصاً قصيرة في المجلات، وعُدَّ في اتجاهه من المتأثرين بالأدب الروسي. وبين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ عمل أميناً للمحفوظات في السلك الدبلوماسي في جدَّة، وبين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٤ كان في استانبول يدرس التركية ويراقب حركة كمال أتاتورك عن كثب، وبين سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٩ تجوَّل في بلاد أوروبا الغربية، واستقرَّ فترة في روما درس خلالها اللغة الإيطالية وقرأ الأدب الإيطالي. وعندما عاد إلى مصر عمل في وزارة الخارجية وتقلَّب في عدة مناصب هناك. وكان تعرُّفه على الأستاذ محمود محمد شاكر (أحد الثقات الكبار في سعة الاطلاع على الثقافة العربية الإسلامية) في أوائل العقد الثالث من هذا القرن طريقاً لتعرُّفه على الأدب العربي. وبين سنتي ١٩٥٥ و ١٩٥٨ كان يعمل مديراً لمصلحة الفنون بوزارة الإرشاد القومي، وبين سنتي ١٩٦٢ و ١٩٧٠ كان رئيساً لتحرير مجلة «المجلة». وقد قدَّرته الدولة سنة ١٩٦٩ فمنحته جائزة الدولة التقديرية في الآداب. وهو عضو في المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون. من مجموعاته القصصية: «قنديل أم هاشم». وله مؤلفات أخرى منها: «صح النوم» و «خطرات في النقد».

* * *

٣٢ - يوسف الشاروني:

أديب مصري معاصر وباحث بارز في الأدب، نشأ في بيئة دينية قبطية ودرس في قسم الفلسفة في جامعة القاهرة، ثم درَّس في المدارس الثانوية

بالسودان، كتب في القصة القصيرة والبحث الأدبي، وحاضر في موضوعات أدبية مختلفة. من مجموعاته القصصية «العشاق الخمسة» (دون تاريخ) و«مطاردة منتصف الليل» (١٩٧٣)؛ ومن أبحاثه ودراساته «دراسات في الأدب العربي المعاصر» (١٩٦٤) و «الحب والصداقة في التراث العربي والدراسات المعاصرة» (١٩٧٥)؛ وقد طبع غير مجموعة من محاضراته ومقالاته وخطبه منها «النثر الأدبي العربي». وقد عين عضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة.

* * *

٣٣ - نجيب محفوظ: (١٩١٢-)

أديب مصري، ولد في حي الجمالية بالقاهرة بجوار الحسين، من أسرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى، ووالده من التجار. التحق بقسم الفلسفة في كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٠ وتخرَّج منها سنة ١٩٣٤ بشهادة الليسانس في الفلسفة. وقد عمل أول الأمر بالصحافة، وكان جلّ اهتمامه منصبّاً على كتابة المقالات الفلسفية، ثم ما لبث أن تحوَّل إلى الأدب، وبدأ يكتب القصة. وقد نشرت أول مجموعة قصصية له عام ١٩٣٨، ومنذ ذلك الحين وقصصه تتوالى وتحظى بقدر غير قليل من اهتمام الدارسين. من أشهر قصصه الطويلة «ثلاثيّته» المعروفة: «بين القصرين»، «قصر الشوق»، «السكرية»، إلى جانب قصص أخرى مثل: «زقاق المدق»، «اللص والكلاب»، «الطريق»، «السمّان والخريف»، «ميرامار»؛ وله عدة مجموعات تضم ما كتبه من أقاصيص قصيرة مثل «دنيا الله»، و «مظلة تحت المطر».

* * *

٣٤ - انظر التعليق على القطعة رقم ٢٥.

٣٥ - غسان كنفاني: (١٩٣٦-١٩٧٢)

أديب فلسطيني مناضل، ولد في عكا بفلسطين مع بدء الثورة الكبرى بها (١٩٣٦-١٩٣٩)، وفي سنة ١٩٤٨ خرج مع أسرته من عكا إلى دمشق، بعد أن هجمت على عكا قوات «الهاجاناه». وفي دمشق كان على غسان أن

يعمل مع إخوته ليعيل أسرته ويكمل في الوقت نفسه تعليمه. وقد عمل في سن مبكرة مدرساً للأطفال بمدارس وكالة اللاجئين في المخيّمات الفلسطينية. وفي بداية الخمسينات التقى بالدكتور جورج حبش، وانضم بعد ذلك إلى حركة القوميين العرب. وفي عام ١٩٥٦ نشر قصته الأولى «شمس جديدة» في جريدة الرأي، الناطقة باسم الحركة، وفي العام نفسه سافر إلى الكويت ليعمل مدرِّساً للرسم والألعاب الرياضية. وفي عام ١٩٦٠ عاد إلى بيروت، وأخذ يعمل في الصحافة، إلى أن تولّى رئاسة تحرير جريدة الهدف الأسبوعية الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وذلك عام ١٩٦٩. تزوج من آني هوفر (Annie Hoover)، وهي مدرِّسة دانماركية وأنجب منها ولدين صبياً وبنتاً. وكان يعمل مع الجبهة الشعبية، مشكّلاً حلقة وصل بينها وبين منظمات ثورية عدة في العالم، كما كان الناطق الرسمي باسم الجبهة حتى استشهاده في لبنان يوم ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢، على أثر انفجار لغم في سيارته. من أشهر قصصه «رجال في الشمس» و «ما تبقى لكم» و «عائد إلى حيفا» و «أم سعد» و «برقوق نيسان» و «الأعمى» و «الأطرش»، ومن قصصه القصيرة: «موت سرير رقم ١٢» و «أرض البرتقال الحزين» وغير ذلك. وقد جمعت آثاره في أربعة مجلدات. ويعد غسان من خير مَنْ عبَّر عن الواقعية الثورية عن طريق الكلمة، في شكل قصصي، وترسم أعماله خطاً واضحاً لتطوُّر القضية الفلسطينية في مراحلها المختلفة، لكنه لا يكتفي بتصوير الواقع بل يضمن ذلك التصوير نقداً داخلياً عميقاً.

* * *

٣٦ - الطبري: (- ٣١٠/ ٩٢٣)

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، المؤرخ المفسِّر الإمام المشهور. ولد في آمُل من أعمال طبرستان سنة ٢٢٤/٨٣٩ واستوطن بغداد وبها كانت وفاته، وعُرض عليه تولي القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. أفاد من الرواة السابقين له في التاريخ فنقل رواياتهم بأمانة ودقة في تاريخه الضخم «تاريخ الرسل والملوك»، وكذلك فعل مع الرواة السابقين له في التفسير، ومن مادتهم كوَّن معظم تفسيره الكبير الذي يقع في ثلاثين مجلداً. أما في الفقه فإنه كان لا يقلِّد أحداً، وإنما يجتهد في أحكام الدين، وما لبث أن صار له أتباع يقلِّدونه، وكانوا يدعون بالجريرية. إلا أن مذهبه في الفقه اندثر مع مرور

الزمن. وله إلى جانب تاريخه وتفسيره كتاب «اختلاف الفقهاء»، وكتاب «المسترشد في علوم الدين» وكتاب «القراءات»، وغير ذلك كثير.

* * *

٣٧ - البلاذري: (- ٢٧٩ / ٨٩٢)

هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، نسبة إلى حَب البلاذر الذي كان سبب علّته فيما يقال. مؤرّخ نسّابة من الطراز الأول. كان من أهل بغداد، جالس المأمون والمتوكل العباسيين، وله في الأول منهما مدائح عديدة، وكانت وفاته ببغداد زمن المعتمد العباسي. وكان يجيد الفارسية، وترجم عنها كتاب «عهد أردشير». وأصيب في آخر عمره بذهول شبيه بالجنون، فشد في البيمارستان إلى أن توفي. أشهر كتبه على الإطلاق تاريخه المرتب على الأنساب والمسمى كتاب «أنساب الأشراف»، والدارسون يعوّلون كثيراً على كتابه الآخر «فتوح البلدان» للاطلاع على التاريخ المبكر للفتوحات الإسلامية.

* * *

٣٨ - المالكي (- ٤٥٣ / ١٠٦١)

هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي المؤرّخ المعروف. من أهالي القيروان بافريقية (تونس الحديثة)، بقي فيها حتى بعد خرابها على يد العرب الهلالية سنة ٤٤٩ هجرية، وأشهر كتبه «رياض النفوس» في طبقات علماء القيروان وافريقية وما يليها من بلدانها ومراسيها وحصونها وسواحلها وعبادهم ونساكهم وفضائلهم وتاريخهم، وقد طبع منه جزء واحد.

* * *

٣٩ - المسعودي: (- ٣٤٦ / ٩٥٧)

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، من ذريّة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، المؤرخ الرحالة البحّاثة المشهور. من أهل بغداد، رحل في البلاد، ودوّن ملاحظاته عنها وأقام بمصر وبها كانت وفاته. كتبه كثيرة موزّعة بين موضوعات التاريخ والجغرافية والرحلات والحضارة والمذاهب والنحل وغيرها، وكان ينزع نزعة شيعية، ويميل إلى طريقة المعتزلة. أشهر كتبه كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وكتاب «أخبار الزمان. ومَنْ أباده الحدثان» وكلاهما في التاريخ، وكتاب «التنبيه والإشراف» في الجغرافية

والحضارة، ومن كتبه في المذاهب والنحل كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» و«المقالات في أصول الديانات» وغير ذلك.

* * *

٤٠ - ابن دِحْية الكلبيّ: (- ٦٣٣ / ١٢٣٥)

هو أبو الخطّاب عمر بن الحسن بن علي ابن دحية الكلبيّ، الأديب المؤرخ الحافظ الأندلسي المشهور. من أهل بلنسية، ولد سنة ٥٤٤ / ١١٥٠، وولي قضاء دانية، ورحل إلى مراكش والشام والعراق وخراسان واستقر بمصر. وكان كثير الوقيعة في العلماء والأئمة، فأعرض بعضهم عن الكلام معه، وكذبوه في انتسابه إلى دحية الكلبيّ، الصحابي المعروف، وقالوا إن دحية هذا لم يعقب. وكانت وفاته بالقاهرة. أشهر كتبه كتاب «المطرب من أشعار أهل المغرب» و «النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس».

* * *

٤١ - ابن بسّام: (- ٥٤٢ / ١١٤٧) وابن حيّان القرطبي: (- ٤٦٩ / ١٠٧٦)

هو أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني، الأديب الأندلسي والوزير الكاتب المشهور. نسبته إلى شنترين (Santarem) في غرب الأندلس، وهي اليوم من مدن البرتغال. أشهر كتبه كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، في ثمانية مجلدات كبيرة، تشتمل على ١٥٤ ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم ابن بسّام أو ممن تقدموه قليلاً، وهو يعتمد في كتابه هذا على ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير إذا شاء أن يشرح الأمور التاريخية؛ ولابن حيان كتاب «المقتبس» و «المتين» و «البطشة الكبرى»؛ ولم يصلنا منها إلا قطع يسيرة عدا تلك النقول التي احتفظ بها ابن بسام.

* * *

٤٢ - انظر التعليق على الرقم ٤.

٤٣ - العقّاد: (١٨٨٩-١٩٦٤)

عباس محمود العقّاد، كاتب ناقد مصري؛ ولد في مدينة أسوان من صعيد مصر، وبها درس، وجاء إلى القاهرة للمرة الأولى سنة ١٩٠٤ عندما عيِّن موظفاً فيها. وقد عمد إلى جانب عمله في الوظيفة أن يكتب المقالات الأدبية والنقدية والسياسية والتاريخية في الجرائد والمجلات المصرية، وكان من الميّالين إلى حزب الأغلبية وإلى سعد زغلول زعيمه، وكان يدافع عن القضية

المصرية وإرساء الحياة النيابية. وما لبث أن انتخب مرتين عضواً في مجلس النواب، وعُيِّن مرتين عضواً في مجلس الشيوخ، وكان عضواً فاعلاً في مجمع اللغة العربية بمصر، وعضواً في مجمَعَيْ دمشق وبغداد. ألَّف حوالي ٨٥ كتاباً في الفنون والآداب والعلوم والمعارف الإنسانية، أشهرها «العبقريات» (عبقرية محمد، وعبقرية عمر، وعبقرية خالد، وعبقرية علي، وعبقرية الصِدِّيق)، وله غير ديوان شعر منها «ديوان الأربعين». ومن كتبه المشهورة أيضاً: «مراجعات في الأدب والفنون» و «ساعات بين الكتب» و «ابن الرومي» و «المرأة في القرآن». كان العقّاد طويل القامة أجشّ الصوت عنيداً، معتزّاً بنفسه وكرامته، وقد خاض العديد من المعارك الصحفية مع غير واحد من كبار الأدباء والشعراء بمصر في أيامه من أمثال شوقي ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين.

* * *

٤٤ - قسطنطين زريق: (١٩٠٩-   )

من كبار مفكِّري العرب المعاصرين؛ ولد في دمشق، ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت، ومنها نال شهادة البكالوريوس في الآداب، واتمّ دراسته في أميركا، في جامعة شيكاغو ثم في جامعة برنستن، وتخرَّج من الأخيرة بدرجة دكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٣٠. شغل العديد من المناصب الكبيرة الدبلوماسية والجامعية، فكان المستشار الأول للمفوضية السورية في واشنطن (١٩٤٥-١٩٤٦) ووزير سورية المفوض في واشنطن وعضو وفدها إلى الأمم المتحدة ونائب مندوبها إلى مجلس الامن الدولي (١٩٤٦-١٩٤٧)، واحتل الأستاذية في قسم التاريخ بالجامعة الأميركية منذ سنة ١٩٣٠ وحتى سنة ١٩٧٦، كما كان نائب رئيس الجامعة نفسها ورئيسها بالوكالة بين سنتي ١٩٥٢-١٩٥٧، وكان قبل ذلك رئيساً للجامعة السورية (١٩٤٩-١٩٥٢) وهو عضو في العديد من الجمعيات واللجان العلمية والثقافية في عدد من الدول العربية ومنظمة اليونسكو وبعض الدول الأجنبية، ويحمل ثلاثة أوسمة من لبنان وسورية. من أشهر كتبه الفكرية: «الوعي القومي» (١٩٣٩)، «معنى النكبة» (١٩٤٨)، «نحن والتاريخ» (١٩٥٩)، «في معركة الحضارة» (١٩٦٤)، «نحن والمستقبل» (١٩٧٧)، وبعض هذه الكتب ترجم إلى الإنجليزية، كما أنه حقّق عدداً من الكتب التراثية مثل كتاب «تهذيب الأخلاق» لمسكويه و «تاريخ ابن الفرات»، وكتب العديد من المقالات في المجلات والجرائد العربية.

ويُعد زريق من أول من رسموا طريق القومية العربية، إلى جانب تعمُّقه في فلسفة التاريخ والمناهج التاريخية.

* * *

٤٥ - الفارابي (- ٣٣٩ / ٩٥٠)

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابي، أحد أكبر فلاسفة المسلمين، ويعرف بالمعلّم الثاني. ولد سنة ٨٧٤/٢٦٠ بفاراب على نهر جيحون، وانتقل إلى بغداد، فنشأ بها، وفيها ألّف أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام واتصل بسيف الدولة الحمداني بحلب، وكانت وفاته بدمشق. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره، وكان موسيقياً أيضاً، ويقال إن الآلة المعروفة بالقانون من وضعه. وقد عرف بالمعلّم الثاني لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلّم الأول). وكان زاهداً في أمور الحياة وزخرفها، لا يحفل بأمر مسكن او مكسب ويميل إلى الانفراد بنفسه. له ما يقارب المائة كتاب، من أشهرها كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة»، وكتاب «المدخل إلى صناعة الموسيقى»، وكتاب «الحروف». ومعظم كتبه ما يزال مخطوطاً.

* * *

٤٦ - انظر التعليق على رقم ٢٢.

* * *

٤٧ - ابن النفيس: (- ٦٨٧ / ١٢٨٨)

هو علاء الدين علي بن أبي الحزم (أو أبي الحرم) القرشي الملقب بابن النفيس، أحد الأطباء المشهورين في عصره. أصله من بلدة قرش في ما وراء النهر، ومولده بدمشق ووفاته بمصر. كانت طريقته في التأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته، وقلّ أن يراجع أو ينقل. وخلّف مالاً كثيراً، ووقف كتبه وأملاكه على البيمارستان المنصوري. له كتب كثيرة، منها كتاب «الموجز في الطب» اختصر به كتاب «القانون» لابن سينا، وكتاب «بغية الطالبين وحجة المتطببين» وكتاب «الشامل في الطب» وهو كبير جداً وما زال مخطوطاً.

* * *

٤٨ - انظر التعليق على الرقم ١٠.

* * *

٤٩ - انظر التعليق على الرقم ٢٦.

* * *

٥٠ - انظر التعليق على الرقم ٢٨.

* * *

٥١ - فؤاد صروف: (١٨٩٨ -)

أديب عالم لبناني معاصر؛ ولد في الحدث قرب بيروت سنة ١٨٩٨ وعمل محرراً لمجلة «المقتطف» القاهرية بين سنتي ١٩٢٧ و ١٩٤٤ ومحرراً لمجلة «المختار» بين سنتي ١٩٤٣ و ١٩٤٧ ومحرراً لمجلة «الأبحاث» (الجامعة الأميركية في بيروت) بين سنتي ١٩٥٩ و ١٩٦٦؛ وكان نائب رئيس الجامعة الأميركية سنة ١٩٥٢. كتب كتباً عديدة وترجم عن الإنجليزية عدداً آخر من الكتب، كما كتب مقالات في مختلف الموضوعات العلمية والفكرية والأدبية والتربوية في مجلات «المقتطف» و «الأبحاث» و «العلوم». أول كتبه «نبضات الفؤاد» (١٩٢١)، ومن أشهر كتبه العلمية «طبقات الأرض» (١٩٣٢) و «أساطين العلم الحديث» (١٩٣٥-١٩٣٦) و «الإنسان والكون» (١٩٦١) و «العلم الحديث في المجتمع الحديث» (١٩٦٦). ومن كتبه المترجمة عن الإنجليزية «جبروت العقل» لجلبرت هايت (١٩٥٦) و «رؤى العقل» لرينيه ديو (١٩٦٢).

* * *

٥٢ - أحمد زكي: (١٨٩٤ - ١٩٧٥)

عالم كاتب مصري؛ ولد بالسويس، وانتقلت الأسرة إلى القاهرة نحو عام ١٩٠٠، فدرس بها، واشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية بين سنتي ١٩١٤ و ١٩١٨، ثم ذهب إلى انجلترة فقضى فيها عشر سنوات نال خلالها شهادة الدكتوراه الفلسفية من جامعة ليفربول والدكتوراه العلمية من جامعة لندن. بعد ذلك عاد إلى القاهرة، ودرّس الكيمياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة ثم أصبح عميداً لها. وفي عام ١٩٤٥ اختير احمد زكي مديراً لمجلس فؤاد الأول للبحوث العلمية، وهي المؤسسة التي أصبح اسمها فيما بعد: المركز القومي للبحوث العلمية. وقد عيّن من بعد وزيراً ثم مديراً لجامعة القاهرة على أثر قيام الثورة المصرية (عام ١٩٥٣)، وبعد التقاعد ذهب إلى الكويت ورأس هناك تحرير مجلة «العربي»، وظل في هذا المنصب حتى وفاته سنة ١٩٧٥. للدكتور زكي عدد كبير من الأبحاث العلمية في المجلات العلمية

الأوروبية، وعدد آخر كبير من المقالات العلمية والفكرية في المجلات العربية، وقد ألّف وترجم كتباً عديدة؛ فمن كتبه المؤلفة «في سبيل موسوعة علمية» (طبعت بعد وفاته سنة ١٩٧٧)، و «مع الله في السماء» (دون تاريخ)؛ ومن كتبه المترجمة «حيوانات نعرفها» لبرتا موريس (دون تاريخ)، و «في أعماق المحيطات،» لكلارك أوجيني (دون تاريخ)، و «مواقف حاسمة في تاريخ العلم» لجيمس بريانت كونانت (١٩٥٤).

* * *

٥٣ - انظر التعليق على الرقم ٤٥.

* * *

٥٤ - ابن طفيل: (٤٩٤-٥٨١ / ١١٠٠-١١٨٥)

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، الفيلسوف والطبيب المشهور. ولد في مدينة وادي آش (Guadix) في جنوب الأندلس، ودرس الطب بغرناطة، وخدم واليها، ثم أصبح طبيباً للسلطان أبي يعقوب يوسف، خليفة الموحِّدين، منذ سنة ٥٥٨، فكانت إقامته في مدينة مراكش، عاصمة الموحِّدين، وبها بقي حتى وفاته، وحضر السلطان جنازته. وهو صاحب القصة الفلسفية المعروفة «حي بن يقظان» وله رسالة في النفس ورسائل أخرى لم تصلنا، وله شعر جيِّد وردت نماذج منه في كتاب «المعجب» للمراكشي. وكانت بينه وبين مواطنه الفيلسوف الأندلسي أبي الوليد ابن رشد مراجعات ومباحث في رسم الدواء جمعها ابن رشد في كتاب.

* * *

٥٥ - ابن رشد: (- ٥٩٥ / ١١٩٨)

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي، الفيلسوف المشهور المعروف بالحفيد. أصله من قرطبة، ونشأ بإشبيلية، وبها تولّى القضاء، إلى أن استقدمه المنصور الموحدي إلى مراكش، عاصمة دولة الموحدين التي كانت تبسط سلطانها على المغرب والأندلس، فعرف قدره وأجله وقدّمه، وطلب إليه أن يشرح كتب أرسطو ففعل. وقد شنع عليه خصومه لاشتغاله بالفلسفة،

وأوغروا عليه صدر المنصور، فنفاه وأحرق بعض كتبه، لكنه ما لبث أن رضي عنه، إلا أن منيته عاجلته، فتوفي في مراكش، ومنها نقلت جثته إلى قرطبة. كان ابن رشد عَلَماً يشار إليه لا في الفلسفة وحسب وإنما أيضاً في الفقه (على المذهب المالكي) وفي الطب أيضاً، وقد ردَّ على الغزالي إذ هاجم الفلسفة، فكتب كتابه «تهافت التهافت». وأشهر كتبه في الفقه كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، وشهرته تقوم لدى الغربيين بشكل خاص على شروحه لكتب أرسطو. وقد بقيت فلسفته معتمدة في أوروبا تحت اسم (Averroism) أو الرشدية طوال عصر النهضة.

* * *

٥٦ - زكي نجيب محمود:

مفكِّر فيلسوف مصري معاصر، عمل أستاذاً للفلسفة في القاهرة. ألَّف وترجم عدداً من الكتب في الفلسفة والحضارة. ومن ترجماته كتاب «قصة الحضارة» لوليم جيمس دورانت (في أربعة أجزاء) (١٩٤٩-١٩٥٣).

* * *

٥٧ - فؤاد زكريا:

مفكِّر مصري معاصر تخصَّص في الفلسفة، ودرَّسها. ألَّف وترجم عدداً من الكتب الفلسفية. فمن مؤلفاته «اسبينوزا» (١٩٦٢)، «دراسة جمهورية أفلاطون» (١٩٦٧)؛ ومن مترجماته «جمهورية أفلاطون» (١٩٦٨) و «الفلسفة وأنواعها ومشكلاتها» لهنتر ميد (١٩٦٩) و «التساعية الرابعة لأفلوطين في النفس» (١٩٧٠) و «الفن والمجتمع عبر التاريخ» لأرنولد هاوز (١٩٦٧-١٩٧١).

* * *

٥٨ - ابن عبد المنعم الحميري: (- ٧٢٧ / ١٣٢٦)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الصنهاجي، من أهل مدينة سبتة في شمال غرب المغرب الأقصى. كان متضلعاً في علوم الحديث واللغة والنحو، مضيفاً إلى ذلك اطلاعاً على العلوم العقلية ومهارة خارقة في الشطرنج، وقد اعتبره معاصروه «أوحد زمانه وإمام عصره» في علوم القراءة والحفظ. وقد ذهب إلى غرناطة بالأندلس مع وفد أهل سبتة عندما صار الملك

بها لبني نصر. ولم يصلنا من مؤلفات ابن عبد المنعم غير معجمه الجغرافي الضخم «الروض المعطار». والقطعة المنقولة هنا عن الروض المعطار قد وردت في غير مصدر قديم، منها كتاب عرائس المجالس للثعلبي في قصص الأنبياء.

* * *

٥٩ - انظر التعليق على الرقم ٢.

* * *

٦٠ - ألف ليلة وليلة:

مجموعة منوَّعة من القصص الشعبي العربي، مكتوبة بلغة بين الفصحى والعاميَّة يتخلَّلها شعر مصنوع، وتقع في نحو ١٤٢٠ مقطوعة. طبعت منذ القرن التاسع عشر عدة مرات وقد شغل المستشرقون بالبحث عن أصلها فوجدوا ابن النديم يذكر في كتاب «الفهرست» انها مترجمة عن أصل فارسي اسمه «هزار افسانه» أي الألف خرافة. ووصف هذا الكتاب ينطبق من حيث المقدمة والطريقة العامة على ما بين أيدينا من كتاب ألف ليلة وليلة، وأسماره حدَّثت بها شهرزاد الملكَ شهريار في مدة ألف ليلة وليلة، وفيه دون المائتي سمر. ويبدو أن الكتاب الذي وصلنا هو ما تراكم عبر العصور من الأدب الشعبي على هذا الأصل، كل عصر يضيف إلى الأصل قصصاً جديدةً، إما للتسلية وإما للعبرة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عدة، وشاع في أوروبا منذ أن ترجمه بتصرُّف كبير الكاتب الفرنسي أنطوان جالان في القرن الثامن عشر، وظهرت منه ترجمات مصوَّرة فاخرة. وقد قلَّدت الليالي بأشكال كثيرة، واستعملت في تأليف القصص (وبخاصة للأطفال) والمسرحيات، وكانت مصدر إلهام لبعض الرسَّامين والموسيقيين.

* * *

٦١ - انظر التعليق على الرقم ٥.

* * *

٦٢ - انظر التعليق على الرقم ٧.

* * *

٦٣ - الطيِّب صالح:

أديب سوداني من كبار كتّاب القصة العرب المعاصرين. ولد في إحدى قرى مركز مروي بالمديرية الشمالية في السودان، لوالدين ريفيين متوسطي الحال، ونشأ نشأة ريفية، وكان والده شيخاً ديِّناً وقوراً يحب أولياء الله الصالحين وشيوخ الصوفية، ويزور ضريح وليّ اسمه «الطيب» في قريته، وإنما سمّى ابنه «الطيِّب» تيمناً باسم ذلك الوليّ. تلقى الطيّب صالح تعليمه الابتدائي والمتوسط في قريته، فقرأ القرآن وتعلّم بعض العلوم الأولية، ثم انتقل إلى ثانوية وادي سيدنا شمالي أم درمان، ونجح في الشهادة الثانوية بتفوّق أهّله لدخول كلية العلوم بجامعة الخرطوم. غير أنه لم يكن ميّالاً للعلوم، فقضى في الكلية سنتين ثم تركها وحاول أن يختار طريقاً أخرى في الحياة تقرِّبه من الحقل الذي يحبه - أي الأدب - وتضمن له الرزق، فاختار مهنة التعليم أول الأمر، ثم التحق بالإذاعة البريطانية، واستقر به المقام في لندن، إلى أن انتقل في أواسط السبعينات إلى قطر، واحتل في وزارة الإعلام بها منصباً كبيراً. كانت حياة الطيِّب صالح في بيئته الريفية الشمالية وفي أم درمان والخرطوم ولندن مَعيناً غزيراً ينهل منه في قصصه، واستأثرت ذكريات طفولته وصباه في قريته بالجانب الأكبر من قصصه، وإن كان قد أفاد أيضاً من قراءاته المتنوعة في الأدب الإنجليزي. أشهر قصصه «موسم الهجرة إلى الشمال» و «عرس الزين» و «دومة ودّ حامد»، ومن أواخر ما كتبه قصة «ضوّ البيت» بقسميها - حتى الآن: مريود و بندرشاه .

* * *

٦٤ - حازم القرطاجني: (- ٦٨٤ / ١٢٨٥)

هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجني، نسبة إلى قرطاجنة من أعمال مرسية بشرق الأندلس. ولد سنة ٦٠٨ / ١٢١١، وانتقل إلى افريقية فاشتهر بها وعمِّر، وتوفي بتونس. من كتبه «سراج البلغاء» في النقد وله كتاب في القوافي.

* * *

٦٥ - انظر التعليق على الرقم ٢٤.

٦٦ - انظر التعليق على الرقم ٤٣.

* * *

٦٧ - انظر التعليق على الرقم ٦.

* * *

٦٨ - عمر فاخوري: (١٨٩٥-١٩٤٦)

أديب لبناني، ولد في بيروت في حيّ زقاق البلاط، وكان والده عبد الرحمن فاخوري عطّاراً في سوق أيّاس. درس أول الأمر في مدرسة المعلّم عيسى ثم في الكلية العثمانية لمؤسسها الشيخ أحمد عباس الأزهري، وفي هذه الكلية ظهرت بواكير وعيه الأدبي السياسي، فكان ينشر المقالات في مجلتي الزهرة والتلميذ المدرسيَّتين. وفي عام ١٩١٣ نشر كتيِّباً بعنوان «كيف ينهض العرب»، فأثار ضجةً كبيرة، فأمر الوالي باعتقاله، غير أنه عاد فعفا عنه لصغر سنه ولشفاعة الأصدقاء له. وفي السنة نفسها دخل مكتباً للحقوق، وفي السنة التالية التحق بالجامعة الأميركية في بيروت، ثم تركها في السنة التالية ليمارس التعليم وينتسب إلى حزب الاستقلال وإلى الجمعية العربية الفتاة، وفي سنة ١٩١٦ دعاه فيصل ملك سورية إلى دمشق ليشارك في تحرير جريدة «العاصمة». وعلى أثر الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٠، سافر عمر فاخوري إلى فرنسا، وقضى فيها أربع سنوات يدرس الحقوق ويشارك في تأسيس الجمعية العربية السورية ويشتغل في أمور الأدب والفكر والسياسة. وبعد أن عاد إلى لبنان سنة ١٩٢٤ عمل في صحف «الفيحاء» و «الميزان»، وفي سنة ١٩٢٧ انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق. وبعدها تعيَّن أميناً للسجل العقاري ثم مفتشاً في الدوائر العقارية، ومنذ ١٩٣٣ أخذ يعمل في مجلة المكشوف، ونشر كتاباً سمّاه «الباب المرصود» جمع فيه مختارات مما كتبه من الفصول والمقالات. وفي سنة ١٩٤١ انضمَّ إلى عصبة مكافحة النازية والفاشية، وأسس مجلتها «الطريق» وانتخب رئيساً لجمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي في لبنان. وتوفي على أثر مرض شديد سنة ١٩٤٦. من كتبه: «لا هوادة» (١٩٤٢) و «أديب في السوق» (١٩٤٢).

* * *

٦٩ - انظر التعليق على المقدمة.

* * *

٧٠ – انظر التعليق على الرقم ١٤.
٧١ – انظر التعليق على الرقم ٣.
٧٢ – انظر التعليق على الرقم ٥.

٧٣ – مارون عبّود: (١٨٨٦-١٩٦٢)

أديب لبناني، ولد في قرية عين كفاع (قضاء جبيل)، وبها قضى طفولته، وتعلم في مدرستها – مدرسة تحت السنديانة – مدة ست سنوات، وبعد ذلك تنقّل في مدارس قرى أخرى، إلى أن دخل مدرسة الحكمة في سنة ١٩٠٤ وبقي فيها حتى سنة ١٩٠٦. بعد ذلك التحق مدرِّساً بمدرسة الفرير ثم بكلية القدّيس يوسف اليسوعية، وكان في هذه الأثناء قد بدأ يعمل في الصحافة، ويصدر جريدة «الروضة الأسبوعية». وفي سنة ١٩٠٨ ترك التدريس في الكلية اليسوعية، وقضى ثماني سنوات (بين ١٩١٤ و ١٩٢٢) بعيداً عن التدريس والصحافة، مولعاً بالزراعة. غير أنه ما لبث أن عاد إلى التدريس، وظلَّت هذه مهنته حتى أقعده المرض في أوائل عام ١٩٦٠، فاعتزلها مكرهاً. لمارون عبود مؤلفات عديدة في القصة والنقد والمسرح، فمن مؤلفاته النقدية المعروفة كتاب «على المحكّ»، وكتاب «دمقس وأرجوان»، وكتاب «على الطائر»، وكتاب «نقدات عابر». ومن مؤلفاته القصصية «أقزام وجبابرة»، و «وجوه وحكايات» و «أحاديث القرية». ومن مؤلفاته المسرحية «أشباح القرن الثامن عشر»؛ ولعل الميدان الذي تميَّز فيه مارون عبود هو النقد الساخر الانطباعي، في أسلوب وثيق الصلة باللغة الدارجة المحلّية.

* * *

٧٤ – رفيقة الطبيعة:

أديبة مغربية معاصرة اسمها الحقيقي زينب فهمي، واسمها الأدبي رفيقة الطبيعة، كتبت الرواية والقصة القصيرة. من مؤلفاتها «رجل وامرأة» (ط. الدار البيضاء).

* * *

فهـرست المحتويـات

(٣) مواقف من الحب

(٤) مواقف من الموت

II - التجربة الجماعية:

(١) الوضع الإنساني والاجتماعي

(٢) البعد التاريخي

(٣) نماذج الكمال

III - آفاق المعرفة:

(١) أفق الطبيعة

(٢) أفق العقل

(٣) أفق الروح

(٤) أفق الفن

(٥) سياق التعلّم